العددان 4-5

عصور

مجلة فصلية محكمة يصدرها مخبر البحث التاريخي
مصادر وتراجم

السنة الثالثة - ع 4-5 ديسمبر 2003 - جوان 2004 م / 1424-1425هـ

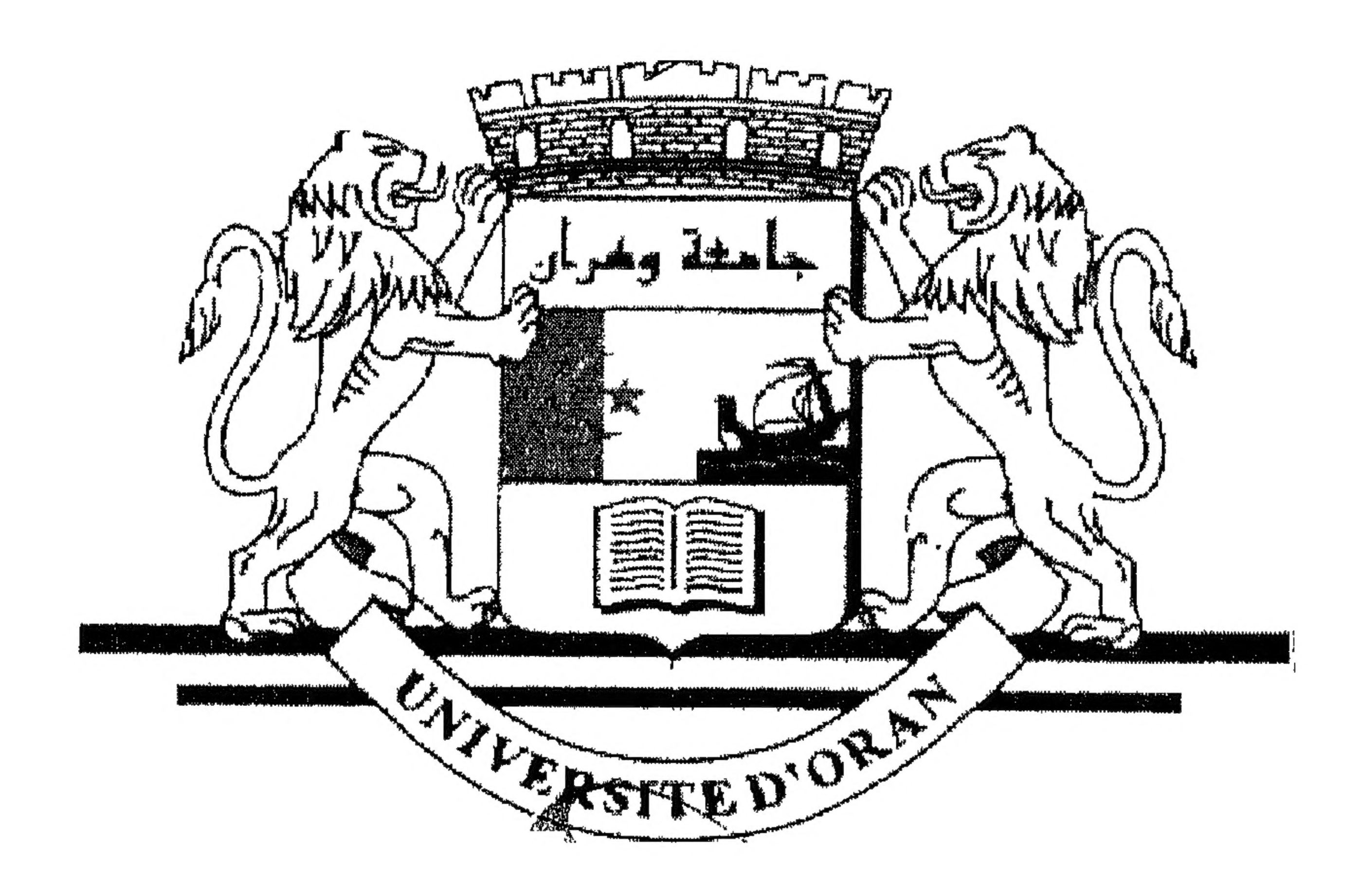




ردمد ISSN 1112-4237

مجلة فصلية محكمة يصدرها مخبر البحث التاريخي

"مصادر وتراجم"



عدد - 4 / 5

2003-2004م/1425هـ

ردمد ISSN 1112-4237

الإيداع القانوني: Depot Légal 868-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَتلك الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ واللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ"

صدق الله العظيم

سورة آل عمران– الآية 140.

شروط النشر بالمجلة

ترحب المجلة بمشاركة الباحثين المتخصصين، وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المستوفية للشروط الأكاديمية التالية:

1- أن يكون البحث مبتكرا أصيلا، ولم يسبق نشره.

2- أن يتبع الباحث الأصول العلمية المتعارف عليها، وبخاصة فيما يتعلق بتوثيق المصادر، مع إلحاق كشف المصادر والمراجع في آخر البحث.

3- تقدم الأعمال في قرص مرن، مرفوقة بنسخة مطبوعة على وجه واحد.

4- يتراوح البحث ما بين 10 إلى 15 صفحة مكتوبة بخط **Traditional Arabic** مقاس 14 وتباعد 1، وتكتب الهوامش بطريقة عادية، وبمقاس12 وتباعد فردي.

5- تخضع كل البحوث المقدمة للنشر في المجلة للتحكيم العلمي.

6- لا ترد الدراسات والبحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

7- الدراسات والبحوث المنشورة في المجلة لا تعبر إلا عن رأي أصحابها.

عنوان المراسلة: ترسل البحوث والدراسات باسم:

أ.د.بوعلام بلقاسمي

مخبر مصادر وتراجم – قسم التاريخ وعلم الآثار

جامعة وهران–السانية – الجمهورية الجزائرية

هاتف/فاكس: 213- (0) 41-353306

213- (0) 41-419184

البريد الإلكتروني: oussour2002@yahoo.fr

فهرس الموضوعات

المقـــالات
باللغـــة العـــربية

فقهاء منطقة شلف خلال العهد العثماني: عبد الرحمن المجاجي نموذجا.

أ./ عبد القادر أوقاسي

مقدمة: عرفت الجزائر بعد الفتح الإسلامي وعبر مختلف مراحل تاريخها شخصيات علمية فذة تجاوزت شهرتها حدود الوطن، وتركت آثارا فكرية في مختلف المجالات، مازالت إلى اليوم تملأ المكتبات عبر مختلف مناطق العالم، وعلى سبيل المثال لا الحصر ابن رشيق المسيلي صاحب كتاب "العمدة في صناعة الشعر ونقده" الذي يعتبر مصدرا مهما في الأدب، وإبراهيم بن أبي بكر التلمساني صاحب المنظومة المشهورة في الفرائض وأبي العباس أحمد الغبريني صاحب عنوان "الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة في بجاية"، ومحمد بن يوسف السنوسي صاحب العقائد المشهورة التي لا تكاد تخلو أية مكتبة من نسخ مخطوطاتها، أو أحمد بن يحي الونشريسي صاحب "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب"، وخلال العهد العثماني بالجزائر لمعت أيضا أسماء بعض العلماء كأحمد بن محمد المقري صاحب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" الموسوعة المشهورة في الأدب، وسعيد قدورة مفتي المالكية في الجزائر والذي درس في زاوية مجاجة، ومحمد بن أحمد أبي راس الناصري المعسكري صاحب التآليف الكثيرة في مختلف الفنون، أو عبد الرحمن بن عبد القادر المجاجي الذي لا تشير مصادر ترجمته إليه إلا مقرونا بعبارة "صاحب المغارسة"، وهذا دليل على أن اسمه ارتبط بهذا الكتاب الهام في موضوع فقه المعاملات على المذهب المالكي.[1]

* ترجمة عبد الرحمن بن عبد القادر المجاجي: بالرجوع إلى مختلف المصادر والمراجع التي ترجمت للمجاجي نلاحظ أن مـــا توفره من معلومات لا يفي بالغرض، فهي عبارة عن شذرات لا تتعدى نسبته إلى مجاجة قرب مدينة شلف غرب الجزائر العاصمة.

---

*- أستاذ بقسم علم المكتبات - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة الجزائر.

ولم نجد فيما رجعنا إليه إشارة إلى تاريخ ميلاده، كما أن الكثير من المترجمين وقعوا في خلط بينه وبين عبد الرحمن الفاسي، مثل بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي ج2، ص 460؛ حيث قال عنه إنه ولد سنة 1040هـ/1630م وتوفي سنة 1096هـ/1685م، وكذلك الأمر بالنسبة لابن شنب لما ترجم النص الذي شرحه المجاجي في كتابه ونشره عام 1895 – أنظر المراجع.

وفي رأينا أن هذا الخلط يعود في الأساس إلى كون المؤلف تعلم أول الأمر بمجاجة على يد محمد بن علي آبهلول وأخيه أبي علي ثم سافر إلى تلمسان وتتلمذ على يد شيوخها، وبعدها انتقل إلى فاس ولا ندري إن عاد منها أو توفي فيها.

كما يذكر أبو راس الناصري في كتابه[2]– عجائب الأسفار ولطائف الأخبار– على الورقة 137 ظ و138و العبارات التالية: ".... داخل الفقيه الأعظم الأكرم سيدي أحمد بن القاضي أحد أباء صاحب المغارسة – وهو مترجمنا– ملوك الزيانيين بتلمسان في شأنه وأشار إليهم بحربه ومناجزته، وكان هذا العالم من أهل بجاية، وقد ذكره صاحب الدرر المكنونة في نوازل مازونة في نوازل النكاح وما يتعلق به، وبنوه وإخوته وقومه هم الذين آووا الشيخ علي آبهلول الوطاسي وأخذوا عنه العلم الظاهر والباطن ووقفوا عليه الأوقاف، وبعد موته رضي الله عنه خلفه ابنه محمد بن علي والشيخ أبو علي، فكان الشيخ عبد الرحمن صاحب المغارسة أحد تلامذتهما نفعنا بهم أجمعين....."

نفهم من هذا الكلام أن المجاجي تعود أصوله إلى منطقة القبائل، وقد جاءت عائلته إلى منطقة مجاجة بعد سقوط مدينة جيجل بيد خير الدين بربروس، وهو أحد أحفاد أحمد بن القاضي شيخ إمارة كوكو من منطقة بجاية وأحد تلامذة ابني الشيخ علي آبهلول المجاجي – الوطاسي كما ذكر أبو راس–

ورغم هذه المعلومات القليلة عن حياة المجاجي إلا أن شهرته بكتاب المغارسة جعلت ذكره يتعدى المصدر الواحد، وارتباط ذلك بذكر كتابه – التيسير والتسهيل في ذكر ما أغفله الشيخ خليل من أحكام المغارسة والتوليج والتصيير– حيث لا يذكر اسمه إلا مقرونا بعبارة – صاحب المغارسة كما أشرنا إليه سابقا–

كما أن له مؤلفا آخر في الحديث بعنوان – فتح الباري في ضبط ألفاظ الأحاديث التي اختصرها العارف بالله ابن أبي جمرة من صحيح البخاري– وكان دافعه إلى هذا التأليف الغيرة على قراءة الحديث حتى لا تقع فيه أخطاء، كما أن شيخه محمد بن علي فكر في عمل من هذا القبيل ولم يسعف لذلك فقام هو به.

ويذكر أبو القاسم سعد الله في كتابه – تاريخ الجزائر الثقافي– أن نسخا مخطوطة منه توجد بالخزانة العامة بالرباط تحت أرقام ك **1775** في **300** ورقة وك **1965** غير كاملة، وأيضا بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم **5714** [3]، ولم نطلع على وصفها لعدم توفر فهارسها.

- كتاب المغارسة للمجاجي ونسخه المخطوطة عبر مكتبات العالم:

إن اختيارنا للحديث عن كتاب المغارسة ونسخه عبر مكتبات العالم مرده توفر مصلحة المخطوطات والمؤلفات النادرة بالمكتبة الوطنية الجزائرية على نسخ من الفهارس التي بها وصف لهذا المخطوط، إضافة إلى شهرة المجاجي بهذا الكتاب دون غيره.

ولتوضيح المعلومات المتعلقة بهذه النسخ سنقدمها على شكل جدول ليسهل الأمر على القارئ.

البلد	اسم المكتبة	الرقم داخل المكتبة	تاريخ النسخ	بعض عناصر الوصف المادي	الملاحظات
الجزائر	المكتبة الوطنية الجزائرية	1/1307 – من الورقة 1ظ – 61 ظ	القرن 12 هجري	ورق به آثار أرضة ورطوبة وترميم وهو كامل، وقد كتب بخط مغربي في 61 ورقة	أنظر رسالتنا للماجستير المذكورة ضمن المراجع ص 402 –407
الجزائر	المكتبة الوطنية الجزائرية	1/1308 من الورقة 1ظ – 62	ضحوة الأربعاء 15 ذي القعدة 1233 هـ	ورق به آثار أرضة ورطوبة وترميم وهو كامل، وقد كتب بخط مغربي في 62 ورقة	أنظر رسالتنا للماجستير المذكورة ضمن المراجع ص 402 –407
الجزائر	المكتبة الوطنية الجزائرية	1309	شهر ذي القعدة 1248 هـ	ورق به آثار أرضة ورطوبة وهو كامل، وقد كتب بخط مغربي في 44 ورقة	نسخ بمازونة
الجزائر	المكتبة الوطنية الجزائرية	1310	18 محرم 1188هـ	ورق به آثار أرضة ورطوبة وترميم وهو كامل، وقد كتب بخط مغربي في 49 ورقة	
الجزائر	المكتبة الوطنية الجزائرية	2612		ورق به آثار أرضة ورطوبة وهو مبتور الآخر، وقد كتب بخط مغربي في 15 ورقة	أنظر رسالة الماجستير لبونفيخة المذكورة ضمن المراجع ص 401–402
الجزائر	المكتبة الوطنية الجزائرية	2778	بعد صلاة الظهر يوم الجمعة 6 ذي القعدة 1181 هـ /1767م	ورق به آثار أرضة ورطوبة وهو كامل، وقد كتب بخط مغربي في 70 ورقة	أنظر رسالة الماجستير لبونفيخة المذكورة ضمن المراجع ص 403–404

تونس	دار الكتب الوطنية بتونس	3/4780		كتب بخط مغربي ويضم المجموع 252 ورقة	كتاب المغارسة هو الثالث ضمن المجموع وقد ورد الكتاب الثاني قبله تحت عنوان – مسائل المغارسة لعبد الرحمن الجزائري
ليبيا	مكتبة جامعة قاريونس . المركزية ببنغاري	3/335 من الورقة 146-194	1142 هـ	كتب بخط مغربي عادي في 49 ورقة	ينسب المخطوط إلى عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي
المغرب الأقصى	دار الكتب الناصرية بتمكروت	524/ب		كتب بخط مغربي واضح	
المغرب الأقصى	دار الكتب الناصرية بتمكروت	1868/ب		كتب بخط معربي	
المغرب الأقصى	المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان	1/459، 606، 607، 619، 870 –ضمن مجموع–			
المغرب الأقصى	خزانة القرويين بفاس	3/1514 – من الورقة 152 ظ– 153و		غير كامل وهو عبارة عن ورقتين فقط	

ومن خلال قراءتنا لهذا الجدول يمكن الخروج بالملاحظات التالية:

1- أن انتشار مخطوط –المغارسة للمجاجي– انحصر في بلدان المغرب العربي[4] فقط: ليبيا، تونس، الجزائر والمغرب الأقصى، وهذا مرده حسب رأينا إلى أن المؤلف اعتمد على مختصر خليل في الفقه المالكي الكثير الانتشار في المغرب العربي، وبالتالي فإنه يعتبر مرجعا في موضوعه باعتباره اهتم بالمسائل المغفلة في موضوع المغارسة من طرف خليل كما يشير إلى ذلك العنوان.

2- نلاحظ أن كل النسخ المذكورة كتبت بخط مغربي وهذا يدل على أنها نسخت في الإطار الجغرافي لدول المغرب العربي باعتباره الخط المتداول في المنطقة.

3- أن أكبر عدد من النسخ وجد بالمغرب الأقصى وفي أكثر من مكتبة – 04 مكتبات- ب 13 نسخة، مع العلم أن بعضها غير كامل، ونحن نرد ذلك بأن المؤلف قد درس بالمغرب ووقع الكثير من المترجمين في عدم التفريق بينه وبين عبد الرحمن الفاسي كما أشرنا إليه سابقا.

4- إن أقدم النسخ المؤرخة والمتوفرة لدينا هي نسخة مكتبة جامعة قاريونس المركزية ببنغازي وتعود إلى تاريخ 1142 هـ..

5- حظي هذا المخطوط بالطبع مرتين في مدينة فاس بمطبعتها الحجرية أولها عام 1317 هـ والثانية عام 1332 هـ [5] كما ترجم بن شنب إلى الفرنسية النص الذي شرحه المجاجي في كتابه ونشره عام 1895 م،[6] كما حققه أحد طلبة كلية أصول الدين بجامعة الجزائر وناقشه لنيل شهادة الماجستير في الشريعة الإسلامية.

6- إن قراءة مقدمة الكتاب واعتمادا على المخطوط رقم 1/1307 بالمكتبة الوطنية الجزائرية، نجد فيها بعض المعلومات عن الأسباب التي دفعت بالمجاجي إلى إنجاز هذا الكتاب؛ حيث نجد على الورقة 1ظ: "..... لما كان باب المغارسة من جملة ما ينبغي للمؤلفين المختصرين أن يتعرضوا له ويذكروا أحكامه ومسائله وفصوله ولكنهم رحمهم الله لم يفعلوا، ولما ذكر لم يتعرضوا ولا ندري ما قصدهم بذلك، ولما أرادوه هنالك وأعني بمن أشير إليه الشيخ العالم القدوة الكامل أبو عمرو عثمان بن الحاجب والشيخ الفاضل خليل بن إسحاق رحمهما الله......"

ومن هنا نفهم أن إغفال الشيخ خليل وابن الحاجب هو ما دفعه إلى التأليف، ويتساءل عن سبب ذلك رغم أهمية الموضوع.

ونقرأ بعدها أيضا في مقطع آخر: "...وكان بعض شيوخنا أعلى الله مقامه ورفع في الدارين ذروته وسناه[7] كتب إلي أن أكتب له بعض مسائلهما وما يصح منها وما يترتب على فسادها فكتبت له في ذلك الوقت بعض ما حضر ثم طلب مني بعض إخواني من الطلبة ورغب إلي بعض أحبابنا من أهل النسبة أن أجمع في الباب مسائل جمة وأن أذكر في ذلك أحكاما مهمة ثم أتبعه بشيء من أحكام التصيير والتوليج لأن الشيخين المذكورين لم يذكراهما أيضا كما أشار

إليه بعض شراح المختصر، هذا مع علم من جهلي وقصوري وتعدي على طريق الحق بالكاية وتقصيري، لكن لما رأيت من تأكيد طلبتهم وحثيث رغبتهم أسعفتهم لما طلبوا وأجبتهم فيما رغبوا رجاء فيما عند الله من الثواب...."

ومنه نستنتج أن المجاجي قد كتب قبل أن يؤلف كتابه هذا بعض المسائل المتعلقة بالموضوع إجابة على طلب بعض شيوخه ثم جاءه طلب من بعض إخوانه من الطلبة – ولعله يقصد طلبة العلم وخاصة أن مجاجة كانت مشهورة بزاويتها– ورغب في ذلك بعض الأحباب من أهل النسبة ولعله يقصد بعض الأقرباء.

وبالرجوع إلى ما ذكرناه سابقا في ترجمته أن أهله هم من آووا الشيخ علي آبهلول ووقفوا عليه الوقف مما يدل أنه كانت لهم أملاك بالمنطقة، ونحن نعرف أن منطقة الشلف ككل هي منطقة زراعية، والحاجة إلى معرفة الأحكام الشرعية في هذا المجال من المعاملات ضروري لأهل المنطقة ولغيرها، وهنا يجرنا الحديث عن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في الجهة خلال العهد العثماني[8] حيث الزراعة هي أساسها.

كما نقرأ على وجه الورقة الثانية من نفس المخطوط: ".... ثم إني رأيت أن أذكر ما حضر لي في هذا الباب من جملة الأحكام التي اختطفتها من غير ما كتاب على طريق الشيخ خليل في مختصره في اصطلاحه ومحاذات عبارته ثم أتبعه إن شاء الله بذكر ما حضر أيضا كالشرح لتلك الألفاظ والبيان لما فيها من مقاصد وأغراض ولما لخصته وهذبته ودرجته وقربته ظهر لي أن أسميه بالتيسير والتسهيل في ذكر ما أغفله الشيخ خليل من أحكام المغارسة والتوليج والتصيير وإن شئت قلت في تسميته الصريح والتسريح في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج...."

ونفهم من هذا الكلام أن المجاجي اعتمد على أكثر من كتاب محاذيا عبارات الشيخ خليل واصطلاحه في مختصره ثم يتبعها بالشرح وهو ما نلخصه لما نقرأ حرف– ص– التي تعني النص، ثم حرف – ش– التي تعني الشرح.

كما أن المجاجي أعطى في مقدمته عنوانين لكتابه، ومن خلال تصفح المخطوط نجد به التقسيم التالي:

باب ندب الغرس– فصل في الإرفاق– فصل وإذ نحل والد الزوج ابنه أو والد الزوجة ابنته أو غيرهما نحلة....– فصل والتصيير جائز– فصل في ذكر ما كنا وعدنا به من فروع الإقرار– ملخص– الخاتمة.

وتتخلل الكتاب تنبيهات وتكميلات وتفريعات وأقسام وتتميمات.

الخاتمة: يتبن لنا مما سبق أن المجاجي ورغم ما يكتنف حياته من غموض لعدم توفر المعلومات الكافية عنه ضمن المصادر أو المراجع؛ حيث لا ندري بالضبط متى ولد أو توفي، إذ تجمع المصادر والمراجع التي توفرت لدينا أن وفاته كانت بعد عام **1096 هـ/1685م**، كما أن رحلته للتعليم بتلمسان لا تذكر إلا عرضا، فلا ندري على من أخذ، وكم مكث بها ونفس الشيء بالنسبة لرحلته إلى فاس؛ حيث لا ندري إن عاد منها أو بقي هناك، خاصة وأن هناك خلط بينه وبين عبد الرحمن الفاسي كما أشرنا إليه.

ورغم كل هذه النقائص يبقى عمله في المغارسة جدير بالاهتمام، خاصة وأنه طبع بفاس مرتين في مطبعتها الحجرية وكان موضوع بحث جامعي[9]، نتمنى أن يخرج إلى الوجود مطبوعا لتيسير الاستفادة منه لأكبر قدر من المهتمين بقضايا المعاملات الزراعية سواء من جوانبها الشرعية أو الاقتصادية.

الهوامش:

1- هذه الشخصيات المذكورة ترجمنا لها ضمن رسالتنا، مخطوطات المؤلفين الجزائريين...مع الإشارة إلى مخطوطاتها بالمكتبة الوطنية الجزائرية والمكتبات الأخرى.

2- أنظر مخطوطة المكتبة الوطنية الجزائرية رقم 1633

3- أنظر الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص 224- وسعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 29- وسركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج2، ص 1618- والزركلي، الأعلام، ج3، ص 310، Moussaoui Abderahmane، le Maghreb central: économie et société au XVII siècles، p 68

4- وهذا حسب ما توفر لدينا من فرع فهارس المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

5- أنظر عبد الرزاق: المطبوعات الحجرية في المغرب، ص 34.

6- أنظر: Ben Cheneb la Plantation à frais communs en droit malékite، p 162-171

7- في النسخة 1310 بالمكتبة الوطنية الجزائرية – سنمه-

8 – أنظر مقال Moussaoui المذكور سابقا.

9 – قام بتحقيق هذا المخطوط الطالب بوشمة خالد لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية من جامعة الجزائر بإشراف الدكتور نور الدين عباسي، ونوقشت الرسالة بتاريخ 31 ماي 2000م.

المراجع:

1- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ط.1، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1998، ج2، 453 ص.

2- فتيحة بونفيخة، الإنتاج الفكري المخطوط في المكتبة الوطنية الجزائرية: دراسة تحليلية للمخطوطات التي لم تشملها أدوات الضبط الببليوغرافي، رسالة ماجستير في علم المكتبات والتوثيق، جامعة الجزائر، 1999، 701ص.

3- عبد القادر أوقاسي، مخطوطات المؤلفين الجزائريين بالمكتبة الوطنية الجزائرية، فهرس فانيان: دراسة تحليلية، رسالة ماجستير، علم المكتبات والتوثيق، جامعة الجزائر، 1997، 592 ص

4- محمد المنوني، دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروث، الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1985، 211ص

5- فرج ميلاد لشمبش، فهرس مخطوطات مكتبة جامعة قاريونس المركزية بنغازي، 1983، ج2، 300ص

6- أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ط.2 بيروت: مؤسسة الرسالة، تونس: المكتبة العتيقة، 1985، ج.2، 624ص

7- يوسف إلياس سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة: مطبعة سركيس، 1928، ج.2

8- فوزي عبد الرزاق، المطبوعات الحجرية في المغرب، فهرس مع مقدمة تاريخية، الرباط: دار نشر المعرفة: 1989، 207ص

9- قائمة المخطوطات بالمكتبة العامة بتطوان من إعداد محافظ المكتبة – مرقون على الآلة الكاتبة- 1973، 114 ص.

10- ي.س.علوش، عبد الله الرجراجي، فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة برباط الفتح – المغرب الأقصى:– القسم الثاني -1921-1953- باريس: المكتبة الشرقية الأمريكية، 1954، ج.1، ص473

11- دار الكتب الوطنية، تونس، فهرس المخطوطات، تونس; الدار، 1980، ج.5، 262 ص

12- خير الدين الزركلي، الأعلام، ط.10، بيروت: دار العلم للملايين، 1992، ج.3، 355 ص.

13- Carl Brockelman، Geschichte der Arabischen littératur.- berlin، verlag، 1902، t2714، p

14- محمد أبو راس الناصري المعسكري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية رقم 1633، 164 ورقة –هذا المرجع تبدأ به القائمة–.

15- Mohammed Ben Cheneb la plantation à frais communs en droits malékite par Abderrahmane Ben Abdelkader de Fâs in: Revue algérienne et tunisienne de législation et de jurisprudence، t XI، 1895، p 162-171.

16- Abderrahmane Moussaoui le Maghreb central: économie et société en XVII siècles d'après un manuscrit de fig'h in Peuples méditerranéens، n° 47 avril-huin 1989، p.67-87

مخطوط. «أوثق عرى الإعتصام للأمراء والوزراء والحكام» عرض وتحليل

د.محمد فرقاني

مــقدمة: يكشف الباحثون من حين إلى آخر عن بعض المخطوطات لعلماء ودعاة مسلمين كان لهم دور بارز في رقي مجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء حيث ضربوا بسهم وافر في خدمة العلم وبذله لطالبيه، وبما أضافوا إلى الثقافة العربية الإسلامية من تآليف لتلبية الحاجات المتعددة والمتنوعة لمجتمعات هذه المنطقة. ومن هذه المخطوطات التي عثر عليها مؤخرا: « أوثق عرى الإعتصام للأمراء والوزراء والحكام »، الذي اكتشفه أحد طلبتي في أقصى الجنوب الجزائري، أحد سكان هذه المنطقة، وهو يعمل الآن على تحقيقه تحت إشرافنا، والذي نقدم عنه هذا العرض بالتعريف به وبما يحتوي عليه من معلومات قيمة، خاصة ما تعلق منها بأرض السودان، ونماذج من آراء المؤلف ومواقفه من الأوضاع العامة في هذه المنطقة، واتبعنا في ذلك الخطة التالية:

1ـ ا لتعريف بالكتاب ومكان العثور عليه والموضوع الذي يتناوله وما يتضمنه من معلومات إضافة إلى دوافع وأهداف كتابة المؤلف له ولمن كتبه.

2 ـ الكلام عن المصادر التي ا ستقى منها المؤلف معلوماته.

3 ـ التعريف بالمؤلف.

4 ـ عرض لنماذج من آراء المؤلف ومواقفه من الأوضاع العامة في إفريقيا جنوب الصحراء من خلال ما جاء في المخطوط.

* أستاذ محاضر بقسم الناريخ- جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة.

1 ـــ التعريف بالكتاب:

عثر الطالب ديهكال الطيب على هذا المخطوط في زاوية الشيخ باي بن عمر الكنتي، الكائن مقرها بدائرة إينغر التابعة لولاية تمنراست بأقصى الجنوب الجزائري.

مؤلفه: الشيخ محمد بن المختار الكنتي. وتاريخ تأليفه غير محدد، ولكن من المرجح أنه قد ألفه في حدود سنة **1813**م تاريخ بداية جهاد الوثنيين على يد أحمد بن محمد وجلاج بن محمد بديج، أو قبلها بقليل لأن والد المؤلف المتوفي سنة: **1811** لم يأذن له في الجهاد لاعتبارات سنشير إليها لاحقا.

أما عنوان المخطوط فهو:« أوثق عرى الإعتصام للأمراء والوزراء والحكام »، كما بينه المؤلف في مقدمة الكتاب.

يشتمل المخطوط على تسع وثمانين صفحة تحتوي كل صفحة على تسعة وعشرين سطرا قد تنقص بعض الصفحات بسطر وقد تزيد أخرى بسطر.

-خطه مغربي جميل واضح مقروء.

الموضوع الذي يتناوله هو ملخص في عنوانه، وهو: الأحكام السلطانية والولايات الشرعية أو بتعبير آخر:السياسة الشرعية.

أما دوافع كتابة المؤلف لهذا الكتاب فتعود لَمَّا عزم عليه أحمد لوبو- أحمد بن محمد- كما سماه المؤلف على جهاد الوثنيين سنة **1813**م [1] يساعده في ذلك جلاج بن محمد بديج يطلبان منه أن يكتب إ ليهما برسالة تكُون لهما مرجعا في عملهما اللذان ينويان القيام به، حيث أشار المؤلف إلى طلبهما هذا في المقدمة حيث يقول: «...وإنه من عبد ربه الغنيُّ به محمد بن المختار بن أحمد بن أبي بكر الكـــنتي ثم الوافي ـــ جبر الله كسره وقصر على ما يرضيه أمره ـــ إلى مُقيم أوَدُ السنة الأحمدية وفاتح سُدَد أخلاط الشريعة المحمدية ناصر الإسلام والمسلمين، وارث مقام الخلفاء الهداة الأكرمين أخينا في الله الحق الداعي إلى تحلية الحقيقة بالحق ا لشيخ أحمد بن محمد، نَضَّر الله أيامه ونصر أعلامه.

..بعد حمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، وبالإعلام أنه بلغني مكتوبك العزيز البليغ... تنهي إلي فيه بعد السلام البالغ إلى الغاية والمنتهى إلى مناهي النهاية ما من الله به على أخينا جلاج بن محمد بديج[2]من التوبة إلى الله تعالى والاجتماع معكم في وظيفة الجهاد في سبيل الله

بعد الخروج عن سنن الإصابة بتحزيبه الأحزاب إبتغاء إطفاء نور الله المستفيض الغلاب، والله متم نوره ومُديمُ لحزب الإسلام سروره، وأن جلاج يسلم علينا أبلغ السلام، وأنكما تسألا بي التطفل بكما على موائد الحق بالدعاء والاستقامة، والثبات على سنن الإيمان والإسلام والإحسان إلى الوفاة، فها أنا قد لبيت دعوتكما الصالحة وأجبت طلبتكما الناجحة، وأتحفتك أيها المؤيد الرشيد الداعي إلى المنهج السديد بأوثق عرى الإعتصام للأمراء والوزراء والحكام، تبصرة وذكرى، ونصيحة كافية وبشرى فأول ما أعلمك به...».

فكان ما بين هذا التقديم والخاتمة كالدستور لهذين المجاهدين تبصرة لهما وإرشادا وتوجيها لما ينبغي أن يكون عليه عملهما في رعيتهما وجندهما، وكذا مع من يجاهدونهم.

وعلى هذا فعناوين الموضوعات التي جاء ت في المخطوط لم يذكرها الشيخ في نهاية المقدمة ولا في نهاية الكتاب، أو قل في هذه الرسالة، ولا حتى حددها في صلبه. إلا أنه يمكننا توزيع محتوياته على المحاورالتالية ريثما ينتهي الطالب من تحديد ذلك ويستقر عليه أمر التحقيق بصفة نهائية ودقيقة:

1- في أحكام وجوب تغيير المنكر والأمر بالمعروف حيث قدم المنكر على المعروف في حديثه عن ذلك.

2- في أحكام الحسبة.

3- في الولاية الكبرى ـــ في عقد الإمامة ـــ

4- في نواب السلطا ن من وزراء وكتاب وأعوان وقادة أجناد

5- في ولايتي القضاء والمظالم.

6- في أحكام الأموال المغصوبة والمستخلصة من أيدي الغاصبين.

7- في أحكام متعاطيي الحرام.

8- في أحكام الضمان.

9- في أحكام غصب الأراضي.

10 - في أحكام قبول جوائز الولاة وغيرهم.

11- حكم البشاشة والترحيب بالفساق والظلمة والتغيير عليهم.

12- في إكرام المسلمين والرفق بهم.

13- حكم أخذ العطاء من الولاة الظلمة والوقوف على أبوابهم.

14- ما ينبغي أن يتبع مع أهل بلاد السودان.

تلك هي المحاور العامة التي تضمنها هذا المخطوط.

إلا أن المتأمل في ترتيب الموضوعات يجدها غير مرتبة ترتيبا يكشف الباحث من ورائها عدم وضوح وظائف الدولة وهياكلها والقائمين عليها كالذي كان بارزا في الأحكام السلطانية للماوردي الذي أخذ عنه الكثير فبما يتعلق بالإمامة والقضاء والمظالم.من ذلك كلامه على نواب السلطان فقدم وأخر فهو يمدح أهمية تنصيب الوزير ويذكر مهامه، خاصة واجباته، ثم بعد عدة صفحات يعود فيذكر شروط اختياره، ثم يذكر الجرائم والمتولي عليها، ثم يعود فيذكر واجبات أمراء قادة الأجناد. إلا أنه عند التأمل في ذلك نرى أن الشيخ كان في عجلة من أمره لتلبية طلب الرجلين وإلا فإن التوجيهات والنصائح التي ضمنها رسالته إليهما وما ينبغي عليهما عمله تثبت عكس ذلك.

أما كلامه عند تعرضه بالذكر للغصوب من أموال وأراضي ومنتجات فيكثر من الشواهد والأدلة وضرب الأمثلة لتأكيد صواب ما ذكره من مسائل،بل يكثر من التفريعات ويدقق في ذلك أشد ا لتدقيق، وكأني به كان متأثرا بأقوال أئمة المذهب المالكي الذين تعرضوا لمسألة الغصوب وأموا ل السحت ومتعاطيي الحرام بتوسع في مؤلفاتهم، وفي تقديرنا أيضا أنه قد أثر عليه الواقع الذي كان يشاهده ويعايشه في بلاد السودان ا لتي يسميها:« البلاد السائبة »[3]

إلا أنه بالرغم من هذا فإن المعلومات التي جاءت في الكتاب ذات أهمية قصوى خاصة إذا تحدث عن الأوضاع العامة الدينية والاجتماعية والأمنية والإقتصادية، فهو بارع في عرض الحقائق والنوازل والتعليق عليها نقدا وتحليلا وإيجاد الحلول لها،مما يتبين أن له إطلاع واسع على أوضاع المنطقة، بل له أفكار ذات أهمية كبيرة في بعض الأمور الدينية والدنيوية، أما ما عدى ذلك، فقد حاول بقدر طاقته وعلمه تحديد القواعد الشرعية للمسائل المذكورة في المخطوط لأحمد بن محمد وجلاج بن محمد بديج.

أما لغة المؤلف فسليمة بليغة واضحة المعاني، له قدرة فائقة في عرض الحقائق وإيضاحها في ذهن القارىء كما هو ظاهر من خلال ا لنصوص الآتي ذكرها.

2ـ *المصادر التي اعتمد عليها المؤلف:*

مصادر الشيخ الكنتي نوعان:

أولهما: التجربة الشخصية نظرا لقربه من الأحداث ومعايشته لها ومشاركا في صنعها.

ثانيها: النقل من المصادر وهو الذي غلب على ما أورد من معلومات، وهو لم يحدد هذه المصادر في مقدمة الكتاب بعناوينها وأسماء مؤلفيها على عادة الكتاب المحققين، وإنما جاء ذكرها في سياق كلامه عند ذكره للمسائل وعرضه للأحكام والحقائق وحشده للأدلة لتأكيدها أو نفيها. وقد اختلفت طريقة العَزْوِ عنده لتوثيق المعلومات فتارة يقول: «قال بعضهم » ثم يذكر القول، وفي أحيان أخرى يذكر إسم المؤلف دون ذكره لعنوان الكتاب كقوله:« قال الشافعي » ثم يذكر الشاهد، وأمثال هذا كثير، وأحيانا يذكر القول أوالحديث أو الشاهد ثم يعقب عليه بقوله:« أخرجه الحاكم والدارقطني»، وهذا أيضا كثيرا، وأحيانا يذكر الكتاب والمؤلف في أول المسألة وفي أحيان أخرى في نهايتها كقوله: «وفي التقسيم والتبيين للشيخ الشبلي »،« وفي تبصرة اللخمي»، وقوله: «نص عليه الباجي»، وقوله:« وهو الجاري على أصل المدونة » وهناك صيغ أخرى كثيرة.

أما قائمة مصادره فعديدة، فكان مما عرفناه منها سبعة وثلاثين مصدرا نذكر منها بعد كتب رجال الحديث الستة وكذا وموطأ مالك، ومسند الإمام أحمد والطبراني: المعجم الأوسط والصغير له أيضا، والماوردي: الأحكام السلطانية والشعراني ولم يذكر من أي كتبه أخذ. النووي: التهذيب. الطرشوشي: سراج الملوك. القرافي: الذخيرة. ابن رشد: البيان والتحصيل. ابن المواز: الموازية. العز ابن عبد السلام في قواعده على حد تعبيره. الحكم العطائية وشارحها الذي لم يذكره. ابن عبد البر: التمهيد والبيان. الغزالي: إحياء علوم الدين. الشريف الجرجاني: شرح المواقف. سنن الدارقطني. الحاكم: المستدرك. الداودي: الأموال.

إلا أن تركيزه كان على كتب المذهب المالكي فيما يتعلق بالأحكام وما يندرج ضمنها

أما ما تعلق بالخلافة وشروط اختيار القائم بها وواجباته وحقوقه فكان عالة على الأحكام السلطانية للماوردي،ثم بقية المصادر، كما كان الطرشوشي حاضرا فيما ينقل عنه من أخبار تاريخه وطرائف وغيرهما. كما أخذ من كتاب الأموال للداودي أحمد بن نصر، حيث كان متأثرا

بما كتب في الفصل الأول:« ذكر الأموال التي لا يعرف أربابها ومعاملة أهل الغصب والظلم...إلخ »، فنقل فقرا ت كثيرة من هذا المصدر.

3ـ التعريف بالمؤلف: أما مؤلف هذا المخطوط فهو الشيخ محمد بن الشيخ المختار بن أحمد بن أبي بكر، ولد سنة 1179 هـ الموافق لسنة 1765م، ترجع أصوله إلى قبيلة كنته وإليها ينسب، التي كانت تستقر في إقليم توات وهو ما يعرف اليوم بأدرار في الجنوب الجزائري. سكن أجداده الأولون إقليم أزواد خلال القرن السابع عشر الميلادي الذي يعتبر اليوم جزءا من جمهورية مالي.

وفي هذه المدينة أسس والده المختار الكنتي زاوية له ا لتي أصبحت مقصد طلاب العلم من المناطق المجاورة، وتبوأ مركز الزعامة الدينية على الطريقة القادرية، التي أسست لها فروعا أخرى في تمبكتو وماسينا بعد تزايد أتباعها.

تلقى محمد العلم على يد والده، فنبغ في جميع فنون العلم المعروفة آنذاك، مما جعل والده يعتمد عليه اعتمادا كليا، فجعله أمين سره والقائم على جميع الأعمال الدينية و التربوية والسياسية حيث كان يتولى التدريس، واستقبال الوفود والقيام بأمرالإفتاء والتدخل لحل النزاعات بين الأفراد والجماعات.

إستأذن والده في جهاد الوثنييــــن، فلم يأذن له لما تقتضيه المرحلة بالدعوة إلى الله بالطرق السلمية التي حققت نتائج جد طيبة خاصة بعد أن أصبح أبناء العائلات الوثنية الحاكمة في سيغو وغيرها يرسلون أبناءهم إلى مدارسهم ليدرسوا بها،كما كان له دورا فعالا في محاربة ما شاب الإسلام من بدع في المجتمعات التي أسلمت قديما.

وعندما توفى والده سنة 1226 هـ الموافق لسنة:1811م.خلفه في القيادة العامة الدينية والسياسية والتربوية للطريقة، فقام بهما خير قيام إدارة وتوجيها جعلتاه محط إستقطاب الأتباع والجيران أعداء ومسلمين فأصبح مهاب الجانب دائع الصيت نافذ الكلمة، فكان كثيرا ما يتدخل لوضع حد للاقتتال الذي كان ينشب بين القبائل كالذي كان منه مع قبيلة الأقلال الموريتانية التي لبت دعوته وقبلت تدخله فأوقفت الحرب بينها وبين قبيلة أخرى، وكذلك كان منه مع قبيلتي: مشظوف وأولاد الناصر في موريتانيا أيضا فأوقفتا الإقتتال، واستجابت لتدخله

أيضا في هذا الإقليم قبيلة أولاد الملات، وكان وسيطه في هذا أخوه الأكبر: بابا أحمد الذي سكن موريتانيا الذي زوده بتعليمات ورسائل بين له كيفية التعامل مع مثل هذه الأحداث.

ولم يقتصر الأمر على هذا بل تدخل أيضا لإنقاذ مدينة تمبكتو من الهجوم الذي تعرضت له على يد الشيخ أمادو سنة **1241** هـ / الموافق لسنة **1825** م، فأوقف التخريب والنهب اللذان كان جنوده يقوم بهما.

كما أمَّن الطرق بقضائه على قطاع الطرق واللصوص، كما وضع حدا للمكوس وبقية الضرائب التي كانت تؤخذ من أصحاب القوافل والتجار القادمين إلى المنطقة من قبل القبائل المحلية دون وجه حق أو نظام.

استمر الشيخ يؤدي دوره على أكمل وجه وأ فضله في الدعوة إلى الله وإصلاح حال المسلمين روحيا وفكريا وسياسيا ليدافعوا بذلك الزعامة السياسية الوثنية ويغالبوها بالوقوف في وجه تزايد أطماعها التي لا تنتهي عند حد التي كانت تتربص بهم الدوائر.

توفي الشيخ ـــ رحمه الله ـــ سنة **1242** هـ الموافق لسنة **1826** م.

قال عنه صاحب كتاب شجرة النور الزكية: « أبو عبد الله محمد الكنتاوي بأرض أزوات بالقرب من تنبكتو، كان من أعلام العلماء والأئمة الفضلاء، وأحد الأساتذة المشهورين والجهابذة المعروفين أثنى عليه الشيخ رفاعة في رحلته...».

ترك الشيخ ثروة هامة من الكتب والرسائل ذكر الطالب لي منها ثمانية وأربعين ما بين رسالة وكتابا، وقال بأنها أكثر من هذا، نذكر منها:

1– إرشاد السالك إلى أقوم المسالك.

2– علم اليقين وسنن المتقين بحسم الأ تَوَا تِ بحق المستحقين.

3– كتاب الإسراء.

4– الرسالة الفودية ـــ نسبة إلى عثمان بن فودي ـــ

5– الأجوبة الفقهية.

6– الأجوبة الفولانية.

7– الوصية ا لفاخرة.

8– الوسيلة الكبرى في إصلاح الدين والدنيا والأخرى[4]

4 ــ نماذج من آراء المؤلف ومواقفه من الأوضاع العامة في إفريقيا جنوب الصحراء:

الحقيقة أن المؤلف في كل ما أتى على ذكره لم يكن سلبيا ولا مثاليا، بل كان حاضرا بإيجابية وفعالية بتلك الآراء التي علق بها على الأحداث في وضوح وصراحة ناقدا بناء، واضعا الحلول للمشكلات التي استفحل خطرها في مجتمع أرض السودان، ويظهر ذلك فيما نحن بصدد عرضه من نصوص.

من ذلك انتقاده لعامة وخاصة زمانه الذين كانوا لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر وهذا في نظري هو الذي أدى به لأن يُصَدِّر كتابه بالحديث عن المنكر ثم المعروف بعده، فهو من أولويات ما يتجه إليه العمل في نظره، يقول: « وتعطل النهي عن المنكر وانسدَّ باب النصيحة التي حث الشارع عليها،لا سيما في هذا الزمان الذي صار التلبس فيه بالمعاصي شعار الأنام ودثار الخاص والعام ».

كما يعلل المؤلف سبب تقديمه ذكر أمر الحسبة قبل كل شيء في أول رسالته، فيقول:« لأن غالب المتصدرين بهذه البلاد السائبة السودانية البعيدة عن بسطة يد السلطان الأعظم ومن تحته من النواب الخارجة عن نظرهم،إنما هو فيما مَرَّ من الإنتصار بحكم ا لتغالب والترأس ».

كما ينتقد أحمد المنصور الذهبي السلطان السعدي المغربي إنتقادا عنيفا الذي غزا بلاد السودان سنة **1591**م لِمَا تركت حملته من آثار وخيمة العواقب على الدين والدنيا على السواء في هذا الإقليم، يقول:« فأذهبوا ريح دولة السنغانيين[5] وأوهنوا دولة العلم بالبلاد السودانية وأظهروا الْحَيْفَ في البلاد وشَهَروا السيف على العباد، وطبقوا البلدان بالخراب، ووضعوا الجزية والمكوس على الرقاب، فضعفت دولة السودان، وانحلت وأدبرت عمارته ».

ويقول عن هذا الغزو المغربي أيضا وعن آثاره: « ثم سلط الله على العباد والبلاد دولة الرماة أي الجند المغاربة التي كانت سببا لخراب البلاد السودانية فأزالت الأملاك عن موضوعاتها، فلا تكاد تجد مُلْكا بيد مالكه على وجه معروف ولا مدعي ملك يشرح فيه أصلا معـروفا لتناسخ الدول برسم التغالب...».

وينتقد أيضا الطوارق الذين دمروا ما بقي من رسوم العلم والعمارة، ويثني على عثمان بن محمد بن فودي الذي أعاد للسودان أمنه وعمرانه وللدين فاعليته وسلطانه،قال:« حتى طرقت

السودان دولة الطوارق فَدَمْدَمَتْ تلك الرسوم بالدمار وعفت بالإخلاء والإجلاء بقايا تلك الآثار، فلم يبق بها من الإسلام إلا إسمه، ولا من الدين إلا رسمه...سنة عشرين بعد المائة والألف، فلم يزل الأمر في ازدياد والخطب في اشتداد حتى أخذ الله تعالى بناصية أخينا العلامة الفقيه الورع الواعظ عثمان بن محمد بن فودي[6]...إلى الإنتداب للإحتساب والوقوف بوظيفة الأمر بالمعروف أوائل القرن الثالث عشر، فساعده ساعد الأقدار بمدد النصر والإنتصار مع قلة الأعوان وفساد الزمان وقلة الأمانة وانقطاع الديانة فشد به ظهر الإسلام وأهله،وقوى به فرع الدين وأصله...»

ثم يهيب بالعلماء الدعاة ويحشد هممهم للقيام بأمر الدعوة إلى الله في البلاد السودانية،قال: «فعلى كل من يسر له أسباب الدعوة...وعرج به في معارج الأمْرَةُ في هذه البلاد السائبة التي أهلها بين كافر صريح، أو ظالم مسرف شحيح، أو مسلم مستضعف مهين أو طالب علم مسترذل مسكين بذل جهده بإخلاص النية وتنقيح الطوية في إحياء السنة الميتة، وإماتة البدع الحية ودعوة الكافر إلى الإيمان بالله،وحمل الظالم الفاجر على الإذعان لأحكام الله...».

أما كلامه عن الولاية وواجبات الوالي فهو كلام نفيس، فالولاية نعمة من الله من بها على من تولاها وشكرها يكون بالأتي:« فوجه الإستقامة في آثارها، وتأدية الشكر الواجب بإسْبَاقِها وإكثارها: أن تلزم نفسك بالبحث عن الرعية، والعدل بينها في القضية، والحكم فيها بالسوية ومجانبة الهوى والميل، وعدم سماع كلام بعضهم في بعض...وأن تعرف أنك والرعية سواء، لم تتميز عنهم بنفسك بل بفعل الله الذي لو شاء لأعطاهم ومنعك، فإذا كان أعطاك الولاية ومنعهم، فما ينبغي لك أن تتمرد وتستعين بنعمته على معصيته وأذاهم، بل لا أقل من أن تجتنب أذاهم، وأن تكف عنهم شرك وتجانب الهوى والميل والغرض... ».

وهي نقمة أيضا ومذموم من عمل بغير ماسبق قال:«...ولو أنك تركت الناس هَمْلاً يأكل بعضهم بعضا، وجلست في دارك تصلي وتبكي على ذنوبك لكنت مسيئا على ربك الذي ملكك...».

كما يعتبر الشيخ أن الأولى بالاستخدام وبذل الأموال وإقطاع الأراضي من يحمي الإسلام والمسلمين ويدفع عدوان المعتدين، كما يعتبر أهل السودان في درجة المؤلفة قلوبهم

يعاملون برفق وحسن مدارات، يقول:«...ويستخدم من ينفع المسلمين ويخصه بمزيد من الإقطاع ممن يحمي...الدين، ويكف أذى المعتدين لا سيما في هذه البلدة السائبة المستولية على عقيدة أهلها كثائف العُجْمة والغفلة والبهالة الذين أعلى مراتبهم أن يُلحقوا بدرجة المؤلفة قلوبهم لبعد حقيقة الإيمان من أعماق قلوبهم وتعذر مساكنة طباعهم إلى أحكام الشرع العزيز...».

كما ينتقد ويستنكر بسياسة الإنفاق التي يتبعها زعماء وملوك أهل السودان على الحاشية والمقربين وإهمالهم للعلماء ومن ينتفع بهم الإسلام والمسلمين، يقول:«...فمن فَرّق الإقطاعات على مماليك إصطفاها وزينها بأنواع الملابس الفاخرة وأركبها بين يديه المراكب الفارهة، وترك الذين ينفعون الإسلام جياعا في بيوتهم...فإن ترك الفقراء والعلماء جياعا في بيوتهم...فإن من حقه أن ينظر في مصالحهم...فإن تعدى هذا كله وصرفه في شهواته ولذاته، وحسب أن الملك عبارة عن ذلك،فلا يلوم إلا نفسه،وإذا جاءه سهم رباني فلا يستوحش، وإن أخذ يصرف الأموال على خواصه، ومن يريد إستمالة قلوبهم إليه لبقاء ملكه لا لإعزاز الدين، وأعجبه مدائح الشعراء لكرمه فذلك خَرْقٌ، وقد امتلأت الدواوين والتواريخ بمن كان يهب الألوف للشعراء والألوف للمماليك والألوف للمغنيين وكل ذلك وبال على صاحبه ».

وينعي باللائمة على من لا يُحَكِّم الشرع في حياته وفي حكمه للمسلمين ويعتبر ذلك هو عين الفساد، يقول:«...ومصلحة الخلق فيما شرعه خالقهم الذي هو أعلم بمصالحهم ومفاسدهم، وشريعة نبينا محمد– صلى الله عليه وسلم– متكفلة بجميع مصالح الخلق في معاشهم ومعادهم، ولا يأتي الفساد إلا من الخروج عنها، ومن لزمها صلحت أيامه واطمأنت...».

ويضع يده على مكمن الداء والدواء حيث نراه يؤكد على حسن إختيار الأعوان والبطانة الصالحة ذلك أن أصل كل صلاح أو فساد يأتي منهم، يقول:« وليختبر[كذا] من كل من قويت ديانته وصحت أمانته وكان ذا حزم وعزم، فبطانة الأمير أكثر ما ينشأ فساد أمره وصلاحه عن فسادها وصلاحها...». ويلحق بهم أيضا الوزراء،فيقول: « وشر الأمراء من كان له الأشرار وزراء ».

كما ينعي وينتقد بشدة قادة الجيش وتجاوزاتهم الذين كانوا يسخرون الفلاحين في فلاحة إقطاعاتهم في أرض السودان واعتبارهم ذلك من شرع الدولة، يقول:«ومن قبائح ديوان

الجيش إلزامهم الفلاحين في الإقطاعات بالفلاحة،والفلاح حُرٌّ لايد لآدمي عليه، وهو أمير نفسه، ومن القبائح أن أهل الزمان إذا اعتادوا شيئا مما جرت به عادهم الخبيثة يقولون: هذا شرع المملكة، والمملكة والديوان لا شرع لهما، بل الشرع لله ولرسوله محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم...».

كما ينتقد انتقادا شديدا ولاة السوء في أرض السودان بجمعهم بين إقامة الحد على الجاني وبين عقابه بالمال يؤخذ منه يعرف بمال التأديب، وكذا استنكاره عليهم إقامتهم للحدود على الضعفاء والفقراء وعدم إقامة ذلك على الأغنياء والأشراف، يقول:«... ثم ضَمّ إلى ذلك أن أخذ منهم مالا يسمونه التأديب والجنايات فصفقة خاسرة، ليت شعري! آلله أمره بذلك حتى يعمله مع خلقه؟! بل هذا الوالي هو الذي يجب عليه التأديب بأخذه أموال الناس من غير حلها وصرفها في غير حلها، فإن ضم إلى ذلك أن حُدَّ الخامل الفقير ولم يحد ذي النخوة الكبير، فقد ضَمَّ ظلما إلى ظلم...».

كما يتحسر الشيخ على إهمال جانب العلماء بإقصائهم وحرمالهم من المنافع المالية،والتشنيع عليهم على ما في أيديهم من أقل القليل منها، يقول الشيخ:«...ومن قبائحهم إستكثارهم الأرزاق وإن قلت على العلماء، واستقلالهم الأرزاق وإن كثرت على أنفسهم...فإنهم يتبخترون في أنعم الله مع الجهل والمعصية،وينقمون على خاصة خلقه يسيرا مما هم فيه، أفما يخشون رهم من فوقهم؟! ولو اعتبر واحد منهم رزق أكبر فقيه لوجده دون رزق أقل مملوك عنده، أفما يستحي هذا الأمير من الله عز وجل ؟!».

ثم يلفت الشيخ انتباه أحمد بن محمد إلى ما كان عليه هدف قتال أهل السودان، ومن ثم ينبهه إلى ضرورة عقد حلقات لأتباعه ولمن أسلم أيضا بتعليمهم آداب ذلك من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من كتاب الإكتفاء للكلاعي يقول له:« وأنت أيدك الله! في أرض لم يألف أهلها القتال إلا تعصبا للكفر،وتعصبا على الباطل والظلم، وقد مَنَّ الله تعالى عليهم بالإسلام، وزين في قلوب كثير منهم الإيمان، وشرح له صدورهم فاكتمل عليهم مجلسا في بعض أوقات فراغهم من كتاب الإكتفاء في السيرة للكلاعي[7] 'ينشطهم ويقوي نياهم بما يطرق أسماعهم من بلاء المسلمين...في الإسلام والجهاد لإعلاء كلمة الله وإقامة دين الله بعدما كانوا عليه من صريح الكفر وعبادة الطواغيت والأوثان مبايعة لله تعالى ولرسوله وإسلاما

للبيع...»،ثم يشرح آية البيع [إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم... الآية][8] شرحا بديعا رائعا، إلى أن يقول:«وأعلمهم أن الأمة لا يُنْصَرُ آخرها بغير ما نُصِرَ به أولها، وإنما نُصر صدرها بقوة الإيمان وثبات اليقين، وصحة النيات،وخلوص الطَّويات...».

ثم يتكلم الشيخ عن طرق تملك أهل السودان لأغلب الأراضي والأموال بالتباغي والغصب لا بالطرق المشروعة، يقول:«...فاعلموا أن جل هذه الأراضي السودانية تُدُووِلَتْ أملاكها كُلاًّ أو جُلاًّ على سبيل التغالب والتباغي بعد أن كانت دار كفر...فلا تكاد اليوم تجد ملكا بيد مالكه على وجه معروف، ولا مدعي ملك يشرح فيه أصلا معروفا لتناسخ الدول برسم التغالب، فكل أحد مدفوع عن بلده ومجلي عن أرضه قهرا وعدوانا، ثم هو يدفع من وراءه كذلك إلى الكفرة، لم تجر أموالهم وأراضيهم على القانون الشرعي، وإنما يأخذها نهبا ويبقى فيها تغلبا، يأخذ كل بقدر قُوَّتِهِ لا بقدر قسمته. فمن ولاه الله اليوم أمر شيء من الأمة فليجر الأحكام الشرعية على الأوجه الدامغة للشغب الرادعة لموضوعات الفتن والغصب...».

ولأجل هذاـــ في تقديرناـــ أفرد حيزا كبيرا في كتابه لأحكام للغصوب كما بينا ذلك فيما تقدم.

كما يصف الشيخ شَرَهُ أمراء السودان إلى الأموال واتصافهم بالطمع والسعي بالفساد في الأرض وظلم الناس وسوء أخلاقهم، فلا يخافون إلا من القوة الغاشمة تردعهم، أو يدفع كيدهم وشرهم ببسط قليل من الدنيا عليهم، يقول عن ذلك بعد ذكره للعلماء بأنهم أحق بالجوائز والأعطية من غيرهم: « ونحن اليوم بين قوم عجمي القلوب والألسنة لا إيمان يَزَعُهم ولا عقول لهم تـــنفعهم، قد استولى عليهم الحرص والطمع ومَلَكَ نواصيهم الشره والهلع، فلا يصرفهم عن التوغل فيما هم فيه من الفساد في البلاد وظلم العباد إلا خوف انتقام يُسَوِّطَهَم[9] الله تعإلى به على يد عبد من عبيده، فيحيصون عنه حيصة الحمر الوحشية، ثم لايردهم عليه إلا ذواق[10] من الحطام الذي استولى على طباعهم وأخذ بمجامع قلوبهم وأسماعهم، فإذا وُوسُوا منه بشيء أخذ بأعنتهم فثنى بها إلى الإئتمار بالأمر والإنزجار للزجر، فكان أقطع من باب السيف لما أَصْفَقُوا[11] عليه من الجور والحيف فنام في ظلمه القوي والضعيف، وسام في أمنه الشريف والمشروف، وما بأيدينا إنما هو مال الله ونحن خزنة عليه ننفقه حيث أمر بإنفاقه ونمسكه حيث أمر بإمساكه، ومدارة الظلمة ونحوهم من آكد ما ندفع

فيه الأموال من الوجوه في هذه الأزمنة الفاسدة بهذه البلاد السائبة... فكنا ندفع لهم منه القدر الكاسر لشوكة عدوانهم، الآخذ بنواصيهم إلى الإ ئتمار بالأمر والإنجاز بالزجر فيما يرجع إلى الدفاع عن الضعفاء ورفاق[12] الأصقاع... إذ هم عبيد الدنيا فلا يبذلونها إلا لمن خافوه أو هابوه...[13]».

ثم يبين لأحمد بن محمد الحكم الذي يجب عليه أن يعمل به مع من نطق منهم بالشهادتين لا مغالاة فيه، فيقول: « وأما الأخذ على أيديهم فذلك رحمة بهم لا كجهاد الكفار، بحيث إذا علمت أن ذلك لا يجدي سقط عنك، وإذا علمت أنه يزيده شرا إلى شر حرم عليك».

كما يوصي أحمد بن محمد وينبهه إلى عدم الإستماع لوشي الوشاة[14] بجلاج باعتباره القائد الحربي الذي أسلم عن إيمان ورغبة في جهاد الكفرة وشد أزره بقاض يفصل في الخصومات، يقول:« وإياك أن تجعل للعامة إلى مثله ممن وليه سبيلا فيسري الخلل إلى أمورك ويسري الفساد إلى تدبيرك...ولترشده إلى ما يجب عليه العمل به ولتنصب له قاضيا عدلا لا سخيمة في نفسه عليه وإن فيه لنجدة ونزاهة نفس... ».

لا ينسى الشيخ في خاتمة ما كتب الذي كان لأحمد بن محمد كالدستور وخطة بناء وإصلاح وبرنامج عمل أن يلفت إ نتباهه إلى ضرورة العمل بما كتب به إليه، قال له:« وبمثل هذا فليعمل العاملون فإن فيه عز الدنيا وشرف الآخرة وحسن الصيت وجميل الذكر...وليعلم أن المأكول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو، فليختر لنفسه أي الثلاثة شاء ».

كما ينبهه إلى ضرورة الإستعانة بأهل القوة والأمانة في رعاية شؤون المسلمين، وهنا يظهر فقه الشيخ السياسي الشامل الذكي ودرايته بالأسباب التي تؤدي إلى استقرار الأوضاع وتحسن أحوال المجتمعات أو تدهورها، وحدوث القلاقل بها باستقرائه لما حصل في صدر الإسلام بزوال الخلافة الراشدة وتحولها إلى ملك أو خلافة وراثية، منبها إياه بما سبق وأن ذكّره به من أن يتجنب ذلك حتى لا يتهدم ما بني ولا ينهب ما جمع بعد توقف الفتوح واستكمال عمليات الجهاد،يقول له: « فالذي ينبغي لمثلك في هذه البلاد السائبة إقرار من توسمت فيه غناء عن الإسلام ونجدة على ما بيده بعد إسلامه أو توبته، فأيسر أحوال الولاية أيام الفتوح، فإذا

انتهت الفتوح إلى حيث تنتهي ثار بين أرباب المملكة الإسلامية من الذحول [كذا]، والمنازعات ما يحار فيه نظر البصير ويهيم فيه فكر الجهبذ الخبير...».

ثم يشير إلى ما حصل بعد ذلك في عهد عثمان رضي الله عنه ثم يقول:« فما الظن بهذه الأزمان الفاسدة فعليك – أيدك الله – بالإحتراس لدينك وللأمة...».

ذلك بعض ما جاء في هذا المخطوط وهو شيء يسير من كثير التي تلقي معلوماته ضوءا كاشفا عن الأوضاع العامة السيئة في هذه الأقاليم التي تطلبت من الشيخ وغيره التدخل لإصلاح الأحوال.

ولعلنا بهذا التعريف لهذا المخطوط وما تضمنه من معلومات هامة نكون قد حفزنا همم الباحثين لبذل المزيد من البحث بالتحري عن المخطوطات التي ألفها علماء هذا الإقليم ونشرها حتى نكشف الدور الهام الذي لعبته القيادات الإسلامية في تنوير المجتمعات الإفريقية ووضعها لأسس التنظيم الإداري وأصول الحكم وقواعد السياسية،وانتشالها من الفوضى التي أصبحت تنغص عليها حياتها.

وأخيرا هل يعيد خلف علماء شمال إفريقيا بالتنسيق مع خلف علماء إفريقيا جنوب الصحراء تلك الروابط الدينية والاقتصادية إلى سابق عهدها، أم يتركوا الساحة للأوربيين ينشرون دينهم ويحققون المكاسب الدنيوية ؟

الهوامش:

1- أحمد شلبي- موسوعة التاريخ الإسلامي-ج 6- مكتبة النهضة المصرية- 1972- ص229- 230.

2- هو من قبيلة الفولاني، إلا أننا لم نتمكن من العثور على ترجمة له ولو بإيجاز .

3- الحقيقة أن ظاهرة أخذ أموال الناس بالباطل من قبل حكامهم وكذا الأقوياء من الضعفاء في هذه البلاد ثابتة، ومثل ذلك إنعدام الأمن، فقد أشار إلى هذين الأمرين وغيرهما من المظالم في الدين والدنيا على السواء محمد بن عبد الكريم المغيلي في إجابته عن أسئلة الأسكيا محمد ا لكبير- 1493-1529م-. عبد القادر زبادية / الحضارة العربية وا لتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء،- المؤسسة الوطنية للكتاب 1989 - ص 160- وما بعدها

4- من مقدمة ا لطا لب ديهكا ل الطيب للمخطوط

- عبد القادر زبادية / مرجع سابق/ ص 92-93.

- الشيخ محمد بن محمد بن مخلوف/شجرة النور الزكية في طبقات المالكية / طبع دار الفكر 1350/ ص 377 رقم: 1510.

5- نسبة إلى قبيلة سنغاي التي كانت تسكن على حدود الغابات الإستوائية الشمالية في النيجر التي أسست دولة في القرن السابع الميلادي وتوسعت تدريجيا يعد حكم الأ سيقيين المسلمين أقوى فترة لها إمتد من سنة 1335م إلى سقوط دولتهم على يد الغزو ا لمراكشي سنة 1595م

- أحمد شلبي/ مرجع سابق/ج6/ ص 257 وما بعدها.

- عبد القادر زباد ية / مرجع سابق / ص 20 - 24

6- مصلح ديني من قبيلة الفولاني ولد سنة 1754 تركزت دعوته في بلاد الحوسا، أسس دولة في شمال نيجيريا متخذا من مدينة « سكوتو» عاصمة له توفي سنة 1817م.

- أحمد شلبي / مرجع سابق / ج6/ ص 225 - 229.

- سير توماس ارنولد-الدعوة إلى الإسلام-ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرَيْن- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة-1971- ص 360 - 362.

- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم-ندوة العلماء الأفارقة- 1983- طبع ببغداد-1985-ص338 وما بعدها.

7- عنوانه الكامل: الإ كتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء لأبي الربيع ابن سالم الحميري الكلاعي- طبع في القاهرة سنة 1978م، وببيروت سنة 1997م.

8- سورة التوبة /آية 11

9- أي يعذبهم الله

10- ذواق: مفرده ذوق، والمذاق طعم الشيء والذواق هو المأكول والمشروب والمعنى: لايكفون عن الشر إلا بشي ء من الدنيا يوزع عليهم.ابن منظور/لسان العرب/ج10/ص111/مادة ذوق.

11- أصفقوا عليه:أي اجتمعوا عليه. ابن منظور/لسان العرب/**10**/ص**201**/مادة صفق

12-رفاق الأصقاع:القوم ينهضون في سفر يسيرون معاويترلون معاولا يفترقون وأكثر مايسمون رفقة إذا نهضوا للميرة وقد تطلق على من يسعى في الأرض طلبا للرزق. ابن منظور /لسان العرب /ج**10**/ص **120** / مادة:رفق.

13- هذا كلام والد المؤلف

14- أغلب الوشاة من قبيلة الفولاني حيث كانوا يذكرونه بماضيه وما بيده من ممتلكات هي لهم كما يزعمون كما أشار إلي ذلك الشيخ المؤلف.

قراءة في مخطوط "النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب" لابن صعد التلمساني.

أ/ عبيد بوداود

تعرّض التراث الوطني المكتوب لمختلف الحقب التاريخي إلى الإهمال والضياع، ولم يتبق منه إلاّ النزر القليل. وتعاني الذاكرة الوطنية من اختلالات وفجوات، بسبب هذه الوضعية، أو مصادرة هذا التراث من قبل دول أجنبية.

ويجد الباحث في التاريخ (أو المؤرخ) نفسه مضطرا إلى التردد على مختلف دور الأرشيف والمحفوظات العالمية لا سيما المتوسطية منها، لسد الثغرات في مجال المادة التاريخية، وتعزيز بيبليوغرافيا البحث. ومما تحتفظ به هذه الدور: المخطوطات الجزائرية، ونعني بها المؤلفة من قبل علماء جزائريين.ولقد اعتنى بعض الباحثين بجرد هذه المخطوطات، وتحديد أماكن تواجدها مع ذكر لأرقامها، كما فعل محمد بن عبد الكريم، بتأليفه لكتاب "مخطوطات جزائرية في مكتبات اسطنبول" (دار مكتبة الحياة، بيروت، 1972).

ولعل من أهم البلدان التي تزخر بعدد مهم من هذه المخطوطات، المملكة المغربية، حيث تتوفر مختلف خزاناتها سواء في مدينة الرباط (الخزانة العامة أو الخزانة الحسنية) أو مدينة تطوان بالمكتبة العامة والمحفوظات، أو غيرها من المدن المغربية، على عدد لا بأس به من هذه المخطوطات.

ونعتقد أن تصوير هذه المخطوطات – سواء عبر العمل الفردي للباحثين الجزائريين، أو عبر تعاون مخابر البحث في البلدين–كفيل باسترجاع هذا التراث، ومن ثم استغلاله ودراسته. وأملنا كبير في أن تقوم مخابر المخطوطات المتواجدة بكل من جامعات الجزائر العاصمة ووهران وقسنطينة بالدور المنوط بهما، والمتمثل في جمع هذا التراث ووضعه بين أيدي

* أستاذ بمعهد التاريخ- المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي بمعسكر.

الباحثين الجزائريين كي يتسنى لهم دراسته وتحقيقه وفق الأسس المنهجية والعلمية التي يتطلبها تحقيق المخطوطات.

تختلف الفنون والعلوم التي تناولتها المخطوطات الجزائرية المتوفرة بالمملكة المغربية ما بين كتب الفقه والنوازل، وعلم الفلك والاسطرلاب، وعلوم اللغة والتصوف، وعلوم القرآن، والتاريخ والتراجم وغيرها.

ونحاول عبر هذه المقالة تقديم مخطوط "النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب" لابن صعد التلمساني، وهو كتاب في تراجم المتصوفة. ولقد جاء هذا الكتاب بعد محاولات سابقة في هذا النوع من التأليف عرفته منطقة المغرب الإسلامي، خاصة مع كتاب "التشوف لرجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لابن الزيات التادلي (ت617هـ)، وكتاب "المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف" للبادسي عبد الحق بن اسماعيل (كان حيا سنة 722 هـ). وإذ ركّز ابن الزيات في كتاب التشوف على متصوفة الغرب الإسلامي، حيث ترجم فيه لمائتين وثمانية وسبعين شخصية صوفية، فإن صاحب المقصد، اقتصر على منطقة الريف (شمال المغرب الأقصى) التي أهملها ابن الزيات. على أن كتاب النجم الثاقب جاء جامعا لكل متصوفة العالم الإسلامي ومنذ بداية التاريخ الإسلامي إلى غاية نهاية القرن التاسع الهجري، وكأن به يريد أن يجعل من كتابه مرجعا للمهتمين بمتصوفة العالم الإسلامي.

ينسب كتاب "النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب " لابن صعد التلمساني المتوفى بالديار المصرية سنة 901 هـ، ولقد ورد التعريف بابن صعد بنفس العبارات تقريبا عند كل من ابن مريم التلمساني "البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان"، و أحمد بابا التنبكتي "نيل الإبتهاج بتطريز الديباج"، والحفناوي أبو القاسم محمد "تعريف الخلف لرجال السلف – القسم الأول"، حيث جاء في ترجمته ما يلي: " من أكابر علمائها الفقيه العالم العلامة المحصل مؤلف النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب و تأليف في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وروضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين وهم الهواري وابراهيم التازي والحسن أبركان، وأحمد بن الحسن الغماري. وفيه يقول بعض فضلاء الأندلس، وهو محمد العربي الغرناطي:

اذا جئت لتلمســـان فقل لصنديدها ابن صعد

علمك فاق كل علـــم مجدك فـــاق كل مجـــد

في أبيات. أخذ عن جماعة منهم الإمام خاتمة العلماء سيدي محمد بن العباس والحافظ التنسي والإمام السنوسي. وتوفي بالديار المصرية في رجب سنة إحدى وتسعمائة رحمه الله"[1].

والظاهر أن كتاب النجم الثاقب ظل غير معروف في المشرق الإسلامي بدليل عدم وروده في كتب التراجم أو الكتب التي اعتنى أصحابها بجمع المصنفات، فلم نعثر له على أثر في كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون لحاجي خليفة، في حين أورد صاحب إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون (إسماعيل باشا) عنوانا يقترب من مؤلف ابن صعد و هو " النجم الثاقب فيما للأولياء من المناقب " لكن نسبه خطأ لأبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد القرشي المقري التلمساني (ت 758هـ)[2] على اعتبار أن المقري التلمساني لم تورد له المصادر مصنفا يحمل هذا العنوان[3]

وعلى الرغم من الأهمية التي يكتسبها كتاب "النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب "، إلا أنه لا يزال مخطوطا، ولقد أطلعت على النسخة الموجودة بالخزانة العامة بالرباط، الحاملة للرقم ك1292، وتمكنت من تصويرها كاملة على الورق. والتي على ضوءها أحاول التعريف بهذا الكتاب المخطوط. ولقد ذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله نسختين أخريتين للمخطوط متوفرة لدى المكتبة الملكية (الحسنية) بالرباط، واحدة تحمل رقم **2491** استغلها في التعريف بابن صعد و كتابه ضمن موسوعته تاريخ الجزائر الثقافي، و إن لم يتعد هذا التعريف الصفحتين، و أخرى لم يستغلها و لم يطلع عليها و تحمل رقم **2721**[4]. كما توجد نسخة للجزء الأول من هذا المخطوط بالمكتبة الوطنية (الجزائر) تحمل رقم ب:**01** دخلت المكتبة حديثا (اشترته من المكتبة الخاصة لرابح بونار بعد وفاته)، وهو ضمن قائمة المخطوطات المستنسخة على الورق.يحتوي على **48** ورقة على وجهين من الحجم الصغير. وهي بيد نفس الناسخ ك **1292** التي نحن بصدد التقديم لها.

يتألف المخطوط من ثمانية أجزاء، غير أن النسخة التي اعتمدت عليها تتوفر على ثلاثة أجزاء فقط، و هي الجزء الأول و الرابع و الثامن. و لقد جاء هذا التأليف بطلب من السلطان

الزياني أبي عبد الله محمد المتوكل (866هـ-873هـ)[05] و ذلك ما أثبته ابن صعد في مقدمة الكتاب بقوله: " أشار بجمعه و انتقائه من دواوين هذا الفن و أجزائه، من جعل الله طاعته من اللوازم، و أيام دولته كالأعياد و المواسم، باسط العدل و الأمان، المستولي على أمر الإحسان، المنتشرة مفاخر عدله و مآثر فضله في سائر الأقطار والبلدان، علامة أمراء المؤمنين، المخصوص بعناية رب العالمين أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين، مولانا أبو عبد الله محمد بن مولانا المتوكل على الله أمير المسلمين، تاج الملوك والسلاطين، المحب أهل العلم والدين، وعميد أولياء الله المتقين، مولانا أبو عبد الله محمد أحد الخلفاء الراشدين، أئمة الهدى والدين، أيده الله بالنصر المبين...فقابلت كريم تلك الإشارة بقبول البدار ولسان البشارة. والله أسأل أن ينفعه بجميل قصده و أن يعينه على ما قلده بركة أولياء حزبه و جنده..."[6]

ولقد انتهى ابن صعد من تأليفه حسبما ورد في خاتمة الجزء الثامن والأخير يوم السابع العشر من شهر صفر عام إحدى وتسعين وثمانمائة، حيث يقول: " تم الجزء الثامن من كتاب النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب. وبه كمل جميع الكتاب بحمد الله وجميل عونه وصلى الله على سيدنا محمد وآله...وافق الفراغ من نسخ هذا الكتاب المبارك، سابع عشر من شهر صفر عام إحدى وتسعين وثمان مائة عرفنا الله عوارف عبادته وخولنا من جزيل بركاته وصلى الله على سيدنا محمد وآله و صحبه وكافة ذريته وسلم تسليما كثيرا والحمد لله أولا وأخيرا."[7]

و هكذا يتبين أن ابن صعد ألف هذا الكتاب و هو في أواخر حياته، قبل أن ينتقل إلى المشرق، و لا نعلم عن أمر هذا الإنتقال و أسبابه شيئا، هل كان بدافع الحج ؟ أم الرغبة في تغيير الأجواء ؟ أو الهروب من الفتن السياسية التي عرفتها المنطقة وقتذاك ؟

أما النسخة التي استعملناها في هذا التقديم، فهي تعود إلى سنة تسعين تسعمائة هجرية، وكانت بيد الناسخ عبد الله بن عمر بن عثمان ذلك ما ورد في خاتمة المخطوط: "وكان الفراغ من نسخه في يوم الجمعة قبل صلاة الظهر خامس والعشرون من جمادى الأولى عام تسعين وتسعمائة على يد العبد المعترف بالعصيان الراجي رحمة الرحمن المتوسل إليه بأوليائه وأصفيائه وأحبائه أهل الفضل و الامتنان عبد الله بن عمر بن عثمان بن عبد الواحد بن عمر بن

داوود الترغي وطنا. نفس الله كربته وغفر حوبته ووالديه والمسلمين أجمعين والحمد لله رب العالمين..." [8]

وتظهر روح التصوف بارزة سواء في إشارة السلطان بهذا التأليف، أو قبول ابن صعد هذا العمل و الإنكباب على إنجازه، أو دوافع الناسخ في نسخ هذا الكتاب.

لم يكتف ابن صعد بالترجمة لمتصوفة وأولياء المغرب الأوسط (الجزائر) أو المغرب الإسلامي فحسب، بل شمل كتابه عددا كبيرا من متصوفة الشرق الإسلامي والمغرب والأندلس أي كل العالم الإسلامي، كما أنه لم يتقيد بالعصر الذي عاش فيه، وإنما عاد إلى العصور الإسلامية الأولى. وإن الغرض من هذا التأليف حسب ما ورد في مقدمته هو: " أما بعد فهذا كتاب النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب. يضم أعلامهم، وينشر مآثرهم وأيامهم."[9] أي أخبار الصوفية للتعرف عليهم والإقتداء بسيرهم.

ولقد رتب من ترجم له حسب حروف المعجم، حيث اقتصر في الجزء الأول على من يبدأ اسمه بحرف الألف لا سيما إبراهيم وأحمد، فترجم عبر سبعة وأربعين ورقة على وجهين لاثنين وثلاثين شخصية صوفية ابتدأها بإبراهيم ابن أدهم وختمها بأحمد بن عاشر. وممن ترجم لهم نذكر: إبراهيم بن أحمد الخواص، إبراهيم بن أحمد القيرواني، إبراهيم المصمودي، إبراهيم التازي، أحمد بن هارون الطوسي، أحمد بن أبي الربيع المالقي، أحمد بن العريف، أحمد بن الحسن أبو جعفر الزيات، أحمد أبو العباس السبتي، و غيرهم.

أما الجزء الرابع فخصه بحرف الميم، ويتراوح مـا بين الورقة رقم 48 والورقة رقم 58و. اقتصر فيه على سبع عشرة ترجمة منهم: محمد بن أحمد بن إسماعيل بن سمعون البغدادي أبو الحسن، ومحمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني، ومحمد بن أحمد بن عبيد الله الإشبيلي، ومحمد بن حسن التاونتي المعروف بابن الميلي.

أما الجزء الثامن فاشتمل على حروف العين والغين والفاء والقاف والسيـن والشين والهاء والواو والياء، وترجم فيه لخمسة عشر صوفيا، ويمتد ما بين الورقة 86 والورقة 128. وممن جاء في هذا الجزء نذكر فضيل بن عياض التميمي وأبـي علي سفيان بن سعيد الثوري

وأبـي عبد الله عالم الكوفة وزاهدها، شعيب بن الحسين الأندلسي سيدي أبي مدين، واضح بن عاصم بن سليمان المكناسي أبو مطهر وغيرهم.

تفاوت حجم الترجمة من متصوف لآخر، فهناك ترجمات مستفيضة تأتي في عدة أوراق مثل ترجمة إبراهيم التازي التي جاءت في تسعة و ثلاثين ورقة على وجه واحد، بينما هناك ترجمات أخرى لا تتعدى الورقة الواحدة. ويظهر أن هذا التفاوت يعود إلى حجم ومستوى معلومات ابن صعد للشخصيات التي ترجم لها. كما أنه في الكثير من الأحيان لا يتقيد صاحب الكتاب بالشخص الذي يترجم له، حيث يورد استطرادات كثيرة. و هذا ما يكشف عن سعة ثقافته. ولقد استخدم في عمله هذا أكثر من مائة كتاب حسبما يذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله.(10) أحيانا يشير إلى عناوين الكتب التي ينقل منها مثل: كتاب التشوف لابن الزيات التادلي، والصلة لأبي القاسم، وأعلام مالقة لابن عسكر، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، وكتاب اللطائف لتاج الدين أبي الفضل بن عطاء الله، وكتاب الرقائق للحسن البصري، ونفاضة الجراب لابن الخطيب، والمعجم الصغير لأبي القاسم الطبراني، ولطائف المنن لأبي العباس المرسي، والمعجم للقاضي أبي الفضل. وأحيانا أخرى يكتفي بعبارة: قال ابن خلكان، وقال ابن الخطيب، وقال أبو الحسن القابسي، وقال القاضي ابن عبد الملك.

وفي مواضع أخرى، يذكر كتبا دون أن ينسبها إلى أصحابها مثل: وفي كتاب البهجة أو كتاب مرآة الجنان.

والظاهر أنه كان يدقق في شخصية من يترجم لهم – على الأقل مع البعض– بالعودة إلى مؤلفاتهم مثلما ذكر في ترجمة إبراهيم التازي: "وقفت على كثير من تقاييده في الفقه والأصول وعلوم الحديث بخطه الرائق..."(11)

كما كان يعتمد على الرواية الشفوية، وهذا ما ينعكس من عبارة: "حدّث بعض الثقات ممن عني بأخباره وتقييد آثاره."

وتمثلت خطته في الترجمة، في التعريف بأصحاب الترجمة، وذكر أسباب سلوكهم الطريق الصوفي في سياق قصصي. كما يذكر كراماتهم ومرائيهم. ويختم الترجمة عادة بذكر بعض حكم أصحابها نظما أو نثرا، كما يورد مقتطفات من مؤلفاتهم ورسائلهم. ويحرص على ذكر وفياتهم.

ولقد أصبح كتاب ابن صعد، مرجعا للعديد من المؤلفات، حيث أكثر الاقتباس منه ابن مريم التلمساني في كتابه:"البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"، والذي ذكر بشأنه أبو القاسم سعد الله أنه: "من أهم المعاجم في تراجم الرجال"[12]، وقال كذلك: "ومع ذلك يظل (البستان) وثيقة تاريخية هامة، فقد اعتمد فيه ابن مريم على مؤلفات كثيرة، ومن ذلك بغية الرواد والنجم الثاقب..."[13].

ولقد ألّف في هذا الكتاب وأهميته الدكتور محمود بوعياد مقالا نشر في مجلة الأصالة بعنوان:"البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان وقيمته التوثيقية."[14]

بالإضافة إلى كتاب البستان نجد كتبا أخرى تنقل عن أبي صعد مثل نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي، وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوي، وجذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس لأحمد بن القاضي المكناسي (ت 1025هـ)، حيث يعتمد عليه في الترجمة لكل من محمد الصباغ[15]،محمد بن إبراهيم المهدوي(ت 595 هـ)[16] ومحمد بن الحسن اليصلوتي (ت 595هـ)[17].

ولم تكتف بالنقل عنه كتب التراجم، بل تعدّته إلى كتب التاريخ العام، من ذلك كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصري أبي العباس أحمد، الذي يعتمده في ترجمة الولي أبي العباس أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر الأندلسي نزيل سلا[18] وإن تردد الكتاب في هذه المصنفات وغيرها، على اختلاف أصول ومناطق إقامة أصحابها، ليقوم دليلا عل انتشار هذا المؤلَف، والانكباب على نسخه، وبالتالي توظيفه واستغلاله.

يتشكل المخطوط من مائة وثمانية وعشرين ورقة مكتوبة على وجهين، وتتكون كل ورقة من ثلاثة وعشرين سطرا من الحجم المتوسط. وإن الخط مقروء ماعدا بعض الأوراق التي تصعب قراءة أطرافها العلوية بسبب آثار الحبر أو الماء.

المخطوط ينتهي عند الورقة 128 تليها أوراق غير مكتملة الكتابة و بخط غير واضح، مسجل عليها في الأخير رقم (ي 1292 IV) و بجانبها مجموعة من الأدعية.

ونشير في الأخير أن لابن صعد – كما سبق الإشارة إليه – كتاب آخر يحمل عنوان روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، اقتصر فيه على الترجمة لكل من محمد بن عمر الهواري وإبراهيم التازي والحسن أبركان وأحمد بن الحسن الغماري. والكتاب موجود

تحت الرقم 2596 بالمكتبة الوطنية مصلحة المخطوطات الجزائر العاصمة. وهو مكتوب بخط واضح وكبير الحجم. ولقد تمكنت من الإطلاع عليه واستغلاله. ولقد قام الدكتور يحيى بوعزيز بتحقيقه وطبعه بدار الوكالة الوطنية للنشر والإشهار بالجزائر سنة 2002م. كما أن له قصيدة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، توجد ضمن مجموع في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم د2404 من الصفحة 330 إلى 332.[19]

هوامش الدراسة:

1-ابن مريم التلمساني، *البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان*، تقديم عبد الرحمن طالب، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، دون تاريخ، ص251-252.

2-راجع كذلك: التنبكتي أحمد بابا، *كتاب نيل الإبتهاج بتطريز الديباج*، بيروت، دار الكتب العلمية، دون تاريخ، ص330. و الحفناوي أبو القاسم محمد، *تعريف الخلف برجال السلف*، الطبعة الثانية، تونس، المكتبة العتيقة، 1405هـ / 1985 م، القسم الأول، ص151.

3-اسماعيل باشا، *ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون*، بيروت، دار الكتب العلمية، 1413هـ/ 1992م، المجلد الرابع، ص626.

4-" التلمساني أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى القرشي اللغوي المقري التلمساني. قاضي الجماعة بفاس المتوفي في ذي الحجة من سنة 758...من تآليفه إقامة المريدين في التصوف. و الجامع لأحكام القرآن و المبين لما تضمنه من معاني السنة و آي الفرقان، الحقائق و الرقائق، رحلة المتبتل. لمحة العارض لتكملة ألفية ابن الفارض " اسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين و آثار المصنفين من كشف الظنون، بيروت، دار الكتب العلمية، 1413هـ /1992م، المجلد السادس، ص160.

وورد في النيل: "...وله تآليف ككتاب القواعد...وكتاب الحقائق والرقائق في التصوف...وكتاب التحف والطرف...واختصار المحصل لم يتم وشرح الخونجي، وكتاب عمل من طب لمن حب...وكتاب المحاضرات..." التنبكتي أحمد بابا، المصدر السابق، ص254.

5-سعد الله (أبو القاسم)، *تاريخ الجزائر الثقافي*، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الجزء الأول، ص75.

6-ألف فيه التنسي محمد بن عبد الله (ت 899هـ /1494م) كتاب نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان. حقق منه الدكتور محمود بوعياد جزءا سماه تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1405هـ / 1985م. لم يكمل التنسي سيرة هذا الملك، و كان آخر ما ترجم له في الكتاب. و مما جاء في هذه الترجمة: " ثم بويع الملك الكامل، الماجد الفاضل، الغمام الهاطل، الأسد الباسل، الفذ الفرد، القسور الورد، تاج الأملاك، وبدر الأفلاك، ومنير الأحلاك، سر دهره، ونخبة عصره، وزين مصره، وحيا قطره، الذي وضعت في كفه يد التجارب، مرآة العواقب، و نجدته تصاريف الدهور، و عرفته بمصائر الأمور، و ركب من صروفها العصب و الذلول، و تجشم الحزون و السهول. و جاد بأنفس العلائق و أنعم، و أسدى في الإحسان و ألحم، و أنجد في طلب المعالي و أتهم، و أسرج في تحصيل المكارم و ألجم، فأربى على ملوك العصر، بما أربت به الشمس على البدر، و البحر على القطر، و الثمر على النور و خفقت بحضرته ألوية الجلال، و أضاءت بفنائها بدور الكمال، و رسخ له في المعالي

قدم ثابت، مولانا أبو عبد الله محمد، ابن مولانا أبي زيان محمد، ابن مولانا أبي ثابت ثبت الله نعيما ولاه من خلافته قدمه، و رفع على سائر أعلام الملوك علمه، و أبقاه للمجد يعلي معالمه و يحيي مكارمه، فهو اليوم ملك حضرته الكمال، المرتقي قوة ذروة الجلال، لا زال النصر له خديما، و السعد له نديما. " التنسي، المصدر نفسه، ص255-256. كما نظم فيه قصيدة مدح طويلة تتألف من مائة و أربعة أبيات، مطلعها:

أرقت لدمع من جفوني ينحط   كنثر نفيس الدر إن خافه السمط

7-ابن صعد التلمساني، *النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب*، الرباط، الخزانة العامة، رقم ك 1292، و1و.

8-ابن صعد، المخطوط نفسه، و128و.

9-ابن صعد، المخطوط نفسه، و128ظ.

10-ابن صعد المخطوط نفسه، و1و.

11-المخطوط نفسه، و9.

12-سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر *الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر (ق 16-20م)*، الجزء الثاني، ص367

13-سعد الله أبو القاسم، المرجع نفسه، ص368.

14-مجلة الأصالة، العدد 26، 1975، ص-ص 260-269.

15-ابن القاضي المكناسي أحمد، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، القسم الأول، ص 217-218.

16-ابن القاضي المكناسي، المصدر نفسه، ص 273-274.

17-المصدر نفسه، ص 274.

18-الناصري أبو العباس أحمد، الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997 ، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص 82-83.

19-سعد الله (أبو القاسم)، *تاريخ الجزائر الثقافي*، المرجع السابق، الجزء الأول، ص74.

20-سعد الله (أبو القاسم)، المرجع نفسه، هامش رقم 1، ص74.

المخطوطات المحفوظة بمدرسة الدراسات العربية والإسلامية بغرناطة.

د. نورية عنو
جامعه كمبلوتنس-مدريد

يعد منزل الشابيث من أهم المعالم الموريسكية بغرناطة. حيث يعود إسمها إلى Lorenzo Hernández del Chapiz إلا أن البيت في الأصل يعود إلى صهره الموريسكي López el Ferí، لكن بعد 1572 لم يعد البيت من ملك العائلة لأنه تم ضمه إلي عرش قشتاله بموجب قرار صدر من الملك فليب الثاني[1].

في 27 يناير 1932 أصدر قانون بإنشاء مدارس للدراسات العربية بمدريد و غرناطة لأجل حماية و تنمية الدراسات العربية بإسبانيا[2].

يعتبر المنزل من أهم المكتبات المتخصصة في العالم العربي والإسلامي في إسبانيا وكل العالم الغربي، ويعد أيضا مركزا للبحوث العلمية، كما يحوي على مجموعة كبيرة من الباحثين في نذكر منهم Luis Molina.

رغم قلة المخطوطات الموجودة بالمدرسة العربية بغرناطة إلا أنها تعد سندا قويا في كتابة التاريخ الإسلامي للأندلس وفهمه خصوصا الحياة الدينية.

من الصعب جدا استعارة هذه المخطوطات مقارنة مع مكتبات أخرى متخصصة مثل مكتبة الإسكوريال التي توفر كل الإمكانات اللازمة لتسهيل مهمة الباحث، أو المخطوطات المحفوظة بالمجلس الأعلى للبحوث العلمية بمدريد.

لقد وضعت المدرسة عينات منها على شاشة الكمبيوتر، كما يوجد فهرس إلكتروني لجميع هذه المخطوطات على شبكة الأنترنيت. كما تعمل المدرسة حاليا على تحضير قرص مضغوط لتسهيل الإستعارة تحت إشراف الأستاذة الباحثة Concepción Castillo

---

[1] Camilo Alvarez de Morales."La casa del Chapiz y la escuela de estudios árabes "*Asociación Española de Orientalistas*, *XXXVII 2001*, pp. 99-101.
[2] Camilo Alvarez de Morales."La casa del Chapiz "*Asociación Española de Orientalistas*, *XXXVII 2001*, p.107.

Castillo قامت بفهرسة المخطوطات الموجودة بالمدرسة بطلب من **Fray Darío Cabanelas Rodriguez** جزء من هذه المخطوطات تم إقتناءه من الجامعة و كلية الفلسفة و الآداب بغرناطة.[3]

لم توضح **Concepción Castillo Castillo** في مقالها Manuscritos arábigos que se conservan en la escuela de estudios árabes de Granada بشكل من الأشكال أصل هذه المخطوطات. لكن من الممكن أن تكون قد وصلتنا – قبل أو بعد– حريق باب الرمبلة بغرناطة من طرف الكردينال الحاقد **Cisneros**، لقد حرق أغلبية الكتب الدنية وإستثنى من ذلك كتب الطب، الفلسفة والتاريخ[4].

تنوع محتوى المخطوطات فغالبيتها اتسم بالطابع الديني إضافة إلى مخطوطات في الفقة و القواعد و الأدب، فمجموعها يصل إلى **21** جزءا إلا أن العدد يمكن أن يتجاوز أكثر من **30** جزءا.

أغلبية هذه المخطوطات تم نسخها بالخط المغربي –إلا القليل منها– الذي كتب بالخط المشرقي على سبيل المثال المخطوط رقم **5** لمؤلفه أبو الحسن الهيشم بن محمد، عبارة عن مجموعة قصص القرآن الكريم.

المخطوط رقم **8** بعنوان المصباح المنير في غريب شرح الكبير لصاحبه الإمام أحمد بن محمد بن علي الفيومي. رقم **12** لمؤلفه إبن نباته جمال المصري بعنوان سرح العيون في شرح رسالة إبن زيدون.

والملاحظ أيضا في هذه المخطوطات أن أغلبيتها جاءت مشكلة ومحفوظة في ظروف جيدة، استثناءا منها المخطوط رقم **9** كتاب الواضح لأبي بكر بن محمد بن الحسن الزبيدي، زيادة إلى أن الأغلبية منها غير مرقمة.

أما المخطوط **1** و**2** و**21** فهي عبارة نسخ مختلفة من القرآن الكريم، حيث نسخ الأول يوم السبت **3** من ذي الحجة عام **1300** من طرف الناسخ إبن مبارك الزموري، أما الثاني فقد تم نسخه من قبل إبراهيم بن عشير الغريب، وكما تشير صفحة من الصفحات على

[3] Concepción Castillo Castillo. *Manuscritos arábigos que se conservan en la escuela de estudios árabes de Granada*, p. 1.
[4] Miguel Asin Palacios. Noticia de los mss árabes del Sacro Monte de Granada.

أن تم نسخه بالأندلس في 10 شعبان 1007، و رقم 21 تم نسخها من طرف أحمد بن مبارك و تم إنهاءها في صباح السبت شعبان 1199.

أما فيما يخص الحديث الشريف لدينا المخطوط رقم 3 الذي يحوي في الأصل على مخطوطين غير كاملين لا يحملان أي عنوان، فالأول يتعلق بأمور الخلق، وما خلق الله في يوم عاشوراء، أما الثاني فيتكلم عن الوضوء والصلاة والزكاة والصوم...الخ.

كما تحوي المجموعة عدد لا يستهان به من المخطوطات المتعلقة بفقه اللغة على سبيل المثال المخطوط 10.

والذي يستدعي الإنتباه المخطوط رقم 16 مقدمة إبن خلدون، إضافة إلى المخطوط رقم 15 الذي يتكلم عن التاريخ الحربي بعنوان إيضاح المرامي لمؤلفه محي الدين بن أبي بكر.

أما فيما يتعلق بالفقه الإسلامي لدينا كتاب عقيدة، وجمل مختصرة من واجب أمور الديانة لصاحبه إبن أبي زيد القيرواني، هو عبارة عن مختصر للفرائض حسب المدرسة المالكية، لدينا أيضا نظم الفرائض لإبن رشد لمؤلفه عبد الرحمن الرقاء، تحفة الحكام لإبن عاصم الغرناطي.

بعد هذه النظرة الشاملة عن المخطوطات المحفوظة بالمدرسة العربية للدراسات العربية و الإسلامية بغرناطة، يجدر بنا أن نقدم عرضا مختصرا لكل ما جاء بهذه المجموعة:

رقم 1 : القرآن، نسخ من طرف ابن مبارك الزمور:ب، خط مغربي، مشكّل، بدون ترقيم، حفظ جيدا.

رقم 2: القرآن، نسخ من طرف إبراهيم بن عشير الغريب، خط مغربي، مشكّل، بدون ترقيم، حفظ جيدا.

رقم 3: مجموعة من المخطوطات في الحديث.

1-بدون عنوان وبدون مؤلف، فهو عبارة عن أحاديث تتكلم عن الأشياء التي خلقها الله في يوم عاشوراء خط مغربي, مشكّل, بدون ترقيم, حفظ جيدا.

2-بدون عنوان وبدون مؤلف، فهو يتكلم عن الوضوء، عن الصلاة، الزكاة والصوم...خط مغربي، مشكّل، بدون ترقيم، حفظ جيدا.

رقم 4: مجموعة تتكلم عن مدح النبي الكريم.

1-دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار،مخطوط للشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان ابن أبي بكر الجزولي السملالي الشريف الحسني

2-فهي عبارة عن صفحات تتكلم عن الأدعية التي تلي الصلوات.

3-البردة، لشرف الدين علي محمد بم محمد بن سعيد البوصيري.

4-هذه الصفحات لديها نفس المحتوى السابق.

رقم 5: مخطوط بدون عنوان لصاحبه أبو الحسن الهيشم بن محمد، عبارة مجموعة من قصص القرآن، خط مشرقي واضح، مشكّل، مرقم.

رقم 6: الدرر اللوامع في أصل مقرء الإمام نافع، أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن الحسين الرباطي ابن البرّي، يتكلم عن قراءة الإمام نافع. لقد تم نشره عدة مرات في القاهرة، تونس.

رقم 7: هذا المخطوط يحتوي على مؤلفات في الفقه:

1-جمل مختصر من واجب أمور الديانة،لمؤلفه أبن أبي زيد القيراوني،خط مغربي، مشكّل، ترقيم جديد.

2-نظم الفرائض ابن رشد، لمؤلفه عبد الرحمن الرّقعي الفاسي- خط مغربي، مشكّل جزئيا، هي عبارة عن أرجوزة تتكلم عن الوضوء، الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج.

3-تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام أو العاصميّة نسبة إلى مؤلفها ابن عاصم الغرناطي، الفقيه المالكي المشهور، كما يعتبر دليل للمدرسة المالكية. لقد ترجم وحقق مرات عدة، خط مغربي، مشكّل.

رقم 8: المصباح المنير في غريب شرح الكبير، للشيخ الإمام علي أو أحمد بن محمد بن علي الفيومي، معجم، فمؤلفه هذا عبارة عن شرح للألفاظ الغريبة الموجودة في الشرح الذي قام به أبي القاسم عبد الكريم الرافعي القزويني فتح العزيز على كتاب الوجيز لكتاب لأبي حامد الغزالي المعروف الوجيز في الفروع- خط مشرقي، سهل القراءة، مشكّل جزئيا، غير مرقم.

رقم 9 : كتاب الواضح، لصاحبه أبي بكر بن محمد بن الحسن الزبيدي، فهو في اللغة العربية، خط مغربي، مشكّل، بدون ترقيم، حفظ سيئ.

رقم 10: فهذا المخطوط يحتوي على المؤلفات التالية:

1-القصيدة الخزرجية، لضياء الدين أبي محمد عبد الله بن محمد الخزرجي المالك الأندلسي

في الشعر.

1- شرح القصيدة لأبي القاسم الفُتوح بن عيسى بن أحمد الصنهاجي، في الشعر.

2- شرح أخرى للقصيدة لأبي عبد الله الشريف الغرناطي, في الشعر.

3- شرح للقصيدة بعنوان الرايات السمهرية، لبركات بن عبد الرحمن بن إدريس في الشعر.

4-المثلث في اللغة لأبي القاسم عبد الوهاب بن الحسن المهلّبي البهنسي، وهو شرح لمثلث أبي علي محمد المستنير المعروف بابن قُطْرُبَ، في فقه اللغة.

5- كتاب المثلث، أو القطربيّة نسبة إلى صاحبها ابن قطرب أبي علي محمد المستنير، في فقه اللغة.

6- نظم بعضهم شرح الأبيات القطربيّة لمؤلف مجهول.

7- تفسير المثلث لمؤلف مجهول.

رقم 11: مجموع ظريف حاز من كل معنى لطيف في الأدب بدون مؤلف، خط مشرقي مشكّل.

رقم 12: كتاب سرح العيون في شرح رسالة إبن زيدون، لإبن نباته المصري، في الأدب، خط مشرقي، مشكّل.

رقم 13: ديوان إبن الفارض، في الشعر، خط مشرقي، مشكّل.

رقم 14: كتاب إبداء الملاحة و إنهاء الرجاحة في أصول صناءات الفلاحة، لأبي جعفر بن ليون التجيبي في الفلاحة، خط مغربي، مشكّل جزئيا.

رقم 15: إيضاح المرامي، شرح هدايات الرامي، لمحي الدين بن أبي بكر المعروف بالسلاطي، في التاريخ الحربي، خط مشرقي، بدون تشكيل.

رقم16: مقدمة إبن خلدون في فلسفة التاريخ، خط مشرقي، بدون تشكيل.

رقم 17: مصطلحات عربية-قشتالية وعربية- لاتينية، معجم اللغات، لتوماس دي ليون، خط مشرقي، مشكّل جزئيا.

رقم 18: مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، لمؤلفه سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن موسى البزّار في المدح، خط مشرقي، مشكّل.

رقم 19: مجموعة في فقه اللغة.

1-القطربية للقطرب.

2-رسالة في تحقيق الكليات للرازي في الفلسفة.

3-قصيدة الأصمعي في الشعر.

4-قول أحمد حاشية على المنلى الفناري لمؤلفه أحمد بن محمد بن خضر في المنطق.

5-حواشي على قول أحمد، لهشام الدين في المنطق.

رقم 20 : مجموعة من المخطوطات بخط مغربي بدون تشكيل:

1 حول الأبراج.

2 قصة البلاق.

3 قصة شابة.

4-قصة شابة أخرى.

5-حوار بين ابن عباس و ابن مزاحم حول أهل الكهف.

6-حول أشهر السنة.

رقم21: نسخة من القرآن، خط مغربي، بدون ترقيم.

رغم صعوبة الوصول إلى هذه المخطوطات إلا أن هذا لا يقلل من قيمتها العلمية، بل يزيدنا عزما وإصرارا على فتح مجال البحث والدراسة العلمية؛ وهذه مهمة تقع على عاتق الباحث الجاد الغيور على ثراثه الإسلامي.

ورقات عن حياة وآثار صاحب المعيار.

أ/ عمر بلبشير

الحديث عن عالم وفقيه في وزن الونشريسي يستدعي الإشارة إلى أحداث الزمان وأحواله في المغربين الأوسط والأقصى خلال القرن التاسع وبداية القرن العاشر الهجري، ذلك لأن الونشريسي قد عاش من عمره فترة في تلمسان والفترة الأخرى في مدينة فاس، لذا سأشير بإيجاز غير مخل بالظاهرة السياسية والفكرية في العصر والمكان الذي عاش فيه الونشريسي ليعرف القارئ إلى أي حد تأثر الونشريسي بعصره وأثر فيه.

أولا: الحياة السياسية في عصر الونشريسي :

ولد الشيخ أبو العباس أحمد الونشريسي في عهد الدولة الزيانية، وشاءت الأقدار أن يكون ميلاده في تاريخ استلام أبي العباس أحمد الزياني "المعتصم بالله" الملك سنة 834-866هـ، وهو عهد فتن وحروب، إذ أن المغرب الأوسط يحكمها سلاطين تبع للحفصيين، غير أنهم بين فترة وأخرى يحاولون الاستقلال، إلى جانب المحاولات المستمرة للسيطرة عليها من قبل ملوك بني مرين في المغرب الأقصى[1] .

وأثناء ذلك ظهر الخطر المسيحي بقوة على الشواطئ يهدد دار الإسلام في بلاد المغرب، انتقاما من المغاربة الذين استقبلوا الأندلسيين الفارين إليهم، فبدأ الإسبان والبرتغاليين يخططون لإحتلال المدن الساحلية للمغرب، فاغتنم هؤلاء المعتدون، فرصة تطاحن الدول المغاربية، فيما بينها من جهة وتسابق الأسر الحاكمة إلى كرسي السلطة من جهة أخرى، فأخذوا يدعمون هذا الأمير ضد الأخر، ويغذون الفتنة والتطاحن بالمساعدات المادية والمعنوية، ثم صاروا يتدخلون في شؤونهم الداخلية، فضعفت قوتهم وفترت مقاومتهم للأجنبي،

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي بالمركز الجامعي مصطفى اسطمبولي بمعسكر.

فتعرضت جزيرة جربة للاحتلال المسيحي سنة 837هـ/1436م واستطاع الإسبان أن يستولوا على المرسى الكبير 911هـ/1506م بقيادة القائد الإسباني، "الماركي توماس" وبمباركة من الكنيسة المسيحية ودعمها، ثم احتلوا مدينة وهران سنة 915هـ/1510م وبجاية سنة 915هـ/1510م، واستولى البرتغال على مدينة أصيلة المغربية، وكانوا قد استولوا على سبتة وقصر المجاز، وتم احتلال طنجة سنة 869هـ، وآنفا بعد قليل، بالإضافة إلى الوحشية في أسلوب القتل والتخريب الذي استعمله الجيش الإسباني ضد المسلمين المغاربة وممتلكاتهم، كل ذلك والحكام لاهيتهم أنفسهم وأموالهم، لا يعيرون ما حولهم اهتماماً [2].

ثانيا: الحالة الفكرية في عصر الونشريسي***:

كانت الحالة في العواصم المغربية متشابهة، وخاصة منها في تلمسان وفاس إلى حدٍ ما إذ كثيراً ما كانتا تحت حكم واحد، إما مباشر أو غير مباشر، ورغم أن هذا العصر كان عصر فتن واضطرابات وحروب، مما سبب ضعف الدولة وانحلالها، إلا أن الحركة الحضارية بما فيها العلمية كانت معطاءة وفعالة في كل من تلمسان وفاس، وذلك راجع إلى أمور كثيرة متشابهة منها :

أ- أن كلتا المدينتين كانت عاصمة سياسية تحتضن السلطان وحاشيته، وينفق الأموال الباهظة على تعميرها بالمصانع والمزارع، ويشجع التنافس العلمي والفكري بها.

ب- تشجيع كثير من السلاطين للعلم والعلماء، مما دفع بأغلب أهل العلم إلى الاستقرار في هاتين المدينتين لأنهما تمثلان عواصم العلم بالمنطقة.

ج- الهجرات المستمرة من الأندلس، إذ حمل القوم معهم حضارتهم وعلومهم، فكانت لهم مساهمة معتبرة في تشييد العمارة ودفع وثيرة الحركة العلمية .

هـ-انتشار المدارس ودور العلم في كلتا المدينتين .

هذه إذن بعض ملامح الحياة السياسية والفكرية في عصر الونشريسي، والتي سيكون لها لا محالة الأثر البالغ في صقل شخصيته، وتحديد مواقفه الفكرية والسياسية.

إسمه ونسبــــه :

هو أبو العباس احمد بن يحي بن محمد بن علي الونشريسي، كما عرف نفسه بخطه في مظان عديدة وقد عرفه بعض معاصريه بأنه " احمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي "[3] أي بزيادة اسم عبد الواحد بين محمد وعليّ، ورأيت الاقتصار على تعريف الكتاني في فهرسه والتي يذكر فيها أنه "أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن عليّ الونشريسي التلمساني الأصل والمنشأ، الفاسي الدار والمدفن..."[4].

ونسبه إلى الونشريس يكاد يجمع عليها أغلب من ترجم له، خصوصا وأنه صرح هو نفسه في مقدمة كتابه الفائق[5] وذهب البغدادي في هداية العارفين[6] والناصري في الاستقصاء[7] وكحالة في معجم المؤلفين[8] إلى أنه تلمساني الأصل.

مولده :

ذكر المقري في "أزهار الرياض" وصاحب السلوى أنه "ونشريسي المولد"[9] ولم يصرح بذلك بقية من ترجموا له[10] غير أن الأستاذ حجي في مقدمة كتابه "ألف سنة من الوفيات" ذكر أنه (ولد بتلمسان)[11] ثم تراجع عن ذلك في مقدمة المعيار[12]، أما عن سنة مولده فهي مجهولة، غير أن تحديدها بحوالي سنة أربع وثلاثين وثمانمائة (834 هـ) يؤخذ ذلك من أخبار محمد بن قاسم القصار مفتي فاس بأن الونشريسي توفي سنة 914هـ وعمره نحو ثمانين عاما على ما نقله صاحب البستان[13] ونيل الابتهاج[14].

نشأتــه وتعليمــه :

ارتحل الونشريسي في طفولته المبكرة مع أسرته إلى تلمسان، غير أننا لا نعرف شيئا عن هذه الأسرة إذا لم يذكر المؤرخون فيما وصل إلينا، شيئًا عن والده أوجده.

تفقــه الونشريسي على كبار فقهاء وقته في تلمسان، وفي مقدمتهم الشيوخ العقبانيون أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني[15] وولده القاضي أبو سالم إبراهيم[16]، وحفيده القاضي محمد بن أحمد[17] وعن الشيخ محمد بن أحمد بن عيسى الجلاب[18] وابن مرزوق الكفيف[19] وأحمد بن زكري[20] ومحمد بن العباس العبادي[21] ، وبعد انتقله إلى فاس استفاد كذلك من علمائها، وفي طليعتهم قاضي مكناس محمد بن أحمد اليفريني[22] ومحمد القروى[23].

وهؤلاء إذن هم أغلب شيوخه الذين أخذ عليهم العلم، عدا من أجازه .

أسرته:

حول أسرة الونشريسي فإننا لا نعرف شيئا عن زواجه بمن؟ وأين؟ ومتى؟ إلا أن المصادر تجمع على أن مولد ابنه كان في فاس بعد رحيله عن تلمسان، ويفيدنا صاحب "سلوة الأنفاس" بتاريخ مدقق لوفاة هذا الولد أي عبد الواحد الونشريسي فقال : إنه توفي قتيلا وذلك ليلة الاثنين 17 ذي الحجة الحرام سنة 955 هـ[24] عن نحو 70سنة وهذا يدل على أنه ولد حوالي سنة 885 هـ.

ارتحاله إلى فاس:

في أول محرم من سنة 874 هـ[25] انتقل أبو العباس إلى فاس، ويجمع أصحاب التراجم على أنه ترك تلمسان مكرها، وأنه حصلت له كائنة من جهة السلطات فانتهبت داره ونجا بنفسه إلى فاس[26]، أما عن سبب هذه الكائنة فلم يذكرها هو وسكت عنها المترجمون رغم أن الونشريسي شخصية مشهورة آنذاك بدليل استقباله في فاس والاحتفاء به.

وفي هذا يذكر الشيخ "المهدي البوعبدي" أن الونشريسي لم يفارق بلاده إلا مكرها وهو شيء متفق عليه إلا أنه يضيف قائلا :"وذلك أن ملكها أبا عبد الله محمد بن أبي ثابت المتوكل على الله (866-888 هـ) الذي اشتهر بتشجيعه للعلماء ورعايتهم... ورغم ما إشتهر به فقد حاول إخضاع أحمد بن يحي الونشريسي فصادر أمواله واقتحم عليه داره فهدمها وكان أمكنه التسلل منها فمر عليه الخطر بسلام حيث وصل إلى مدينة فاس..."[27]

وكان ذلك سبب هجرته من تلمسان، وتحوله إلى فاس بعد ملاحقة السلطان له، وفي ذلك يقول إبن مريم :"حصلت له كائنة من جهة السلطان في أول محرم أربعة وسبعين (874هـ) فانتهبت داره ففر إلى مدينة فاس واستوطنها"[28]

مكانته العلمية :

لقي الونشريسي بفاس ما فقده بتلمسان، حيث نال الحظوة والتكريم فطاب له المقام بها، ثم انتقل من بيت مضيفه "محمد بن الحسين الصغير"[29] إلى دار حُبس مجاورة للمسجد

المعلقة بالشرطين بالقرويين الذي واظب على التدريس به، ثم توسع نشاطه فانتقل إلى التدريس في مساجد ومدارس أخرى[30] منها مدرسة "المصباحية" [31] إحدى مدارس القرويين والتي كان يدرس بها المدونة، واستمر على ذلك مع تدريسه لـ"مختصر ابن الحاجب الفرعي" إلى أن توفي، فخلفه ابنه على دروسه الوقفية[32]، وهذا الكرسي هو الذي سمي بعد ذلك باسم "كرسي الونشريسي"[33].

ولقد كان أبو العباس يتقن كثير من العلوم خصوصاً النحو، ويظهر ذلك من فصاحة لسانه وقلمه، إذ نقل عن "المنجور" عبارته المشهورة حتى كان بعض من يحضر تدريسه يقول :" لو حضره سيبويه لأخذ النحو من فيه "[34] وهذه العبارة تناقلتها أكثر الكتب التي ترجمت لـه[35] ويصفه كذلك بـ " الفقيه الكبير الحافظ المحصل النوازلي ..."[36] وقال فيه ابن غازي أمام حلـة من الفقهاء :" لو أن رجلاً حلف بطلاق زوجته أن أبا العباس الونشريسي أحاط بمذهب مالك وأصوله وفروعه، كان باراً في يمينه ولا تطلق عليه زوجته، لتبحر أبي العباس وكثرة إطلاعه وحفظه وإتقانه "[37] وجاء في وصف ابن مريم له بأنه " حامل لواء المذهب على رأس المائة التاسعة "[38]

وقد أخذ عنه طلبة كثيرون شروحه على "المدونة" ومختصر "ابن الحاجب الفرعي"، وتخرج عليه علماء أجلاء منهم ولده "عبد الواحد" الذي تولى قضاء فاس واغتيل غدراً بجامع القرويين سنة (955هـ-1448م)[39]، والفقيه "محمد بن أحمد الغريسي التغلبي" متولي قضاء فاس (976هـ/1568م)[40]، والمحدث عبد الجبار الورتدغيري صاحب زاوية فكيك (ت 956هـ)[41] والحسن بن عثمان التملي الجزولي شيخ فقهاء "تارودانتو" وإقليم "السوس" (ت 932هـ)[42]، وأبو عياد بن فليح اللمطي (ت 936هـ)[43]، وأبو زكرياء يحي بن مخلوف السوسي (ت 927هـ) [44]، وأبو محمد عبد السميع المصمودي من جبل (درن)[45]، وأبو الحسن عليّ بن هارون المطغري فقيه فاس ومفتيها (ت 951هـ)[46]، وأبو عبد الله محمد الكراسي الأندلسي قاضي تطوان(ت 964هـ)[47].

وهؤلاء هم الذين اشتهروا بأخذ العلم عنه، وقد كان الونشريسي محل الاحترام والتقدير من الخاصة والعامة لتجنيبه الخوض في السياسة ومغالطة أولى الأمر، والتزامه بالتدريس، ومواظبته على التأليف حتى وافته المنية في العشرين من شهر صفر 914 هـ عن

عمر يناهز الثمانين سنة.[48]، ودفن بباب "الفتوح" قرب ضريح سيدي محمد بن عياد[49]، وقد رثاه الفقيه أبو عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي بقصائد ذكرها صاحب أزهار الرياض، منها هذه الأبيات :

أبعد إبن يحيى في الغـــــرب عالم	طبق بالفتيا المفاصل مثلـــــــه
ويعرف من فقه النوازل غايـــــة	يوقع منها ما به بان نبلـــــــه
وإن جئت للإنصاف لم يبق مثلـــه	وهذا الجليل ليس ينكر فضلـــه
فإن كان جاء الموت فالصبر والرضا	على ما قضى الخلاق فالحول حوله[50]

آثاره :

يعد الشيخ الونشريسي واحدا من الأئمة المكثرين من التأليف، وهذا ليس بغريب على عالما تصدر الإفتاء ووصف بأنه أحاط بمذهب مالك أصوله وفروعه، وكان تحت تصرفـه مكتبة "ابن الغرديس" الذي توارثها عن رجال وبيوتات عرفوا بالعلم، لاشك أنه سيخلف ثمارا يانعة نضجت خلال عمر ليس بالقصير.

ألف الونشريسي العديد من الكتب جلها في الفقه، وكانت له طريقة خاصة في تصنيفها أشار إليها "إبن عساكر "في "دوحة الناشر" بقوله :"حدثني غير واحد ممن لقيته أن كتبه كلها مورقة غير مسفرة، وكان له عرصة (ساحة المنزل) يمشي إليها في كل يوم ويجعل حمارا يحمل عليه أوراق الكتب، من كل كتاب ورقتين أو ثلاثا، فإذا دخل العرصة تجرد من ثيابه وبقي في قشابة صوف يحزم عليها بمضة جلد ويكشف رأسه، وكان أصلع، ويجعل تلك الأوراق على حدة في صفين، والدواة في حزامه والقلم في يده والكاغد في الأخرى، وهو يمشي بين الصفين ويكتب النقول في كل ورقة، حتى إذا فرغ من جلبها على مسألة قيد ما عنده وما ظهر له من الرد والقبول، هذا شأنه"[51]

ومن أشهر مؤلفاته نذكر:

1- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، وهو اشهر كتبه وبه ارتبطت شهرة الونشريسي، الذي جمع فيه النوازل الفقهية في شكل أبواب تتصل

بتعامل الأفراد، وقم شؤون المجتمع، وقد أثار فيها مسائل ثقافية وإجتماعية وإقتصادية وعقائدية، مثل التعليم والقضاء والتّصوّف والتقاليد والاجتهاد والسلوك وغيرها، ومن خلال هذا الإنجاز ساهم الونشريسي في المحافظ على التراث الفقهي لرجال الإفتاء والقضاء والتشريع للمغرب الإسلامي، وهذا ما أشار إليه بقوله :" جمعت فيه من أجوبة متأخريهم العصريين ومتقدميهم ما يعسر الوقوف على أكثره في أماكنه، واستخراجه من مكانه، لتبدُّده وتفريقه، وانبهام محله وطريقه، رغبة في عموم النفع به، ومضاعفة الأجر بسببه"[52]، وبهذا الكتاب إشتهر المؤلف حتى أصبح يعرف بصاحب المعيار وقد أثنى العلماء على هذا الكتاب إلا ما شذ منهم، وانتهى من تأليفه سنة 901هـ .

2- إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك : ذكره كل من ترجم له، وقد ذكره المؤلف نفسه في كتابه عدة البروق،[53] وهذا الكتاب ضمنه مائة وثماني عشرة قاعدة، وهي قواعد إختلف في تفسيرها فقهاء المذهب وقد طبع الكتاب[54].

3- المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى للائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق : أفاد ابن مريم أنه لم يقم بإتمامه، وكان في صناعة التوثيق، طبع بفاس طبعة حجرية سنة 1228هـ .

4- الوفيات : ذيل به كتاب شرف الطالب في أسْنَى المطالب لإبن قنفد، وقد طبع ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات[55]

5- الولايات : تناول فيه الخطط الشرعية، في سبع عشرة ولاية وهو مطبوع[56] ، ذكره صاحب الأعلام[57] .

6- "أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصاري ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر": وضعها في شكل رسالة أجاب فيها الفقيه الغرناطي "محمد بن قطبة" في شأن من بقي من المسلمين في الأندلس تحت حكم النصارى، أفتى فيها بمعصية من بقي بدار الكفر ولم يهاجر بعد تغلب النصاري على داره، وقال فيها أيضا بقتل من نزح من دار الإيمان إلى دار الكفر لأن كليهما حسب حكمه مرتكب كبيرة، وقد أدرج هذه الرسالة في المعيار[58] ثم أعاد نشرها محققة الدكتور "حسين مؤنس" في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد[59]، وهو كتاب صغير في سبع صفحات طبع على الحجر في فاس ضمن مجموع .

7- "تنبيه الطالب الدارك، على توجيه الصلح بين إبن صعد والحباك" وهي رسالة في ست عشرة صفحة أدرجها في المعيار[60]

8- "نظم الدرر المنثورة وضم الأقوال الصحيحة المأثورة على من تعقب بعض فصول جوابنا على نازلة السيفي وأبي محذورة " وهي عبارة عن رسالة صغيرة أدرجها في المعيار[61]

9- الأسئلة والأجوبة" وهي أجوبة كتبها بتلمسان عن أسئلة شيخه "محمد القوري" بفاس وقد أدرج بعضها في المعيار[62]

10-"المبدي لخطأ الحميدي" وهي رسالة صغيرة في الرد على فتوى في إحدى مسائل النكاح[63]

11-"فهرسة" وضعها براسم تلميذه القاضي إبن عبد الجبار ذكرها المنجور[64] وأشار إليها الكتاني كذلك[65]

12- تعليق على رسالة إبن الخطيب "مثلى الطريقة في ذم الوثيقة" ذكرها المقري في نفحه[66]

13- "عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق": يعتبر مرجعا مهما في مقاصد الشريعة الإسلامية بإحتوائه على عددا ضخما من الفروق التي تبين العلل في إختلاف الأحكام بين المسائل، وهو موضوع قل فيه التأليف بصور عامة في الفقه الإسلامي وفي المذهب المالكي خاصة، نشره محققا "حمزة أبو فارس" [67]

14- "إضاءة الحلك والمرجع بالدرك على من أفتى من فقهاء فاس بتضمين الراعي المشترك"، ذكره المؤلف في كتابه "عدة البروق" بهذا العنوان، أما في مقدمة الكتاب نفسه فإن المؤلف يقول :"أما بعد فهذا كتاب ترجمته بإضاءة الحلك في الرد على من أفتى بتضمين الراعي المشترك"، وهو كتاب مختصر، طبع ضمن مجموع على الحجر بفاس .

إلى جانب ما ذكرناه من الكتب والرسائل، للمؤلف مجموعة أخرى من الكرسات والرسائل أغلبها مدرج في "المعيار" .

خاتمـــــة :

قبل أن نضع نقطـــة النهاية لهذه الأوراق نود أن نؤكد أن وفاة الونشريسي تركت فراغا كبيراً في ميدان الفقه، ولم يستطع أحد أن يملأه، ولا نعلم أن أحدا جاء بعد الونشريسي بلغ رتبته في الفقه المالكي تأليفا ودرسا، فهو يشكل الجسر الذي عبرت بـه هذه الدراسات إلى العهد العثماني، ذلك أن كتاب "المعيار" بما احتوى عليه من فتاوى أهل الأندلس المغرب وتونس والجزائر يعتبر موسوعـــة حيـــة للفقـــه المالكي في المغرب،ولقد صدق من قال أن الونشريسي قد "فاق به الأوائل والأواخر"[68]، ولذلك صدق الذين رثوه بأنهم فقدوا منارة عالية في الفقـــه المالكــــي وأن المغرب الإسلامي خلا بعده من أمثالـــــه، وقد اشترك في رثائه عدد من العلماء والشعراء.

هذه إذن ورقات عن سيرة وآثار رجل من كبار فقهاء المغرب الأوسط، والذي وجدناه من خلال هذه السطور كبيرا في مواقفه ...كبيرا بعلمه ... وكبيرا بمعياره ...،وسنحاول في ورقات أخرى تناول بعض القضايا والمواضع من خلال ما أورده الونشريسي في كتاب "المعيار" .

الهـــوامـــش:

* من غريب الأقدار أن يمضي الونشريسي نصف عمره الطويل في المغرب الأوسط، والنصف الأخر في المغرب الأقصى، فهو عاش حوالي أربعين سنة (834-874 هـ) في تلمسان وأربعين أخرى في فاس (874-914 هـ).أنظر: إبن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، إعتنى بمراجعة أصله الدكتور محمد ابن أبي شنب، تقديم د/عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986م : ص 54 .

** تمكن الحفصيون من الاستلاء على تلمسان يوم السبت 13جمادي الثانية 827هـ/13ماي 1424م، وبعد أحداث سجال تمكن أبو فارس عبد العزيز الحفصي (796-837هـ/1394-1433م) من دخول تلمسان للمرة الثالثة بعد حصار محكم ، ووقع إختياره على أحد الأمراء الزيانيين الموالين له هو أبو العباس أحمد المعتصم بن أبي حمو الثاني، الملقب بالعاقل، فنصبه سلطاناً على المغرب الأوسط سنة 834هـ/1432م. أنظر : التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حققه وعلق عليه محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985م :ص236 - ص247-248 - الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماظور، المكتبة العتيقة، تونس،(د.تا) : ص109-113.

1- كانت الحركة الأول نحو تلمسان في عهد أبو يعقوب يوسف بن يعقوب (685-706هـ) سنة 689 هـ/1290م،وكانت المحاولة الثانية سنة 695هـ/1296م، والثالثة سنة 696هـ/1297م، والرابعة كانت سنة 697هـ/1298م، أما الخامسة وهي أطولها من الناحية الزمنية وأشدها عنفا وأكثرها عددا، فقد كانت في سنة 698هـ/1299م، وهذه المحاولات تدل على اهتمام بني مرين بعاصمة بني زيان وتصميمهم على الاستلاء عليها بحيث قاموا بغزوها خمس مرات في فترة زمنية لم تتعد تسع سنوات أي بمعدل غزوة في كل سنتين تقريباً ثم توالت الغزوات بعد ذلك، حول تفاصيل هذه الحروب وحصار مدينة تلمسان بوجه خاص، أنظر : ابن أبي زرع، الأنيس المطر بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق وطبع دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1973م : 370-374. ابن خلدون، العبر، طبعة بيروت، 1968م : ص 195 - التنسي، نظم الدر : ص130-131 - وبعد احتلالهم لتلمسان في عهد السلطان أبو الحسن المريني أعاد المرنيين احتلال المغرب الأوسط سنة (753هـ/1352م) حتى وفاة السلطان أبي عنان سنة 759هـ/ 1358م-أنظر القلقشندي، صبح الأعشى طبع بالمطبعة الأميرية، بالقاهرة 1333هـ/1915م : 198/5 السلاوي (أحمد بن خالد الناصري) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مصر 1312هـ : 89/2 - د/محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني: دار القلم، الكويت ط2 1408 هـ/1982م : ص221- ثم عاد المرنييون لإحتلال المغرب الأوسط سنة 772هـ/1370م خلال عهد السلطان عبد العزيز المريني. إبن خلدون، العبر ط بولاق : 328/7-332

2-السلاوي، الاستقصا: ص 110/4-116- عبد الرحمان بن محمد الجلالي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر بالاشتراك مع دار الثقافة بيروت، لبنان 1402هـ/1982م: ج3/ص88 - أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة، بين الجزائر وإسبانيا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1968م ك ص96 - اندري برنيان وأخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة إسطنبولي ومنصف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984م : ص124.

*** حول الحياة الفكرية والحضارية في المغرب الأوسط راجع : المقالات الواردة في مجلة الأصالة (عدد خاص) : السنة : 4 - العدد : 26-رجب-شعبان 1395هـ/جويلية-أوت 1975م.

3- إبن عساكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، طبعة حجرية بفاس سنة 1314هـ : ص47

4- عبد الواحد بن عبد الكريم الكتاني، فهر الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، باعتناء د/إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي 1406هـ/1986م : ج2/ص1122

5- عنوانه الكامل: "المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بآداب المواثق وأحكام الوثائق "وهو لايزال مخطوط

6- البغدادي، هداية العارفين في أسماء المؤلفين وأثار المصنفين، مطبعة وكالة المعارف. إسطنبول 1955م: 1/ 138

7- السلاوي الناصري، الاستقصا : 165/4

8- كحالة (عمر رضا) معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب، دمشق 1961 : 205/2

9- المقري، أحمد بن محمد أبو العباس (أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض وما ياسها مما يحصل به إرتياح وإرتياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، المغرب (د-تا) : 65/3 الكتاني الفهرس : 153/2

10- يبدو أن الدين نسبوا أصله إلى تلمسان لا شك أنهم يعنون أنه ولد بتلمسان.

11- محمد حجي، ألف سنة من الوفيات، جمع وتحقيق نصوص وفيات، محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1976م : ص4

12- ذكر انه ولد بجبال ونشريس في التقديم الذي وضعه لكتاب المعيار : أنظر : كتاب المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء باشراف الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، 1401هـ/1981م : ج1/صفحة : أ

13- إبن مريم، البستان: ص 54

14- التنبكتي (أحمد بابا)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، نشر عبد الحميد عبد الله الهراسة، مشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبية، 1989م : ترجمة رقم 130/صص135-136.

15- هو أبو الفضل قاسم بن سعيد بن محمد العقباني، أحد الشيوخ المحققين النقاد توفي (854هـ/1450م). التنبكتي، نيل الإبتهاج: 223-224.

16- أبو سالم إبراهيم بن قاسم العقباني، وهو إبن الإمام قاسم توفي سنة 884هـ أنظ في ترجمته : إبن مريم، البستان: 57-58 .

17- هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم العقباني حفيد الإمام أبي الفضل توفي سنة 871هـ.أنظ في ترجمته : نيل الإبتهاج:ص57- الحفناوي، محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (د.تا) : 265/1.

18- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى شهر بالجلاب توفي سنة 875هـ، أنظر في ترجمته: التنبكتي، نيل الابتهاج : 321- شجرة النور الزكية: 265/1 - الحفناوي، تعريف الخلف: 1ج/ص264 رقم الترجمة : 975.

19- أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق عرف بالكفيف، ولد سنة 824 هـ وتوفي سنة 901 هـ، أنظر في ترجمته: التنبكتي،نيل الإبتهاج: 330- محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية: 268/1- الحفناوي، تعريف الخلف: 149/1.

20- هو أبو العباس أحمد بن محمد بن زكري المانوي التلمساني توفي سنة 299هـ، أنظر في ترجمته: نيل الابتهاج: ص84 – تعريف الخلف: 52/1-45

21- هو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي شهر بابن العباس توفي سنة 871هـ، أنظر في ترجمته : شجرة النور: 264/1- الكتاني، فهرس الفهارس : 1122/2 ترجمة رقم 633 – نيل الإبتهاج 918

22- أبو عبد الله محمد بن احمد بن عبد الله اليفرني، شهر بالمكناسي قاضي الجماعة بفاس توفي سنة 917هـ أو 918هـ – أنظر في ترجمة، نيل الإبتهاج: 333 شجرة النور: 275/1

23- أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن أحمد بن محمد القروي، شيخ الجماعة بفاس أندلسي الأصل، توفي سنة 872هـ، أنظر في ترجمته : ابن القاضي (أحمد أبو العباس)، درة الحجال في غرة أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور: 295/2-286- نيل الإبتهاج: 318-320 – شجرة النور: 261/1

24-أنظر الكتاني، سلوة الأنفس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، طبعة حجرية، فاس 1316هـ : 147/2- المنجور، فهرس، تحقيق محمد حجي، دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976م: 54

25- أنظر المعيار: 341/8

26- –ابن مريم، البستان: ص53، عبد الرحمان الجلالي، تاريخ الجزائر العام: 76/3

27- الشيخ المهدي البوعبدلي، الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الإمام أحمد بن يحي الونشريسي، مجلة الأصالة عدد 84/83 – شعبان/رمضان 1400/جويلية/أوت 1980م، ملحق خاص: ص22

28- ابن مريم، البستان : 53

29- ذكر إبن القاضي "انه لما قدم (الونشريسي) مدينة فاس نزل على الأستاذ محمد الصغير..." ابن القاضي، جذوة الاقتباس، فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، طبعة حجرية، فاس 1309هـ/1891م : صص80-81.

30- المنجور، فهرس المنجور: ص50

31- هذه المدرسة شيدها أبو الحسن المريني وعرفت بالمصباحية نسبة إلى الإمام مصباح بن عبد الله الباصلوتي، وهو أول من عين للتدريس بها، السلاوي، الاستقصا : 54/2-87 – محمد الفاسي، نشأة الدولة المرينية، مجلة

البينة، العدد الثامن 1962م: ص28-

32- المنجور، فهرس المنجور: 53

33- أنظر الأستاذ أحمد طاهر الخطابي في مقدمة تحقيقه لكتاب "إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك" للونشريسي، الرباط 1400هـ/1980م : ص63

34- فهرس المنجور: ص50

35- نيل الإبتهاج : 87-البستان : 53

36- البستان : ص53- سلوة الأنفاس: 154/2

37- درة الناشر: 47 – أزهار الرياض: 66/3-83.

38- ابن مريم، البستان: 53

39- المنجور، فهرس المنجور: 54

40- استعان الونشريسي كثيرة من خزانة تلميذه هذا، أنظر في ذلك : التنبكتي، نيل الإبتهاج: ص87-88 – البستان: ص54 – الشيخ المهدي البوعبدلي، الجوانب المجهولة من ترجمة حياة ... : ص26

41- فهرس المنجور: ص12 – فهرس الفهارس : 1122/2 – دوحة الناشر: 132

42- درة الحجال: 240/1 – فهرس المنجور: 51

43- أنظر ترجمته في: فهرس المنجور : 50-51 – البستان: 53 – جدوة الاقتباس: 157

44- أنظر ترجمته: نيل الإبتهاج: ص359 – فهرس المنجور: 51-52

45- أنظر ترجمته: فهرس المنجور : 51 – إبن مريح: 53 – شجرة النور : 275/1

46- أنظر ترجمته: فهرس المنجور: 41-50 – نيل الإبتهاج: 212-213 جدوة الاقتباس: 477/2 – درة الحجال: 254/3 – شجرة النور الزكية: 278/1

47- درة الناشر: ص21 – عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء 1965م : 423/2

48- تتفق جميع المصادر على أنه توفي سنة 914هـ، باستثناء صاحب الدوحة الذي ذكر انه توفي في أواخر العشرة الأولى، أي المائة العاشرة: ص48، ومما يؤخذ على صاحب الدوحة عدم الدقة في ضبط الوفيات.

49- الكتاني، سلوة الأنفاس : 155/2

50- أزهار الرياض: 306/3

51- دوحة الناشر: ص47-48

52- الونشريسي، المعيار: ج1/ص1.

53- الونشريسي، عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق، دراسة وتحقيق حمزة أبو فارس، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ط1 1410هـ/1990م: ص106

54- طبع بالمغرب سنة 1400هـ/1980م بتحقيق الأستاذ أحمد طاهر الخطابي، وقد طبع أيضا بتونس بتحقيق محمد بن قويدر سنة 1985

55- طبع بالرباط سنة 1396هـ/1976م، بتحقيق الأستاذ محمد حجي

56- طبع بالمطبعة الجديدة بالرباط سنة 1356هـ/1437م

57- الزركلي، الأعلام : 269/1.

58- الونشريسي، المعيار: 119/2.

59- المجاد الخامس عدد 1-2 سنة 1377هـ/1457م

60- المعيار: 514/6

61- المعيار: 574/6

62- المعيار: 283/4 – 334/6

63- طبع على الحجر بفاس ضمن مجموع

64- الفهرس: ص50

65- فهرس الفهارس: 1122/2

66- نفح الطيب: 278/6

67- عن دار الغرب الإسلامي ط1، بيروت، لبنان : 1410-1990م .

68- الكتاني، سلوة الأنفاس : 154/2.

لسان الدين ابن الخطيب وكتاب الإحاطة

الدكتور يوسف طويل.

قبل أن نبدأ بالحديث عن كتاب "الإحاطة" نرى لزامًا علينا أن نقدّم نبذة مقتضبة عن سيرة مؤلفه، ذلك الرجل العظيم الذي ملأ الدنيا بعلمه وأدبه ولم يكلّ ويقْعُد. فنقول: هو[1] محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن علي السَّلْماني، نسبة إلى سلمان وهو حيّ من مُراد من عرب اليمن القحطانيين. قرطبيُّ الأصل، ثم طُلَيْطُلِيُّه، ثم لَوْشيُّه ثم غَرْناطيُّه. يكنّى أبا عبد الله، ويلقب بلسان الدين، وهو لقب مشرقي. وكان يُعرف أيضا بذي العُمرين، لاشتغاله بتدبير الحُكم في النهار، وبالتصنيف في الليل. كما أسبغ عليه سلطان غرناطة الغني بالله لقب ذي الوزارتين، لجمعه بين الوزارة والكتابة، إذ كانت الكتابة آنذاك لا تقل شأنا عن الوزارة، ولا سيما إذا كان صاحبها، كابن الخطيب، يتولى كتابة الرسائل الرسمية وغير الرسمية.

أصل سلفه بني سَلْمان من عرب اليمن، استقروا عقب الفتح[2] بقرطبة، ثم غادروها وانتقلوا مع كثير من المعارضين للحكم الرَّبَضي، على أثر وقعة الرَّبَض الشهيرة سنة 202هـ/ 817م، إلى طليطلة واستقروا بها. وعندما شعروا بقرب سقوط[3] طليطلة غادروها إلى لوشة Loja.

عُرف بيته بقرطبة وطليطلة ببني وزير، ثم عرف بلوشة ببني الخطيب. وقد أُطلق لقب "الخطيب" على جدّه الأعلى "سعيد"، إذ كان خطيبا بلوشة، فعرف به أبناؤه من بعده، و"سعيد" هذا هو أول من استوطن لوشة. ثم انتقل جدُّه الأقرب "سعيد" والد أبيه من لوشة إلى غرناطة، عندما نافسه جيرته بنو الطُّنْجالي الهاشميون، وتزوج من إحدى قريبات زوجة السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد بن يوسف النَّصري (271- 701هـ/ 1272- 1301م)، ما أحكم الصلة بينه وبين القصر.

---

*- أستاذ الأدب الأندلسي والدراسات العليا بالجامعة اللبنانية- بيروت.

ولـــد أبوه[4] عبد الله بغرناطة عام 672هـ/ 1302م، ونشأ بها وتقرَّب من القصر وخُصَّ بلقب الوزارة. ثـــم ترك غرناطة وانتقل إلى لوشة حيث ولد ابنه لسان الدين محمد وذلك في الخامس والعشرين من شهر رجب سنة 713هـ/ 1313م. ولما عاد أبوه إلى غرناطة ليخدم في قصر السلطان أبي الوليد إسماعيل بن فرج النصري (713- 725هـ/ 1313-1324م) عاد معه محمد، فنشأ بها، وتأدَّب على شيوخها، وهم كُثُر، فأخذ عنهم القرآن، والفقه، والتفسير، واللغة، والرواية، والطِّب، وصناعة التعديل، وقد ذكرهم تحت عنوان "المشيخة" في آخر كتابه "الإحاطة"[5]. وروى ابن خلدون أن لسان الدين تأدَّب على مشيخه غرناطة وأخذ عنهم دون أن يذكرهم، واكتفى بالقول بأنه اختصَّ بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطب، ونبغ في الشعر والترسُّل[6]. وأضاف أنه امتدح السلطان أبا الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج النصري (733- 755هـ/ 1332-1354م) وملأ الدولة بمدائحه، فولاه رئاسة الكتَّاب ببابه، وثناها بالوزارة، ولقَّبه بها يوم كان الحاجب أبو النعيم رِضْوان رئيس وزرائه[7].

ولـــمَّا مات أبو الحجاج أبقاه ابنه السلطان الجديد الغني بالله محمد بن ابي الحجاج يوسف النصري (755هـ- 793هـ/ 1354- 1374م) في مركزه وزاد في تكريمه، وضاعف حُظْوته وأعلى مجلسه. وفي الثامن والعشرين من رمضان من عام 760هـ/ 1358م وثَبَ أخو الغني بالله، إسماعيلُ بن أبي الحجاج يوسف النصري، الذي كان معتقلاً في أبراج قلعة الحمراء، بمؤازرة بعض الناقمين على الغني، إلى هذا الأخير وأقْصَوه عن الحكم ونادوا بإسماعيل سلطانا، ففرَّ الغني بالله إلى وادي آش **Guadix**. وسعى ابن الخطيب إلى مصانعة السلطان الجديد، فاستبقاه في الوزارة، ولكن لأسابيع قليلة فقط، حيث قبض عليه واعتقله. وسعى سلطان المغرب أبو سالم المريني لدى سلطان غرناطة الجديد إلى أن يُجيز للغني بالله الانتقال إلى المغرب برفقة ابن الخطيب، فأفرج عن ابن الخطيب، فلحق بسلطانه المخلوع في وادي آش، وانتقل الاثنان من هناك إلى المغرب، فوصلا مدينة فاس في السادس من محرم سنة 761هـ/1359م. وفي السادس لذي القعدة من العام 762هـ/ 1360م توفيت زوجة ابن الخطيب، أم ولده، فدفنها بالبستان المتَّصل بداره بمدينة سلا، ووصفها بواحدة نساء زمانها[8]

ولّما ثاروا بغرناطة، وقتلوا السلطان إسماعيل، ونادوا بمحمد بن إسماعيل بن فرج سلطانًا، جاز الغني بالله إلى الأندلس مع قاضي حضرته أبي الحسن النباهي ووزيره ابن الخطيب، ففرّ السلطان الجديد، واستردّ الغني بالله ملكه، وذلك في الحادي والعشرين من شهر جُمادى الآخرة سنة 763هـ/ 1361م[9]. وفي أوائل سنة 764هـ/ 1362م وصل ابن خلدون إلى غرناطة، بعد أن فقد نفوذه في بلاط فاس، واستقبله ابن الخطيب أحسن استقبال. وفي سنة 766هـ/ 1364م عاد ابن خلدون إلى المغرب بعد أن فترت العلاقات مع ابن الخطيب[10].

ثم شعر ابن الخطيب بأن أعداءه، وفي مقدمتهم الوزير أبو عبد الله محمد بن يوسف ابن زَمْرَك، والقاضي أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي، والوزير سليمان بن داود، أخذوا يكيدون له عند الغني بالله، وتخيّل أن الغني بالله أخذ يميل إلى قبول وشاياهم، فاتّصل سرّا بسلطان المغرب أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني، فوعده بأن يؤمّن له الحماية اللازمة والرعاية الكافية، وأخذ منه عهْدًا بالإقامة في كنفه. عندئذ استأذن الغنيّ بالله في تفقّد الثغور، وسار إليها في لّمة في فرسانه، ومعه ابنه علي، فمال إلى جبل طارق، فتلقّاه قائد الجبل، بناء على أمر سلطان المغرب أبي فارس المريني، فأجاز إلى سبتة في جمادى الآخرة من عام 773هـ/ 1371م، ثم توجَّه إلى تِـلِمسَان فوصلها في التاسع عشر من رجب من العام المذكور، واستقبله السلطان أحسن استقبال. وكان قد بعث، وهو يغادر وطنه إلى غير رجعة، برسالة وداع إلى الغني بالله، يبرِّئ فيها نفسه ونزاهة مقصده، وبعث منها نسخة إلى ابن خلدون، أوردها هذا الأخير كاملة في كتابيه "كتاب العبر" و"التعريف بابن خلدون"[11]، وهي من أروع الرسائل إجادة وبلاغة، وقد بدأها بأربعة أبيات من الشعر، نذكر منها هذين البيتين: [المنسرح]

بانوا فمن كان باكيًا يَبْكي ... هذي رِكاب السُّرى بلا شَكّ

تصدّع الشّملُ مثلما انحدرت ... إلى صُبُوب جواهرُ السِّلْكِ

وفي الشهر نفسه من السنة أرسل سلطان المغرب سفيره إلى غرناطة، فأتى بأسرة ابن الخطيب مكرّمة. عندئذ وجّه إليه القاضي أبو الحسن النباهي تهمة الإلحاد والزندقة والطعن في الشريعة والوقوع في جناب الرسول الكريم، بعد أن نعى عليه تدخّله في شؤون القضاء أيام

ولايته القضاء، فأصدر فتوى بإحراق كتبه، فأُحْرقت في ساحة غرناطة، وصُودرتْ أملاكه. واسْتُحثّ سلطانُ المغرب على تسليمه لإجراء العقوبة عليه، فرفض.

ولـــما توفي سلطان المغرب في ربيع الآخر من عام 774هـ/1372م، فَقَدَ ابن الخطيب حاكمًا مخلصًا يحميه من أعدائه، فلجا إلى الوزير أبي بكر ابن الغازي، الذي تولّى أمور الدولة ريثما يَكبُر ابنُ السلطان الطفلُ السعيد.

وانتقل ابن الخطيب والوزير ابن غازي من تلمسان إلى فاس، فقام الثوار واقتحموا مدينة فاس ونادوا بولاية أحمد ابن السلطان أبي سالم، فأذعن ابن غازي لمطالبهم، فَخُلع الطفل السعيد، ودخل أحمد البلد وجلس على العرش، وذلك في أوائل محرم من العام 776هـ/1374م. عندئذ تحقّق لسلطان غرناطة ما يريده، فقبض سلطان المغرب الجديد على ابن الخطيب، وأودعه السجن، وأخبر الغنيَّ بالأمر، فأرسل الغنيُّ وزيره ابن زمرك إلى فاس، فأُحْضر ابن الخطيب في مجلس شورى، ووجّهت إليه التُّهم المذكورة آنفًا، وامْتُحن بالعذاب. وبرغم دفاعه عن نفسه وظهور براءته من تهمة الزندقة، فقد أُعيد إلى السجن. ثم دسَّ إليه خَصْمُه الوزير سليمان بن داود بعض الأوغاد من حاشيته، فطرقوا السجن ليلاً وقتلوه خنقًا. وفي اليوم الثاني أُخْرجت جثّته ودفن في مقبرة باب المحروق، أحد أبواب مدينة فاس. ثم أخرجوه في اليوم الثالث من القبر، وأشعلوا من حوله النار، فاحترق شعره واسودَّت بشرته، ثم أُعيد إلى القبر قبل أن يحترق، وذلك في ربيع الأول من العام 776هـ/1374م[12]. ولا يزال قبره قائمًا في باب المحروق بفاس في ضريح صغير عليه هذه العبارة: "هذا ضريح العلاّمة لسان الدين ابن الخطيب".

وقـــد امتلك ابن الخطيب ناصية الأدب، شعرًا ونثرًا، فكان له نثر مسْتملح غلب عليه السجع، وجمع بين دقة الصنعة ورقة الطّبْع، وشعر برع فيه ونبغ، سواء في القصيدة العربية الكلاسيكية أو في فن التوشيح، حتى انتهت إليه رئاسة هذا الفن، وصار من ألمع شعراء وأدبـــاء عصره، ما دفع معاصره وصديقه ابن خلدون إلى القول: "ونبغ في الشعر والترسّل بحيث لا يُجارى فيهما".[13] وأضاف: "وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر، والمعارف والأدب، لا يُساجل مداه، ولا يُهْتدى فيها بمثل هُداه".[14] كـــما أعده ابن الأحمر "شاعر الدنيا، وعلم المفرد والثنْيا، وكـــاتب الأرض، إلى يوم العرض[15]..."

وكـــان ابن الخطيب مُعْجَبًا بشعره، مُعْتدًّا به، هاكم قوله من قصيدة يهنِّئ بها الغني بالله يوم عقد بيعته سنة 755هـ/ 1354 [16]: [الطويل]

وَدُونَكَها من بَحْرِ فكْري جواهرًا تُقلَّدُ فـــي نَحْرٍ وتُنْظمُ فـــي عِقْدِ
رَكَضْتُ لها خَيْلَ البديهة جاهـــدًا وأسمعْتُ آذانَ المعاني علـــى بُعْدِ

وقـــد تناول فيه موضوعات الشعر العربي وأغراضه المعروفة من مديح ورثاء وغزل...

واستفرغ معظم مدائحه في خدمة بني نصر، وكان السلطان أبو الحجاج أوفرهم نصيبًا. كما مدح سلاطين بني مرين بالمغرب. وجرى في قصائد المديح ومقطوعاته على سُنَن قدماء المشارقة، فبدأها بالغزل ووصف الخمر والطَّلَل، وعدّد فيها صفات الممدوح المعروفة من شجاعة وكرم ومروءة وعدل... كذلك له مدائح نبوية قالها في مناسبة ذكرى مولد الرسول الكريم، أشاد فيها بذكره، وأشار إلى بعض معجزاته، وهي تختلف عن قصائد المدح من حيث دِفْق العاطفة وحرارة الإيمان.

وفي الرثاء بَدَت عاطفته صادقة ملتهبة، عبّر فيه عن إحساسه العميق بحقيقة الموت، ولا سيما في رثاء زوجته التي أخذت منه كل مأخذ، فقد أظهر رثاؤه مدى لوعته وحرقته على فَقْدها، حيث أحسَّ بقرب الرحيل، فطلب منها أن تمهِّد لديها مُضْطَجَعًا له، فقال[17]: [المنسرح]

رُوِّع بـــالي وهـــاجَ بَلْـبَالي وسَـــامني الثُّكْلُ بَـــعْدَ إقْبَالِ
فانتظريني، فـــالشوق يُقْلقُنــــي ويَقتضي سرعتي وإعجـــالي
ومَهِّدي لـــي لديكِ مُضْطَجَعًا فعـــن قريبٍ يكون تَرْحالي

وجادت قريحته بشعر الغزل، فسار فيه على خطى ابن زيدون وأمثاله ممن كانت المحبوبات يقمْن بزيارتهم عند قدوم الظلام، كقوله فيمن عاتبته، لأنـــه تناساها[18]: [البسيط]

زارتْ ونَجْمُ الدُّجى يَشكو من الأَرق والزُّهْرُ سابحة فـــي لُجَّة الأُفُقِ
والليلُ مِنْ روعةِ الإصباح في دَهَشٍ قـــد شاب مَفْرِقُهُ من شدة الغَرقِ
قالت: تناسيْتَ عَهْدَ الحبِّ، قلْتُ لها: لا والذي خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقِ

وقـــد أجمع النقاد على أنه من كبار وشّاحي الأندلس، برغم أن فن التوشيح طُمسَ رَسْمُهُ في زمانه، وأهـــم موشحاته تلك التي تتكون من أحد عشر قفلاً، ومطلعها[19]:

جـــادك الغيث إذا الغَيْثُ هَمي يـــا زمان الوصل بالأندلُسِ
لـــم يكـــن وَصْلُك إلاّ حُلُمـــا في الكرى أو خُلْسَة المختلسِ

وتأليفه جيدة في مِلَح الشعر والخبر، وقد توزَّع إنتاجه في التأليف ما بين نظم ونثر، يدور حول الأدب، والتاريخ، والجغرافيا، والسياسة، والطب، وأصول الدين، والتصوف، والشريعة، والموسيقى، والتراجم، بعضه كتبه في غرناطة، والبعض الآخر في المغرب، وينوف على الستين مؤلَّفًا، ما بين كتاب ورسالة. وقـــد أورد ثبتًـــا بمؤلّفاته في ترجمته التي عقدها لنفسه فـــي آخر كتابه "الإحاطة"[20]. غير أن هذا الثبت لا يشمل كل كتبه. كما ذكر بعض كتبه ورسائله في كتابيه "نفاضة الجراب"[21] و"ريحانة الكُتاب"[22].

وذكر المقري مؤلفات الخطيب وقال إنها نحو الستين[23]. ومؤلّفاته التي وصلت إلينا تدور في معظمها حول الأدب والتاريخ، وما لم يصل إلينا فقد أُحرق معظمه، ويتعلق بالطب والأخلاق والعقائد...وأهم مؤلّفاته كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة"، فهو أشهرها وأضخمها، ويعدُّ موسوعة تاريخية وأدبية وجغرافية. وقد استهلّه بمقدمة مسجّعة بدأها بالحمد والثناء، ثم انتقل إلى ذكر السبب الذي دعاه إلى كتابته وهو أن بعض المصنِّفين أفرد لوطنه تاريخا، كتاريخ مدينة بُخارى لمحمد بن أحمد بن سليمان الفخار، وتاريخ بغداد للخطيب أبي بكر أحمد بن علي البغدادي، وتاريخ دمشق لأبي القاسم علي لبن الحسن بن عساكر، وتاريخ مصر لعبد الرحمن بن أحمد بن نواس، وتاريخ مالقة لأبي عبد الله بن عسكر... فداخلتْه عصبية حب الوطن، فأقدم على كتابة تاريخ لوطنه غرناطة، زيّنه بريشته التي قدَّمت لنا لوحة ولا أجمل عن محاسن مدينته غرناطة، فبدتْ في عيوننا أرفع قدرًا وأشهر ذكرًا، وأجل شأنًا وأعزَّ مكانًا، من أن تفاخر أو تطاول، أو تعارضَ أو تصاولَ. وقد وصفها في مقدمة كتابه "الإحاطة" في قوله: "فداخلتني عصبيَّة لا تقْدح في دين ولا منصب، وحميّةٍ لا يُذمُّ في مثلها مُتعصِّب...ورأيت أن هذه الحضرة التي لا خفاء بما وفّر الله من أسباب إيثارها، وأراده من جلال مقدارها، جعلها ثَغْرَ الإسلام، ومُتَبَوَّأ العرب الأعلام...وما خصَّهَا به من اعتدال الأقطار وجريان الأنهار، وانفساح الاعتمار والتفاف الأشجار...فعـــاشقُ الجمال عُذرُهُ مقبول، ولله درُّ أبي الطَّيِّب حيث يقول[24]:
[الوافر]

ضُروبُ الناس عُشاقُ ضُروبًا فـــأَعْذَرُهُم أشفُّهُمُ حـــبيبا

فلست بِبَدِعٍ ممن فُتن بحبِّ الوطن، ولا بأول ما شاقهُ منزلٌ فألقى بالعَطَن، فحبُّ الوطن معجون بطينة ساكنة، وطرْفُه مُغْرى بإتمام محاسنه..."[25]. أضف إلى ذلك سببًا آخر، وهو أن أبا القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقي الملاحي الغرناطي ألّف عن بلده غرناطة كتابًا أسماه: "تاريخ علماء إلبيرة"، إلا أن هذا الكتاب، في نظر ابن الخطيب، غير كامل، لا يَشْفي من غلّة ولا يَفي بالغرض المقصود: "وقد كان أبو القاسم الغافقي من أهل غرناطة، قام من هذا الغرض بفرْض، وأتى من كلّه ببعض، فلم يَشْف من غُلَة، ولا سَدَّ خَلَّة، ولا كثَّر قلَّة، فقمْتُ بهذا الوظيف، وانتدبْتُ فيه التأليف..."[26]

وعنوان الكتاب يدلّ على الغاية التي رمى إليها ابن الخطيب بتأليفه، وهي تقديم صورة شاملة عن كل ما يتعلق بمدينة غرناطة من أوصاف وأخبار، فذكر مروجها وجبالها وأنهارها، وتغنّى بها فقال[27]: [الكامل]

بَلَــدٌ تَحفُّ به الرياضُ كأنّه   وَجْهٌ جميلٌ والرياض عذارُهُ

وكان قبله قد تغنى بها ابن جبير، صاحب الرحلة، فقال[28]: [مجزوء الرمل]

يـــا دمشقَ الغرْبِ هَـــاتيـــ   كَ، لقد زِدْتِ عليها

تحتـــك الأنهــارُ تَجــرِي   وَهيَ تَنْصبُّ إليـــهَا

وترجم ابن الخطيب لثلاث وتسعين وأربعمائة شخصية أندلسية، ممن حكموا غرناطة، أو وفدوا إليها من المغرب أو المشرق، من ملوك، وأمراء، وأعيان، وولاة، ووزراء، وقضاة، وفقهاء، وكتّاب، وشعراء، وزهّاد، وصوفية...ولم يَنْس أن يكتب سيرته الذاتية في آخر الكتاب، ولكنها ترجمة موجزة تناولت نسبه، ومولده، ونشأته، وتقلّده الوزارة لأبي الحجاج يوسف النّصري ثم لولده الغني بالله، ونكبته مع الغني بالله وهجرته إلى المغرب، ثم عودته مع الغني بالله سنة 763هـ/ 1361م، ثم مشيخته، ومؤلّفاته، وإيراده بعض شعره.

والكِتاب لم يُكتب دَفْعة واحدة، فقد بدأ بجمعه قبل نفْيه مع سلطانه الغني بالله سنة 761هـ/ 1359م، واستأنف العمل فيه بعد عودته من المنفى سنة 763هـ/ 1361م، فراجعه وزاد فيه فجعله في ستة مجلدات. وظل يُضيف إليه وينقّح فيه حتى عام 771هـ/ 1369م، تاريخ غزوة الغني بالله لأحواز مدينة إشبيلية التي كانت آنذاك في قبضة الإسبان[29]. وقد يكون

راد فيه بعد هذا التاريخ، ونرجّح أن يكون انتهى من تأليفه سنة 772هـ/ 1370م، أي قبل ئوأره إلى المغرب بسنة.

وقد استعمل ابن الخطيب غير تسمية للكتاب، فذكره، إلى جانب العنوان الذي وضعْناه له، باسم "الإحاطة، في تاريخ غرناطة"، وقال: إنه في سبعة أسفار[30]. ثم ذكره باسم "الإحاطة، بما تيسّر من تاريخ غرناطة"، وقال: إنه كتاب كبير في تسعة أسفار[31]. ثم عاد واختصره باسم "تاريخ غرناطة"، وقال: إنه في اثني عشر سِفْرًا[32]. وقد استعمل ابن الخطيب هذه التسمية الأخيرة المختصرة في مواطن كثيرة. وفي كتابه "اللمحة البدرية" ذكر اسم كتاب عنوانه: "الإماطة، عن وجه الإحاطة، فيما أمكن من تاريخ غرناطة"[33]. ثم عاد وذكره في كتابه المذكور عند حديثه عن عوائد أهل غرناطة وأوصافهم، فقال العبارة التالية: "من كتاب الإماطة، عن وجه الإحاطة، فيما أمكن من تاريخ غرناطة"[34]. ثم أورد هذه العبارة نفسها في كتاب "الإحاطة"[35]. ونحن بدورنا، نميل إلى أن كتاب "الإماطة" هو اسم آخر لكتاب "الإحاطة" أو هو مختصر كتاب "الإحاطة"، لأن ابن الخطيب لم يذكر "الإماطة" في ثَبَت كتبه في آخر "الإحاطة".

والترتيب الذي اعتمده ابن الخطيب هو ذكر الحاضرة غرناطة، ووصف محاسنها والحديث عن الذين سكنوها وتولّوْها، ملتزمًا الترتيب الأبجدي لأصحاب التراجم، لا الترتيب التاريخي، فإذا ذكر الرجل ذكر نسبه وأصالته وحسبه، ومولده، وبلده، ومذهبه، ومآثره، وشعره، وأدبه، وتصانيفه، ووفاته. وقدّم للكتاب، وجعله قسمين، القسم الأول في حَلْي المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن، والقسم الثاني في حَلْي الزائر والقاطن والمتحرك والساكن[36]. وبعد أن انتهى من مقدمة الكتاب بدأ في القسم الأول بفصل يدور حول اسم مدينة غرناطة، فقدّم لنا وصفًا جغرافيًا دقيقًا لهذه المدينة[37]، ثم تناول تاريخها منذ أن نزَلها العرب أيام الفتح حتى سلاطين بني نصر[38]. وذكر قُراها، وقال: إنها تنوف على ثلاثمائة قرية[39]. ثـــم انتهى إلى فصل ثان ذكر فيه سِيَر أهل غرناطة وأخلاقهم وأحوالهم وأنسابهم وجندهم وزيّـــهم[40]. وأنهى القسم الأول بفصل ثالث حصره فيمن تداول هذه المدينة منذ أصبحت دار إمارة[41]. ثم بدأ القسم الثاني، ويتناول الذين ترجم لهم، وعقد في آخره ترجمة مختصرة لنفسه.

والكتب التي اعتمدها ابن الخطيب في جمع مادته كثيرة، وتدور حول تاريخ بعض المدن المشرقية والمغربية والأندلسية، وهي: الإسكندرية، واشبونة، وأصْبهان، وإلبيرة، وألمريّة، وباجة،

وبجاية، وبُخارى، وبغداد، وبقيرة، وبلنسية، وتلمسان، وتونس، وجُرجان، والجزيرة الخضراء، وحمص، ودمشق، والرّقّة، وسَبْتة، وسَمرْقنْد، وشُقُورة، وشيراز، وطليطلة، وفاس، وقرطبة، وقلعة يَحْصب، ومالقة، والمدينة المنورة، ومصر، ومكة، ونَسَف، ونَيْسابور، وهَراة، وهمذان وواسط[42]. وأهـم هذه الكتب تاريخ أبي عبد الله محمد بن جُزيّ الغرناطي، الذي شرع في أثناء مقامه بمدينة فاس المغربية بكتابه تاريخ عام لبلده غرناطة، ولكنه مات سنة 757هـ/ 1356م قبل أن يُتمّه. وقد صرّح ابن الخطيب بأنه اطّلع على هذا الكتاب بمدينة فاس في أثناء قيامه بسفارة إلى المغرب من قبل سلطانه الغني بالله في الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة 755هـ/ 1354م، وأنه سار على منهاجه عند تأليف "الإحاطة"[43]. أضف إلى ذلك الوثائق والمعلومات التي اعتمدها والتي أخذها من مَعاصريه ذوي الشأن.

ويُعدُّ كتاب "الإحاطة" من أهم المصادر الأندلسية في التراجم والتاريخ؛ فهو من جهة معجم في التراجم، ومن جهة ثانية كتاب في التاريخ، إلا أنه كتاب تراجم أكثر منه كتاب تاريخ. وبرغم ذلك، فإنه يُلْقي الضوء على أهم ظاهرة اجتماعية كانت منتشرة في زمانه في بلاد المغرب والأندلس معا، ألا وهي مصارعة الثيران، فقد ذكر في ترجمة الغني بالله أنه حضر في المغرب في عهد أبي عنان فارس بن أبي الحسن بن أبي سعيد بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، عندما أرسله سلطان غرناطة الغني بالله ورسولاً على أثر بيعته عام 755هـ/ 1354م، مصارعة بين ثور وأسد، انتهت بانتصار الثور وجرح الأسد، وخروج طائفة من الرجال المسلّحين أخذوا يناوشون الأسد الجريح إلى أن قتلوه، بعد أن أرْدى بعضهم. يقول: "بعثني (الغني بالله) إلى بابه (باب أبي عنان) رسولاً على أثر بيعته...فأحْسب وكفى، واحتفل واحتفى...هاج به الخُدّام أسدًا أرْوَدَ، شثْنَ[44] الكفّضين، مُشْعِر اللّبدة...وجُلِبَ ثورُ عَبْلُ الشُورى[45]، مُنْتَصبَ القوى، يَقْدمُه صُوارُ[46] من الجواميس، فقَرُبَت الخُطى، وحَميَت الوغى، وبلغ الزئير والجُوار[47] ما شاء...وخار الأسدُ عن المبارزة لّما بَلَغَ منه ثِقافًا[48] عن ردّ المناوشة، ومضطلعا بأعباء المحاملة، فتخطاه إلى طائفة من الرّجالة، أولي عدة وذوي دُرْبة...وأخذته رماحهم بإبادته بعد أن أرْدى بعضهم، وجدّل بين يَدَي السلطان متخبطا في دمه...[49]".

وفي مكان آخر يصف ابن الخطيب مصارعًا غرناطيًا يصارع ثورًا وهو يمتطي فرسه المدرَّب، فينعته بالفارس المغوار، ويخبرنا أنه قتل الثور برمحه. وهذا النوع الثاني من المصارعة لا يزال موجودًا في إسبانيا حتى اليوم[50].

وقد لاقى كتاب "الإحاطة" استحسانًا من قِبل قارئيه، فعدَّه المقري من الكتب التي ذاع صيتها بالمشرق والمغرب، وذهب إلى أن المشارقة كانوا أشدَّ إعجابًا به من المغاربة وأكثر لَهْجًا بذكره، مع قلّته في تلك البلاد المشرقية، إذ اعتنى باختصاره الأديب المصري الشهير بدر الدين محمد بن إبراهيم البشتكي، المتوفى سنة 830هـ/1426م، وسمّاه: "مركز الإحاطة، في أدباء غرناطة"، وهو في مجلّدين بخطه[51].

وبرغم ما في كتابه من إيجابيات، وهي كثيرة جدًا، فإنَّ لنا بعض المؤاخذات عليه والنقد له، إذ الكمال لواهبه، ومنها أنه كثير التَّكْرار في كتاباته، من ذلك رسالة ينقلها في "الإحاطة" ثم يوردها كما هي في كتابه "ريحانة الكُتّاب"، وقد صدرت عنه عن سلطان غرناطة الغني بالله، وتتعلق بمجموع الفتوحات والغزوات التي قام بها السلطان المذكور، أرسلها على صاحب تونس أبي إسحاق المستنصر إبراهيم بن أبي ببكر ابن يحيى الحَفْصي[52]. ورسالة ثانية هي رسالة "السياسة"، وقد نقلها في "الإحاطة" ضمن ترجمته الشخصية، ثم أوردها كما هي في "ريحانة الكُتّاب"[53]. كذلك نقل في "الإحاطة" بعض مقاماته ورسائله وبعض كتبه الصغيرة، وأوردها كما هي في "الريحانة".

وقد طبع هذا الكتاب مرتين، طبعة ناقصة بجزءين في مجلد واحد، وطبعة كاملة بأربعة أجزاء، بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، مصر، 1973-1977. وقد رأينا أن نتولّى هذا العمل تحققا وإشرافا، بعد أن أدركنا أننا، بعون الله تعالى، سنقوى على تذليل الصِّعاب التي نمرُّ بها في أثناء التحقيق، فالكتاب موسوعة حضارية، يحتاج إلى لجنة من المؤرخين والجغرافيين والأدباء والعلماء المهتمّين بالحقل الأندلسي، لأن الجهد الفردي غير كافٍ لنشر هذه الموسوعات العلمية التي تحتاج إلى مجهود جَماعي لتحقيق أماكنها الجغرافية والتعريف بأعلامها التاريخية والأدبية والعلمية، ودراسة الشعر الذي يَشْغَلُ خُمُس الكتاب أو أكثر بقليل.

وقد آلينا على أنفسنا ألاّ نوفر جهدًا في سبيل القدرة على الاضطلاع بكل ما يحتاجه التحقيق، فبذلْنا في إخراجه من العناية ما استطعنا عليه، صَحَّحْنا عددا غير قليل من أخطاء

القراءة، التي لا تكاد صفحة تخلو منها تحريفًا وتصحيفًا ونقصًا وتتشويهًا، وبخاصة الشعر حيث قُمنا بمراجعته وضبطه وَفْقًا للمصادر التي ورد فيها، وقَرنّا النصوص بهوامش وتعليقات تفسيرية، فَعرَّفنَا بالأعلام والأماكن حيث كان ذلك ضروريا، وشرحنا الألفاظ التي تتطلب الشرح وبخاصة بعض المصطلحات الأندلسية غير المعروفة عند المشارقة، بصورة تتَّفق مع ما تتطلّبه المناهج العلمية الحديثة من أساليب البحث والتحقيق المقارن. وقــد تمّ ذلك بعد أن رأى الحاج محمد علي بيضون، صاحب دار الكتب العلمية، أن نُعيد طبع هذا الكتاب، إذ رغب إلينا في أن نقوم بتحقيقه، فقبلنا طلبه، وتولّينا الكتاب بالتحقيق العلمي، وشرعنا بالعمل الذي استغرق أكثر من ثلاث سنوات، احتجْنا من خلالها إلى أناة قد لا يقوى عليها الكثير من الناس، فجاء الكتاب كما يراه القارئ، وبحسبنا أننا أدَّينا الذي يجب علينا في هذا السبيل، فإن قَصَّرْنا فما توفيقنا إلاّ بالله تعالى، والكمال لله تعالى وحده.

بيروت في الأول من تشرين الثاني

لعام ثلاثة وألفين للميلاد

الهـوامـش:

1-ترجمة ابن الخطيب وأخباره في الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب (1-4) تحقيق الدكتور يوسف علي طويل دار الكتب العلمية، بيروت، 2003. ج3 ص 374- 390، و كتاب العبر، وديوان المبتدإ والخبر، لابن خلدون (ثمانية مجلدات في أربعة عشر جزءا) دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981م 7 ص 636- 638، 672- 697، 707- 710)، والتعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا لابن خلدون. تحقيق الأستاذ محمد ابن تاويت الطنجي طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951 (صفحات متفرقة) ونثير فرائد الجمان نثير فرائد الجُمان، في نظْم فحول الزمان، لابن الأحمر. تحقيق الأستاذ محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، 1967.(ص 242)- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني (1-4). الهند، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1930 ج3 ص469- و جذوة الاقتباس لابن القاضي طبعة الرباط، 1973 (ص 187)- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقرّي (1-10) تحقيق الدكتورة مريم قاسم والدكتور يوسف كويل دار الكتب العلمية، بيروت، 1995.ج 7 ص 5- 195- وأزهار الرياض في أخبار عياض، للمقرّي (1-3). تحقيق الأساتذة مصطفى السقّا وإبراهيم البياري وعبد الحفيظ شلبي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، 1939- 1942 .ج1 ص 186- 238- والأعلام للزِّرِكْلي (1-8).دار العلم للملايين. بيروت،1980. ج6 ص 135.-وانظر أيضا مقدمات كتبه المحققة، ولا سيما كتاب "الإحاطة"؛ ففيه مقدمة من ست وعشرين صفحة كتبناها بقلمنا وتتحدث عن سيرته وأدبه ومؤلفاته.كما كُتب حوله عدة بحوث أهمها الدراسة الوافية التي كتبها الأستاذ محمد عبد الله عنان، وصدرت في مجلد واحد بعنوان "لسان الدين ابن الخطيب: حياته وتراثه الفكري، لمحمد عبد الله عنان مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1968 وهناك أطروحة دكتوراه أعدها صديقنا الدكتور نبيل الخطيب في العام 1993م بكلية الآداب بالجامعة اللبنانية. بيروت، 1993.وكنت عضوا رئيسا في مناقشتها، وعنوانها: "لسان الدين ابن الخطيب: نثره وشعره وثقافته في إطار عصره".

2-كان فتح الأندلس عام 92هـ/711م.

3-سقطت طليطلة في يدي ألفونسو السادس سنة 478هـ/ 1080م.

4-ترجمة أبيه في ريْحانة الكُتّاب، ونُجْعة المُنتاب، لابن الخطيب. تحقيق الدكتور محمد الشريف قاهر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973. (ج 2 ص 392- 393) والإحاطة (ج 3 ص 292) ونفح الطيب (ج 7 ص 13).

5-الإحاطة (ج 4 ص 386- 390). وأنظر أيضا نفح الطيب (ج 358- 369).

6-كتاب العبر (م 7 ص 689).

7-كتاب العبر (م 7 ص 689- 690). وأبو النعيم رضْوان من أصل قَشْتالي، سُبي صبيًّا ورُبيِّ في القصر السلطاني، وعظمت منزلته، فجعله السلطان أبو الحجاج يوسف النصري كاتب سرِّه وحاجبه، وظلّ كذلك في عهد السلطان الغني بالله محمد بن يوسف النصري.

8-اللمحة البدرية اللمحة البدرية، في الدولة النّصرية، لابن الخطيب. دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980. (ص 113- 114، 129) وأزهار الرياض (ج 1 ص 193- 196، 202- 203، 207).

9-أزهار الرياض (ج 1 ص 37- 38، 208، 224).

10-التعريف بابن خلدون (ص 77، 97).

11-كتاب العبر (م 7 ص 949- 956) والتعريف بابن خلدون (ص 147- 152).

12-خبر مقتل ابن الخطيب في كتاب العبر (م 7 ص707- 710) ونفح الطيب (ج 7 ص 105- 107) وأزهار الرياض (ج 1 ص 229- 231).

13-كتاب العبر (م 7 ص 289).

14-المصدر نفسه (م 7 ص 959).

15-نثير فرائد الجمان (ص 243).

16- الصَّيِّب والجَهام، والماضي والكَهام، لابن الخطيب تحقيق الدكتور محمد الشريف قاهر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973. (ص 429).

17- نُفاضة الجِراب، في عُلالة الاغتراب، لابن الخطيب تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة. بدون تاريخ. (ج 2 ص 205).

18-الصيب والجهام (ص 634).

19-الموشحة كاملة في نفح الطيب (ج 9 ص 237- 240). ووردت ناقصة في كتاب العبر (م 1 ص 1147) وأزهار الرياض (ج 2 ص 213- 215).

20-الإحاطة (ج 4 ص 388- 390).

21-نفاضة الجراب (ج 2 ص 121- 122، 151، 187- 189، 343، 368).

22-ريحانة الكتاب (ج 1 ص 21- 24، 26، 31، 35- 38، 52- 53) و(ج 2 ص 223، 248، 279، 355، 361، 411).

23-نفح الطيب (ج 9 ص 320- 324) وأزهار الرياض (ج 1 ص 189- 190).

24- ديوان المتنبي (العُرف الطَّيِّب، في شرح ديوان أبي الطَّيِّب). شرحه الشيخ ناصيف اليازجي. دار القلم، بيروت. بدون تاريخ (ص 199) وهو مطلع قصيدة من 42 بيتا قالها في مدح علي بن محمد بن سيّار ابن مكرم

25-الإحاطة (ج 1 ص 6-8). وأنظر أيضا: ريحانة الكتاب.(ج 1 ص 34- 35).

26-الإحاطة (ج 1 ص 8).

27-الإحاطة (ج 1 ص 25) ونفح الطيب (ج 1 ص 68) و (ج 9 ص 221) وأزهار الرياض (ج 1 ص 3).

28-نفح الطيب (ج 3 ص 148). والبيت لم يرد في رحلة ابن جبير لابن جبير. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1979.

29-الإحاطة (ج 2 ص 50).

30-ريحانة الكتاب (ج2 ص 323).

31-الإحاطة (ج4 ص 390). وأنظر أيضا: نفح الطيب (ج 9 ص 321).

32-ريحانة الكتاب (ج1 ص 31).

33-اللمحة البدرية (ص 27).

34-المصدر نفسه (ص 38).

35-الإحاطة (ج 4 ص36).

36-راجع الإحاطة (ج 1 ص 10).

37-المصدر نفسه (ج 1 ص 13- 18).

38-المصدر نفسه (ج 1 ص 18- 21).

39-الإحاطة (ج 1 ص 32- 35).

40-المصدر نفسه (ج 1 ص 36- 40).

41-المصدر نفسه (ج 1 ص 40-42).

42-راجع الإحاطة (ج 1 ص 5- 6).

43-راجع نفح الطيب (ج 9 ص 329).

44-الشَّثْنُ: الغليظ. والأَرْوَدُ: صفة تختصّ بالدهر، يقال: الدهر أرْوَد، أي ذو غِيَرٍ يعمل عمله في سكون لا يُشعَرُ به.

45-الشُّورَى: اليدان والرِّجلان. والعَبْل: الضخم. وعبل الشورى: غليظ القوائم.

46-الصُّوار، بضم الصاد وكسرها. القطيع من البقر.

47-الجُوار: المجاورة.

48-الثِّقاف، بكسر الثاء: الخصام والجلاد.

49-الإحاطة (ج 1 ص 6- 7).

50-الإحاطة (ج 1 ص 6 من مقدمة المحقق).

51-نفح الطيب (ج 9 ص 324).

52-الإحاطة (ج 4 ص 489- 511) وريحانة الكتاب (ج 1 ص 179- 202).

53-الإحاطة (ج 4 ص 534- 548) وريحانة الكتاب (ج 2 ص 316- 324).

لسان الدين بن الخطيب موسوعة حضارية.

د. مريم قاسم

قبل أن نبدأ بالحديث عن لسان الدين ابن الخطيب، الموسوعة الحضارية، إرتأينا أن نقدم نبذة موجزة ببضعة أسطر عن سيرة هذا الرجل الكبير فنقول: هو[1] محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن علي السَّلْماني، يُكَنَّى أبا عبد الله، ويلقَّب بلسان الدين، وهو من الألقاب المشرقية، وبذي الوزارتين، لجمعه بين الوزارة والكتابة، أو السيف والقلم، ويقال له: ذو العُمرين، لاشتغاله بتدبير الحكم في نهاره والتصنيف في ليله. والخطيب لقب جدِّه الأعلى سعيد. ولد بمدينة لوشة Loja سنة 713هـ/1313م، ونشأ بمدينة غرناطة وتأدّب على شيوخها، وهم كُثُر، فأخذ عنهم القرآن، والفقه، واللغة، والطِّب والرواية، والفلسفة[2]... عمل في خدمة السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج النَّصري (733- 755هـ/ 1332-1354م)، فولاّهُ رئاسة الكُتّاب ببابه، وثنّاها الوزارة[3]. ولمّا مات أبو الحجاج أبقاه السلطان الجديد الغني بالله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج النصري (755- 793هـ/1354-1390م) في مركزه وزاد في تكريمه[4]. قُتل بمدينة فاس المغربية سنة 776هـ/ 1374م على أيدي حاسديه، وفي مقدمتهم الوزير ابن زَمْرك والقاضي أبو الحسن النُّباهي والوزير سليمان بن داود. وهذا الأخير هو الذي نفَّذ مهمة القتل، فدسَّ إليه، وهو في السِّجن، بعض الأوغاد من حاشيته، فطرقوا السجن ليلاً وقتلوه خنقًا. وفي اليوم الثاني أُخرجت جثته ودفن في مقبرة باب المحروق، أحد أبواب فاس. ثم أخرجوه في اليوم الثالث من القبر وأشعلوا من حوله النار، فاحترق قبره قائمًا في باب المحروق في ضريح صغير عليه هذه العبارة: "هذا ضريح العلاّمة لسان الدين ابن الخطيب".

---

* أستاذة التاريخ الأندلسي واللغة الإسبانية والدراسات العليا بالجامعة اللبنانية-بيروت.

لسان الدين ابن الخطيب موسوعة علمية تناولت حضارة الأندلس من مختلف جوانبها، من تاريخ، وجغرافيا، وأدب، وشريعة، وتصوُّف، وسياسة، وطب، وأغذية، وموسيقى... أدْرجها بريشته السَّمحاء ضمن أكثر من ستين مؤلّفًا.

ففي التاريخ ألّف سبعة كتب تناولت تاريخ المشرق والمغرب والأندلس من أيام الرسول الكريم حتى أيامه في عهْدَيْ أبي الحجاج النصري وولده الغنيّ بالله، وهي:

1-الإحاطة في أخبار غرناطة: هو أشهر وأضخم مؤلّفات لسان الدين ابن الخطيب، ويعدُّ من أهمِّ المصادر الأندلسيَّة في التراجم والتاريخ، إلاّ أنه كتاب تراجم أكثر منه كتاب تاريخ. كتبه ليقدّم للقارئ تاريخا شاملا عن بلده غرناطة وصورة ساطعة عن كل ما يتعلق بمدينة غرناطة من أوصاف وأخبار، تُلْقي الضوء على أهم ظاهرة اجتماعية كانت منتشرة في زمانه في بلاد المغرب والأندلس معا، هي مصارعة الثيران، فقد ذكر في ترجمة الغني بالله أنه حضر في المغرب في عهد أبي عنان فارس بن أبي الحسن بن أبي سعيد بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، عندما أرسله سلطان غرناطة الغني بالله رسولاً على أثر بيعته عام **755**هـ/**1354**م، مصارعة بين ثور وأسد، انتهت بانتصار الثور وجرح الأسد، وخروج طائفة من الرجال المسلّحين أخذوا يناوشون الأسد الجريح إلى أن قتلوه، بعد أن رأى بعضهم[6]. ووصف في مكان آخر مصارعًا غرناطيًا يصارع ثورًا وهو يمتطي فرسه المدرَّب، فنعته بالفارس المغوار، وأخبرنا أنه قتل الثور برمحه. وهذا النوع الثاني من المصارعة لا يزال موجودًا في إسبانيا حتى اليوم[7]. كذلك ذكر فيه ابن الخطيب مروج غرناطة وجبالها وانهارها، وتغنّى بها فقال[8]: [الكامل]

بَلَدٌ تحُفُّ به الرياض كأنّه ... وَجْهٌ جميل والرياضُ عذارهُ

وكأنما واديه مِعْصمُ غادةٍ ... ومن الجُسُور المُحكمات سوارُهُ

ترجم فيه لثلاث وتسعين وأربعمائة شخصية أندلسية، ممّن حكموا غرناطة، أو وفدوا إليها من المغرب أو المشرق، من ملوك وأمراء وأعيان وولاة ووزراء وقضاة وعلماء وشعراء وأدباء وزهّاد وصوفية... ولم ينْسَ أن يكتُب سيرته الذاتية في آخر الكتاب، وقد تناولت نسبه، ومولده، ونشأته، وتقلّده الوزارة لأبي الحجاج النصري ثم لولده الغني بالله، ونكبته مع الغني وهجرته إلى المغرب، ثم عودته مع الغني بالله إلى غرناطة سنة **763**هـ/**1361**م، ثم مشيخته،

ومؤلّفاته، وإيراده بعض شعره ورسائله[9]. وهذا الكتاب مطبوع، طبعة مصر، 1973، وطبعة بيروت، 2003.

2-أعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام، من ملوك الإسلام، وما يجرُّ ذلك من شجون الكلام: هو آخر مؤلّف كتبه ابن الخطيب، وقد ألّفه للوزير أبي بكر بن غازي، القائم بالدولة، والوصيّ على الطفل محمد السعيد، الذي تولّى الحكم في المغرب بعد موت والده السلطان عبد العزيز المريني سنة 774هـ/1372م. وفيه استأنف حملته على القاضي أبي الحسن النباهي، ونعته بـ"الجُعْسوس" أي القزم الدميم. ولم يُتحْ له القدر إكماله، فتركه ناقصًا، والذي كتبه يشتمل على ثلاثة أقسام: القسم الأول يتناول تاريخ المشرق ومصر والشام، والثاني يتناول تاريخ الأندلس حتى أيام ابن الخطيب، والثالث يتناول تاريخ المغرب وإفريقية نشر منه فقط القسمان الثاني والثالث.

3-رقم الحُلَل في نَظْم الدول: عبارة عن أُرْجوزة من نظْمِ ابن الخطيب نفسه، أهداها إلى سلطان المغرب في أثناء إقامته بمدينة سلا في المدة التي قضاها منفيًّا بالمغرب ما بين 760و 763هـ/ 1358و 1361م. وتدور حول تاريخ الدول الإسلامية بالمشرق والأندلس، منذ أيام الرسول الكريم حتى أيام ابن الخطيب، بدءاً بالخلفاء الراشدين، ومرورًا بدولة بني أمية وبني العباس وبني الأغلب والفاطميين وبني أمية بالأندلس، وانتهاء بني نصر بغرناطة وبني حفص بإفريقية وبني مرين بالمغرب. وهكذا سرد ابن الخطيب التاريخ الإسلامي شعرًا، وقام في الوقت نفسه بشرح ما رواه نظمًا. والكتاب، على حدِّ قول المقرّي، في غاية الحلاوة والعذوبة والجزالة، وقد ابتدأه بقوله[10]: [الرجز]

الحمـــد لله الذي لا يُـسـنْكرُه ... مـــنْ سَرحَتْ في الكائنات فِكرُهُ

وهذا الكتاب مطبوع في تونس، وهو أيضا من منشورات وزارة الثقافة بدمشق، 1990.

4-طُرْفة العصر، في دولة بني نصر: يقع في ثلاثة أسفار، ويؤرخ لبني نصر، وهو مفقود.

5-قَطع الفلاة بأخبار الولاة: عبارة عن رسالة قصيرة في النثر، تَمثّل فيها ابن الخطيب بشعرٍ من نظم غيره. وتدور حول وُلاة مغاربة أمثال ابن الربيب، أحد خُدّام السلطان أبي سالم

المريني، الذي كان مكلّفًا بصرف جراية ابن الخطيب في أثناء إقامته بالمغرب، ووالي مكناسة عبد الله بن محمد. والرسالة لا تزيد عن عشر صفحات، وقد أوردها ابن الخطيب في كتابه "نفاضة الجراب"[11].

6-اللّمحة البَدْرية، في الدولة النَّصرية: كتاب مختصر لتاريخ بني نصر بغرناطة، بدأ تدوينه عام 763هـ/1361م، وانتهى منه أول عام 765هـ/1363م، وقد توخّى فيه الصِّدق وبُعدَ النظر في درك الحقائق. وهو مطبوع.

7-نُفاضة الجِراب، في عُلالة الاغتراب: هو سجلٌ لمذكّرات ابن الخطيب الشخصية عن المدة التي قضاها منفيًّا في مدينة سلا المغربية مع سلطانه الغني بالله، ما بين 760و 763هـ/ 1358و 1361م. وهو في أربعة أسفار، طبع منه السّفْر الثاني، وفيه يُهنِّئ سلطان المغرب أبا سالم المريني في مناسبة فتح تلمسان، ويذكر بعض القصائد والرسائل التي كتبها في سلا، ويتحدَّث عن حال غرناطة في عهد السلطان أبي سعيد البرميخو المغتصب، ويرثي زوجته التي توفيت في عام 762هـ/1360م. ويأتي من حيث الهمية بعد كتاب "الإحاطة". وجاء اسم الكتاب في كتابه "رَيحانة الكُتَّاب"[12] هكذا: "نفاخة الجراب".

وفي الجغرافية والرحلات ألّف ثلاثة كتب وصف فيها أهمّ مدن المغرب والأندلس، ويفاضل فيما بينها، وهي:

1-خَطْرَة الطَّيْف، ورحلة الشتاء والصَّيف: عبارة عن مقامة أو رسالة مُسَجَّعة وصف فيها ابنُ الخطيب رحلة قام بها برفقة سلطانه أبي الحجاج يوسف النَّصري في السابع عشر من محرَّم لعام 748هـ/ 1347م، لتفقّد مقاطعات غرناطة الشرقية وهي: وادي آش، Guadix وبسطة، Baza وبُرشانة، Purchenx وبَيْرَة، Vera والمرية Almeria .

هذه المقامة تُلقي الضوء على أهم ظاهرة اجتماعية وهي أن أهالي تلك البلاد الشرقية، رجالاً ونساءً، كانوا يستقبلون الرَّكبَ السلطاني بأبواقهم وطبولهم وملابسهم الجميلة البيضاء، وهي الزِّيّ التقليدي لأهل الأندلس، وأنهم كانوا يعانون من قحط شديد وقلق يومي نتيجة لغارات العدو وسيول الماء[14]. وردت ضمن أربع رسائل جمعها الكتور أحمد مختار العبّدي في كتاب أسماه: "مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس" تحت عنوان: "خطرة الطيف، في رحلة الشتاء والصيف"[15].

2-معيار الاختبار، في ذكر أحوال المعاهد والديار: عبارة عن مقامة أو رسالة مسجَّلة قدَّم فيها ابن الخطيب وصفًا دقيقًا لأربع وثلاين مدينة وبلدة أندلسية تابعة لسلطنة غرناطة، وأهمها مالقة ووادي آش وغرناطة ولوشة ورندة. كما قدَّم فيها وصفًا لعشرين مدينة مغربية أهمها سبتة وطنجة ومراكش وأغمات ومكناسة وفاس، بما فيها وفي المدن الأندلسية من محاسن وعيوب.

وقد دوَّنها في أثناء المدة التي قضاها في المنفى مع سلطانه الغني بالله بين عامي **760**و **763**هـ/**1358**و **1361**م[16]. ووردت ضمن أربع رسائل جمعها الدكتور أحمد مختار العبادي في كتاب أسماه "مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس"[17]. وجاء عنوانها في "الإحاطة" و"أزهار الرياض"[18] هكذا: "بمعيار الاختيار"، وفي نفح الطيب[19]: "معيار الأخبار".

3-مفاخرات مالقة وسلا: عبارة عن مقامة أو رسالة مسجّعة، قارن فيها ابن الخطيب بين مدينة مالقة الأندلسية التابعة لسلطنة غرناطة آنذاك، وبين مدينة سلا المغربية، وذلك في مختلف النواحي الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية، وقد تحيَّز فيها إلى المدينة الغرناطية مالقة، فجعلها المفضَّلة في كل شيء[20]. وردت ضمن أربع رسائل جمعها الدكتور احمد مختار العبادي في كتاب أسماه: "مشاهدات لسان الدين[21]..." وجاء عنوانها في كتاب "الإحاطة"[22]: "مفاضلة بين مالقة وسلا" وهو في "ريحانة الكتّاب"[23] هكذا: "مفاخرة بين مالقة وسلا"، وهو عند المقرِّي في كتابيه "النفح" و"الأزهار"[24]: "مفاضلة مالقة وسلا". ونستطيع أن نعدّ هذه الرسالة ضمن الرسائل الأدبية، وبمعنى آخر، فهي رسالة في أدب الجغرافيا.

وفي التراجم ألَّف أربعة كتب، ترجم فيها لأدباء وشعراء وفقهاء غرناطيين عاصروه، وهي:

1-الإكليل الزاهر، فيما فضُل عند نظْم التاج من الجواهر: هو تتمة لكتابه "التاج المحلّى". كتبه لسلطانه أبي الحجاج بن يوسف النّصري، واعتمد فيه أسلوب السَّجع في ترجمة بعض أعلام عصره. وقد ورد العنوان فـي كتابه "ريحانة الكتّاب"[25] هكذا: "الإكليل الزاهر، فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر"، أي باختلاف كلمة واحدة. وهو غير مطبوع، وتوجد منه نشخة مخطوطة في مكتبة الإسكوريال تحت رقم **554**.

2-التاج المُحلّى، في مساجلة القِدْح المُعلّى: يقع في سِفر، وهو مفقود، وقد كتبه لسلطانه أبي الحجاج يوسف النّصري في زمان الحَداثة. وهو يترجم لعشرة شعراء ومائة شاعر، عاشو في سلطمة غرناطة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وقد ورد اسمه في كتابه "ريحانة الكُتّاب"[26] هكذا: التاج المحلّى، ومساجلة القِدْح المعلّى". وكتاب "القدح المعلّى" الذي يساجله ابن الخطيب هو لابن سعيد الأندلسي.

3-عائد الصّشلة: يقع في سِفْرين، وهو مفقود، وقد وصل به ابن الخطيب كتاب "صلة الصِّلة" للأستاذ أبي جعفر بن الزبير، الموفى سنة 708هـ/1308م. ويترجم لطائفة من الأعلام الذين لم يرد ذكرهم في كتاب ابن الزبير.

4-الكتيبة الكامنة، في منْ لقيْناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة: كتبه في جُمادى الآخرة من عام 774هـ/ 1372م، بعد وفاة السلطان النباهي وينعته بأقسى النعوت. ويترجم لثلاثة ومائة من أدباء وشعراء وفقهاء الأندلس المعاصرين له. ذكره في ثّبت كتبه، الذي أورده في كتابه "الإحاطة"[27] تحت عنوان: "الكتيبة الكامنة، في أدباء المائة الثامنة"، وكذا أورده المقري [28]. وأورده في مكان آخر[29] هكذا: "الكتيبة الكامنة، في شعراء المائة الثامنة". ونحن اعتمدنا العنوان الذي اعتمده محقّقُ الكتاب، الدكتور إحسان عباس، طبعة دار الثقافة، بيروت، 1963 والعنوان نفسه ذكره ابن الخطيب في مقدمة الكتاب المذكور.

وينتسب إليه كتاب عنوانه: "تحفة ذوي الأدب، في مشكل الأسماء والنسب، في ضبط ما وقع في الموطإ والصحيحين من الأسماء والنسب". والكتاب نشره تروغرتمان في ليدن، 1905، ويقع في إحدى وسبعين ومائتي صفحة[30].

وفي الأدب ألّف سبعة عشر كتابًا، بعضها شعر قد يكون ديوانًا من نظمه أو مختارات شعرية لمشارقة وأندلسيين، وبعضها نثر يدور حول رسائل أدبية أو يبحث في علم البيان، والبعض الآخر موشحات أصحابها ينتمون إلى عصور المرابطين والموحِّدين وبني نصر، وهي:

1-أبيات الأبيات: مفقود، اختاره ابن الخطيب مع مطالع ما له من الشعر، وذكره ضمن مؤلّفاته التي كتبها في بادئ الأمر[31]. كما ذكره المقري في كتابيه "النفح" و"الأزهار"[32]، دون أن يزيد شيئًا عما جاء به ابن الخطيب.

2-تافةٌ من جمّ، ونُقطَة من يمّ، وهو عبارة عن مجموعة رسائل اقتضبها ابن الخطيب من نثر شيخه أبي الحسن علي بن محمد الأنصاري، والمعروف بابن الجيَّاب، على حدّ قول ابن الخطيب نفسه في ترجمة شيخه المذكور في المجلد الرابع من كتابه "الإحاطة"[33]. وذهب المقرّي إلى أن ابن الخطيب جمع في هذا الكتاب نثر ابن الجياب[34]. وأضاف أنه دوّن أيضا شعر شيخه ابن الجيّاب[35].

3-تخليص الذهب، في اختيار عيون الأدب: مفقود، وأغلب الظنّ أنه يدور حول ثلاثة كتب أدبية لم يذكر اسمها.

4-جيش التوشيح: كتاب في سفْرين، السِّفر الأول مطبوع بتونس، سنة 1967، وفيه خمس وستون ومائة موشحة لستة عشر وشاحًا عاشوا في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ومن ضمنها خمس عشرة موشحة خرجاتها عجمية (الإسبانية القديمة). والسِّفر الثاني مفقود، ويدور حول وشّاحي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي والنصف الأول من القرن الثامن الهجري/ القرن الرابع عشر الميلادي.

5-خَلع الرَّسَن، في أمر القاضي ابن الحسن: مفقود، وقد ألّفه للسلطان أبي فارس عبد العزيز المريني، بعد أن فرَّ من الأندلس إلى المغرب، وفيه يهجو خصمه اللدود القاضي أبا الحسن علي بن عبد الله ابن الحسن النُّباهي، صاحب كتاب "المَرْقبة العليا". وورد اسمه في كتابه "أعمال الأعلام"[36] هكذا: "خلع الرَّسن، في التعريف بأحوال ابن الحسن".

6-الدُّرر الفاخرة، واللُّجج الزاخرة: مفقود، جمع فيه ابن الخطيب ديوان شعر أبي جعفر أحمد بن إبراهيم ابن صفوان المالقي، المتوفى سنة 763هـ/1361م، أيام مقامه بمالقة عند توجّهه بصحبة السلطان أبي الحجاج إلى نجدة الجزيرة الخضراء عام 744هـ/1343م، حسبما يُذكر في ترجمة ابن صفوان المذكور، في الجزء الأول من كتاب "الإحاطة"[37]، حيث يشير إلى أنه افتتح الكتاب بخطبة، وأن هذا الكتاب عبارة عن مطولات ومقطوعات شعرية من نظم ابن صفوان.

7-رَيْحانة الكُتَّاب، ونُجْعة المُنْتاب: يقع في ثمانية أسفار، وفيه طائفة كبيرة من الرسائل السلطانية والسياسية، يتعلّق بعضها بوصف الغزوات والوقائع الحربية التي جرت في إشبيلية وجيّان والجزيرة الخضراء وجبل طارق، وبعضها يطلب فيها الإنجاد والعون من سلاطين

المغرب. كما يحتوي على مخاطبات ملوك النصارى الإسبان. وهو مطبوع في مجلدين، بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، **1981**.

8-السِّحْر والشِّعْر: عبارة عن مختارات شعرية لمشارقة وأندلسيين أمثال أبي العتاهية، وابن الرومي، وابن رشيق، والمعتمد بن عبّاد، وابن عمّار، وابن اللّبانة، تعالج موضوعات شتى، من ضمنها الوصايا والنقد. توجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة الإسكوريال تحمل الرقم **456**، ونسخة أخرى بخزانة الرباط العامة ذات الرقم **D1295**.

9-الصَّيِّب والجَهام، والماضي والكَهام: هو عنوان الديوان الذي جمع فيه ابن الخطيب معظم شعره، ويقع في سِفْرَيْن، ويعالج معظم أغراض الشعر. السِّفْر الأول حقّقه الدكتور محمد الشريف قاهر، الجزائر، **1973**. والسِّفر الثاني مفقود.

10-طلُّ الغَمام، المُقْتَضَب من الصَّيِّب والجهام: أغلب الظن أنه مختصر ديوان شعر ابن الخطيب، السابق الذّكر، إذ لم يذكره ابن الخطيب ضمن مؤلّفاته، كما لم يذكره ممن ترجموا له. وانفرد ابن القاضي بذكره[38].

11-فُتات الخِوان، ولَقْط الصِّوان: مفقود، ويقع في سِفْر واحد، ويتضمن فقط مقطوعات شعرية[39]. وقد ذكره ابن الخطيب والمقري دون أن يُضيفا إلى كلامنا شيئًا[40].

12-كُناسة الدُّكان، بعد انتقال السُّكان: كتاب أدب وترسُّل، يدور حول العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب الأقصى في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. ويضمّ مجموعة من الرسائل السلطانية التي كتبها كلّ من أبي الحجاج يوسف وولده الغني بالله إلى سلطان المغرب أبي عنان فارس، وقد جمعها ابن الخطيب عند إقامته بمدينة سلا المغربية، بعد التجائه مع سلطانه الغني بالله إلى المغرب. وهو مطبوع بالقاهرة، **1966**.

13-المباخر الطيبيّة، في المفاخر الخطيبيّة: مفقود، ألّفه للسلطان أبي فارس عبد العزيز المريني، بعد هروبه إلى المغرب سنة **773**هـ/ **1371**م. يدور موضوعه حول الرَّدِّ على خصومه الذين انتقصوا من منزلة بني الخطيب، يذكر فيه نباهة سلفه وما لهم من المجد، ويردُّ على من جاهر له بالعداوة وقَدَح في فخر أسلافه.

14-مُثْلى الطريقة، في ذمِّ الوثيقة: عبارة عن رسالة صغيرة يُعرّض فيها بابن الخطيب ببعض المُوثّقين والعُدول، وقد أوجبها محاورة صدرت في ذلك بينه وبين بعض شيوخ تلك

الطريقة، تضمنت نَظْمًا ونثْرًا وفِقْهًا وحكاية[41]. وهذه الرسالة منشورة ضمن: دراسات ووثائق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، بتحقيق الدكتور عبد المجيد المركي.

15–مساجلة البيان: لم يرد ذكره في أيّ من المصادر التي ترجمت لابن الخطيب. كما أنه لم يرد اسمه ضمن مؤلفات ابن الخطيب، التي ذكرها بنفسه. وانفرد التطواني بذكره في كتابه: "ابن الخطيب من خلال كتبه"[42]. وأغلب الظن أنه يدور حول علم البيان، وهو واحد من علوم البلاغة العربية، علم البيان، وعلم البديع، وعلم المعاني.

16–النّفاية، بعد الكفاية: مفقود، كذا ورد اسمه في كتاب "الإحاطة"[43]، وجاء فيه أنه في نحو "قلائد العقِيان" و"مطمح الأنْفُس" لابن خاقان. وهو عند المقرّي[44]: "النقاية" بالقاف. وأغلب الظن أنه يدور حول ما جرى له في منفاه إلى المغرب. ولابن الخطيب كتاب في غرض الهجاء، مفقود، يوجد منه قسم في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1233، أوله: الباب الثالث والأربعون[45].

وله في الشريعة والتصوف والحثّ على جهاد النفس اثنا عشر مؤلفًا: بعضها نثر يبحث في أصول الدِّين والغيْرة على الدين، أو في التصوف والمحبة الإلهية، أو يدور حول السُّنن المشهور كجهاد النفس، وبعضها الآخر شعر يدور حول الردّ على أهل الزَّنْدقة، أو يبحث في الفِقْه وأصوله، وهي:

1–استنزال اللُّطف الموجود، في سرِّ الوجود: كذا ورد اسمه في "الإحاطة" و"نفح الطيب" و"أزهار الرياض"[46]. وجاء في "ريحانة الكتّاب" "أسرار" بدل "سر"، كما يقول ابن الخطيب نفسه: "وثَبَتٌ في صدر كتابي المسمى بـ"استنزال اللطف الموجود، في أسرار الوجود، وهو ما جمعته لهذا العدد[47]...".وهذا المؤلّف عبارة عن رسالة صغيرة في التصوّف، توجد منه نسخة مخطوطة في المكتبة العامة بتطوان تحمل الرقم 353.

2–أنشدْتُ على أهل الردّ: عبارة عن رسالة في الشعر، مفقودة، يدور موضوعها حول الردّ على أصحاب الآراء المُضلّة وأهل الزندقة، وقد ذكرها ابن الخطيب في ترجمة الغني بالله محمد بن يوسف النصري، وهي أول ترجمة في الجزء الثاني من كتابه "الإحاطة"[48].

3–الحُلل المرقومة، في اللُّمع المنظومة: عبارة عن أرجوزة من ألف بيت في أصول الفقه [49]. توجد منه نسخة مخطوطة في خزانة القرويين بفاس، تحمل الرقم 78 [50].

4-حمْلُ الجُمهور، على السَّنن المشهور: عبارة عن رسالة مفقودة، يدور موضوعها حول السَّنن المشهور، كجهاد النَّفس، وإخماد البدع، والاشتداد على أهل الزَّيْغ والزندقة، الذين أضاقوا الشريعة بأضاليلهم. وقد ذكرها ابن الخطيب في ترجمة الغني بالله، في أول الجزء الثاني من كتابه "الإحاطة"[51].

5-رجز الأصول: هو أُرجوزة مفقودة تبحث في أصول الفقه. وقد شرحها ابن خلدون، صاحب كتاب العبر[52]. وصرَّح ابن الخطيب نفسه بأن له خمس أراجيز من نظمه في أصول الفقه، نظمها بمدينة سلا المغربية[53].

6-الرّد على أهل الإباحة: هو كتاب مفقود، يردّ فيه ابن الخطيب على من أباح ما لم يُبَحْ[54].

7-الرَّميمة: أغلب الظن أنه مقالة مفقودة تدور حول أصول الدِّين والدفاع عن الشريعة، وقد ورد ذكرها فقط في كتاب "الإحاطة"[55].

8-روضة التعريف، بالحبّ الشريف: كتاب في التصوُّف، موضوعه المحبّة الروحية والإلهية، عارض به "ديوان الصَّبابة لأبي العباس أحمد بن يحيى بن أبي حجلة التِّلمساني، وتكلَّم فيه على طريقة أهل الوحدة المُطلقة. وجعله خصومه وثيقة اتِّهام وجّهوها إليه فنسبوه إلى مذهب الحلول وغيره، ما أدّى إلى نكبته التي ذهبت فيها نفسه. ونشره الأستاذ عبد القادر أحمد عطا، بدار الفكر العربي بالقاهرة، سنة 1968.

9-الزُّبدة المَمْخُوضة: نعتقـد أنه مقالة مفقودة تدور حول أصول الدين، وقد ورد ذكرها فقط في كتاب "الإحاطة"[56].

10-سدّ الذريعة، في فصل الشريعة: كتاب مفقـود، يبحث في أصول الدين[57].

11-كتاب المحبة: مفقود، ويقع في سِفْرين، وموضوعه المحبة الإلهية[58].

12-الغَيْرة على أهل الحَيْرة: رسالة مفقودة، يدور موضوعها حول الغيرة على الدّين، وتغيُّر أحوال الملحدين من مآزق جهاد النفس، ما وقع به العمل من إخماد البِدع وإذهاب الآراء المُضلّة والاشتداد على أهل الزّيْغ والزَّندقة. وقد ذكرها ابـن الخطيب في تجمة الغني بالله، في أول الجزء الثاني من كتابه "الإحاطة"[59].

وله في السياسة ثمانية مؤلفات، بعضها نثرٌ يبحث في فن السياسة أو في شؤون الوزارة والوزير والجُند والعمال والخدم أو يتناول سياسة الحروب والقضاء، وبعضها نثرٌ كُتب باللغة القشتالية ووجّه إلى مــلك قشتالة Castilla بدرو Pedro المعروف بالقاسي، وبعضها شعر في فن السياسة وعواقب سوء التدبير، وهي:

1-الإشارة إلى أدب الوزارة: هو كتاب في السياسة، ذكره ابن الخطيب بهذا الاسم في كتابه "ريحانة الكُتَّاب"[60] وذكر منه ما يقارب خمس صفحات تتناول الوزير والوزارة. واكتفى في "الإحاطة"[61] بذكره باسم "الإشارة"، وكذا ذكره المقرّي في "نفح الطيب"[62]. وذكره الدكتور أحمد مختار العبادي في "نفاضة الجراب"[63] باسم: "الاشارة، إلى أدب السياسة في الوزارة". نشره الأستاذ عبد القادر زمامة بدمشق، 1972.

2-بستان الدول: كتاب مفقود، يدور حول السياسة والحرب والقضاء وأهل الحِرَف والمِهَن، لم يكن يُسْمع بمثله قبل أن يؤلّف. يشتمل على عشر شجرات: أولها شجرة السلطان، ثم شجرة الوزارة، ثم شجرة الكتابة، ثم شجرة القضاء، ثم شجرة الشرطة والحسبة، ثم شجرة العمل، ثم شجرة الجهاد (أسطول وخيول)، ثم شجرة ما يضطرّ باب الملك إليه من الأطباء والبيازرة والبياطرة والشعراء، ثم شجرة الرعايا. كذا ذكر ابن الخطيب[64] أنها عشر شجرات، ولكنه لم يورد منها إلاّ تسْعًا. وهذا الكتاب لم يكمل، كتب منه ابن الخطيب فقط نحو ثلاثين جزءًا تقارب السفار.

3-تخصيص الرياسة، بتلخيص السياسة: الكتاب مفقود، كذا أورده ابن الخطيب في كتابه "نفاضة الجراب" وقال: هذا المؤلّف أرجوزة نظمتها في فن السياسة في نحو ستمائة بيت[65]. ثم أورده في الكتاب المذكور باسم: "السياسة"[66]. وقد يكون هو نفسه الذي ذكره الدكتور أحمد مختار العبادي في "نفاضة الجراب" باسم: "قصيدة في السياسة"، وقال: توجد من هذه القصيدة نسخة مخطوطة في خزانة الرباط تحت رقم (د.7740)[67]. وذكره ابن الخطيب في كتاب "الإحاطة"[68] باسم: "رجز السياسة". ثم ذكره باسم: "السياسة المدنية"[69].

4-رسالة السياسة: أوردها ابن الخطيب في آخر كتابه "الإحاطة" ضمن ترجمته الشخصية، فقال: "ولنختتم هذا الغرض ببعض ما صدر عني في السياسة، وكان إملاؤها في ليلة واحدة"[70]. كذلك أوردها في كتابه "ريحانة الكتّاب"[71]. وهي رسالة قصيرة تقع في أقــلّ من

عشرين صفحة، بطلها الخليفة هارون الرشيد، وتدور حول الوزير والجُند والعمّال والوُلْد والخدم والحرم. وعدّها الدكتور يوسف طويل في كتابه "مدخل إلى الأدب الأندلسي" مقامة، وقال إن ابن الخطيب اعتمد فيها أسلوبًا مسجّعًا منمّقًا جميلاً، وإن الراوي فيها مجهول، والبطل الذي كان عليه أن يؤدّي غير دور فعّال خلتْ منه هذه المقامة، وإذا كان الرشيد هو البطل، فقد بدا عاجزًا عن القيام بواجباته، فتارة ينتابه السهر لعزوفه عن الخمر، وتارة أخرى يؤدّي دور الطالب الذي أعيتْه المسألة، فيلجأ إلى ذلك الشيخ الفارسي[72]. وقد بنى ابن الخطيب مقامته هذه على حوار ناجح قام بين الرشيد وبين ذلك الشيخ الفارسي. ورأى الدكتور عبد العزيز عتيق في كتابه "الأدب العربي في الأندلس" أن ابن الخطيب أبدى في هذه المقامة مقدرة فائقة في تطويع الأدب للسياسة والسياسة للأدب[73].

5-رسالة في السياسة: هي رسالة قصيرة، ذكرها الدكتور أحمد مختار العبادي في "نفاضة الجراب" فقال: لابن الخطيب رسالة في السياسة مكتوبة باللغة القشتالية، وموجَّهة إلى ملك قشتالة "بدرو" Pedro المعروف بالقاسي، نشرها المؤرخ الإسباني "لوبث دي أيالا" Lopez De Ayala في كتابه: "حوليات ملوك قشتالة"
Gronica de Los Reyes de Castilla، Tomo 1. pp. 483- 493، Madrid، 1776.[74]

6-رسالة في أحوال خدمة الدولة ومصائرهم، وتنبيههم على النظر في عواقب الرياسة بعيزب بصائرهم: وجّهها ابن الخطيب إلى الخطيب أبي عبد الله محمد ابن أحمد ابن مرزوق، وتوجد منها نسخة مخطوطة في خزانة الرباط تحت رقم (د. 0972 د. 1421)[75].

7-كتاب الوزارة: يبحث في شؤون الوزارة. ذكره ابن الخطيب في كتابه "الإحاطة"[76] دون أن يتحدّث عنه بشيء. ومثله فعل المقرّي في كتابيه "النفح" و"الأزهار"[77].

8-مقامة السياسة: كذا أدرجها ابن الخطيب في كتابه "الإحاطة"[78]، دون أن يتحدث عنها. وبهذا الاسم أيضًا أوردها المقري في "النفح"[79]. وأوردها الدكتور أحمد مختار العبادي تحت اسم: "رسالة في غرض السياسة" في كتاب "نفاضة الجراب"[80] وقال: هي مقامة توجد منها نسخة مخطوطة في خزانة الرباط تحت رقم (د. 1092 د. 1421).

وله في الطِّبّ والأغذية اثنا عشر مؤلَّفًا، بعضها نثر يتناول مراحل حَمْلِ الجنين، أو يتحدث عن علاج مرض الطاعون، أو يبحث في عدة مسائل طبّيّة وصحّيّة وفي كيفية علاج

أمراض شتّى، أو يبحث في الحِمْية، أو يبحث في علاج الحيوانات ويتحدث عن محاسن الخيل، أو يبحث في أحوال الجوارح من الطيور. وبعضها شعرٌ يتضمن ذكر جميع الأمراض الكلية والجزئية ويبحث في فن العلاج، أو في علاج السموم، أو في التّرياق الفاروقي الذي يدفع السموم ويفرِّق بين المرض والصِّحة، أو يتحدّث عن منافع الأغذية المفردة وضارِّها، وهي:

1-أرجوزة في فن العلاج من صنعة الطب: عدد أبياتها نحو ستمائة وألف بيت، تتضمَّن ذكر جميع الأمراض الكلّية والجزئية، وذكر أسبابها وعلاماتها وتدبيرها وجلب العلاج بحسب أحوالها. توجد منها نسخة مخطوطة بخزانة القرويين، ضمن رسائل ابن الخطيب الطبية[81]. وقد أورد ابن الخطيب اسمها في "الإحاطة"[82] هكذا: "رجز الطب". وكذا أوردها المقري في "أزهار الرياض"[82].

2-الرجوزة المعلومة: مفقودة، وهي أرجوزة طبية موضوعها الرُّتْبة[84] وعلاج السموم. وقد صرَّح ابن الخطيب بأنه كتبها ليعارض بها، من جهة، أرجوزة أبي علي بن سينا الطبية، الموسومة بـ"الأرجوزة المجهولة" التي موضوعها العلاج من الرأس إلى القدم، ولتكتمل بها، من جهة ثانية، صناعة الطب كمالاً لا يشينه نقص[85].

3-البيطرة: كتاب مفقود، ويقع في سِفْرٍ واحد يجْمعُ لما يُرجع إلى البيطرة من محاسن الخيل وغير ذلك من علاج الحيوانات[86].

4-البَيْزَرَة: كتاب مفقود، ويقع في مجلد واحد يبحث في أحوال الجوارح من الطيور[87]

5-الرجز في عمل التِّرياق: كتاب مفقود، ويدور حول التِّرياق الفاروقي، وهو دواء مركّب بدفع السموم، وهو أجلُّ المركّبات، لأنه يفرِّق بين المرض والصحة[88].

6-رسالة تكوين الجنين: مفقودة، وتتناول، كما يبدو من عنوانها، مراحل الحَمْل. كذا ورد اسمها في "الإحاطة"[89]. وجاء في "النفح" و"الأزهار"[90]: "تكوّن" بدل "تكوين".

7-رسالة الطاعون: كذا ورد اسمها في "الإحاطة" و"أزهار الرياض"[91]. ثم ورد في "الإحاطة" و"نفح الطيب"[92] اسم آخر هو: "الكلام على الطاعون المعاصر". وأغلب الظن أنهما رسالة واحدة تتحدّث عن علاج مرض الطاعون الذي اجتاح الأندلس وغيرها من البلدان الإسلامية غير مرة. وقد تكون هي نفسها: "مُقْنِعَة السائل، عن المرض الهائل"، وهي الرسالة الصِّحّية التي تتحدث عن مرض الطاعون الذي داهم الأندلس في سنة 749هـ/ 1348م. وقد

نشرت بألمانيا مع ترجمت لها بالألمانية في مجلة أكادمية العلوم سنة 1863: Bayerische Akademic Der Wissens halft.

8-عَمَل منْ طَبَّ، لمن حبَّ: كتاب ضخم يقع في سِفْر، ويتحدث في مختلف الأمراض وكيفية علاجها. وقد ألّفه ابن الخطيب لسلطان المغرب أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني، في أثناء إقامته بمدينة سلا بعد أن خُلِع سلطانُه الغني بالله في عام 761هـ/ 1359م. وهو كتاب لا نظير له في الطب حسبما يقول: "ومنزلته في الصناعة الطبية بمنزلة كتاب أبي عمرو بن الحاجب، المختصر في الطريقة الفقهية، لا نظير له"[93]. توجد منه نسخة مخطوطة بخزانة القرويين بفاس تحمل الرقم 607/40، كذلك في المكتبة الوطنية بمدريد برقم 211، والمكتبة الأهلية بباريس برقم 3011.

9-المسائل الطبيّة: مفقود، وهو عبارة عن رسالة طبية وصحية تقع في سفر واحد[94].

10-المعتمدة في الأغذية المفردة: كذا ورد اسم هذا المؤلَّف في كتابَي "الإحاطة" و"نفح الطيب"[95]. وكان ابن الخطيب والمقري قد ذكراه أيضًا باسم: "رجز الأغذية"[96]. وهو عبارة عن أرجوزة من نظم ابن الخطيب، تتحدث عن منافع الأغذية المفردة ومضارِّها. توجد منه نسخة مخطوطة بخزانة القرويين الكبرى[97].

11-الوصول، لحفظ الصِّحة في الفصول: يبحث في الحمْية، وقد فرغ ابن الخطيب من تأليفه سنة 771هـ/ 1369م[98]. توجد منه نسخة مخطوطة في الخزانة العامة برباط الفتح تحت رقم D1299.

12-اليوسفي في صناعة الطب: كذا ورد اسمه في كتابي "الإحاطة" و"نفح الطيب"[99]. وكان ابن الخطيب والمقري قد ذكراه أيضا باسم: "اليوسفي في الطب"[100]. والكتاب مفقود، وهو ممتع، ويقع في سفرين كبيرين، ألّفه ابن الخطيب لسلطانه أبي الحجاج يوسف، ونسبه إليه اقتداءً بالرازي الطبيب المشهور في كتابه "المنصوري" المنسوب إلى الخليفة المنصور العباسي.

كذلك كان له باع في الموسيقى، فألّف فيها كتبًا مفيدة، وقد أشار نفسه إلى ذلك في كتابه "الإحاطة"[101] دون أي إضافة. ومثله فعل المقرّي[102].

وله مؤلفات مفقودة لا نعلم عنها شيئًا، منها:

1-تقرير الشَّبه. وتحرير المُشبَّه: ذكره ابن الخطيب ضمن ترجمته لنفسه في آخر كتابيه "النفح" و"الأزهار"[104]، وجاء فيهما أنه "تقرير الشبه وتحرير الشُّبه".

2-قَطعُ السلوك: ذكره ابن الخطيب ضمن ترجمته لنفسه في آخر كتابه "الإحاطة"[105] دون ذكر أي شيء آخر.

وأخيرا نقول: إن تآليف لسان الدين ابن الخطيب جيدة في ملح الشعر والخبر، وقد توزعت ما بين أدب، وتاريخ، وجغرافيا، وسياسة، وطب، وأصول دين، وتصوّف، وشريعة، وموسيقى وتراجم، بعضها كتبها في غرناطة، والبعض الآخر في المغرب، وتربُو على الستين. ما بين كتاب ورسالة. ومؤلّفاته التي وصلت إلينا تدور في معظمها حول الأدب والتاريخ، وما لم يصل إلينا فقد أُحرق معظمه ويتعلّق بالطب والأخلاق والعقائد... وما هذا الانتاج الضخم سوى دليل على أن صاحبه امتشق ما في ضرع المعرفة، فكان إمام شعراء الأندلس، وفارس أدبائها، وأحد مؤرِّخيها وعلمائها المُتقنين العارفين بأخبار الأولين والمتأخرين والمعاصرين، ومن كبار كُتّاب القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. وشهرته كاتبًا لا تقلّ عن شهرته شاعرًا، فإلى جانب النثر نهض بالشعر، وكان له اليد الطُّولى في نظم الموشحات التي طُمس رسْمها في زمانه، حتى انتهت إليه رئاسة هذا الفن، وصار من ألمع شعراء وأدباء وعلماء عصره، حسبما يقول ابن خلدون: "وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر، والمعارف والأدب، لا يُساجل مداه، ولا يُهْتدى فيها بمثل هُداه[106]..." ويضيف: "ونبغ في الشعر والترسّل بحيث لا يُجارى فيهما[107]". ويقول فيه ابن الأحمر: "شاعر الدنيا، وعلم المفرد والثُّنيا، وكاتب الأرض إلى يوم العَرْض... آخر من تقدَّم في الماضي، وسيفُ مِقْوَلِه ليس بالكهام، وإذ هو الماضي[108]...". ونحن إذا قرأنا إنتاجه الأدبي والعلمي... حسْبنا أنفسنا أمام موسوعة حضارية تكتسي ثوبا قشيبا سَداه المعرفة ولُحمته الفكر والفن والعلم، نَنْشُد فيها ضالتنا ونتأمل قَصْدنا.

بيروت في العاشر من تشرين الأول

لعام ثلاثة وألفين للميلاد

الحـــواشـــي

1- ترجمة لسان الدين ابن الخطيب وأخباره في الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (ج 4 ص374 - 390) ونثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمن لابن الأحمر (ص 242) والدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (ج 3 ص469) وكتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر لابن خلدون (م 7 ص236- 238، 672، 689- 697، 707- 710) والتعريف بابن خلدون لابن خلدون (صفحات متفرقة) وجذوة الاقتباس لابن القاضي (ص 187) وأزهار الرياض للمقرّي (ج 1 ص 186- 238) ونفح الطيب للمقري (ج 7 ص5- 195) والأعلام للزّركلي (ج 6 ص 135).
وأنظر أيضا مقدمات كتبه المحققة، ولا سيما كتاب "الإحاطة"، ففيه مقدمة مستفيضة كتبها محققه الأستاذ الدكتور يوسف طويل، وتتحدث عن سيرته وأدبه ومؤلفاته. كما كتب حوله عدة بحوث أهمها الدراسة الوافية التي كتبها الأستاذ محمد عبد الله عنان، وصدرت في مجلد واحد بعنوان: "لسان الدين ابن الخطيب: حياته وتراثه الفكري". وهناك أطروحة دكتوراه أعدّها الدكتور نبيل الخطيب في العام 1993 بإشراف الأستاذ الدكتور أسعد ذبيان، وعنوانها: "لسان الدين ابن الخطيب: نثره وشعره وثقافته في إطار عصره".

2- الإحاطة (ج 4 ص 386- 390) ونفح الطيب (ج 7 ص357- 369).

3- كتاب العبر (م 7 ص 689- 690).

4- أزهار الرياض (ج 1 ص 193)

5- كتاب العبر (م 7 ص707-710) ونفح الطيب ج7 ص105-107) وأزهار الرياض (ج1 ص229-231)

6- الإحاطة (ج2 ص6-7)

7- الإحاطة (ج1 ص6 من مقدمة المحقق)

8- الإحاطة (ج1 ص25) ونفح الطيب (ج1 ص68) و(ج9 ص221) وأزهار الرياض (ج1 ص3)

9- راجع في ذلك الإحاطة (ج4 ص373- 554).

10- نفح الطيب (ج9 ص323).

11- نفاضة الجراب (ج2 ص151-162).

12- ريحانة الكتاب (ج2 ص223)

13- المصدر نفسه (ج2 ص368)

14- راجع مدخل إلى الأدب الأندلسي للدكتور يوسف طويل (ص 313-314).

15- مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (ص7)

16- راجع: مدخل إلى الأدب الأندلسي (ص315-316).

17- مشاهدات لسان الدين (ص 12).

18- الإحاطة (ج4 ص388) وأزهار الرياض (ج1 ص89).

19- نفح الطيب (ج9 ص323).

20- راجع مدخل إلى الأدب الأندلسي (ص314-315).

21- مشاهدات لسان الدين (ص11).

22- الإحاطة (ج4 ص388)
23- ريحانة الكتاب (ج2 ص355)
24- نفح الطيب (ج9 ص323) وأزهار الرياض (ج1 ص189)
25- ريحانة الكتاب (ج2 ص411)
26- المصدر نفسه (ج2 ص321)
27- الإحاطة (ج4 ص390)
28- نفح الطيب (ج9 ص320) وأزهار الرياض (ج1 ص189)
29- نفح الطيب (ج9 ص323)
30- راجع ابن الخطيب من خلال كتبه للتطواني (ص63)
31- الإحاطة (ج4 ص389)
32- نفح الطيب (ج9 ص323) وأزهار الرياض (ج1 ص190)
33- الإحاطة (ج4 ص123).
34- نفح الطيب (ج9 ص323).
35- المصدر نفسه والصفحة نفسها.
36- أعمال الأعلام (القسم الثاني ص80)
37- الإحاطة (ج1 ص97، 99).
38- جذوة الاقتباس (ص187)
39- لسان الدين ابن الخطيب: نثره وشعره وثقافته في إطار عصره للدكتور نبيل الخطيب. أطروحة دكتوراه (الورقة137)
40- الإحاطة (ج4 ص389) ونفح الطيب (ج9 ص323)
41- نفاضة الجراب (ج2 ص188)
42- ابن الخطيب من خلال كتبه (ص63)
43- الإحاطة (ج4 ص390)
44- نفح الطيب (ج9 ص320).
45- راجع: ابن الخطيب من خلال كتبه (ص45).
46- الإحاطة (ج4 ص388) ونفح الطيب (ج9 ص323) وأزهار الرياض (ج1 ص190)
47- ريحانة الكتاب (ج1 ص52).
48- الإحاطة (ج2 ص35).
49- الإحاطة (ج4 ص388، 390) ونفاضة الجراب (ج2 ص187) ونفح الطيب (ج9 ص321) وأزهار الرياض (ج1 ص189).
50- راجع: لسان الدين ابن الخطيب حياته وتراثه الفكري (ص271).
51- الإحاطة (ج2 ص35).
52- نفح الطيب (ج9 ص323).
53- ريحانة الكتاب (ج2 ص223، 368).
54- الإحاطة (ج4 ص388) ونفح الطيب (ج9 ص323)
55- الإحاطة (ج4 ص388)
56- المصدر نفسه والصفحة نفسها

57- الإحاطة (ج4 ص388) ونفح الطيب (ج9 ص323)
58- الإحاطة (ج4 ص388)
59- الإحاطة (ج2 ص35). وأنظر أيضا. الإحاطة (ج4 ص388) ونفح الطيب (ج9 ص323) وازهار االرياض (ج1 ص190).
60- ريحانة الكتاب (ج2 ص335)
61- الإحاطة (ج4 ص390).
62- نفح الطيب (ج9 ص321).
63- نفاضة الجراب (ج2 ص188، حاشية رقم3).
64- الإحاطة (ج4 ص489). وأنـظر أيضا نفح الطيب (ج9 ص320-321).
65- نفاضة الجراب (ج2 ص188).
66- المصدر نفسه (ج2 ص368)
67- نفاضة الجراب (ج2 ص188، حاشية رقم3)
68- الإحاطة (ج4 ص388). وأنظر أيضا أزهار الرياض (ج1 ص189)
69- الإحاطة (ج4 ص390). وأنظر أيضا نفح الطيب (ج9 ص321).
70- الإحاطة (ج4 ص534). وقد وردت الرسالة كاملة في المصدر نفسه (ج4 ص535-548) وريحانة الكتاب (ج2 ص316-324) ونفح الطيب (ج9 ص147-159).
71- ريحانة الكتاب (ج2 ص316-334).
72- مدخل إلى الأدب الأندلسي (ص327-328).
73- الأدب العربي في الأندلس (ص499).
74- نفاضة الجراب (ج2 ص188، حاشية رقم3).
75- المصدر نفسه والحاشية نفسها.
76- الإحاطة (ج4 ص388).
77- نفح الطيب (ج9 ص323) وأزهار الرياض (ج1 ص190).
78- الإحاطة (ج4 ص388).
79- نفح الطيب (ج9 ص323).
80- نفاضة الجراب (ج2 ص188، حاشية رقم3)
81- المصدر نفسه (ج2 ص187، حاشية رقم3).
82- الإحاطة (ج4 ص388).
83- أزهار الرياض (ج1 ص189).
84- الرُّتبة، بالتحريك: الخلل ما بين الأصابع.
85- الإحاطة (ج4 ص390) ونفاضة الجراب (ج2 ص188). وأنظر أيضا نفح الطيـب (ج9 ص321).
86- الإحاطة (ج4 ص388) ونفح الطيب (ج9 ص323).
87- الإحاطة (ج4 ص388) ونفح الطيب (ج9 ص323).
88- الإحاطة (ج4 ص388).
89- المصدر نفسه والصفحة نفسها.
90- نفح الطيب (ج9 ص323) وأزهار الرياض (ج1 ص189).

91- الإحاطة (ج4 ص388) وأزهار الرياض (ج1 ص189)
92- الإحاطة (ج4 ص390) ونفح الطيب (ج9 ص321)
93- الإحاطة (ج4 ص390)
94- المصدر نفسه (ج4 ص 388)
95- الإحاطة (ج4 ص390) ونفح الطيب (ج9 ص321)
96- الإحاطة (ج4 ص388) ونفح الطيب (ج9 ص189).
97- لسان الدين ابن الخطيب، حياته وتراثه الفكري (ص278)
98- الإحاطة (ج4 ص388) ولسان الدين ابن الخطيب. نثره وشعره وثقافته في إطار عصره (ص141)
99- الإحاطة (ج4 ص390) ونفح الطيب (ج9 ص321).
100-الإحاطة (ج4 ص390) وأزهارالرياض (ج1 ص189)
101-الإحاطة (ج4 ص390)
102-نفح الطيب (ج9 ص321) وأزهار الرياض (ج1 ص190).
103-الإحاطة (ج4 ص388).
104-نفح الطيب (ج9 ص323) وأزهار الرياض (ج1 ص190).
105-الإحاطة (ج4 ص390).
106-كتاب العبر (م7 ص659)
107-المصدر نفسه (م7 ص689)
108-نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان (ص243). والكُهام: الكليل، ضدُّ الماضي.

مصادر البحث ومراجعه:

1-الإحاطة، في أخبار غرناطة، لابن الخطيب (1-4). تحقيق الدكتور يوسف علي طويل. دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

2-الأدب العربي في الأندلس للدكتور عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية، بيروت، 1976.

3-أزهار الرياض، في أخبار عياض، للمقّري (1-3). تحقيق الأساتذة مصطفى السَّقا وإبراهيم البياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939-1942.

4-الأعلام للزّركلي (1-8). دار العلم للملايين، بيروت، 1980.

5-أعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام، من ملوك الإسلام، لابن الخطيب. القسم الثاني، تحقيق الأستاذ إ. ليفي بروفنسال. دار المكشوف، بيروت، 1956.

6-التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا لابن خلدون. تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي. طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1651.

7-جذوة الاقتباس لابن القاضي. طبعة الرباط، 1973.

8-ابن الخطيب من خلال كتبه لمحمد بن أبي بكر التطواني. دار الطباعة المغربية، تطوان، 1954.

9-الدرر الكامنة، في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني (1-4). الهند، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1930.

10-رحلة ابن جبير لابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1979.

11-ريحانة الكُتاب، ونُجعة المُنتاب، لابن الخطيب (1-2). تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1980-1981.

12-الصيِّب والجهام، والماضي والكهام، لابن الخطيب. تحقيق الدكتور محمد الشريف قاهر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973.

13-كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، لابن خلدون (ثمانية مجلدات في أربعة عشر جزءا). دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981.

14-الكتيبة الكامنة، في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، لابن الخطيب. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، 1963.

15-لسان الدين ابن الخطيب، حياته وتراثه الفكري لمحمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي، القاهرة، 1968.

16-لسان ابن الدين ابن الخطيب: نثره وشعره وثقافته في إطار عصره، أطروحة دكتوراه للدكتور نبيل الخطيب، كلية الآداب بالجامعة اللبنانية، بيروت، 1993.

17-اللمحة البدرية، في الدولة النصرية، لابن الخطيب. دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980.

18-مدخل إلى الأدب الندلسي للدكتور يوسف علي طويل. طبعة جديدة منقحة، بيروت، 2003.

19--مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس. مجموعة من رسائله) لابن الخطيب. نشر وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي. مؤسسة شباب جامعة الإسكندرية، 1983.

20-نثير فرائد الجمان، في نظم فحول الزمان، لابن الأحمر. تحقيق الأستاذ محمد رضوان الداية. دار الثقافة، بيروت، 1967.

21-نُفاضة الجراب، في عُلالة الاغتراب، لابن الخطيب. تحقق الدكتور أحمد مختار العبادي. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة. بدون تاريخ.

22-نفْح الطيب، من غُصن الأندلس الرطيب، للمقرّي (1-10). تحقيق الدكتورة مريم قاسم والدكتور يوسف طويل. دار الكتب العلمية، بيروت، 1995.

التنظيمات العسكرية في العراق إبان ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي (75-95هـ/694-714م).

الأستاذ الدكتور عبد الواحد ذنون طه

تمثل حقبة ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي للعراق مرحلة مهمة جدًا في تاريخه السياسي والعسكري، لأنها حقبة تميزت بتطورات متلاحقة لا سيما على صعيد التنظيم العسكري وتهيئة القوات اللازمة لمعالجة المشاكل التي رافقت هذه الحقبة من جهة ولتهيئة جيوش قادرة على مد رقعة الدولة إلى المشرق فقد كان العراق هو المركز الإداري المسؤول عن الحركات العسكرية في الجبهة الشرقية في العصر الأموي.

وكان الجهد العسكري في العراق ومنذ تحريره في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقع على عاتق القبائل العربية التي استقرت في القاعدتين اللتين أنشأتا فيه، وهما الكوفة والبصرة. وقد نُظمت البصرة والكوفة على أسس عشائرية، فكانت كل عشيرة وحدة يسكن أفرادها متقاربين في رقعة معينة من المدينة، تسمى باسم العشيرة[1]. ونتيجة لضعف الروابط القبلية فإن ظروف التنظيم العسكري للعرب بعد استقرارهم في هذه الأمصار الجديدة، أدت إلى أن تصبح العشيرة هي الوحدة العسكرية الأولى[2]. وقد نظم الوالي زياد بن أبي سفيان العطاء لهؤلاء العشائر المقاتلة، التي كان واجبها الأساسي هو الخدمة في الجيش. لذا كان من الضروري أن تقدم كل عشيرة في حالة الحاجة عددًا من المحاربين المشاة والفرسان.

وقد قسم زياد بن أبي سفيان مدينة البصرة إلى خمس قبائل كبيرة، يسمى كل منها خمسًا[3] كذلك قسم الكوفة إلى أرباع[4]. ولا شك أن الغاية الأولى من هذه التقسيمات كانت عسكرية. وكان الأمير يُعين العرفاء من بين ذوي النفوذ في العشيرة. والراجح أن وظيفة العرافة وجدت في مصر في الأمصار من عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد أعيد

---

*- أستاذ التاريخ الأندلسي بكلية التربية- جامعة الموصل- جمهورية العراق.

تنظيم هذه الوظيفة في عهد زياد. وكان للعريف مهام كثيرة، منها: أنه المسؤول عن تقسيم العطاء بين قومه، كما كان له علاقة قوية مع أفراد عرافته، أو قد يتولى عنهم، أو يتوكل بأرزاقهم إذا خرجوا لأمر أو سافروا. وكان العرفاء مسؤولين عن جمع الجند عند النفير، كما كانوا مسؤولين عن جمع البراءات بموافاتهم إلى مراكز البعوث التي ينتمون إليها[5].

استمرت هذه التنظيمات تعمل بشكل جيد طيلة مدة ولاية زياد بن أبي سفيان، وإلى حد ما في ولاية ابنه عبيد الله بن زياد، ولكن بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية (60-64/ 680-683) اضطربت أحوال العراق، لاسيما بعد استفحال خطر الخوارج في المناطق المجاورة للبصرة. فلقد واجه العراق، ظروفا صعبة في السنوات القلائل التي سبقت ولاية الحجاج بن يوسف، حيث تتابعت فيه الفتن والحركات المتلاحقة التي راح سببها الكثير من الضحايا، إضافة إلى ما سببته من هياج في المشاعر وغليان سياسي، استمر حتى عهد عبد الملك بن مروان (65-86/ 685-750)، الذي عين ولاة متعددين على العراق لتثبيت السلطة الأموية فيه، ومكافحة خطر الخوارج، الذين تجمعوا في الأحواز. وقد حاول أخو الخليفة، ووالي العراق بشر بن مروان أن يحارب هؤلاء الخوارج، فأرسل إليهم القائد المهلب بن أبي صفرة من البصرة، وأنجده بجيش آخر من الكوفة، لكن بشر توفي، قبل أن تنجز هذه المهمة، الأمر الذي أدى إلى تفرق جند المهلب، ورجوعهم إلى أمصارهم، عصاة مخالفين.

وكانت مشكلة الفارين من القتال من أهم المشاكل التي تواجه السلطة الأموية، لهذا كان على الخليفة عبد الملك أن يختار لها رجلاً كفوءًا يستطيع أن يعيد تنظيم الجيش العراقي، وأن يثبت الحكم الأموي فيه. وعندما وصل الحجاج إلى الكوفة، خطب فيها خطبة، أكد فيها المشاكل الآنية التي يجب حلها بسرعة، وهدد بالقتل كل من وجد متخلفًا عن جيش المهلب بن أبي صفرة بعد ثلاثة أيام، وذلك بقوله: "...وقد بلغني رفضكم المهلب وإقبالكم إلى أمصاركم عصاة متخلفين، وأقسم بالله لا أجد أحد بعد ثلاثة ممن أخل بمركزه إلا ضربت عنقه"[6].

ومن الجدير بالذكر أننا تطرقنا إلى هذا الأمر، لأهميته في كيفية تعامل الحجاج مع التنظيم السابق للجيش والمقاتلة، وما هي الأساليب الجديدة التي أدخلها على هذا التنظيم، لضمان سرعة تجنيد القوات العسكرية والتحاقها بجبهات القتال، دون تأخير. واتخاذ إجراءات قاسية في هذا المجال، لردع المخالفين والمتخاذلين. وتنظيدًا لما قاله، فقد طلب من رئيس شرطته،

أن يقتل من وجده عاصيًا بعد ثلاثة أيام، وأمره أن يحشر الناس إلى المهلب، حتى يسترجع كل رجل تفرق عنه سابقًا[7]. وفعلا نفذ الإعدام بأحد المتخلفين، وهو عمير بن ضابئ البرجمي ونتيجة لذلك، فقد خاف العصاة والتحقوا بجيش المهلب، وتزاحموا على عبور الجسر. حتى غرق بعضهم، مما جعل الحجاج يأمر باقامة جسر آخر على الفرات لاستيعاب الفارين الذين رجعوا، والتحقوا على وجه السرعة طالبين إلى أهاليهم أن يزودوهم بمتاعهم وزادهم فيما بعد[9]

لـــقد كان للحجاج بن يوسف الثقفي طريقته الخاصة في التعامل مع العصاة الفارين من القتال، ولم يكن ير أي مبرر لعدم التحاق الجنود بجيشهم، فكان يقول: "إن المعصية لو ساغت لأهلها ما قوتل عدو، ولا جبي فيء، ولا عزّ دين، ولم يغز المسلمون المشركون لغزاهم المشركون"[10]. والواقع أن الحجاج كان محقا في قوله هذا، وفي معاملته للجنود الفارين. لأن منح الدولة للعطاء للمقاتلة يخولها قانونًا حق فرض البعث[11] عليهم، وإلزامهم الاشتراك في القتال[12]. وكان الولاة قبل الحجاج، يستخدمون الضرب والحبس، وحلق اللحى والرؤوس، بالنسبة للعصاة الفارين من الالتحاق بالجيش، وزاد بشر بن أبي مروان بتعليق كفي العاصي بمسمار إلى الحائط، وتركه إلى أن يموت. ولكن الأمور اختلفت كثيرًا بمجيء الحجاج إلى العراق، الذي عيّن أصلاً للقضاء على هذه المشكلة. لهذا فقد رأى أن ما فعله الولاة السابقون بالعصاة لم يكن ردعًا لهم، وهو لايرى إلا السيف حلاً لهذه المشكلة[13]. ولكن الحجاج لم يشترط في استخدام هذه العقوبة، صحيح أنه هدد بها، وقتل بموجبها فعلاً، عمير بن ضابئ البرجمي في الكوفة، وشريك بن عمرو اليشكري في البصرة[14]، إلا أنه أخذ فيما بعد "يتفقد العصاة ويوجه الرجال، فكان يحسبهم نهارًا ويفتح الحبس ليلاً، فيتسلـــل الناس إلى ناحية الملهب، وكأن الحجاج لا يعلم[15] وبطبيعة الحال، كان هذا هو الهدف، أي التحاق المقاتلين بجيشهم، ولم يكن الهدف هو العقاب وقتل هؤلاء المخالفين.

ويعتبر البعض أن الحجاج بطريقته هذه يعد أول من أدخل التجنيد الإلزامي في العراق [16]، وربما كان هذا الأمر صحيحًا إلى حد ما، صحيح أن فرض البعوث، وتجنيد الجنود، وما يتعلق بها من أنظمة والتزامات، كل ذلك كان موجودًا أو معروفًا قبل الحجاج. ولكن هذا الوالي طبق هذه الأنظمة بصورة حازمة الأمر الذي جعله يبرز في هذا الميدان. فقد كان لايسمح لأحد مـــن النـــاس أن يتخلف عن البعث، إلا أن يكون مشغولاً بعمل من أعمال

الخليفة[17]. يضاف إلى ذلك أنه كان يجند المحتلمين والبالغين من الصبيان، ويفرض عليهم البعث عند اللزوم[18]. كما كان يسمح لولاته في أخذ من شاءوا من أهل الأمصار، لتجهيزهم وإرسالهم للفتوحات في المشرق[19].

وفي مجال إعادة تنظيم ديوان الجند، قام الحجاج بن يوسف بإجراءات منها، تبديل كافة العرفاء السابقين، وذلك استنادًا على أمر الخليفة عبد الملك بن مروان له، بأن يعرض الناس، ويعيد تنظيم عطائهم حسب الكفاءة والمقدرة[20]. فلما عُرض عليه العرفاء، أبدى عدم اقتناعه في مقدرتهم على القيام بمهامهم على الوجه الصحيح، لذلك أمر بإقالتهم جميعًا. وقد سبقت الإشارة إلى أهمية هؤلاء العرفاء، ومسؤوليتهم عن جمع الجند عند النفير، وغيرها من المهام ذات العلاقة بالحكومة. ويبدو أن هؤلاء العرفاء كان بمقدورهم استغلال نفوذهم في تعجيل تنفيذ الزيادة في العطاء، أو تأخيرها، كما كان بمقدورهم أيضًا ألاّ يخبروا عن حالات الوفاة في عرافاتهم، ويستمروا في دفع عطاء الموتى لأهاليهم[21]. وبما أنهم كانوا حلقة الوصل بين الناس والحكومة، فيما يخص توزيع العطاء، وجمع الجند، ومراقبة المشاغبين والمتمردين، للسيطرة على المجتمع، فلا بد أن يكونوا بمستوى هذه المسؤولية، ليرضى عنهم الأمير.

ونظرًا للفوضى التي كانت سائدة قبل مجيء الحجاج إلى العراق، والتي يشك أن لتقاعس هؤلاء العرفاء يد فيها، وفي استفحالها، بعدم الإبلاغ عن الجند الفارين، أو غيرها من المخالفات التي تعيق الجهد العسكري للقضاء على الحركات المعادية للدولة، كحركة الخوارج مثلاً. لهذا كان من الضروري للوالي الجديد، أن يستبدل كل هؤلاء بغيرهم ممن يمكنه أن يعتمد عليهم جمع الحجاج القبائل[22]، واختار منهم من رآه لائقًا للعمل عريفًا، أو منكبًا[23]، على القبائل. وكان من جملة الأمور التي يجب أن تتوفر فيمن يُختار لهذه الوظيفة، هي: أن يحسن المرشح قراءة القرآن الكريم، وأن يكون له معرفة باللغة العربية، والشعر، والحساب، والفرائض، ومغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم[24].

لقد انعكست سياسة الحجاج الفعالة في القضاء على مشكلة العصاة الفارين، وكذلك سيطرته على العرفاء والمناكب، بواسطة استبدالهم بعناصر كفوءة يركن إليها في ضبط الاتصال مع القبائل العربية المختلفة المنضوية ضمن الجند في العراق. انعكست هذه السياسة على نتائج إيجابية في مسألة إعداد المقاتلين، فقد استطاع هذا الوالي في سنة 77هـ/ 696م، أن يجند لقتال

الخوارج من الكوفة وحدها نحو خمسين ألف مقاتل، عشرة آلاف منهم من الشباب، ولم يسمح لأي رجل من قريش أو من بيوتات العرب أن يختلف عن ذلك[25]. وبلغ عدد الجيش الذي كان تحت قيادة قتيبة بن مسلم الباهلي في خُراسان نحو أربع وخمسين ألف مقاتل. كما استطاع الحجاج في سنة 81هـ/700م، أن يجهز جيشًا قوامه نحو أربعين ألف مقاتل من مقاتلة البصرة والكوفة، وسيره إلى سجستان لقتال الترك بقيادة عبد الرحمن بن محمد الأشعث، وجهز الجند بكل ما يحتاجونه من سلاح وعدة كاملة، وزودهم بالخيول الروائع، حتى سمي ذلك الجيش بجيش الطواسي لتكامل عدة رجاله، وشجاعة أفراده، وحسن هيئتهم[26].

وكان الاهتمام كبيرًا بأعداد المقاتلين، كمًا ونوعًا. فقد كان الحجاج حريصًا على التنظيم الكامل لجنوده في العراق، فكان لا يخلط خيل الشام مع خيل العراق[27]. كما كان يهتم بتفتيش الجند ومحاسبتهم على السلاح والقيافة الكاملة. لذلك كان يكثر من استعراض الجند بنفسه، لا سيما قبل إرسالهم إلى القتال، فيسأل عن رجل رجل ويتعرف إلى هواياهم، فمن رضي به أقره في بعثه[28]. وكان يرفض كسوة الجندي وفرسه، إذا رآهما لا يتفقان مع ما يأخذه من عطاء كثير[29]. وإذا ما رأى مخالفًا، أو رجلاً لا سلاح عليه، كان لا يتهاون معه، ويعاقبه بالضرب بالسوط. وكان يشتد في معاملة جنوده، حتى أنه حاسب أحدهم عن الخيول التي عقرت تحته أثناء القتال، في فتنة عبد الرحمن بن الأشعث، فاحتسبها من عطائه.[30]

وكان عطاء المقاتلين يصرف من بيت المال، حسب ضوابط تم وصفها منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بالنسبة للمسجلين في ديوان الجند. وكان في العراق ديوانين للجند في كل من الكوفة والبصرة، وقد تطور نظام العطاء في العصر الأموي، فلم تعد المقاييس التي وصفها الخليفة عمر، مثل السبق في الإسلام، والفناء عن الإسلام والحاجة، هي التي تقرر فرض العطاء، إنما الذي أصبح يقرر ذلك هو الولاة للدولة، والخدمة في قواتها ومؤسساتها. وكان الحد الأعلى من العطاء، يدعى شرف العطاء، محددًا بألفين وخمسمائة درهم في السنة. ثم انقض في عهد معاوية بن أبي سفيان (41-60/ 660-680) إلى ألفي درهم. وكان هذا العطاء لا يعطى إلا لمن أبدى بسالة في الحروب، أو من كان يقوم ببعض الأعمال الإدارية أو القيادية. أما أغلبية المقاتلة فقد كان عطاؤها أصناف: مأتي درهم، وثلاثمئة، وأربعمائة، وخمسمائة، وسبعمائة، وألفًا، وألفًا وخمسمائة درهم. وهذا التصنيف لم يكن حسب قبائل هؤلاء

الجند، بل على أساس ما يبدونه من بسالة في المعارك، أو ما يجهزون به أنفسهم، فيأخذ الفارس مثلاً عطاءً أكبر مما يأخذه الرجل[32]. ولا توجد إشارة إلى عدد الرجال في كل صنف في العصر الأموي، أو في عهد الحجاج في العراق بشكل خاص، لكن وكما يقول صالح العلي، كان "من يأخذون أدنى العطاء، أكثر مما يأخذون أعلاه، كما أنه هناك مجال للترقية من صنف إلى آخر" [33].

ويتضح في النص الذي ذكره أبو عبيدة بن معمر بن المثنى التميمي[34]، إن العطاء الذي كان يفرضه الحجاج بن يوسف لغالبية الجند في العراق هو ثلاثمئة درهم، فهو يقول: "كان الحجاج يفر في ثلاثمائة ففرض للحرنفش أحد بني سلامان، وكان يأخذ ممن فرض له بفرسٍ جوادٍ وسلاحٍ شاكٍ، فقال الحرنفش:

"يكلفني الحجاج درعًا ومغفرًا وطـــرفًا كميتًا رائعًا بثـــلاث

وستين سهمًا صنعه يثربـــيه وقوسًا طروح النبل غير لباث

ففي أي هذا أجعلن دراهمـــي فربي مـــن هذا الحديث غياثي"

ويبدو من هذه الأبيات التي تعبر عن استياء هذا الجندي من قلة مبلغ العطاء، أن الحجاج كان يطلب نظيره، أن تكون عدة الجندي كاملة. لهذا كان الجندي يشكو من صعوبة التوفيق بين هذا العطاء، وبين ما يطلبه الحجاج من عدة وسلاح. لكنه كان يزيد من عطاء الجندي إذا ما أبلى في الحرب[35]. وكان في بعض الأحيان يوزع على قادته وجنده، مبالغ أخرى، لا تدخل ضمن العطاء، من باب المكافأة والتشجيع. فعلى سبيل المثال، تشير المصادر إلى قيامه بتوزيع مبلغٍ كبيرٍ جدًا على جيشه، بعد انتهاء معركة تستر أمام ابن الشعث سنة (81هـ/700م)[36]. ومن المحتمل أن يندرج ضمن هذا الأمر أيضًا، إعطائه مبلغ مئة درهم في الشهر لجنوده الذين كانوا يحاربون ابن الشعث في سجستان. فتشير إحدى روايات الطبري[37]، إلى أن الحجاج كتب إلى ملك الترك الذي التجأ عنده ابن الشعث: "أما بعد فإنني بعثت إليك عمارة بن تميم في ثلاثين ألفًا من أهل الشام لم يخالفوا طاعة و لم يخالفوا خليفة ولم يتبعوا أمام ضلالة يجري على كل رجل منهم في كل شهر مائة درهم يستطعمون الحرب استطعامًا يطلبون ابن الأشعث". وإن صح هذا النص، فهو يعني أن هؤلاء الجند كانوا يأخذون ما يقارب أربعة أضعاف الجند الاعتياديين. وربما كان ذلك لأنهم خرجوا في مهمة خاصة، أو إن هذا المقدار من

العطاء الذي ذكره الحجاج كما يرى خالد الجنابي –كان عطاءً وقتيًا وإن الغرض من ذلك كان سياسيًا أو قصد منه التهديد[38]. ولم تختلف صنوف الجيش وأسلحته عمّا كان معروفًا من عصر الراشدين، والعصر الأموي، فالقوات العربية في الجيش في العراق إبان عصر الحجاج كانت تتألف من الخيالة، والرجالة، والرماة أو النشابين، وغيرهم من المنجنقيين والفعلة، والأفراد الذين يقومون بالخدمات، مثل الإشراف على النقل والتمرين والطبابة، وغيرها. فضلا عن العيون والجواسيس. أما الأسلحة، فكانت تنقسم إلى قسمين وهي الأسلحة الخفيفة، والأسلحة الثقيلة. وقد مر بنا كيف أن الحجاج كان يطلب من الجندي، أن يجهز نفسه بالأسلحة الخفيفة، نظير أخذه للعطاء. أما الأسلحة الثقيلة، لاسيما تلك التي استخدمت في الحصار، ومقاتلة الأعداء في جبهة المشرق، فكانت تتألف في الغالب من المنجنيقيات والدبابات والكبوش، أو غيرها. وليس هنا مجال لأشرح المعلومات النظرية عن هذه الأسلحة، ويمكن الرجوع إلى الدراسات المختصة في ذلك[39]. ولكن الذي يمكن قوله بأن انتصارات العرب المتوالية في العصر الأموي أدت إلى وقوع أعداد هائلة من السلاح بين أيديهم، لاسيما في العراق. وكان هذا السلاح عادة يوزع على المحاربين في أثناء القتال، ويرسل الباقي إلى قواعد الجيش الرئيسية في الكوفة والبصرة.

ففي الجبهة الشرقية على سبيل المثال، أصحاب قتيبة بن مسلم الباهلي في خزائن بيكند، وهي بلدة بين بخارى ونهر جيحون[40]. سلاحا كثيرا قسّمه بين المقاتلين[41].

أما بالنسبة للتعبئة وأساليب القتال، فقد سارت في العصر الأموي، وفي العراق على عهد الحجاج خاصة، كما كانت عليه بشكل عام في الدولة العربية الإسلامية. وهي بالتأكيد قد تطورت عن الأساليب السابقة في الكرّ والفرّ، إلى القتال حسب نظام الزحف أو الصفوف. وقد برع الجيش في العراق في ممارسة مختلف أساليب القتال، لاسيما وأنه واجه القضاء على حركات داخلية كثيرة، مثل حركات الخوارج. كما تصدى للفتوحات في الجهة الشرقية، الأمر الذي دفعه إلى استحداث أساليب تعبدية جديدة، تعتمد على الخفة وسرعة الحركة، والمفاجأة. وسنكتفي بضرب بعض الأمثلة على هذه الأساليب متجنبين الحديث عن الأساليب التعبوية في القتال بشكل عام، وما كان عليه ذلك في العصر الأموي، خشية التكرار[42].

لقد كان قادة العراق مثالاً جيدًا للاستعداد للحرب، والحذر في قيادة الجيوش حفظًا على سلامة الجند. وكانت حروب الخوارج بشكل خاص تتطلب مثل هذه الحيطة وذلك الحذر. وكان المهلب بن أبي صفرة، شديد الاحتياط والحذر في جميع حركاته العسكرية لا ينزل إلا ويخندق على جيشه، ويتولى الحراسة بنفسه، أو يستعين بأبنائه، أو من يثق بهم من أصحابه، ولحرصه الشديد كان يأمرهم بالتحرز ويخوفهم من البيات، أي مهاجمة العدو ليلاً، كما كان يحذرهم من المكيدة، وخداع الأعداء[43]. وهكذا لم يجد منه الخوارج أية غرة أو غفلة. كما برع قادة جيش العراق في عهد الحجاج بن يوسف في استخدام الكمائن، للانقضاض على الأعداء، لاسيما في الجهة الشرقية. وتعد معركة سمرقند سنة 93هـ/ 711م أبرز مثال على ذلك، حيث استخدم فيها أسلوب الكمين مما أدى إلى إضعاف معنويات الأعداء، وطلبهم للصلح مع المسلمين[44].

وتتجلى أساليب القتال التي اتبعتها القوات العراقية في عهد الحجاج في اقتحام المدن والحصون. ويمكن أن نشير إلى فتح مدينة بخارى على يد قتيبة بن مسلم الباهلي سنة 90هـ/ 708م في هذا المجال. وهذا المثال يشيد، إضافة إلى عزم وإصرار المسلمين على تحرير هذه المدينة، إلى دور الحجاج كقائد عام للجيش، ومساهمته في اتخاذ القرار بشأن الأسلوب الأمثل للقتال، وكيفية الاستيلاء على المدينة. فعندما طال حصار المسلمين لهذه المدينة كتب قتيبة إلى الحجاج يستشيره في ذلك، فطلب منه أن يصورها، فبعث إليه قتيبة بمخطط للمدينة يصور موقعها، فنصحه بأن يتقدم إليها من أماكن معينة، وحذره من الجبال ومنعطفات الطرق، وأن يأتيها من جهات معينة حددها له، الأمر الذي ساعد على افتتاحها[45].

ومن التنظيمات الأساسية التي تذكر في عهد الحجاج بن يوسف في العراق، هي بناء مدينة واسط في حدود سنة 83 أو84هـ/ 702 أو703م). ويرى بعض المؤرخين أنها بنيت لتكون مقر لجند أهل الشام الموجودين في العراق، ولمنع ما قد يحصل من اعتداءاتهم على سكان المدن الأخرى[46]. والحقيقة إن فكرة إقامة جند الشام في مدينة خاصة، لم تكن هي المبرر الوحيد لبناء المدينة، فهناك أسباب إدارية وعسكرية وإصلاحية، أكثر أهمية من ذلك مثلاً جعل هذه المدينة لتوسطها بين الكوفة والبصرة، مركزًا لإدارة العمليات العسكرية في المشرق وقاعدة لانطلاق جيوش العراق منها. ولم يكن السكن فيها مقتصرًا على جند الشام، بل كان يشمل

كل العرب، ولا يجوز لغيرهم لاسيما النبط السكن أو المبيت فيها[47]. إن موقع هذه المدينة المتوسط بين مدن العراق جعلها حصنًا في منتصف الطريق، كما أن موقعها المناسب في سهل مروي جيدا، بين دجلة والفرات، جعلها مركزًا سوقيًا عسكريًا للدولة العربية الإسلامية[48].

ومن هذه المدينة فعلاً انطلقت جيوش العراق الإسلامية لتحقق انتصارات عظيمة في جبهة المشرق. وكان للحجاج بصفته القائد الأعلى لهذه الجيوش، دورٌ كبيرٌ في تحمل مسؤولية العمليات العسكرية التي امتدت إلى حدود الصين والهند وآسيا الوسطى.

إن تعاون الحجاج التام بينه وبين قادته، يظهر مدى تأثيره الشخصي على سير هذه العمليات، ويذكر الأستاذ هاملتون كب (A. H. R. Gibb) [49] بأن إنجازات الجيوش الإسلامية في أواسط آسيا خلال حكم الوليد الأول (86-96/ 705-715) وكانت تعزى بالدرجة الأولى إلى التعاون التام بين نبوغ الحجاج الموجه، وبين قدرة قتيبة بن مسلم الحربية. ويمكن أن نظيف عامل التنظيم والخبرة، اللتين امتاز بهما الحجاج، في تجهيز الجيوش وتسييرها، كعوامل أُخرى ساعدت على نجاح العمليات العسكرية لجيوش العراق في المشرق. فعلى سبيل المثال، جهز الحجاج جيش محمد بن القاسم الثقفي بكل ما يحتاج إليه من لوازم، حتى البسيطة منها، إضافة إلى أنه نظم إرسال الحملة، بأن جعلها قسمين، برية وبحرية، وحرص على أن تصل الحملتان في وقت واحد إلى الديبل في أرض السند (موقع لمدينة كراجي في الباكستان الحالية) [50]. وكانت الاتصالات مستمرة بين القيادة العامة في واسط، والقادة الميدانيون، يطلع فيها القائد العام على كل صغيرة وكبيرة، تهم الجيش المتواجد في ميدان القتال. فكانت كتب القائد محمد بن القاسم، ترد على الحجاج وكتب الأخير ترد عليه كل ثلاثة أيام. وكثيرًا ما كان الحجاج يبدي توجيهاته في طريقة الفتح أو القتال، ويحاول أن يذلل العقبات التي تعترض سير الحملات، بعد اطلاعه على الوصف التفصيلي لأرض المعركة[51].

إن تنظيم الجيش في العراق في هذه الحقبة، وإنجازاته الكبيرة على الصعيد المحلي، بالقضاء على الفتن والحركات المناوئة للدولة، وكذلك تحقيق التوسع في الجبهات الخارجية، يعود كما أسلفنا، بشكل موجز، إلى فضل القيادة الرشيدة، والتعاون التام بينها وبين الميدانيين، وقد توخى الأمويون بشكل عام، والحجاج بشكل خاص في قادهم ذات الصفات التي كانت مطلوبة في عهد الراشدين، فكانوا يتحرون من لــه القابلية على تحمل المسؤولية، ويتصف

بالحزم، ورسوخ العقيدة والثقة بالنفس. إن أبرز القادة الذين عملوا في الجبهة الشرقية التي كانت تتبع العراق من الناحية الإدارية في عهد الحجاج، هم المهلب بن أبي صفرة، ومحمد بن القاسم الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي. وكانت هذه المناطق تشمل الأحواز، وفارس، وكرمان، والهند، والسند، وسجستان، وطبرستان، وجرجان وخرسان[52].

ولن نطيل في الحديث عن هؤلاء القادة، ولكن لابد من الإشارة إلى أهم إنجازاتهم على صعيد القتال في هذه الحقبة. فقد كان للمهلب بن أبي صفرة (ت 82هـ/701م)، فضل كبير في إنقاذ البصرة من الخوارج الذين كانوا يهاجمونها باستمرار. وقد ازدادت معنويات هذا القائد بوصول إمدادت جديدة إليه بعد تعيين الحجاج على العراق، فأجلا الخوارج من الأحواز إلى فارس، ثم لاجقهم إلى كرمان، وتمكن ممن القضاء عليهم نهائيًا[53]. وقد أشرنا في ما سبق إلى بعض قابليات هذا القائد الذي كان أعداءه يعترفون بقابليته العسكرية ويخشونها. ومن صفاته القيادية الأخرى، حسن معاملته لجنوده، حسب نفسياتهم وأطباعهم وأهوائهم. وكان يوزع خراج المناطق الواقعة تحت سيطرته عليهم[54]. وقد طور المهلب في بعض أدوات الحرب المستعملة في زمانه نتيجة لخبرته الطويلة في القتال، فبدل ركاب الخيل الخشبية، وأمر بضربها من الحديد، حيث كانت الأولى سريعة العطب، فتنقطع، ويبقى الفارس يقاتل دون أن يكون مستندًا على أساس قوي تحت رجليه[55]. ومن القادة المتميزين في العراق، محمد بن القاسم الثقفي، الذي كان والده عاملاً على مدينة البصرة. وقد ساهم مع الحجاج في فترة مبكرة في مقابلة عبد الرحمن بن الأشعث، الذي أعلن العصيان على الدولة. وقد نال إعجاب الحجاج لشجاعته، وحسن إدارته، فأسند إليه سنة 89/ 707-708 قيادة حملة مهمة إلى السند، وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، فقاد الحملة البرية التي رافقتها سفن الأسطول البحري، واستطاع أن يحقق من الانتصارات في هذه الجبهة ما عجز عنها غيره من القادة الكبار فقد خندق أمام مدينة الديبل (كراجي) ونصب منجنيقًا كبيرًا يقال له العروس، يعمل به وقت الرمي خمسمئة رجل، ثم ابتدأ حصار المدينة، التي استمر فيها القتال ثلاثة أيام، ثم بنى فيها مسجدًا، واختار أربعة آلاف من جنده، وأسكنهم فيها، ليكونوا دعاة لنشر الإسلام واللغة العربية[56]، وهكذا أعاد الأمن والاستقرار إلى تلك المنطقة، حيث لا تزال هذه البلاد تنعم بفضل القائد العظيم، الذي كان السبب في هداية الملايين من أبنائها إلى الإسلام.

وأخيرًا لابد من الإشارة إلى القائد أبي حفص قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي ولد ونشأ في العراق، واستشهد بخراسان سنة 86هـ/ 715م. وقد برزت مواهبه العسكرية حينما وقف مع الحجاج في قتاله لأحد المتمردين في البصرة، ثم بانت مواهبه العسكرية في قتال الخوارج، ثم في ولايته على الري شمال إيران، ومن بعدها ولاية خراسان. وقد اتخذ من مدينة مرو قاعدة عسكرية له، ثم انطلق منها إلى بلاد ما وراء النهر، وهي الأقطار الكائنة شرق نهر جيحون المسمى الآن بـ(أموداريا)، وافتتح أيضا منطقة خوارزم غرب بحيرة أورال، وكذلك تقدم في مناطق أفغانستان الحالية، مجتازًا الحدود بين روسيا والصين[57].

ولن نطيل في الحديث عن إنجازات هذا القائد وإدارة المعارك، حيث أولى مبادئ الحرب أهمية خاصة في جميع معاركه خلال أكثر من عشرة أعوام في قيادة الجيوش في خراسان وما وراء النهر. ففي مجال الأمن كان لا يتحرك إلا من قاعدة أمنية، ولا يغامر بأرواح جنده، وكان متحوطًا يوصي بالكتمان، واستخدم التقدم الليلي لكي يخفي تحركاته عن العدو. ولم يبعثر قواه، بل كان يخرج كتائبه ويزجها بكل قواه في المكان والاتجاه الحاسم. وقد اتسمت جميع معاركه بالتعرض، فلم يتوقف عن الهجوم طيلة فترة قيادته، كما لم يتخذ موقف الدفاع أبدًا. وقد طبق مبدأ المباغتة باستمرار، وكانت حركاته سريعة بشكل مذهل، واستخدم الصنوف الهندسية لتسهيل حركته بنصب الجسور، وتمهيد الطرق وإزالة العوائق، أو الخيالة. وكان مثالاً للتعاون مع قائده الأعلى الحجاج، ومع أركان حربه من قادة التشكيلات التابعة له[58].

وكان هذا القائد إداريًا ممتازًا، هيأ لجيشه كل مستلزمات النصر، لاسيما دراسة المشاكل قبل المعارك، ووضع الخطط في مراحل سابقة، وتكديس التجهيزات العسكرية والأسلحة. وقد منع اعتبار الأسلحة من جملة الغنائم، حتى يستفيد منها لتشكيل قطعات جديدة، ولم يفعل ذلك أي قائد عربي آخر. وقد استخدم الضبط العسكري الصارم مع قطعاته، ومع سكان المناطق المفتوحة ليضمن السيطرة الفعلية عليها، كما حاول أن يعمل على استقرار القبائل العربية في المناطق المفتوحة، لكي تستقر الحاميات، ولا تنسحب ففي كل شتاء إلى مرو. وقد أدى هذا الأمر إلى سرعة وسهولة نشر اللغة العربية والدين الإسلامي بين السكان المحليين. وقد نظم قتيبة البريد بشكل ممتاز مع القائد العام، بحيث كانت الأخبار تصل إلى العراق، وتعود منها خلال أسبوع واحد[59].

الحــواشــي:

1. صالح أحمد العلي، امتداد العرب في صدر الإسلام، فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي ج1 و2 من المجلد 32، بغداد، 198، ص26.

2. ينظر: خالد الجنابي، تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، بغداد دار الشؤون الثقافية العامة، 1984، ص27.

3. صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الهجري، ط2، بيروت0، دار الطليعة، 1969، ص53.

4. ينظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر، دي غوية، ليدن، 1879-1903: 1/ 2405، وينظر لويس ماسينيون، خطط الكوفة، ترجمة تقي محمد المصبعي، النجف الأشرف، مطبعة الغربي المدينة، 1979، ص 60-61.

5. ينظر: الطبري، المصدر السابق، 2496/1، 866/2، 870، 902، 1469، العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فــي البصرة، ص114-118.

6. أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، أنساب الأشراف، طبعة أهلورت، غريفز ولد، 1883: 281/11.

7. أبو محمد أحمد بن عثمان الكوفي المعروف بابن أعثم، الفتوح، بيروت، دار الكتب العلمية، 1986، م4، ج7، ص 13، وينظر: عبد الواحد ذنون طه، العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، الموصل، مطبعة جامعة الموصل، 1985، ص66.

8. الطبرس: المصدر السابق: 869/2-870، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الأوائل، تحقيق، محمد السيد الوكيل، طنجة، 1966، ص263.

9. البلاذري: المصدر السابق: 385/11، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، محمد الدين عبد الحميد، القاهرة، 1938: 71/3-72.

10. البلاذري، المصدر السابق: 280/11، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة، القاهرة، مطبعة نهضة مصر، 1956: 366/3.

11. البعث: هو أن تطلب الدولة من السكان تقديم المقاتلة للمشاركة في الحروب، فتضرب البعث عليهم، وعليهم دعوة الدولة. ينظر: صالح أحمد العلي، "العطاء في الحجاز، تطور تنظيمه في العهود الإسلامية الأولى"، مجلة المجمع العلمي العراقي، م20، 1970، ص75.

12. المرجع السابق، ص76، وينظر: طه، المرجع السابق، ص70.

13. البلاذري، المصدر السابق: 170/11، المبرد، المصدر السابق: 379/4-80.

14. البلاذري، المصدر السابق: 276/11، الطبري، المصدر السابق: 873/2.

15. المبرد، المصدر السابق: 329/3.

16. ينظر: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، بيروت، مكتبة الحياة، 1967: 162/1-163.

17. طه، المرجع السابق، ص 138.

18.أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1925- 1930: 274/1.

19.المبرد، المصدر السابق، 87/2.

20.أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، الإكليل، تحقيق، محب الدين الخطيب، القاهرة، 1368: 10/ 152.

21.العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص166.

22.أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، تهذيب تاريخ ابن عساكر، عبد القادر أفندي بدران، دمشق، مطبعة روضة الشام 1329-1332هـ: 149/7.

23.إن المعلومات المتوفرة عن هذا المنصب قليلة. وهناك ما يرى أنه أقل أهمية من العريف. وفي كتاب الأوائل للعسكري، ص 243، إن المناكب فوق العرفاء، وذلك استنادًا إلى قول زياد بن أبي سفيان: "العرفاء كالأيدي والمناكب فوقها". ومما يزيد أن وظيفة المنكب أشمل من العريف، تعيين الشعبي عريفًا على الشعبيين، ومنكبًا على جميع همدان: تهذيب ابن عساكر: 139/7، وقد ورد عن أبي محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق، أحمد عبيد، ط5، بيروت، 1967و ص45، ما يدل على أن المناكب كانوا مسؤولين مع العرفاء، عن توزيع ما يقسمه الخليفة على الأمصار، وينظر إلى العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص118-119، طه، المرجع السابق، ص127.

24.تهذيب ابن عساكر: 149/7.

25.الطبري، المصدر السابق: 948/2.

26.البلاذري، المصدر السابق: 320/11، الطبري، المصدر السابق: 1043/2-1044، وينظر: الجناب، المرجع السابق، ص68، طه، المرجع السابق، ص78-79.

27.أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق، حسن السند وبي، القاهرة، 1947-1978: 141/2

28.الهمذاني، الإكليل: 73/10-74، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، طبعة محمد الساسة المغربي، القاهرة، 1323هـ: 41/13.

29.أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تحقيق، أحمد زكي، القاهرة، الدار القومية، 1969، ص18-19.

30.الأصفهاني، الأغاني: 36/9.

31.ينظر: تهذيب ابن عساكر: 85/4، العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، ص152.

32.البلاذري، المصدر السابق: 273/11، العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، ص154- 155.

33.المرجع نفسه، ص155.

34.في أنساب الشراف: 273/11 (طبعة أهلورت).

35.ابـــن قتيبة، عيون الأخبار: 211/2، وينظر: العلي، التنظيمات، ص160.

36.ينظر: الطبري، المصدر السابق: 1062/2، علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 19665-1967: 465/4.

37.تاريخ الرسل والملوك: 1134/2-1135.

38.ينظر: تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، ص96.

39.ينظر مثلا: الجنابي، المرجع السابق، الفصل الرابع (الصنوف والسلحة)، ص113-159.

40.ينظر: أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977: 533/2.

41.ابن أعثم، المصدر السابق: 163/7.

42.ينظر: الجنابي، المرجع السابق، الفصل الخامس/ التعبئة وأساليب القتال، ص163- 204.

43.الطبري، المصدر السابق: 585/2، نافع توفيق العبود، آل الملهب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري، بغداد، 1979و ص40.

44.ينظر: ابن الأعثم، المصدر السابق: 179/7- 180.

45.ينظر الطبري، المصدر السابق: 1199/2، 1201 فما بعدها.

46.الطبري، المصدر السابق: 1125/2.

47.الجاحظ، البيان والتبيين: 270/1، 318/3، ياقوت، معجم البلدان: 350/5.

48-Munir. W. Annals of the Early Caliphate Amsterdam، 1968، p 339. وينظر إلى:

49.ناجي الأصيل، "واسط الحجاج"، مجلة سومر، العدد1، المجلد2، 1945، ص11.

50-The Arab Conquests in Central Asia، London192 ،3، p29.

أحمد بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق، رضوان محمد رضوان، مصر، مطبعة السعادة، 1959، ص424

51.المصدر نفسه، ص424، الطبري، المصدر السابق: 1199/2.

52.ابن الفقيه الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، نشر، دي غوية، ليدن، 1885، ص162.

53.الطبري، المصدر السابق: 875/2، 1006 فما بعدها.

54.المصدر نفسه، 591/2.

55.أبو العباس أحمد بن خلكان ابن خلكان، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1968: 352/5، العبود، المرجع السابق، ص43.

56.البلاذري، فتوح البلدان، ص425.

57.ينظر: صلاح مهدي عماش، قتيبة بن مسلم الباهلي، بغداد، 1978، ص12.

58.المرجع نفسه، ص175-178.

59.المرجع نفسه، 179-181، وينظر أيضا: عبد الواحد ذنون طه، قادة العصر الأموي، منشور في كتاب: الجيش والسلاح، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1988: 330/4-331.

المؤرخ أبو بكر الرازي جغرافيا.

د.غازي جاسم الشمري

مما لا شك فيه أنه ليس هناك وطن محدد للعلم، وان تراث الإنسانية الفكري، تراث مشترك، ساهمت فيه شعوب مختلفة بمقادير معنية، كما أن العلماء العرب، كغيرهم من العلماء استفادوا من الذين سبقوهم، وخاصة الإغريق والرومان والهنود والفرس والصينيين، بالإضافة إلى معرفتهم بالتراث الفكري الذي خلفه السومريون والبابليون والكلدان والصائبة وغيرهم، فترجموا عن لغات الآخرين، وأضافوا أمور جديدة، وابتكروا قضايا عديدة، وأفادوا من لحق بهم بإنجازاتهم المتعددة.

ولقد أسهمت الكتابات العربية الجغرافية في تطوير هذا العلم من خلال المعلومات الجديدة عن العوالم المختلفة، فقد عرفوا أوربا بأجمعها باستثناء أقصى شمالها، وكذلك النصف الجنوبي من آسيا، وإفريقيا الشمالية إلى خط عرض 10 درجات شمالا، وساحل إفريقيا الشرقي إلى رأس كرينتس قرب مدار الجدي. ولأول مرة حظي عمق القارة الإفريقية بوصف مفصل في المؤلفات العربية، واستمرت معلومات العرب المسلمين تمثل القول الفصل في هذا الصدد لحين ظهور المستكشفين الجغرافيين الأوربيين في القرن التاسع عشر. واثبت البحث العلمي المعاصر أهمية المعلومات التي جمعوها حتى عن بلاد نائية مثل أرخبيل الملايو واسكنديناقيه وجنوب شرقي أوربا

وخلف الجغرافيون العرب وصفا مفصلا لجميع البلدان من إسبانيا غربا إلى تركستان ومصب نهر السند شرقا، مع التعرض بدقة لجميع المراكز المأهولة بالسكان، وللمناطق المزروعة والصحارى، وبينوا مدى انتشار النباتات المزروعة وأماكن وجود المعادن، ولم يتوقف اهتمامهم على الجغرافية الطبيعية أو الظروف المناخية فحسب، بل اهتموا كذلك بتسجيل وقائع الحياة

* أستاذ محاضر بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران السانية.

الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية والدينية. ولم تقتصر معرفتهم على بلاد الإسلام وحدها، بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان. ومعرفة الأخيرين بالبلاد الواقعة إلى الشرق من بحر قزوين كانت ناقصة، كما لم تكن لديهم أية فكرة عن الساحل الشرقي لآسيا إلى الشمال من الهند الصينية [1]

إن ما يؤخذ على الجغرافيين العرب هو تأثرهم بالنظريات العلمية السابقة، وخاصة نظرية تقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم، وهي أحزمة عريضة مرتبة من الجنوب إلى الشمال في موازاة خط الاستواء، ومبتدئه منه على وجه التقريب.هذا التقسيم وصفه اليونان على أساس الطول النسبي للنهار والليل، أو ميل الشمس على خط الاستواء، وكانت عروض الأقاليم تتفاوت بحيث يختلف أطول أيام السنة بمقدار نصف ساعة من إقليم إلى آخر.

وعلى الرغم من أن تجاربهم العلمية كثيرا ما أدت إلى استكمال تلك النظريات وتعديلها، بل وحتى إلى صرف النظر عنها وتجاوزها في أحيان كثيرة، إلا أن نظرية الأقاليم اكتسبت انتشارا واسعا سواء في الشرق العربي أو أوربا الوسيطة.

وقد تجلى التأثير البطليموسي* على الاندلسيين خصوصا في تحديد موقع شبه جزيرتهم بالنسبة لبقية البلاد الاسلامية، ولايذهبون إلى أبعد ما ذلك، وهم يجمعون على أن الاندلس تقع في الاقليم الرابع والخامس والسادس. جاء في الفرحة " وزعمت عجم رومة أن حد الاندلس من بلد أربونة، ومعظمها في الاقليم الخامس وبعضه في الرابع"[2].

وإلى ذلك ذهب المسعودي "وقد ذكر بطليموس في الكتاب المعروف بجغرافيا، صفة الأرض ومدنها وجبالها وما فيها من البحار والجزائر...وسماها مدينة مدينة في إقليم إقليم ...والإقليم الرابع مصر وإفريقية والبربر والأندلس وما بينهما..."[3]

إلا أن الدارس لمؤلفات الجغرافيين العرب، والأندلسسين خاصة يشعر بوجود منهج مستقل في الكتابة الجغرافية خاص بهم، بعيدا عن التأثر بالنظريات الهندية أو الفارسية أو اليونانية.

وإن أخذ الجغرافيون الأندلسيون عن الإغريق واللاتين، ومن أخذ عنهم من الأسبان في العهد القوطي، وصفهم العام لشبه الجزيرة الأندلسية، وتحديد المواقع و تقدير المسافات، إلا أنهم لم يتقيدوا به تمام التقييد، ولم يكونوا مقلدين جامدين لهم في إسباغ خصائص فلكية على

أقاليم معينة، أو أنها ذات صلة ببروج الفلك، بل حاولوا عقد مقارنة بين ما تمتاز به الأندلس وأهلها، وما عند الأقوام الأخرى من عرب وغيرهم. ذكر ابن غالب الأندلسي "والأندلس شامية في طيب أرضها ومياهها، يمانية في اعتدالها واستوائها، أهوازية في عظيم جباياتها، عدنية في منافع سواحلها، صينية في جواهر معادنها، هندية في عطرها وطيبها، وأهلها عرب في العزة والأنفة وعلو الهمة وفصاحة الألسن وطيب النفوس وابائة الضيم وقلة احتمال الذل، هنديون في فرط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها، هم أشد الناس بحثا عليها، و أصحهم ضبطا وتقييدا ورواية لها وخاصة لكتاب الله وسنة نبيهم محمد صلى الله عليه و سلم، بغداديون في نباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم، ونفوذ خواطرهم ورقة أخلاقهم، وظرفهم ونظافتهم، يونانيون في استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر، صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن التصويرية، فهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع، تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها، فهم أحذق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والضرب وذلك بحسب ما يقتضيه إقليمهم، وأعطته لهم نسبتهم من ذلك ما ذكره بطليموس وغيره "[4]

وفي معرض بيان خصائص أهل الأندلس وأثر الإقليم في سلوك وملكات سكانه، أشار ابن حزم في رسالته المعروفة في "فضل الأندلس" إلى أن " قرطبة مسقط رؤوسنا ومعق تمائمنا مع سر من رأى (سامراء – العراق) في إقليم واحد، فلنا من الفهم و الذكاء ما اقتضاه إقليمنا، وإن كانت الأنوار لا تأتينا إلا مغربة عن مطالعها على الجزء المعمور، وذلك عند المحسنين للأحكام التي تدل عليها الكواكب ناقص من قوى دلائلها، فلها من ذلك على كل حال، حظ يفوق حظ أكثر البلاد، بارتفاع أحد النيرين بها تسعين درجة، وذلك من أدلة التمكن في علوم القراءات والروايات، وحفظ كثير من الفقه، والبصر في النحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم بمكان رحب الفناء، وواسع العطن، متنائي الأقطار، فسيح المجال ". [5]

لقد فقدت الكتابات اليونانية الرومانية عن بلاد الأندلس أهميتها مع مرور الزمن، لأنها لم تكن دقيقة علميا، وذلك لأنهم (أي الأجانب) كانوا يكتبون عن بلاد أجنبية لا تربطهم بها رابطة إلا المصالح الإقتصادية والعسكرية، حيث كان هدفهم احتلالها و استغلالها، ثم أن

أغلب المعلومات كانت مبنية على السماع، لهذا فقد حفلت بالأخطاء و التصورات البعيدة عن الواقع.

أما الجغرافيون الأندلسيون فقد بنوا معلوماتهم على المشاهدة العيانية والدراسة الميدانية، لذلك جاءت مادتها علمية صادقة وغزيرة حتى أصبحت مرجعا للباحثين والدارسين والمهتمين بالنواحي الجغرافية.

إن كتابات الرازي وشيوخه وطلابه كانت شاملة، عامة لجميع فروع الجغرافية، إنهم يكتبون عن وطنهم الذي التصقوا به، لذلك كانت صادقة في وصفها وتعابيرها، دقيقة في معلوماتها، بعيدة عن الأغراض السياسية. تناول وصف الجغرافيون الأندلسيون الجبال والسهول والأنهار،وسائل الري وطرق الزراعة، كما تناولوا الأنشطة الإقتصادية الأخرى.

لابد لنا قبل الحديث عن الرازي أن نعرف ولو بصورة مختصرة بأستاذه ومعلمه الأول قاسم بن أصبغ البياني [6]. ولد هذا العالم الجليل في بلدة بيانة التي ينسب إليها وذلك في 20 ذي الحجة سنة 244هـ/2تشرين الثاني (نوفمبر) 859م، وقد امتد به العمر حتى جاوز السادسة والتسعين سنة، وتوفي في 15 جمادى الأولى عام 340هـ/951م، في فترة عز وازدهار الأندلس، حيث عاصر خمسة من أمرائها، كان آخرهم عبد الرحمن الناصر.

ويعتبر قاسم بن أصبغ البياني علما من أعلام العلم والمعرفة، وهو من الرحالة الأوائل الذين تجولوا في المشرق و المغرب، فزار مع محمد بن عبد الملك بن أيمن و محمد بن زكريا بن عبد الأعلى سنة 274هـ مصر والحجاز وبلاد الشام والعراق، وأخذ عن شيوخها وأدبائها وعلمائها الشيء الكثير، منهم ابراهيم بن عبد الله القصار، وفي الكوفة عن إبراهيم بن أبي العنبسي القاضي، وسمع ببغداد من القاضي اسماعيل بن اسحق وأحمد بن زهير بن حرب، وعبد الله بن الامام أحمد بن حنبل والحارث بن أبي اسامة وكتب عن ابن ابي خيثمة تاريخه وسمع من ابن قتيبة كثيرا من كتبه، وسمع من المبرد وثعلب وابن الجهم وغيرهم، وسمع بالقيروان من أحمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتي الشاعر. وفي مكة المكرمة من محمد بن إسماعيل الصائغ، وغيرهم من أهل العلم و المعرفة. و لما عاد إلى الأندلس، حمل معه كنوزا من العلم و الأدب [7]، و لطول عمره سمع منه الشيوخ والكهول والأحداث، ولحق الصغار الكبار في الأخذ عنه، وكان الرازي واحدا منهم.

وكانت مساهمته الكبيرة في علم الجغرافية، هو ترجمته لتاريخ هروشيش، وكانت نقطة البدء بالنسبة للتأليف الجغرافي، فكتاب هروشيش يبدأ بمقدمة جغرافية وافية، حيث يوجز فيها وصف المعمورة على أيامه، وقد تناولت هذه الترجمة والدراسة الشيء الكثير عن جغرافية شبه الجزيرة الأندلسية حتى أصبحت هذه الدراسة أساسا من أسس الوصف الجغرافي لشبه الجزيرة الأندلسية، وهذا ما سوف نلحظه عند دراستنا للرازي.

لم يتمسك قاسم بن أصبغ أثناء ترجمته لكتاب هروشيش بطريقة المؤلف الجامدة والجافة في تفسيره وسرده لأسماء المواضع وحدودها على شاكلة بطليموس، بل أخذ في تعريب الأسماء الجغرافية والتاريخية وبعث فيها الحياة من خلال تطعيمها بالأحداث والوقائع، الشيء الذي يقربها إلى نفس القارئ، وقد غرس هذا الاتجاه الجغرافي في نفس الرازي، الذي يعتبر بحق مؤسس الفكر الجغرافي العربي في الأندلس، الذي تناقله طلبته من بعده ثم نشروه خارج شبه الجزيرة الإيبيرية.

ومن مؤلفات قاسم بن أصبغ كتابه (المجتنى) واختصره وجعله باسم الحكم المستنصر[8]

أما تلميذه الرازي، فهو أحمد بن محمد بن موسى بن بشير بن حماد بن لقيط الرازي الكناني الملقب بأبي بكر، ولد يوم الاثنين 10 ذي الحجة سنة 274هـ وتوفي سنة 344 هـ[9] وقد أخذ عن أبيه ميله إلى التاريخ والاهتمام بالتأليف والترجمة[10].

كانت البيئة الأندلسية، حيث نشأ الرازي، بيئة علمية فريدة، تزخر بالتأليف والإبداع والترجمة، وطلب لا يكل ولا يمل للعلم والمعرفة، مما جعل قرطبة خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي مركزا من مراكز الإشعاع الفكري والحضاري في العالم.

لقد أخذ أحمد الرازي الشيء الكثير من علماء وأدباء ومؤرخي الأندلس الذين ترعرع في أحضانهم، وإلى جانب اهتمامه بالتاريخ الأندلسي وأخبار الملوك والأمراء وغزواتهم ونجاحاتهم وإخفاقاتهم، اهتم أيضا بالجانب الجغرافي، وله في هذا المجال عدة مؤلفات، تناول فيها مختلف فروع الجغرافية الحديثة والمعاصرة.

ويعد مؤلفه في وصف قرطبة وخططها ومنازل الأعيان فيها، مرجعا يعتمد عليه في الشرق والغرب، فالرازي لم يكن جغرافيا فحسب، بل مؤرخا أيضا، فما يسمى "بمسالك الأندلس ومراسيها..." هو المقدمة الجغرافية لتاريخ الرازي الكبير.[11]

كتب كراتشوفسكي يقول: "أول من أدخل نمط الجغرافية الإقليمية إلى الأندلس مؤرخها الكبير أحمد بن محمد الرازي التاريخي، المشهور في أوروبا باسم ELMORO ELRASIS والذي حفظ لنا مصنفه التاريخي، في ترجمة قشتيلية، ترجع إلى عهد متأخر، ونقلت بدورها عن ترجمة برتغالية، وتشير جميع المصادر إلى أنه وضع كتابا كبيرا في طرق الأندلس ومرافئها ومدنها الكبرى والأجناد العربية السته التي نزلتها بعد الفتح..إن كتاب الرازي مصدر هام جدا لمعرفة الأحوال الجغرافية في الأندلس على عهد عبد الرحمن الثالث، أي عهد ازدهار قرطبة. ويبدو أنه وضع أيضا مصنفا خاصا بقرطبة هو "كتاب في وصف قرطبة" على طراز كتاب ابن طيفور في وصف بغداد، وترد فيه تفصيلات عن شوارعها وقصور الأعيان بها" [12].

لقد اعتبر الرازي الجغرافية على أنها علم متمم للتاريخ،فكان اهتمامه منصبا على وصف الأندلس واتخذ منهجا جغرافيا مختلفا عما لدى الجغرافيين المشارقة، حيث بدأ بتحديد موقع شبه الجزيرة الأندلسية من الأقاليم، ووضعها في الإقليم الرابع، ووصفها بأنها "مركنة" ذات ثلاث أركان، أي أنها مثلثة الشكل، وهنا يظهر تأثره بهروشيش.

إن تحديد الحيز المكاني، هو ما يطلق عليه الآن بالموقع الجغرافي، بين مكانة الأندلس بالنسبة لما يجاورها.

ثم تناول المناخ حيث تحدث عن الرياح واتجاهاتها ومواقعها وأمطارها، ووصف أحوال الأندلس المناخية والصفات الطبيعية فقال: "بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة، طيب التربة، خصب الجنان، منبجس بالأنهار الغزار والعيون العذاب، قليل الهوام ذوات السموم، معتدل الهواء والجو والنسيم، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الإعتدال، وسطة من الحال، لا يتولد في أحدها فضل يتولد منه فيما يتلوه انتقاص، تتصل فواكهه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة، أما الساحل منه ونواحيه فيبادر بباكوره، وأما الثغر وجهاته، والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره، فمادة الخيرات بالبلد متمادية في كل الأحيان، وفواكهه على الجملة غير معدومة في كل أوان، وللأندلس المدن الحصينة والمعاقل المنيعة والقلاع الحريزة والمصانع الجليلة، ولها البر والبحر، والسهل والوعر وشكلها مثلث، وهي معتمدة على ثلاثة أركان:

الأول هو الموضع الذي فيه صنم قادس المشهور بالأندلس، ومنه مخرج البحر المتوسط الشامي الأخذ بقبلي الأندلس، الركن الثاني هو بشرقي الأندلس بين مدينة نربونة ومدينة برذيل مما بأيدي الفرنجة اليوم بازاء جزيرتي ميورقة ومنورقة بمجاورة من البحرين — البحر المحيط والبحر المتوسط، وبينهما البر الذي يعرف بالأبواب، وهو المدخل إلى بلد الأندلس من الأرض الكبيرة على بلد افرنجة، ومسافتة بين البحرين مسيرة يومين، ومدينة نربونة تقابل البحر المحيط، والركن الثالث منها هو ما بين الجوف والغرب من حيز جليقية، حيث الجبل الموفي على البحر"[13]

وقام الرازي بتقسيم الأندلس إلى إقليمين مناخيين مختلفين، على عكس ما ذهب إليه هروشيش من تقسيم سياسي مأخوذ عن الرومان. فحسب الرازي هناك أندلس غربي جرت أنهاره نحو المحيط الغربي (يقصد به المحيط الأطلسي)، تتأثر أمطاره بالرياح الغربية (العكسية) وأندلس شرقي تجري أودية أنهاره نحو الشرق، وتغذيه الأمطار الشرقية. وأسهب في وصف أنهار الأندلس واتجاهاتهما وجريانها وغزارة مياهها، وأهميتها الإقتصادية وخاصة بالنسبة للزراعة، التي اشتهر بها العرب، حيث أدخلوا أساليب حديثة في الري، وأصناف جديدة من المزروعات والمحاصيل التي لم تكن تعرفها الأندلس من قبل. لذلك تجاوز الرازي الإغريق والرومان في وصفهم العام لأنهار الأندلس، حيث اهتموا بما يخدم أغراضهم الإستعمارية.

قال الرازي: "والأندلس أندلسان في اختلاف هبوب رياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها، أندلس غربي، وأندلس شرقي، فالغربي منها ما جرى أوديته إلى البحر المحيط الغربي، ويمطر بالرياح الغربية، ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمرية، طالعا إلى حوز أغريطة المجاورة لطليطلة، مائلا إلى الغرب ومجاورا للبحر المتوسط الموازي لقرطاجنة الحلفاء التي من بلد لورقة، والحوز الشرقي المعروف بالأندلس الأقصى، وتجري أوديته إلى الشرق وأمطاره بالريح الشرقية، وهو من حد جبل البشكنس، هابطا مع وادي إبرة إلى بلد شنت مرية، ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط، وفي القبلة منه البحر الغربي الذي منه يجري البحر المتوسط الخارج إلى بلد الشام، وهو البحر المسمى ببحر تيران ومعناه الذي يشق دائرة الأرض، ويسمى البحر الكبير"[14]

وقد اهتم الرازي بالجانب السياسي والبشري أثناء دراسته للمدن الأندلسية، حيث وصفها وصفا دقيقا ودرسها دراسة ميدانية، أوضح فيها كل شيء، وهو بهذا يعتبر بحق رائدا في علم جغرافية المدن.

أخذ بتقسيم الأندلس إلى كور ومدن، والمدينة عبارة عن قسم إداري والكورة لها زمام واسع تقع فيها مدن وقرى وحقول واسعة، تشكل أشبه ما يكون بالإقليم، والمدينة في العرف الأندلسي هي القسم الإداري الواقع على الحدود أو المحيط بالعاصمة، وهذا التقسيم معمول به في بعض الدول العربية، حيث يطلق عليها اسم المحافظة، وهي تعني مساحة من الأراضي التي تضم تقسيمات إدارية (وهي الأقضية والنواحي والقرى)، فالمحافظة أكبر جزء في التقسيم الإداري ومركزها يدعى المدينة، كما هو الحال في العراق وسوريا ومصر واليمن، فالرازي الذي عاش قبل أكثر من ألف سنة، أوضح هذا التقسيم وأهتم به ووضعه أساسا لدراسته.

كتب الرازي "يتصل بآخر كورة قرطبة أحواز كورة قبرة، وهي قبلة من قرطبة، أكثر أرضها بيضاء، يحجب تكاثف ثمارها والتفاف أشجارها عيون النائلين، وهي مخصوصة بكثرة الزيتون، ولها مدينة بيانة، وهي عظيمة حصينة، على ربوة طيبة التربة، مغترسة بالشجر والكروم وأنواع الثمرات، ومسافة ما بين قرطبة وقبرة ثلاثون ميلا.

ويتصل بأحواز كورة قبرة أحواز البيرة، وهي بين القبلة والشرق من قرطبة، وأرضها سقيا، غزيرة الأنهار، كثيرة الثمار، ملتفة الأشجار، يحسن فيها شجر الجوز وقصب السكر، وفيها معادن جوهرية من ذهب وفضة ورصاص ونحاس وحديد ومعدن حجر التوتياء، وهي أشرف الكور، نزلها جند دمشق، وبها جبل الثلج، لا ينقطع أبدا على مرور الأيام، ومن دونه نهر غرناطة، ولها من المدن مدينة قسطيلية وهي حاضرة البيرة، وفحصها كغوطة دمشق، وبها مقطع رخام لين أبيض يتصرف تصرف الكذان للينه ورطوبته وتعمل منه الأقداح والأطباق والأكواب والأسطال والحقاق، وكل ما يخرط من الخشب يخرط منه"[15]

ويتناول الرازي الحديث عن بلنسية فيقول: "ويتصل بحوز كورة تدمير حوز كورة بلنسية، وهي شرق من تدمير وشرق من قرطبة، ولخطة بلدها مسافة بعيدة، منافعها لأهلها عظيمة جمعت البر والبحر والزرع والضرع ولها السهل والجبل، وبها مدن عظيمة وحصون

قديمة فمن مدائنها، مدينة بلنسية، وهي المعروفة بمدينة التراب، ولها حصن أرغيرة ودانية وهي مدينة على ضفة البحر ولها أقاليم كثيرة متسعة، ومرساها من أعجب المراسي، وجميع أقاليمها وجبالها مغترسة بالكروم وأشجار التين و الزيتون، ومدينة الجزيرة ومبتناها على نهر شقر"[16]

فالحوز عند الرازي هو زمام الكورة كله، أي ما يتبعها من الأراضي والبلاد، وخطة البلد هي المسافة التي تغطيها المدينة نفسها، وما يتبع حكومتها من الأراضي والقرى. وسيهب ويستطرد في جغرافية المدن ويسترسل في تفصيل تاريخها من حيث النشأة وأسلوب التخطيط وطريقة البناء، وهذا ما أخذه العذري عنه وأضافه إلى جغرافيته.

لقد كانت منهجية الرازي في الدراسات الجغرافية ذات فائدة كبيرة للناس في ذلك الزمان والأزمنة التي تلته، فسكان بلنسية أخذوا ما يحتاجون إليه من معلومات عن كورهم، حيث حددوا الموقع، المدن والحصون، وعرفوا الميزات الخاصة لموقعهم على البحر والاتصال بالسهول والأنهار، وأهمية الحصون الدفاعية، والأمنية والقيمة الإستراتيجية لبعض المدن كقرطبة مثلا.

ويعتبر الرازي السباق إلى وضع مفهوم الجغرافية البشرية على أساس سليم، وبذلك مهد الدرب للذين جاءوا من بعده أمثال أحمد بن عمر بن أنس العذري، حيث توسع فيما اختصر الرازي، فقد أطال في الجغرافية البشرية، و في التقسيم الإداري بالذات، فلم يكتف بالوصف العام، بل فصل تفصيلا علميا حافلا بالمعلومات، ووصف المدن نفسها واحدة واحدة، لم يترك لها شاردة أو واردة إلا ذكرها، كذلك تناول نشأة اسبانيا وتسمياتها المتعددة.

وإذا صح أن توصف جغرافية الرازي على أنها من طراز البلدان فقط، فإن جغرافية العذري تصنف ضمن البلدان والمسالك والممالك.[17]

تجدر الإشارة إلى أن الرازي لم يلتزم بالضوابط التي وضعها بطليموس على علم الجغرافية ونقل هذا العلم من جداول فلكية حشدت فيها البلدان على صورة جافة، إلى دراسة تشمل الأرض وعلاقة الإنسان بها، ثم يأتي العذري فيضيف حشدا من المعلومات الجغرافية السياسية والإقتصادية للبلاد.

لذلك يعد الرازي المعلم الأول للذين أتوا من بعده وأكملوا مشواره العلمي الجغرافي، حيث ركز معظم اهتمامه على الإنسان ودوره على كوكب الأرض، وقد أخذ بهذا المنهج

الجغرافيون الأندلسيون، الذين خلفوا الرازي واتخذوه قدوة لهم أمثال ابن الخطيب، إذ بالرغم من أنهما عاشا في فترات زمنية متباعدة تتجاوز الأربعة قرون، نجد التأثير واضحا في التقليد، حيث ظلت عادة الأندلسيين في التقديم للتاريخ بالجغرافية.

وقد ظهر ذلك جليا من خلال مقدمة "الإحاطة في أخبار غرناطة" حيث يقدم ابن الخطيب عرضا ووصفا مطولا للمنطقة التي شملها نفوذ مملكة غرناطة.

كان الرازي شديد التعلق بوطنه ومسقط رأسه وجنة أحلامه، فكتب بصدق وحب وأمانة، وقد تأثر ابن الخطيب بالرازي في هذا الأمر، فنجده في وصفه للأقاليم في مملكة غرناطة يطلق عليها تسمية (الوطن الشريف)، وهذا يدل دلالة واضحة على اعتزازه بوطنه الأندلس.

وهذه الخاصية نجدها لدى كتاب أندلسيين آخرين كالمقري الذي يبين هيئة الأندلس و أبعادها في نفح الطيب، كذلك سلك ابن سعيد المنهج نفسه[18]

ثم إن أبا عبيد البكري المتوفى سنة 487هـ من الجغرافيين الأندلسين البارزين الذين انتهجوا منهج الرازي وساروا على دربه واستفادوا من كتاباته، ويعتبر "معجم ما استعجم" و"المسالك والممالك" ثروة علمية جغرافية وأدبية دون فيهما كثيرا من الحقائق التي كانت معروفة في عصره، أغنت المكتبة العربية.[19]

إن القراءة المتأنية لما خطه البكري في هذا الباب تقودنا إلى الإستنتاج بأنه كان متأثرا بشكل كبير بالرازي وبمحمد بن يوسف الوراق المتوفي 362هـ، ومما يمتاز به البكري دقتة في رسم الأعلام وحرصه على التثبت منها، وهذا ما لوحظ عنه في كتاباته عن شبه جزيرة إيبريا، وهي في فاتحة الجزء الخاص بالأندلس، وخاصة في الأسماء المتعلقة بتسمية الأندلس والتي أثبتها البكري في معجمه، وهو يتفق مع الرازي في هذا المجال، لأن النصوص والأسماء سبق للرازي ذكرها حينما كان يكتب عن وطنه الأندلس، وهذه أيضا دلالة واضحة تبين مدى تأثر البكري بمعلمه الرازي على الرغم من بعد الفترة الزمنية بينهما، حيث تقرب من القرن والنصف، بالإضافة إلى البكري لا يفوتنا أن نذكر عبد الله بن ابراهيم الحجاري الذي تتلخص طريقته في الكتابة في الإتيان بشيء من وصف الأندلس، معتمدا في ذلك على الرازي، حيث ذكر أن

طول الأندلس من الحاجز إلى المحيط ألف ميل، وأن عرضها في وسطها عند طليطلة (16 يوما) وكان يأخذ عن الرازي حديثه عن أركان الجزيرة.

ويجب أن لا يغيب عن البال أن الأوروبيين اطلعوا على أراء الرازي وكتاباته الجغرافية، وتأثروا بأفكاره واتبعوا منهجه. كتب بيتر هابلين في "الكون الصغير" يقول: "التاريخ بغير الجغرافية كالجثة الميتة"، وكان ذلك في عام 1621م. وقد عبر ميشليه في كتابه عن تاريخ فرنسا عام 1833م، أن التاريخ تطور جغرافي.

هذا وقد حذا المؤرخون الفرنسيون حذو ميشليه، إذ جعلوا لدراساتهم التاريخية مقدمات جغرافية، ومن هؤلاء العالم الفرنسي فيدال دي لابلاش VIDAL DE LA BLACHE الذي حمل لواء المعارضة والتصدي لكل أولئك الذي انحدروا إلى حضيض الحتم الجغرافي، وسخروا من تجاهل قدرات الإنسان أو امتهانها. لقد سبق الرازي فيدال دي لابلاش ومن عاصروه في هذا المضمار، فهو لم يكرس كل جهوده الجغرافية على الجانب الطبيعي، بل أعطى الكثير من اهتماماته الجغرافية إلى الجانب البشري المتمثل في الزراعة وتخطيط المدن، وأنه لم يغفل دور الإنسان في الطبيعة، وقد وفق في التقريب بين الحتمية الجغرافية والإنسان.

هناك شواهد كثيرة وكثيرة جدا تثبت العلاقة الوثيقة بين الجغرافية والتاريخ ويرجع الفضل في الكشف عنها لأبي الجغرافية والتاريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي، فقد أوضح ذلك قبل ألف سنة، أما الكتاب أمثال جورج آدم سميث (الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة) وسمبل (التاريخ الأمريكي وملابساته الجغرافية)، وبرجهام (المؤثرات الجغرافية في التاريخ الأمريكي) وغيرهم، فقد نهلوا من بحر علم الرازي، وساروا على دربه، وأثبتوا صحة منهجه في الفكر الجغرافي الأندلسي.[20]

وعلى ضوء ما ذكرناه أعلاه، يمكن لنا أن نؤكد بأن معظم الجغرافيين المعاصرين قد اطلعوا بشكل أو بآخر على آراء الرازي وبحوثه الجغرافية وصقلوها بأسلوب حديث ومعاصر، ومن ثم فإن الرازي يعتبر واضع أسس الفكر الجغرافي و ممهد السبيل للجغرافيين الأندلسيين وغيرهم الذين سلكوا طريقه، وقد خلف لنا ثروة علمية جغرافية وتاريخية أغنى بها التراث العربي الإسلامي والمكتبة العربية.

الهوامش:

1- كراتشوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي. القسم الأول، موسكو 1957، ص22-23

2- لطفي عبد البديع. نص أندلسي جديد. مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة 1955،مج1،ج،ص281

*- بطليموس. فلكي وجغرافي يوناني (90-168م) نشأ في الإسكندرية.له "المجسطي "و "جغرافية بطليموس" المنجد في اللغة والأعلام. ط 29، بيروت 1986، ص30.

3 – المسعودي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. ج1، بيروت 1988،ص 87-88.

4- لطفي عبد البديع. المصدر السابق، ص82.

5- ابن حزم. رسائل ابن حزم الأندلسي. تحقيق د.احسان عباس. ج2ط1، بيروت، 1981 ص 174-175

6 – مؤنس حسين. تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس.المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.ط 2.1986 ص30-32.

7- المقري التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. بيروت، دار صادر 1997، المجلد الثاني – ص 47-48.

8- المقري. المصدر السابق. ص 48.

9- الزبيدي. طبقات النحويين واللغويين. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ص302.

10- مؤنس حسين، مرجع سابق ص 58-59.

11- كراتشوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي، القسم الأول، ص169.

12- المقري التلمساني. المصدر السابق، ص128.

13- المقري. المصدر السابق، ص131.

14- لطفي عبد البديع. المصدر السابق، ص182-183.

15- المصدر نفسه.ص285.

16- مؤنس حسين.المرجع السابق، ص94

17-ابن سعيد المغربي. كتاب الجغرافية. تحقيق اسماعيل العربي. ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. 1982.

18- أبو عبيد البكري. المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك. الجزائر 1857.

19- الشامي، صلاح الدين. الفكر الجغرافي سيره ومسيره. الاسكندرية 1989، ص328.

20-غلاب سيد وآخرون. الجغرافية في القرن العشرين.القاهرة.1975م.ج2.ص441.

الحرشاوي الندرومي
حياته وآثاره

أ/ حسني بليل

المقدمة

إن أبا المكارم أحمد بن محمد الحرشاوي الندرومي المتوفى في السابع من رجب عام 1313هـ الموافق لـ20 ديسمبر سنة 1896م من الشخصيات العلمية البارزة بالجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ومما حفزني على الاشتغال بهذا الموضوع أن المراجع المتداولة لم تتطرق إلى هذه الشخصية البارزة باستثناء ما ذكره صاحب تعريف الخلف نقلا عن رحلة أبي حامد المشرفي، وهي لا تف بالغرض لما يكتنفها من نقص بين، ومعظم المراجع والمصادر التي ذكرته مازالت مخطوطة، ولهذا سأساهم بترجمة علمية وفقا للمحاور التالية:

المطلب الأول: نسبه ونشأته.

المطلب الثاني: حياته العلمية: أ-شيوخه في ندرومة ثم وجدة ثم مازونة، وأخيرا جامعة القرويين ب- تلاميذه في تلمسان وغيرها من التراب الوطني.

المطلب الثالث: رحلاته العلمية.

المطلب الرابع: نهوضه بالتربية والتعليم والتدريس.

المطلب الخامس: إجازاته من شيوخه.

المطلب السادس: مؤلفاته والتي منها. "المواهب المعطية في دكر المسائل الفقهية المنشأة عن المسائل المرضية"، "كتاب الأكياس"، "نهي الفائض"، "حلة التسديد"، "الركن الشديد"، "شرح المرادية للشيخ إبراهيم التازي"، "شرح على البردة للبصييري".

المطلب السابع: وفاته.

---

[*] أستاذ العلوم الإسلامية- ثانوية عبد القادر الياجوري، باحث في مخبر المخطوطات بوهران.

المطلب الأول: شـــخصيـــتـــه:

1]- اسمه ونسبه وولادته: هو أبو المكارم محمد بن أحمد بن محمد بن المحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الخرشوفي، ولد بمدينة ندرومة سنة 1241هـ الموافق لـ 1826م كما وجدته في النسخة الأصلية للحالة المدنية، والبيت الذي ولد فيه يقع في حوض الرمان، ويعرف بدار أحرشاو(1).

2]- أســـرته: هو من البيونات العلمية الشهيرة بندرومة، فجده كان فقيها، ووالده، وأبناء عمومتة (2)، واحتذى به أبناؤه العربي، والعالم، وابن عمر، واستمر الأمر مع أحفاده إلي يومنا هذا، ولكن في غير مجال تخصص جـــدهم.

المطلب الثـــــاني : حياته العلميـــــــــة.

1]- شيوخه في العلم: كان الشيخ الحرشاوي من المكثرين، فقد أخذ عن كثير من علماء من بلا د المغرب، و الجزائر، ويمكن تصنيفهم تبعا للأماكن التي تلقي فيها العلم.

أولا: شيوخه في ندورمـــة:

أ)-شيوخه في القرآن الكريم:

يتحدث الحرشاوي عن مرحلة دراسته الأولى في ندرومة، فيقـــول:

1)-أول تعلمي حروف الهجاء على السيد الجد الفقيه العلامة سيدي محمد بن محمد الحرشاوي، وعليه ختمت القران جميعا، وعليه قرأت الصلاة المشيشية التي أولها: «اللهم صل على من منه انقشعت الأسرار»، ونظـــم الخراز في الحذف.

2)-ولما مات السيد الجد، قرأت على السيد الوالد الفقيه سيدي أحمد بن محمد...النسب.

3)-وعلى ابن العم الفقيه سيدي محمد بن أبي زيان...النسب.

4)-وكما قرأت القرآن تحقيقا وتصحيحا علي الشيخ البركة سيدي الجندوز بن عدة بندرومة التي هي بلدتي ومحطّ رأسي.

5)-وكنت أقرأ الأسوار على الفقيه السيد البشير بن البقال بن موسى الندرومي.

6)-وأصحح اللوح على عدة فقهاء، كالبركة سيدي محمد بن محمد- فتحا-، و السيد أحمد بن البشير الغماري، والسيد بزيان بن الصغير، والسيد أحمد بن أحمد الغماري، وغيرهم من الفقهاء(3).

ب)-شيوخه في العلوم العقلية والنقلية.

1)-الشيخ الفقيه العباس بن رحال الندرومي، وهو من أسرة علمية، شغلت وظائف رسمية، أخذ عنه الحرشاوي نظم ابن عاشر في الفقه المالكي، والعقيدة الصغرى للإمام السنوسي.

2)-السيد محمد – فتحا – رحمون

3)-والسيد أحمد الزرهوني (4).

ثانيا: شيـــوخه في وجـــدة.

1)-قال الحرشاوي:[فقرأت بها-أي وجدة – علي الجهبذ النحرير والدراكة الشهير، العالم بفنون العلم المعقول منها والمنقول سيدي جلول برورو المستغانمي-رحمه الله- وهو قرأ بوهران علي الشيخ ابن ڤريد، وسي عامر حتى بلغ في العلم الغاية كما حدثنا بمجلس درسه، قرأت عليه مختصر الشيخ خليل دراية].

2)-الفقيه الصـــوفي أحمد بن عيسى المستغانمي المتوفى في أواخر القرن الثالث عشر في وجدة، وضريحه محاط بقبة، وهو من الذين هاجروا من الجزائر إلى وجدة بعد الإحتلال الفرنسي، أخذ عنه الحرشاوي مختصر سيدي خليل، وهو قرأه على مشايخ مازونة كالشيخ العالم المعمر الصالح أبو طالب محمد بن علي بن عبد الرحمن بن محمد، المعروف بابن شارف المازوني، وابن ابنـــه أحمـــد بن هني المازوني(5).

ثالثا: شيـــوخه في مازونة:

1)-شيخ الشيوخ، الراسخ القدم في علم الفروع غاية الرسوخ، أبو العباس أحمد بن هني المازوني، وهو من البيوتات العلمية اعتبارا من جده الأكبر ابن الشارف المازوني شيخ مصطفي الرماصي، أخذ عنه الحرشاوي المختصر.

2)-العلامة الحاج محمد بن أحمد بن هني، والمعروف بـــ:سي هني، المتوفى بمكة المكرمة في أواخر ذي الحجة سنة 1279هـــ، أخذ عنه مختصر خليل الذي اشتهرت به مدينة مازونة، وأجاز هو ووالده أحمد المتقدم الذكر.

3)-الفقيه عيسى ابن مبارك، أخذ عنه المختصر، و أجازه بسنده.

4)-الفقيه النبيه سيدي أبي مدين ابن التهامي، أخذ عنه سيدي خليل.

5)-الشيخ الفقيه السيد الحاج محمد بن الطيب الوراغي ثم المازوني، وهو من البيوتات العلمية التي تخرج منها عدة فقهاء أصلهم من أم عسكر، وانتشروا في ربوع الوطن وخاصة في الجهة الغربية، تخرج عليه عدة فقهاء منهم محمد العربي المازوني الذي تصدى للإقراء بجامع الزيتونة، وكان في الطبقة الأولي في خطة التدريس، وكذلك تخرج عليه الحرشاوي، واستفاد من علمه.

6)-الفقيه الشيخ عبد القادر بن الطيب الورغي(6).

رابعا: شيوخه في فـــاس:

1)-الفقيه العالم المتفنن الإمام المؤلف المتقن أبو محمد الحاج الداودي التلمساني الأصل، الفاسي القرار، الشهير الذكر عن التعريف به، وان جميع أكابر علماء طبقته قد اقتبسوا من مشكاته نور العلم، وسلكوا بدلالته إلي الحق في الشريعة والحقيقة في طرق كم زلت فيها أقدام ذوي الأفهام، توفي في رابع عشر محرم الحرام فاتح عام 1271هـ، ودفن بالزاوية الناصرية، ومن جملة طلبته الفقيه الحرشاوي، فقد أخذ عنه العقيدة الصغرى للإمام السّنوسي المسماة بأم البراهين بشرح المؤلف ومحشيه الدسوقي، وأخذ عنه ألفية ابن مالك في النحو، والسلم لعبد الرحمن الأخضري في المنطق، وكتاب تلخيص المفتاح في البلاغة والبيان والبديع للإمام القـــزويني، وشروح المختصر المتداولة في الفقه المالكي(07)

2)-عالم المغرب، وشيخ الجماعة الفقيه العلامة المحقق أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الفلالي الحجرتي الفاسي، كان متين الدين، مع الورع والصلاح، واليقين، مجيدا في صناعة التدريس لاسيما مختصر خليل، ولم يترك بعده في إفادة تحرير المسائل، توفي في شوال سنة 1275هـ، أخذ عنه الحرشاوي الفقه المالكي بواسطة مختصر أبي المودة خليل.

3)-القاضي علم المغرب وإمامه، محمد المهدي بن الطالب بن سودة، توفي سنة 1294هـ، أخذ عنه الحرشاوي السلم في المنطق، وألفية ابن مالك، ومختصر خليل، وعلم البيان.

4)-العلامة المحقق أبو محمد عبد الله المدعو الوليد العراقي توفى سنة 1265هـ، أخذ عنه الحرشاوي التفسير بشرح أحمد الثعالبي، والجلالين مع حاشية سليمان الجمل عليه، ومما قاله في شأنه:[.. ولقد كان العراقي – رحمه الله – يقرأ عـــدة كتب من التفسير بالقرويين بعد صلاة الصبح على المودين سردا، ورواية، لا دراية، وكان يحضر مجلسه بعض الطلبة، وأنا عبد الله تعالي من جملتهم]

5)-العلامة المشارك الميقاتي محمد بن الطاهر الحْبابي - بسكون الحاء المهملة، وفتح الباء الموحدة الأولى، وكسر الثانية، وهو من أولاد الحْبابي المعروفين بفاس، كان ماهرا في الحساب، والتوقيت، والتعديل، والفرائض، وكان مؤقتا بجامع القرويين، أخذ عنه الحرشاوي شيء من علم الكرة وجهاز الربع المجيب في الفلك، وكتب القلصادي، توفى سنة 1266هـ

6)-الفقيه أحمد بن امحمد المرنيسي الفاسي العلامة المشارك في كثير من الفنون، المدرس النفاعة الكثير التلاميذ والأتباع، أخذ عنه الحرشاوي صحيح البخاري بعضه قراءة والبعض إجازة، وألفية ابن مالك، والفقه المالكي، توفي أحمد المرنيسي سنة 1277هـ

7)-العالم المشارك أبو غالب عبد السلام بن الطائع الشريف الإدريسي المتوفى سنة 1290هـ، أخذ عنه الحرشاوي رجـز الفاسي في علم مصطلح الحديث.

8)-العلامة المشارك أحمد الغازي بن أحمد العربي المدعو المرابط، كان يدرس بجامع القرويين، ومسجد الرصيف توفي سنة 1269هـ

9)-الإمام الفقيه أبو حفص عمر بن الطالب بن سودة، المتوفى سنة 1285هـ، أخذ عنه الحرشاوي المختصر.

10)-الشيخ المدرس محمد بن الفقيه علي بن عبد الله المتّيوي، أصله من قبيلة متّيوة، أخذ عنه الحرشاوي الأجرومية، وهي المقدمة الأولى في علم النحو.

11)-العلامة الأكبر، الفاضل النّحرير المعروف بالإتقان والتحرير أبو بكر بن العلامة الكبير الشيخ الطيب بن كيران، أخذ عنه الحرشاوي ألفية ابن مالك، توفي سنة 1277هـ

12)-الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد التازي، الملقب [مسواك]، كان له كرسي بالقرويين، وهو أول من عـرف مدرسا بجامع الرصيف، أخذ عن عدد كبير من الشيوخ، وعنه الحرشاوي وخاصة في العلوم الفقهية، توفي التازي سنة 1283هـ.

13)-الشيخ عمر الزرهوني، أخذعنه عنه الحرشاوي رسالة المارديني في الربع المجيّب(08).

2]-تـلاميذه:

تولى محمد بن أحمد الحرشاوي، التدريس عندما كان طالبا بالقرويين، ثم تولي خطة القضاء وتركها مفضلا مهمة التدريس، وقد انتصب للتعليم، وإلقاء الدروس عندما سمي مدرسا بالجامع

الأعظم بتلمسان، فزاول نشاطه دون أن يعتريه ضجر ولاملل، أما انقطاع الذي كان يحدث له في بعض الأحيان نظرا للعوائق التي كانت تصادفه وخاصة عندما اشتهر أمره في مدينة تلمسان. تخرج على يده الكثير من الطلبة، حتى أن بعض القضاة والمفتين كانوا يجلسون بين يديه في حلقات علمه بطلب منهم، وينهلون من معارفه المتنوعة، ومن هؤلاء التلاميذ:

1)-الفقيه المربي المرشد، صاحب المحامد الكثيرة الحاج محمد بن الحاج علال بن بلحسن بن الحاج علي بن محمد بن يلس الملقب بالشاوش، كان محبا للعلم والعلماء أخذ عن الشيخ المتضلع في جميع العلوم الفقيه أحمد بن محمد الدكالي توفي 1333هـ بالمغرب، والفقيه محمد بن أحمد الحرشاوي في الجامع الكبير بتلمسان، توفي محمد بن يلس يوم الاثنين 12 جمادي الآخرة 1346هـ الموافق لـ 30 نوفمبر 1927، من أبرز تلاميذه في الشام المحدث الكبير محمد بن الهاشمي التلمساني، وهو بدوره أستاذ المحدث الشهير في عصرنا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

2)-الفقيه المدرس عبد الرحمن بن أحمد زروق البليدي، قرأ بها على الحاج علي بن رقية، وسي الحاج الطاهر المجاجي، توجه إلى تلمسان وأخذ عن فقيهها الشيخ محمد الحرشاوي المدرس بها، بعد تخرجه سمي إماما في جامع البليدة، ثم سمي مدرسا رسميا بنفس الجامع في 1899 هـ، واستمر مدرسا فيه لعدة سنوات، ومن بين تلاميذه المقرىء الفقيه المفتي علي المذهبين الحنفي ثم المالكي الشيخ محمد بابا عمر البليدي، وهذا الأخير هو شيخ الفقيه المؤرّخ عبد الرحمن الجيلالي- حفظه الله - .

3)-الشيخ الفقيه المصلح المقريء الزاهد المشارك المؤلف أبو عبد الله البوعبدلي البطيوي، أخذ عن عدة شيوخ في داخل الوطن وخارجه منهم الشيخ قدور بن سليمان، والقاضي شعيب التلمساني وأجازه بسنده، والفقيه أحمد الحرشاوي، وكان يثني عليه كثيرا كلما ذكره، أسس زاوية باسمه تعرف بالزاوية البوعبدلية نسبة إليه، وهو أحد الأعضاء المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كانت له صلة وثيقة بالشيخ المصلح عبد الحميد بن باديس، قضى- رحمه الله 88 سنة كلها في التعلم والتعليم، توفي في شهر محرم سنة 1372 هـ.

4)-الحاج محمد بن الحاج حمو، الملقب بالعشعاشي، قال في مذكراته: [كنت في كفالة أبي سيدي الحاج حمو بن محمد بن الغوثي بن حجي، ورباني تربية حسنة، وقرأت القرآن الكريم على يد الشيخ سيدي غوثي بن ثابت في مسجد لالة الرؤية بحومة حارة الرمل بتلمسان، وكنت أحضر مجالس العلم، وبالأخص مجالس شيخي سيدي محمد بن أحمد الحرشاوي، وسيدي أحمد الدكالي مقدم الطريقة الهبرية الدرقاوية، وكذا الشيخ سيدي محمد بن دحمان العبادي، وغيرهم من علماء تلمسان...]، وللعشعاشي مذكرات دوّن فيها جانبا من حياته، توفّي سنة 1954 م/ 1373هـ.

5)- مقدم الطريقة الهبرية الحاج عبد القادر بن محمد وزين التلمساني أخذ الطريقة عن الشيخ محمد الهبري الغزاوي، والشريعة على يد الشيخ الحرشاوي، ولكن غلبت عليه الطريقة حتى قدمه شيخه الهبري علي فقراء تلمسان، توفي سنة 1358هـ الموافق لـ1939م.

6)- ومنهم الحاج محمد بلقايد، وأحمد الستوتي، وبوزيان بوشناق، كانوا يواظبون على دروس الشيخ محمد بن أحمد الحرشاوي في الجامع الكبير بتلمسان ومعهم الشيخ محمد بن يلّس(09).

المطلب الثالث: رحلته العلمية: يحدثنا الحرشاوي عن رحلته العلمية في طلب العلم عن كبار علماء عصره، فيقول: "...سافرت لطلب العلم بوجدة، فقرأت بها على الجهبذ النحرير والدراكة الشهير، العالم بفنون العلم المعقول منها والمنقول، سيدي جلول بوروورو المستغانمي – رحمه الله– وهو قرأ بوهران علي الشيخ ابن قُريد، وسي عامر حتى بلغ في العلم الغاية كما حدثنا بمجلس درسه، قرأت عليه مختصر الشيخ خليل دراية ثم قرأت على سيدي أحمد بن عيسى المستغانمي أيضا المختصر المذكور، وهو قرأه على مشايخ مازونة كالشيخ سيدي محمد أبي طالب وابن ابنه سيدي أحمد بن هني – أنمى الله حسناته آمين–.

ثم سافرت من وجدة إلي مازونة، فقرأت بها المختصر علي الشيخ سيدي أحمد بن هني، وعلى ولده العلامة سيدي محمد بن أحمد بن هني، وعلى الشيخ السيد عيسى ابن امبارك، وعلى الفقيه سيدي أبي مدين ابن التهامي، وأجازني سيدي أحمد بن هني، وابنه المذكور،

والشيخ عيسى المزبور، وشيوخ من بني وراغ، كالشيخ السيد الحاج محمد بن الطيب، والشيخ السيد عبد القادر بن الطيب، وغيرهم من فقهاء العصر.

ثم سافرت إلى فاس، فأخذت الفقه من مشايخ عدة، منهم العلامة الذي لا نظير له فيما أعلم الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن الفلالي، وهو عن اليازمي، وهو عن الشيخ أبي طالب المتقدم الذكر، وأخذت أيضا على الشيخ سيدي أحمد المرنيسي، وعنه أخذت علم الحديث، إذ قرأت عليه صحيح البخاري والنحو والتوحيد، وأخذت الفقه عن الأخوين سيدي الحاج عمر بن سودة، وسيدي الحاج المهدي، كما أخذت البيان والنحو أيضا عن سيدي الحاج المهدي، وأخذت الفقه أيضا عن سيدي محمد الداودي التلمساني الفاسي، والنحو والتوحيد، والمنطق، والبيان، وقرأت الفقه أيضا عن الفقيه التازي، وأصول الفقه عن الشيخ سيدي عبد السلام بغانم، والنحو عن الشيخ سيدي محمد بن إدريس البقراوي، وسيدي محمد بن سودة صاحب الجلود، وعن سيدي أحمد المرابط، وما بقي من العلوم فعن غيرهم، أما التفسير فعلى الشيخ العراقي، وبقية العلم فعلى كثير من الفقهاء – رحم الله جميعهم – والله الوفي بمنّه آمين.(10)

المطلب الرابع :مناصبه العلمية، ونهوضه بالتربية والتدريس:

تقلد الحرشاوي خطة القضاء الشرعي في ندرومة وتلمسان، ثم خطة الافتاء والتدريس في الجامع الكبير بتلمسان في مختلف فروع الشريعة الإسلامية، فأعطى للتعليم جلّ وقته، فدرّس عدة مؤلفات مهجورة منها الشمائل للترمذي، والأربعين النووية في علم الحديث وفي العقائد، أم البراهين للسنوسي عدة مرات بشرح البيجوري، وفي النحو الأجرومية والألفية، وفي الفقه المالكي المرشد المعين لابن عاشر، والعاصمية في علم القضاء، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، ومختصر خليل وخاصة علم الفرائض ، وفي الثقافة العامة قصيدة أبي عبد الله بن زكري في العام الأعجمي، وغيرها من الكتب.

وفي بعض الأحيان تحول الظروف بينه وبين اتمام الكتاب، أو أن الطلبة لا يطلبون منه ذلك، ومن ذلك قوله: "لقد أقرأت المختصر، والمرشد المعين، وشرعت في العاصمية،ولم تكمل، وكذا رسالة الشيخ محمد بن أبي زيد ولم تكمل، وأما اللامية فلم يطلبها مني أحد،والله الموفق للصواب".

زيادة على هذا فإن الشيخ الحرشاوي – رحمه الله – عندما كان يتنقل في ربوع القطر الجزائري، كان يلقي الدروس العلمية على كبار الطلبة، حتى أن المفتين والقضاة كانوا يحضرون دروسة لمكانته العلمية ، وقدرته على تطبيق قواعد الدراسة والتعليم ، ونفع الطالب في مدة قياسية، ومما ذكره الحرشاوي نفسه في هذا الشأن قوله: "...ولما كنت في عام أربع وألف وثلاثمائة ذهبت إلى قصر البخاري لزيارة ضريح الشيخ الموسوم بن محمد، ودخلت المدية، ونزلت عند مفتيها السيد علال بن النجار ، طلب مني هو وكثير من الطلبة – [أي أن يقرأهم العقيدة السنوية]– فأقرأتها لهم في خمسة أيام بشرح الشيخ ومُحشيه المذكور– [أي الدسوقي] – مع شرح البيجوري، وكان يحضرها خلق كثير، ففي يوم ختمها حضرها ما ينيف على المائتين، نسأل الله تعالى أن يثبت العمل، بمنّه ...ولما كنت بعض الأيام بعم موسى، طلب مني قاضيها ومن معه، فأقرأتهم جوهرة اللقاني في علم الكلام، وأكملتها لهم في ثمانية أيام بشرح الشيخ فقط...ولقد أجزت للشيخ المفتي فيها...](11)

المطلب الخامس : تأثـره وتأثيـره:

مما لا شك فيه، من خـلال ماقيده عن رحلته في طلب العلم، وما قيده في بعض تقييده كما في كتاب القول الأحوط في الكتب المتداولة في المغرب الأقصى والأوسط، أن الشيخ الحرشاوي كان متأثرا بجميع شيوخه وبخاصة الشيخ جلول بوررورو المستغانمي، والعلامة محمد بن عبد الرحمن الفلالي الفاسي.

ومن الطلبة الذي تأثروا بالحرشاوي تلميذه محمد بن محمد بن علال الديلمي أصلا، المراكشي دارا ومنشئا، كان يجل شيخه إجلالا، ولا يتصرف في بعض المواقف إلا بإذنه، ومن ذلك أنه نسخ شرح العقيقة للأبي راس الناصري المعسكري والمسماة الذرة الأ نيقة، بإذن من شيخه، وكان نسخها بدار العلامة العربي بن الحاج، وهو ما صرح به في خاتمتها بقوله: "...وذلك عن إذن شيخنا ووسيلتنا إلي ربنا القدوة الهمام، الذي انجلي به في هذا العصر الظلام الغني بشهرته عن مدحه عبد ربه القوي سيدي وسندي سيدي محمد الحرشاوي عامله الله يلطفه الخفي، أجزاه على عوائد برّه الحفي، أدام الله وجـوده، وأبقاه بركة ونورا يستضاء به في الوجود..."

ومما ذكره في شأن شيخه في تقييد آخر جمعه العربي بن محمد الحرشاوي قوله: "...فيا إخواني حوموا حول حمى هذا الشيخ الكريم، وقابلوه بالبر والإكرام والتعظيم، واقبلوا نصحي لكم فيه، ولا تجهلوا أمره، وتأملوا فيه، وقد أديت لكم ما خوطبت به من جهة السنة المحمدية، والأحاديث المصطفوية، من النصح لأئمة المسلمين وعامتهم حسب ما في الأحاديث النبوية، فهذا بعض ما علمته فيه من السر العظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وما ذكرته من أوصافه لا يفي بالغاية، ولكن فيه لمن اعتنى به كفاية، هذا واذكر أبياتا أنشأها من ذهني الفاتر، وفهمي القاصر، متقربا بها إليه، راجيا بها عطفة منه لي ولجميع الطلبة الحاضرين لديه، ومما قيل فيه:

أقـول للذي أراد حـكـمـة وسرا باهـرا وعـلـو همـه
تمسـك يـا أخي بالحرشاوي فكـل مـا أردت تجـده ثـمـه
ولازم درسـه تنـل علـومـا وتـرجع حيـنا ممـن سـاد قـومه
وتحظى بوصلك المـولى وتـنجى مـن الجهل العمـيم وكـل ظلمه
فـقيـه غظريف قمر مـنيـر عديم الشكل حـرشـاوي النسبه[12]

مـؤلفاتـه:

إن عالما كالحرشاوي؛ تصدر للقضاء، والإفتاء، ثم التّدريس لسنوات طوال، وكان يُشار إليه بالبنان، سواء من جهة علماء المسلمين، أو المستشرقين، وهو المتمكن من أصول الدراسة و التعليم، كان بإمكانه أن يخلف لنا تراثا ثربا في مختلف فروع الشريعة الإسلامية لولا العوائق والعلائق التي ألّمت به وخاصة عندما اشتهر ا ،ره في الديار التّلمسانية، ورغم ذلك كله ما ألفه كاف لإبراز منهجه في التأليف لو تمكنا من إخراجها إلي النور، ومن هذه المؤلفات:

1)-المواهب المعطية في ذكر أجوبة المسائل الفقهية المنشأة عن الأسئلة المرضية.

يقع هذا الكتاب في مجلد بن، وهو شرح علي الأسئلة المرضية لمحمد الخروبي القلعي المتوفى سنة 1279هـ، وقد تنافس علماء الجزائر في سرسها، منهم الفقيه أبو عبد الله ابن الشيخ بن عبد الله الزقاي الذي شرحها كذلك في مجلدين.

ومن جملة ما جاء في مقدمة المواهب المعطية في بيان أسباب تصدره لهذا الشرح قوله: "الحمد لله حق حمده، وصلوات وسلامه علي سيدنا ومولانا محمد وآله وحزبه، وبعد فلما كان

علم الفقه العذب الزلال المتكفل ببيان الحرام من الحلال من أجل ما اعتني به ذوو البصيرة النقـاد، واشتعل به ذوو الآراء الصائبة والرشاد، وأولي مـا أنفق فيه البصير نفائس أوقاته، واستعمل فيه النحر ير جزئيات وكليات أزمانه، وكان مما ألف فيه خمسمائة مسألة وتسع مسائل فقهية، سمي ذلك التأليف بـ "الأسئلة المرضية في سـرد المسائل الفقهية"، وأجاب عنها البعض من العلماء بأجوبة بعضها من كلام خليل، وبعضها من التحفة العاصمية، غير أن تلك الأجوبة لم تشرح ولم تبين، والتحرير فيها لم يذكر ولم يعين، فأشار علي من لا بد من إسعافه أن أذكر تلك الأجوبة بما يليق من الفقه، وأحكامه من غير تطويل ممل، ولا تقصير مخل، فأجبته لذلك طالبا من الله الإعانة على إتمام المقصود، فانه ولي التوفيق والهداية، وسميته بـالمواهب المعطية في ذكر أجوبة المسائل الفقهية المنشأة عن المسائل المرضية ناقلا أجوبتها من مختصر أبي ضياء خليل، وشارحا لهـا من كلام شارحه محمد الخرشي...[13]

وانتهى هذا الجزء بقوله: وهنا انتهي الكلام على الجزء الأول من الأسئلة المرضية وهو قسم المعاملات البدنية،ويتلوه الكلام على الجزء الثاني قسم المعاملات المالية ، وأول ذلك أسئلة البيوع ...انتهى تصحيح هذه النسخة بخط ابن مؤلفه في 21 مارس 1890.

2)-النهى الفائض في حل ألفاظ المختصر في الفرائض:

وقد بدأ في جمعه منذ أن كان طالبـا في القرويين، يدرس ويدرس، وقد أوضح ذلك بقوله: "ولقد أقرأت فرائض الشيخ خليل بفاس..."، توجد نسخة تامة بخط تلميذه أبي فلجة بن المحمد عند حفيده بالرباط[14]

3)- حُلّة التسديد فيما به الخروج من ربقة التقليد:

وهو نظم لخص فيه صغرى الإمام السنوسي، من بحر الرجز.

4)-الركن الشديد في حل ألفاظ حلة التسديـد:

وهو شرح وتوضيح لما جاء في حلة التسديد، قال عنه الشيخ : "..وكنت عزمت على طبعه، ولم ييسر الله سبحانه".

5)-شرح المرادية لابراهيم التازي: قال عنه الحرشاوي:..وكنت جعلت شرحا على النظم المسمى بالمراد للشيخ ابراهيم التازي تلميذ الإمام الهواري دفين وهران.

6)-شرح على بردة المديح للبصيري.

7)- تعليق على كتاب القول الأحوط في بيان ماتداول من العلوم وكتبه بالمغربين الأقصى والأوسط، وأصل الكتاب للسيد جورج دولفان مدير المدرسة الثعالبية بالجزائر العاصمة، والأستاذ السابق للغة العربية بوهـران، وقد بعث له الحرشاوي برسالة مبينا فيها الأسباب التي حالت بينه وبين اتمام التعليق وهي:

"الحمد لله وحده، في 25 نوفمبر1889 الفاضل العلامة المدرس المعلم الفهامة الشيخ السيد دالفان سلام عليكم كما يليق بعظيم مقامكم، ورحمات، وبركات تشملكم.

وبعد؛ أيها السيد، فان الكراريس التي عندي قد فرغت من تتبعها، وما ألوت جهدا في إصلاحها بقدر ما أمكنني مع شطـر البال، وكلفة العيال، وقلة السعد والمعين، وحسد التلميذ، والقرين، مع همـوم تزايدت، وأكدار تواردت، خمدت القريحة بها مع صرصر النكبات، وجمدت الفطنة بكثرة النكبات، فانا لله وإنا إليه راجعون، مع ما نشاهده من انعكاس الحال، وظهور الفساد في كل الأحوال بتقديم من أخر الله، وتأخير من قدم الله، فلقد قال الشيخ عياض-رحمه الله تعالى- إن تقديم من أخر الله، وتأخير من قدم الله فتنة في الأرض، وفساد كبير، وكيف لا؛ وقد شوهد في المتوليين في هذا الوقت وظائف الإمامة، وتدريس الجهل والقصور حتى أن بعضهم لا يحسن شيئا من المعقول والمنقول، بل هو على الجهل المحض، ويتكالب على التولية، ونرى من فيه الأهلية، وله الأحقية بذلك لا يصل إلى مطلوب أصلا، أو يسعى الناس في تأخيره لتخلو الجو للجهال، فرحم الله صاحب القسطاس المستقيم حيث قال:

تصـدر للتدريس كـل مهـوس بليـد ليدعى بالفقيه المدرس
فحق لأهـل العلـم أن يتمثلـوا ببيت قديم شاع في كـل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هـزالـهـا كلاها وحتى سامها كل مفلـس

والأمر لله تعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله ألعلي العظيم، وسلم منا علي نجلكم السعيد، وعلي الأهل، والسلام، وفي التاريخ أعـلاه كتب عبيد ربه القوي محمد بن أحمد الحرشاوي[15]

8-كتاب تحفة الأكياس في الأجوبة عن كيفية التدريس بفاس: وهو في مقدمة وعشرين فصلا وخاتمة[16]

وفـاته: توفي الشيخ الحرشاوي بتلمسان في السابع والعشرين من رجب سنة **1313** هـ الموافق لـ**24** يناير **1896**م، ودفن بالعباد يحيط به سور مربع الشكل، وقد دفن معه شخص قد يكون من تلاميذه [17]

الهوامش:

1)- نبذة عن العائلة الحرشاوية – رسالة مخطوطة باللغة الفرنسية- ملكية خاصة- ص7.

2)- نفس المرجع- ص5

3)- المواهب المعطية في ذكر الأجوبة الفقهية- مخطوطة قيد التحقيق-نسخة بخط المؤلف في ملكيتي – ص 8

4)- نفس المصدر – ص 9

5)-نفس المصدر- ص 9

6) سلسلة الأصول للقاضي حشلاف- ص

7)-كشف الحجاب عمن تلاقي مع القطب التجاني من الأصحاب للقاضي سكيرج المغربي- طبعة حجرية- الرباط- بدون تاريخ- ص108/حاشية الحرشاوي على القول الأحوط في الكتب المتداولة في المغرب الأقصى والأوسط – مخطوط في ملكيتي- ص68 - 73

8)- انظر حاشية الحرشاوي على الأحوط- ص

9)- السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية- مصطفى العشعاشي التلمساني-مطبعة السقالة- تلمسان-بدون تاريخ- ص37 - 38

10) – المواهب المعطية- ص 8 وما بعدها.

11)- القول الأحوط- ص 85.

12) نسخة خطية عندي.

13)- المواهب- ص1 وما بعدها

14) – نسخة في حوزتي مبتورة في آخرها بقدر صفحة.

15)-رسالة موجودة بمخطوط القول الأحوط في آخر صفحة منه.

16) تعتبر من النسخ الضائعة، وقد ترجمها جورج دولفان إلى الفرنسية، ونشرها في مجلة البحوث والآثار.

17)- مدونة على ضريحه في مقبرة العباد بتلمسان.

مقاومة الجزائريين بالهجرة إلى الديار الإسلامية
-عمالة وهران نموذجا-

د/ إبراهيم مهديد

تمهيـــد:

بغض النظر عن سبب التجنيد العسكري الإجباري بالنسبة لأبناء الجزائريين، فيما يتعلق بموضوع "الهجرة" ، كما يركز عليه معظم المؤرخين، فإن الواقع التاريخي يؤكد أن عوامل كثيرة أخرى لعبت دورها في سيرورة هذه الظاهرة. فتاريخيا عاش المجتمع الجزائري بعد الاحتلال الفرنسي وخلال القرن التاسع عشر كله جميع أنواع التقهقر الاجتماعي والاقتصادي إلى جانب القوانين الاستثنائية المسلطة عليه، وفقدان حريته السياسية، مع ثقل الضرائب، ومراقبة المؤسسات الدينية ومصادرة الأوقاف وإدارة الشؤون الدينية والقضائية من طرف المؤسسة الإدارية الاستعمارية، إضافة إلى عرقلة المجالس المحلية "للتعليم العربي" وتعليم أبناء الجزائريين- رسميا- ومواقفها السلبية لتمثيل نيابي كاف يكون في صالح الجزائريين.

1- لمحة عن الهجرات الجزائرية خلال القرن 19

الواقع أن "الهجرة الجزائرية" تجاه المغرب والمشرق العربيين تزامنت والاحتلال الفرنسي، واستمرت طيلة القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين سواء من شرق الجزائر ووسطه، جنوبه أو غربه. فابتداء من عام 1832 استوطن الجزائريون من معسكر وتلمسان بالمغرب الأقصى، ولحقتهم قبائل من بني عامر ولهشم عام 1835 أثناء مرحلة جهاد الأمير عبد القادر- كما شهد الشرق الجزائري عام 1837 هجرة إلى تونس وسوريا بعد أحداث قسنطينة- وإبان مرحلة الإمبراطورية الفرنسية الثانية وبين 1854 و 1870 اشتدت الهجرة نحو تونس، وبلاد الشام التي كانت أكثر جاذبية للجزائريين.

---

* أستاذ محاضر في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- جامعة وهران.

استؤنفت الهجرة سواء من منطقة القبائل بعد 1871 [1] أو من منطقة وهران بين 1874-1875 [2]، أو الجنوب بعد ثورة بوعمامة عام 1881. وفي عام 1888 شهدت الجزائر هجرة اتجاه سوريا أتت من عمالة قسنطينة ومنطقة القبائل والتي أقلقت الإدارة الفرنسية؛ إذ ذكر التحقيق الذي أجري في 11 سبتمبر من نفس السنة نزوح 78 عائلة و347 شخص[3]. ولم تتوقف موجة هجرات الجزائريين اتجاه تونس وسوريا حيث أشارت الإحصائيات إلى هجرة 237 شخص عام 1896 وإلى وصول 800 جزائري إلى مدينة بيروت عام 1898[4]، على أن موجة أخرى من المهاجرين ستنطلق خلال نفس السنة من لمدية والبرواغية ومنطقة شلف اتجاه سوريا دائما. أما في سنة 1910 فستشهد سوريا نزوحا كبيرا آخر إليها من نواحي سطيف وبرج بوعريريج من طرف الجزائريين، وذلك بعد وبيع ممتلكاهم [5].

2- الهجرة الوهرانية خلال القرن 20

شهد القطاع الوهراني سنتي 1910 و1912 نزوحات جديدة اتجاه سوريا من معسكر (32 مهاجر) ومستغانم (مهاجر1) وسيدي بلعباس (4 مهاجرين)، [6]تخللتها أهم هجرة عرفتها الجزائر في عام 1911، ونعني بها " الهجرة التلمسانية"؛ حيث استطاع المئات من المسلمين الحضريين التلمسانيين من مغادرة الجزائر بشتى الطرق والأساليب، واحتلت هذه الهجرة حيزا ومكانة معتبرة في الصحافة الكولونيالية والفرنسية.

ومهما أثير من جدل حول هذه الهجرة،[7] نفسرها وطنيا بكونها مظاهر احتجاج ضد النظام الاستعماري الكولونيالي بمؤسساته الإدارية والسياسية والاقتصادية الإجتماعية والثقافية، وبكونها- مع شبيهاهما في وسط وشرق الجزائر- شكلا من المقاومة الوطنية ضد الواقع المعاش خلال الفترة الاستعمارية إجمالا، وحتى العشرية الأولى من القرن العشرين.

ونظرا لأهمية الحدث؛ فإنه أثير جدل في البرلمان الفرنسي عام 1912م، وخلال 1913 وبداية 1914. ويذّكر الجدل والنقاش السياسي المثار حول المسألة ذلك الذي دار حول "حادثة مارغريت" بين سنتي 1901 و1903، إذ كان لزاما على البرلمان أن يتوصل إلى حل، ويضع بيانات سياسية محددة حولها. ومن هنا يحتل موضوع الهجرة التلمسانية مكانة في تاريخ التقارير الإدارية والسياسية بين فرنسا ومستعمرتها[8].

وعلينا أن نقر أن هذه "الهجرة" وغيرها من الهجرات والاحتجاجات المشهورة داخل البيئة الإسلامية في المجتمع الجزائري ستفقد دلالاتها وتتشوه إذا لم يتم إدراجها من ناحية أخرى في قالبها الإسلامي بديمومة الهجرات عند الجزائريين الذين فضلوا ترك وطنهم بدلا من قبول الاحتلال الفرنسي؛ حيث تعتبر"الهجرة في الشريعة فرضا وواجبا على كل مؤمن بالله، فعلى المؤمن أن يلتحق بأرض الشهادة (دار الإسلام) ويترك دار الحرب (أرض الكفر). فشرعية "الهجرة" دينيا مألوفة في المجتمعات الإسلامية بحكم النصوص القرآنية التي تدل على ذلك مثل "الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون" (سورة التوبة،آية9) وغيرها كسورتي "النساء" و"الأنفال"، والأحاديث النبوية الشارحة لما ورد في القرآن بشأن موضوع الهجرة.

ومهما اختلفت الدراسات التاريخية والرسمية الحكومية حول عدد العائلات والأفراد الجزائريين الذين هاجروا سواء إلى المغرب (20.000 جزائري، منهم 5000 إلى مدينة فاس عام 1905) [9] أو تونس والمشرق العربي (بحوالي 5330 ما بين 1898 و1912)؛[10] فإن هجرة 1911 التلمسانية مثلت "الهلع الحقيقي،الذي أوشك أن يكون وباء أخلاقيـــا"[11] نتيجة حكم فرنسي قاس و مضطهد ومستغل ضد الجزائريين. ومن ثم جاء ردّ فعلهم المقاوم بتلك "الهجرة" الجماعية في سبتمبر 1911 التي بلغت حوالي 1200 حسب التحقيق الجدي لصحيفة صدى وهران (L'Echo d'Oran) بقلم أوجين قروس (gross Eugéne)[12] أو حوالي 637 حسب تقرير لجنة الحاكم العام الرسمية برئاسة باربوديت (Barbedette)[13] وأزيد من 800 فقط حسب صاباتييه (Sabatier)[14] بصفته رئيس المجلس العام بعمالة الغرب الجزائري.

لقد عللت هذه الهجرة الجماعية بأسباب دينية ثقافية أخرى، ولّدت مخاوف وهموم دبت إلى خواطر الجزائريين بعد ظهور ما يعرف بمشروع فصل الدين عن الدولة، ولأن الإشراف الفرنسي سيباشر رسميا على الشؤون الدينية مع إدارة الأوقاف الإسلامية. كما أن سياسة التمييز الاستعمارية بين الديانات الثلاث زاده قانون الفصل وضوحا. إلا أن خطر الإعلان عن الإحصاء المتعلق بالتجنيد العسكري عام 1908، وقبله في سنة 1907 أحدث حركة هيجان حقيقية في الأوساط المسلمة خوفا من تعبئة أبنائهم ضد إخوانهم في المغرب. ففي 19 ديسمبر 1908 احتشد حوالي 2000 متظاهر أمام مبني دائرة تلمسان، ولم يتفرقوا إلا بعد

استقبال ممثليهم الثمانية[15]. وفي هذه الظروف الصعبة والمملوءة بالقلق تدفقت طلبات جوازات السفر في تلمسان– ومن مستغانم– بلغت 321 طلب، سبقها نزوح 140 مهاجر يصحبهم "مقدمان" من "الزاوية الدرقاوية"، كان من بينهم 75 مريدا و3 عائلات من أغنى السكان التلمسانيين .

مع نهاية 1910 ستسجل الإدارة الإستعمارية هجرة مفاجئة لأحد أعوان إدارتها المتمثل في "القايد لخضر" من دوار "أولاد شولي" ببلدية سبدو مرفوقا بـــ27 فردا من عائلته. وهذا الإداري الغني بأملاكه وثرواته سوف يدفع ويشجع جزائريين كثيرين إلى الهجرة بعد أن تمكن من الوصول إلى سوريا مرورا بمدينة مليلية. وتطوان وطنجة المغربية؛ حيث بعث هذا الموظف بمراسلات عديدة ودائمة[16] إلى أصدقائه وأهله منوها بمزايا وإجابيات الحكومة العثمانية [17]. فسكان مدينة تلمسان وضواحيها وكذا أصدقاء المهاجرين الجزائريين في المشرق وفي جهات أخرى، كانوا يقومون باتصالات منظمة مع جزائريين سبقوهم إلى سوريا ومدن الحجار (مكة) وتركيا التي كانت تستقبل المثقفين والعلماء الجزائريين بحفاوة. كما أن ثورة "الأتراك الأحرار" الغنية بوعودها في الأول قد أثارت انتباه كل الجزائريين. وتطورت الوضعية أيضا بقراءة المجلات والصحف التي كانت تصل إلى الجزائريين سريا؛ فالجرائد الممنوعة كانت تتوغل إلى مناطق الوطن داخل طرود مغلقة، وعن طريق العلب، وفي حقاب الحجاج، وداخل السلع.

بررت السلطات الإستعمارية في محاولات كثيرة بأن أسباب الهجرة التلمسانية، وهجرات الجزائريين إلى تونس والمشرق كان مرده إلى دعاية "الجامعة الإسلامية "من جهة، وإلى شدة الارتباط بين المسلمين في الجزائر والعالم الإسلامي ماديا وروحيا من جهة أخرى. فسجلت مثلا زيارة بعض الشخصيات الإسلامية إلى تلمسان والتي كانت مؤثرة على السكان حتى يهاجروا، كان من بينها فريد باي (عام 1904) الذي قام بنشر مقالات ندد بها، ونقد سياسة فرنسا في الجزائر، وأحد "عبد القادر الجيلاني "(1903-1904) الذي قدم إلى تلمسان بجواز سفر منحته اياه قنصلية تركيا المتواجدة بباريس ، فأقام بالزاوية القادرية بالمدينة قبل نفيه.كما انتقل "محمد بن سليمان القادري" إلى تلمسان، وهو شخصية بارزة من إتباع "القادرية" ببغداد إذ زار هذه المدينة ومكث بها ثلاث مرات (1901، 1906، و1910)[18].

في هذا الصدد نسجل أيضا زيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر، وتأثيراتها الإيجابية في نفوس المثقفين وسط المجتمع الجزائري المسلم، ولاحقا سفر "السيد أحمد بن أحمد بن عبد القادر" مفتي المدينة المنورة، وزيارته في القطاع الوهراني لكل من أعيان مدينة تلمسان ومشرية وعين الصفراء[19].

يبدو في الواقع أن للهجرة التي شهدتها تلمسان عام **1911** أسباب كانت نوعا ما مختلفة عما سبقها من هجرات. فهذه العاصمة القديمة للمغرب الأوسط استطاعت رغم الصدمة الاستعمارية التي تلقتها أن تحافظ على إطارها، وعلى نمط حياة المدينة المسلمة التقليدية.[20] ومع ذلك فإن هذه المدينة "النبيلة والقديمة" كانت في حالة انحطاط كامل بعدما شهدت تقلص مكانتها الإقتصادية، واستمر ذلك بانتقال تجارتها مع مشاريع ومخططات السياسية الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر، لحساب وهران التي استحوذت على تجارة الجنوب. كما أن عامل المزاحمة الأوربية الاقتصادي أثر سلبيا على عالم الحرف الصغير في المدينة، إن على الحياكة أو على النساجين والاسكافين. فالتلمسانيون الفخورين بشخصيتهم ووطنيتهم شاهدوا مدينتهم تغرق تدريجيا وتتحمل بعناء وألم وقساوة أعباء النظام الفرنسي[21].

كان المثقفون التلمسانيون والممثلون السياسيون– في كل مناسبة– يطالبون بإعادة القضاء الإسلامي، ومناصب القضاة الشرعيين، وبتخفيف الضرائب العربية، وبفتح المدارس العربية والمكاتب الخيرية، وبإلغاء نظام الاندجينا (قانون الأهالي) التعسفي. ففي **15** جوان **1900** استمعت اللجنة البرلمانية الفرنسية لهذه المطالب كلها صحبة مطالب أخرى من طرف بعض المستشارين البلديين خصت المشاركة في عملية انتخاب شيخ البلدية، والحصول على تمثيل برلماني للجزائريين. كما احتجوا على ضغوطات شيخ البلدبة اتجاههم. وفي عام **1905** نجح هؤلاء في إجبار الصحافة على طرح مشاكلهم ومطالبهم، كالاحتجاج ضد نظام الغابات، والمطالبة بمنح رخص حمل السلاح للفلاحيين، ووصل الحد إلى إرسال شكاوي من المواطنين إلى رئيس الجمهورية نفسه عام **1901** بسبب رفض طلباتهم قصد الهجرة إلى طرابلس الغربية.

عبر التجار التلمسانيون ضمن تقرير باربوديت (**Rapport Barbedette**) وتحقيق أوجين قروس (**Eugéne Gross**) عن كل ما تعرضوا له من إدلال وإهانات، وذلك بسبب الضغينة والكراهية التي يمارسها المرؤوسون من الموظفين بحكم وحجة تطبيق "قانون الأهالي"،

والمحاكم الاستثنائية والاعتقالات الإدارية، والسلوكات المتفسخة لبعض الرجال والموظفين، وتكليف الأميين والجهلة بتمثيل " الأهالي"، مع اضطرار التجار والحرفيين للجوء إلى المقرضين من المرابين، وذلك نتيجة رفض المؤسسات المالية تقديم قروض وإعانات لهم. في حين أشار بعض الأعيان إلى أراضي الحبوس التي تحولت إلى ملكيات منحت إلى الأوربيين، رفقة عمليات نزع ومصادرة ملكيات من جزائريين، وأخيرا هناك شكاوي لرفض التجنيد العسكري المفروض على الشبان المسلمين وهي القضية التي أفاضت الكأس زادت الوضع تأزما.

وكان وليام مارسي (Wiliam Marçais) المندمج في الحياة التلمسانية و"المنجدب عاطفيا" نحو سكانها المسلمين- قد أعد في تقريره[22] آلام التلمسانيين ومعاناقم، أشار إلى "اذلال هؤلاء الحضر الهادئين العفيفين والغيورين على مدينتهم" من طرف الموظفين والمتطفلين. كما ألحق من جهة ثانية بأن سكان تلمسان لم تكن لهم لا الرغبة ولا الوسائل والإمكانيات لكي يقبلوا ويتبنوا شكل الحياة الإقتصادية والسياسية الجديدة، حيث "عانت مدينة تلمسان وسكانها طويلا وفي صمت متواصل" ، أمام " عدم مبالاة السلطات الفرنسية وعدم ميلها ورغبتها وبجهلها (وهو شئ واحد)،فكانت أقل تبصر ووعي، وهذا ما جعلها تتفاجئ بذلك الإنفجار النهائي لآلام عمرت طويلا....لأنها لم تحسب للمستقبل أي حساب ،لأنها لم تحب". فالفرنسيون بنظرقم المألوفة لم يكونوا يتنبؤون،لما كان يحدث،لأنهم كانوا منفصلين تماما عن المجتمع الجزائري وكما نعلم.

وحالة التذمر هذه عند الجزائريين عبرت عنها جريدة "الحق الوهراني" "بقلم صالح" (عدد22-29 جوان 1912)أمام وضعيتهم المدلولة:

"الذل": في جميع الشكايات التي بعثها الوطنيون...للوالي العام بالجزائر، وسائر أولى الحكم...فيها تكرار كلمة "الذل". وذلك أنبأني عن رأي جديد، "فهذه مدة خمسة عشر سنة كانت هذه اللفضة مجهولة منسية، لكن "تقدم الزمان وترقت الآراء والآن جميع المسلمين الوطنيين عالمون بحقيقة "عبوديتهم فتألموا ولا يسوغ للدولة [الفرنسية]إنكار هذه الحقيقة إذ هي بينة "على أن ذلك من نتائج الحالة السيئة التي عمت الوطن...لنا حق مشروع من "ضوء الشمس".

وفي نفس الظروف وخلال انعقاد جلسات المفوضيات المالية (شهر جوان،جويلية 1912) أنذرت نفس هذه الصحيفة :

"إننا نتحسس وقوع حوادث خطيرة، وأن تغيرات قد تحصل..فماذا حقّق لصالح الأهالي هذه السنة ولا شيء، وما هو التحسن الذي أدخل بالنسبة لوضعهم السياسي والإقتصادي لا شيء"[23].

إن معاناة الجزائريين في القطاع الوهراني-وداخل مناطق الوطن كلها- ومقاومتهم للتسلط والاستبداد الاستعماري الذي عرفوه خلال القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين، والذي عبروا عنه أحيانا بهذا النوع من المقاومة المتمثل في الهجرة إلى بلاد المشرق العربي والإسلامي، لمس من طرف المهاجرين أنفسهم أثناء وجودهم بتلك الديار.

فالوثائق "الجديدة"- من ناحية اكتشافها فقط- والمتعلقة بتلك الهجرات، وضحت مسألة وضعيتهم الاجتماعية والقانونية بدخولهم وهويتهم الجزائرية الإسلامية تحت حماية حكم السلطة العثمانية والتركية، وبتفضيل إقامتهم واستقرارهم في بعض الأقاليم كالشام (سوريا) مثلا.

والوثائق العثمانية الحالية- بعضها موجود في حوزتنا مصور-[24] كشفت عن بعض مضامين ذلك النزوح الجماعي من الغرب الجزائري ب203 عائلة مثلا، وعن بعض مظاهر تلك الهجرات وأسبابها:

"....إننا أهالي جزاير الغرب وحماية افتخارنا كوننا في القديم والحديث أبا "عن "جد من تبعة ورعايا الدولة العلية الأبدية ....ألجأتنا الضرورة إلى "المهاجرة من "بلادنا، وصرنا مجبورين على [(...) كلمة تكاد تكون ممسوحة ولا "تقرأ] على "ديار أخرى، وقد ارتحلنا بعيالنا وأولادنا وسائر تملكاتنا، وحضرنا "إلى " محروسة "الحضرة "الشاهانية..."[25].

أما الوضع القانوني بالنسبة لهذه العائلات المهاجرة، والتي تطلب المشاركة والدخول في العائلة الإسلامية الواسعة، فيستشف من بعض الفقرات:

"حضرنا...نستظل ونحتمي تحت ظل ولي نعمتنا الدولة العلية ولا نحتمي "إلى سائر الدولة الأجنبية [أي الفرنسية بالخصوص]...وأن يكن بعيدا عن "الاحتمال وأدعي أحد منا في وقت من الأوقات بأن حماية إلى ساير الدول "الأجنبية أو حصل ادعاء من أحد مأمورين الدول

الأجنبية [أي القنصل "أو المعتمدين] بالتصحب أو الحماية لأحدنا فلا يقبل ولا يستمع ولا "يعتبر" [26].

أو بتحديد أكثر بالنسبة لهذه الوضعية القانونية الجديدة لهم :

"وقد قدمنا معروضنا هذا[27] لكي يعلم بأنه نحن وأولادنا وذرياتنا "الدين"يتولون من الآن و صاعدا فهم من تبعة ورعية الدولة العلية الأبدية "الدوام "ولا نبرح من تحت ظلها وقد اتفقنا واتحدنا جميعا عن صميم القلب "على هذه "الكيفية المشروحة".

أو بكيفية أخرى:

"حتى إذا حصل إدعاء أحد منا أو من أحد مأمورين الدولة الأجنبية بشيء مما "ذكر بمثنه فلا اعتبار له قطعا وأصلا مطلقا،وبمقتضى ومبتغىحقوق الملل فالشخص "الذي يحصل عليه أو منه أدعا بالحماية لساير الدول الأجنبية فلا يقبل منه قط بل "يبقى تحت متبوعية السلطنة "الدول الأجنبية فلا يقبل منه قط بل يبقى تحت "متبوعية السلطنة السنية....[في انتظار الحصول على]مظهرية السلطنة في الحقوق "المدنية" [28].

ويفهم من ذلك قبول المهاجرين ورغبتهم الدخول تحت حماية السلطان العثماني كرعايا ومواطنين جدد في ديار الإسلام؛ إذ يتم ذلك بالتماس منهم (طلب أو معروض) رسميا وموثق كما جاء في هذا الصدد.فالعرف الدولي والدبلوماسي كان يقتضي ذلك حينئذ.

مشت العادة أن الحكم العثماني كان يستقبل ويشجع هجرة الجزائريين على الدوام طلية القرن التاسع عشر؛ "فإذا صارت هذه الكيفية مقبولة"، وقبلت هذه المبايعة–غير المباشرة– نال المهاجرون مساعدات مادية (من أراضي للحرث والحيوانات) تكفل لهم الاستقرار وراحة العيش. فإذا صارت هذه الكيفية مقبولة كما ورد:

"لدى عنايتكم فيرجوا ويتضرعوا[أي المهاجرون]من مراحم وألطاف "دولتكم [أن]تترحموا بأحوالنا وتكرموا علينا بترتيب وإحالة بعض محلات لايقة "ومناسبة لإقامتنا في موالي الشام لأجل مبادرة وتعاطي إدارة معاشنا بالفلاحة "والزراعة كما هو مألوفنا القديم" [29].

فالمهاجرون الجزائريون إذا آثروا في هذه المرحلة الصعبة من مراحل الإستعمار والإستغلال الفرنسي في الجزائر ،طلب الحماية "المرجوة " من السلطان العثماني من جهة، والدخول في هوية مشرقية إسلامية ،تتكامل مع هويتهم الأصلية الجزائرية .

الهوامش والحواشي :

*تنبيه لبعض المختصرات الواردة في النص :

- أ.آكس= أرشيف ما وراء البحر بمدينة آكس أون برفانس الفرنسية
- هـ (أو) هـ هـ= سلسلة H (أو) H.H
- م.م.و.و =محفوظات مديرية ولاية وهران (المعروفة) بأرشيف ولاية وهران
- صدى وهران=جريدة Echo(L') d' Oran
- "يلزيد أوراقي" = هو أرشيف عثماني يتعلق بالهجرة الوهرانية إلى بلاد الشام.

هوامش النص:

(1)و(2)أ.آكس أون بروفانس، طالع التقاريرالعديدة طي علبتي 11 هـ 22 و15هـ1 أي (15 H1) و(11 H 22).

(3) صحيفة "الشمس"،عدد 9 ؟أكتوبر 1888.طالع أ. آكس علبة 9هـ102، "الهجرة إلى المشرق،سوريا وفلسطين... (1880-1889)".

(4) أ.آكس علبة هـ هـ 49،تقرير 7يناير 1898.

(5) صحيفة "الاتحاد الجمهوري"،عدد7 جوان.1910،قارن مقالات "نشرة الدراسات الجزائرية"، أعداد شهر جويلية 1910.طالع أ.آكس علبة 9هـ 103،"الهجرة إلى الشرق الأوسط(1900-1914)".

(6) أ.آكس، علبة 9هـ 104(9 H 104).

(7) قارن مثلا،أجرون.ش.ر، "الجزائريون المسلمون وفرنسا"، ج2، "موجة نزوح 1910وهجرة تلمسان"، صص 1083-1093؛ وأبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1990،صص 141-152 ، وهلال عمار، "الهجرة الجزائرية نحو المشرق العربي"؛ وجريدة "الشعب"اليومية، الجزائر العاصمة، أعداد شهر أوت 1984؛ ومينييه. ج، L' Algerie Révelée ،(MYGNIER.G)صص 203-238؛ وجوليان ش.أ، "أفريقيا الشمالية تسير"، صص104-106؛وديبارمي (DESPARMET)"الجزائر"، ضمن نشرة "إفريقيا الفرنسية"، عدد جانفي 1912؛ومارشاند (هـ)(MARCHAND(H)، "هجرة المسلمين،" ضمن "القضايا الدبلوماسية والكولونيالية"(Questions diplomatiques et coloniales)، ج1912، صص 86-94.

(8) أجرون.ش.ر، المرجع السابق، ص1079.

(9) أنظر ميشوبيلير(Michaux bellaire) "مسلمو الجزائر في المغرب "، ضمن "الأرشيف المغربي" ،باريس عدد 1907،11،صص100-115 .طالع أيضا أ.آكس علبة 9هـ101، فيما بين 1875و1895

(10) رأي آجرون.ش.ز، نفس المرجع ،ص1092،قارن لوشاتوليه الفريد (Lechateier Alfred)، "المسلمون الجزائريون في المغرب وسوريا" مجلة العالم الاسلامي،العدد الثاني،1907،صص499 –512

(11) ديمونتيس(DEMONTES)، "الجزائر"،ضمن إفريقيا الفرنسية ،عدد يناير 1912،ص38 .

(12) "صدى وهران"، عدد 14أكتوبر 1911.

(13) "هجرة تلمسان عام 1911"،تقرير الحكومة العامة،الجزائر 1914، ص136.

(14) "صدى وهران"،عدد28 أكتوبر1911.

(15) أ.آكس،علبة 8هـ48.طالع بتوسع أ.آكس علبة 3هـ63، تجنيد الأهالي ورد فعل الرأي العام في تلمسان 1911-1922".

(16) "هجرة تلمسان عام 1911"، صص20-21.يتضمن تقرير باربوديت نماذج من هذه المراسلات.

(17) المصدر أعلاه، قارن أ.آكس علبة 9هـ 104 ،تقرير عامل عمالة وهران ،مؤرخ في 10 جوان 1912.

(18) نفس المصدر ، ص30.

(19) م.م.و.و، علبة 4471،نشرة الحكومة العامة،عدد جويلية 1912،(رقم 11620)

(20) بال. ألفريد (Alfred Bell)، "السكان المسلمون في تلمسان"، مجلة الدراسات الاثنوغرافية والسوسيولوجية ،باريس 1908.

(21) طالع تقرير وليام مارسي(MARCAIS.W أستاذ اللغة العربية بالمدرسة الاسلامية التلمسانية) إلى وزير الداخلية ؛ أ.آكس علبة 8هـ 24.سيصبح وليام مارسي مختصا في الدارسات الإستشراقية فيما بعد.

(22) نفس المصدر السابق.

(23) "الحق الوهراني"، أعداد 29 جوان –6 جويلية 1912.

(24) حصلنا على هذه الوثائق من طرف الدكتور عامر (جامعة دمشق)، أثناء إنعقاد الندوة الدولية حول الارشيف الخاص بتاريخ الجزائر والمحفوظ بالخارج ،الجزائر،16-19 فبراير 1998،جناح القسم السوري، رقم ترتيب هذه الوثائق هو:

1°-يلزيد أوراقي (157/1)، قسم 25،ظرف 157/ لف 3.

2°- أرشيف رآسة الوزراء رقم "و" 207، لف 7 .

(25) و(26) يلزيد أوراقي (157/1)،قسم 25، ظرف 157/لف3

(27) طلب رسمي موثق ومختوم بأزيد من 9 أختام، أمضاه حوالي 203 رب عائلة مهاجرة .

(28) و(29) المصدر أعلاه، يلزيد أوراقي 157/1.

زيري بن عطية المغراوي ومشروع الدولة الزناتية في المغربين الأوسط والأقصى(368/391هـ).

د.محمد بن معمر

لقد كان رحيل الفاطميين إلى مصر سنة 361 هـ، فاتحة عهد جديد في التاريخ السياسي لبلاد المغرب الإسلامي، إذ ظهر منذ ذلك التاريخ على مسرح أحداث هذه البلاد جيل جديد من بناة الدول المغاربة سواء أولئك الذين بقوا على ولائهم للفاطميين كبني زيري الصنهاجيين، أو هؤلاء الزناتيين الذين عارضوهم ورفضوا وجودهم وفي مقدمتهم زيري بن عطية الذي عمل ما في وسعه لتأسيس دولة زناتية.

هو زيري بن عطية بن عبد الله بن تبادلت بن محمد بن خزر الزناتي المغراوي الخزري، وجده محمد بن خزر هو الذي حمل لواء المقاومة ضد الفاطميين مدة نصف قرن من الزمن. وقد ترأس زيري بن عطية سنة 368 هـ الجموع الزناتية التي كانت قد فرت إلى المغرب الأقصى خوفا من الانتقام الفاطمي، وقام بدعوة صاحب قرطبة هشام المؤيد وحاجبه المنصور ابن أبي عامر، وذلك بعد انقطاع أيام الأدارسة وبني أبي العافية المكناسيين، فغلب على جميع بوادي المغرب الأقصى وملك مدينة فاس سنة 377 هـ وصيرها دار ملكه.

ثم إن الانتصارات المتتالية التي حققها زيري بن عطية على خصومه وفي مقدمتهم غريمه يدو بن يعلى اليفرني سنة 383هـ، دفعته إلى بناء مدينة وجدة في رجب 384 هـ، ليتخذها عاصمة جديدة بدل فاس التي لم يعد يرغب في الاستقرار بها لكثرة ما سببت له من متاعب ومصاعب، وبعدها عن موطنه الأصلي. وفي ذلك يقول ابن أبي زرع: "وقوي أمر زيري بن عطية بالمغرب، ولم يبق له منازع وهابته الملوك، فبنى مدينة وجدة وسكنها بأهله وحشمه ونقل إليها أمواله وذخائره وجعلها قاعدته ودار ملكه لكونها واسطة بلاده وذلك في رجب سنة 384 هـ[1]، ويتفق معه ابن خلدون حين يقول: "واستفحل أمر زيري بالمغرب

* أستاذ محاضر في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم الحضارة الإسلامية-جامعة وهران.

واختط مدينة وجدة سنة 384 هـ وأنزلها عساكره وحشمه واستعمل عليها ذويه ونقل إليها ذخيرته وأعدها معتصما، فكانت ثغرا لعمله بين المغرب الأقصى والأوسط[2].

يتضح من خلال النصين السابقين أن زيري بن عطية قد أصبح عاقد العزم أكثر من أي وقت مضى في سبيل تحقيق طموحاته لتكوين دولته الزناتية المغراوية التي اعتبر مدينة فاس غير صالحة لها، لقربها من القبائل الخصيمة، ولأن روح العصر السائدة آنذاك في بناء الدول كانت تقوم على العصبية القبلية. فوقع اختياره على سهل أنجاد ليبني المدينة في موقع يعتبر واسطة مضارب الزناتيين ومغراوة منهم على وجه الخصوص. ولعل وصف ابن خلدون كان دقيقا حين اعتبر المدينة ثغرا بين المغربين الأوسط الأقصى، أي أن الأمير المغراوي الذي لم يكن مستعدا للتفريط في المغرب الأقصى، كان يحدوه الأمل في نفس الوقت لاستعادة موطنه الأصلي بين الشلف وتلمسان في المغرب الأوسط الذي كان في قبضة الزيريين. وبعد بناء عاصمة دولة المستقبل كان على الأمير المغراوي اتخاذ الخطوة الثانية والحاسمة في سبيل الوصول إلى هدفه وهي القطيعة مع ابن أبي عامر وخلع طاعته، وهي الخطوة التي ستكلفه كثيرا.

ارتبط زيري بن عطية المغراوي بخدمة المنصور ابن أبي عامر في الأندلس، وتوجت العلاقة بينهما بزيارته إلى قرطبة. وعلى الرغم من احتقار الأمير المغراوي للقب الوزير الذي خصه به ابن أبي عامر وعدم رضاه بالراتب الذي أجراه عليه، فإن العلاقة ظلت قائمة بينهما حتى سنة 386 هـ، حيث نشأت الوحشة بين الطرفين، وهي السنة التي بلغ فيها المنصور بن أبي عامر أوج قوته في الأندلس، فلم ترضه الانتقادات التي كان يوجهها إليه زيري بن عطية واتهامه بالحجر على الخليفة هشام المؤيد واستبداده عليه[3]. فقرر معاقبته وتأديبه عن طريق القوة. ومهما قيل من تفسيرات عن أسباب هذه الوحشة، تبقى النزعة الاستقلالية لدى الأمير المغراوي ومحاولة انفراده بإمارة المغرب الأقصى دون وصاية المنصور بن أبي عامر ورفض هذا الأخير لذلك، السبب الرئيسي الذي أزم العلاقة وأشعل فتيل الحرب بينهما.

بعث المنصور بن أبي عامر كاتبه الأخص عيسى بن سعيد على رأس جيش أندلسي إلى المغرب الأقصى للنظر في شأن زيري بن عطية الذي استعصى عليه ولم ينجح في استصلاحه، وقضى بقية سنة 386 هـ في المغرب الأقصى دون أن يحقق ما جاء من أجله، ولم يظفر سوى بدخول أحد قواد زيري بن عطية في طاعة المنصور وهو محمد بن حمود المعروف بابن البقال

صاحب قلعة حجر النسر الذي بعثه القائد الأندلسي إلى قرطبة، حيث احسن إليه المنصور. وإثر هذه المحاولة الفاشلة التي قام بها عيسى بن سعيد، أعلن المنصور براءته من الأمير المغراوي في شوال سنة 387 هـ وجرده من خطة الوزارة وقطع عليه راتبها[4]. فكان ذلك بمثابة عزل لزيري بن عطية عن ولاية المغرب الأقصى التي كان يحكمها باسم خليفة قرطبة.

ثم جهز المنصور جيشا آخر لحرب زيري بن عطية، وعهد بأمره إلى أحد غلمانه الأوفياء وهو واضح الفتى الذي غادر الأندلس باتجاه المغرب في نهاية شوال 387 هـ، يصحبه القواد الأندلسيون وطائفة من الأمراء المغاربة الموالين للمنصور. وقد ذكر صاحب مفاخر البربر وابن خلدون أسماء هؤلاء الأمراء المغاربة، ومنهم إسماعيل بن البوري ومحمد بن عبد الله بن مدين من مكناسة، وأبو نوبخت بن عبد الله بن بكار من بني يفرن، وخزرون بن محمد من إزداجه، ومحمد بن الخير وابن عمه بكساس بن سيد الناس من مغراوة[5]. ويضيف ابن أبي زرع أن غمارة وصنهاجة بايعت الأمير الأندلسي على قتال زيري بن عطية ومن معه[6].

إن مشاركة الأمراء الزناتيين إلى جانب جيش المنصور ضد ابن جلدتهم زيري بن عطية، موقف لا يمكن تفسيره إلا بالإغراءات المادية والعطايا التي كان يغدقها المنصور عليهم من جهة، ومن جهة أخرى ما كانت تكنه أنفسهم من حسد وغيرة لزيري بن عطية على إمارة زناتة في المغرب الأقصى، سيما وأن محمد بن الخير حفيد محمد بن خزر كان ضمن هؤلاء القواد، وقد ظلت إمارة زناتة حكرا على أسرته لأحقاب من الزمن.

وخلال الشهور الأولى من سنة 388هـ جرت مناوشات وصدامات بين واضح الفتى وزيري بن عطية، كان الشعار الأندلسي فيها "يا منصور" والشعار الزناتي "هشام يا منصور" مما يوحي بأن الأمير المغراوي كان متشبثا بطاعة الخليفة المحجور عليه من طرف المنصور، وهو الحجر الذي كان يرفضه زيري بن عطية. وعن نتائج هذه الحرب التي دارت بين الطرفين جاءت الرواية التاريخية بشأنها في اتجاهين متناقضين، ففي الوقت الذي يؤكد فيه كل من صاحب مفاخر البربر وابن خلدون أن زيري بن عطية انهزم أمام واضح الفتى في رجب 388 هـ[7]، نجد ابن أبي زرع وابن الخطيب يوردان العكس وأن زيري بن عطية هو الذي هزم الأمير الأندلسي الذي فر إلى طنجة وطلب من المنصور العامري المدد من الخيل والمال والرجال[8].

وبغض النظر عن ترجيح رأي دون آخر، فإن عبور عبد الملك المظفر بن المنصور العامري إلى المغـــرب لنجدة واضح الفتى يعني أن هذا الأخير لم يستطع حسم الأمر لصالحه ضد الأمير المغراوي، وكان وصول عبد الملك إلى طنجة في رمضان سنة 388 هـ. وأمام هذا الدعم الأندلسي الجديد لواضح الفتى، وجد الأمير المغراوي نفسه مضطرا إلى الاستنجاد بالقبائل الزناتية التي كتب إليها يستنصرها، فأتته الوفود من تلمسان وملوية وسجلماسة والزاب وغيرها من بوادي زناتة، فنهض بهم إلى قتال عبد الملك المظفر[9].

ودارت الحرب بين القوات الأندلسية والقوات الزناتية في شوال 388 هـ، في وادي منى من أحواز طنجة[10]، وكانت حربا شديدة أنكر الأنيس فيها نفسه وخفت الجرس فلا تسمع إلا غمغمة بطل أو صليل صفحة كما يقول صاحب مفاخر البربر[11]. وهي حرب لم يُسمَع بمثلها قط، استمرت يوما كاملا من طلوع الشمس إلى غروبها. وقد جاء عند ابن خلدون أن هذه الحرب همّ فيها أصحاب عبد الملك وثبت هو[12]، وهو كلام يفهم منه أن القوات الأندلسية قد عجزت عن التصدي للجموع الزناتية، غير أن مجريات الحرب سرعان ما انقلبت لصالح الأمير الأندلسي بفعل الخيانة التي حصلت في المعسكر الزناتي واستهدفت الأمير المغراوي بالقتل من طرف أحد أتباعه الموتورين الذي حاول اغتياله بثلاث طعنات في نحره[13].

ولقد أشيع في المعسكرين خبر مقتل زيري بن عطية الذي نزل كالصاعقة على أصحابه فأصابتهم الدهشة والاضطراب، في حين اهتبل الأمير الأندلسي عبد الملك المظفر فرصة الاضطراب هاته وشد على المعسكر الزناتي، فهزم جموعه واستولى على أموالهم وأسلحتهم وكل ما كان معهم مما لا يحصى بعدد[14]. وفر زيري بن عطية في قلة من اتباعه ولحق بمدينة فاس جريحا حيث امتنع أهلها عليه وأخرجوا إليه أهله واحتملهن ولجأ إلى الصحراء[15]. ويبدو أن أهل فاس رفضوا استقبال أميرهم المهزوم حتى يتجنبوا انتقام الأمير الأندلسي الذي دخل مدينتهم في نهاية شوال 388 هـ وآل إليه أمر المغرب الأقصى فأصلح نواحيه وسد ثغوره وعين العمال على نواحيه باسم أبيه المنصور الذي لم يسبق له أن سُرَّ بفتح كهذا الذي حققه ابنه ضد الأمير المغراوي.

بعد انهزام زيري بن عطية أمام القائد الأندلسي عبد الملك المظفر وفراره إلى الصحراء، شرع في لّمِ شمله من جديد وجمع قواته من القبائل الزناتية وعلى رأسها مغراوة.

ولكن زيري بن عطية وبدل أن يتوجه بهذه القوات لاسترجاع المغرب الأقصى من قبضة الجيش الأندلسي ومحو آثار الهزيمة التي ألحقها به، اتجه صوب المغرب الأوسط لافتكاكه من بني زيري الصنهاجيين. وهنا تتفق أربعة مصادر على الدافع الذي حمل الأمير المغراوي على تغيير وجهته، وهو ما بلغه من اضطراب صنهاجة واختلافهم على باديس بن المنصور عند مهلك أبيه، وأنه خرج عليه عمومته مع ماكسن بن زيري فصرف وجهه حينئذ إلى أعمال صنهاجة ينتهز فيها الفرصة[16].

وكان باديس قد تولى عرش المنصورية بعد وفاة أبيه المنصور سنة 386 هـ وعمره لا يتجاوز اثنتي عشرة سنة وهي التولية التي عرفت معارضة من طرف عمومة أبيه. وإذا كان زيري بن عطية لم ينتهز الفرصة منذ سنة ارتقاء باديس العرش، فلأنه كان منشغلا بخلافه وصراعه مع المنصور العامري. وقد يكون الخلاف الزيري مجرد عامل مشجع للأمير المغراوي، على الزحف على المغرب الأوسط، في حين تبقى الرغبة في العودة إلى الموطن الأصلي وإحياء الإمارة المغراوية بهذا الإقليم المحرك الأساسي لهذا الزحف.

شرع زيري بن عطية في أوائل سنة 389 هـ في محاصرة تيهرت التي عجز عاملها يطوفت بن بلكين بن زيري عن مقاومة الجموع الزناتية، فكتب إلى ابن أخيه باديس صاحب إفريقية يستنجده، وما إن وصل الكتاب إلى باديس حتى أمر كاتبه محمد ابن أبي العرب بالخروج على رأس الجيش إلى تيهرت. وخرج ابن أبي العرب من المنصورية في منتصف صفر سنة 389 هـ، ومر في طريقه بأشير وعاملها يومئذ حماد ابن بلكين بن زيري ومعه عسكر عظيم، وبعد استراحة يسيرة رحل ابن أبي العرب ومعه حماد بن بلكين بعسكره حتى وصلا إلى تيهرت وبها يطوفت بعسكره أيضا، وكان وصولهما في أول جمادى الأولى، وفي الرابع من نفس الشهر زحف الجيش الصنهاجي على زناتة التي كانت ترابط بالقرب من تيهرت بقيادة الأمير المغراوي زيري بن عطية، حيث دارت الحرب بين الطرفين في موضع يقال له آمسار على بعد مرحلتين من تيهرت[17].

ولما حمي وطيس الحرب واشتد بأسها، سرعان ما ظهر عجز الجيوش الصنهاجية عن المقاومة، وولت منهزمة أمام الزناتيين، تاركة كل محلاتها ومضاربها وما فيها من أموال وسلاح، التي استولى عليها زيري بن عطية وقتل منهم خلقا كثيرا وأسر آخرين ولكنه وعدهم بجميل

وأطلق سراحهم عند دخوله تيهرت، فلحقوا بالمنهزمين إلى مدينة أشير. ورغم محاولة ابن أبي العرب رد الجيش المنهزم، لكن دون جدوى، وتمت هزيمة صنهاجة على يد زناتة في نفس اليوم الذي دارت فيه الحرب وهو اليوم الرابع من جمادى الأولى، ولم تستطع بذلك صنهاجة الصمود أكثر من يوم واحد.

وقد أوعزت المصادر هذه الهزيمة إلى التخاذل الذي وقع في صفوف الجيش الصنهاجي المؤلف من ثلاثة أصناف من العسكر، عسكر ابن أبي العرب، وعسكر حماد بن بلكين صاحب أشير، وعسكر أخيه يطوفت صاحب تيهرت. وكان عسكر حماد يتألف في معظمه من قبيلة التلكاتة[18]، أبرز القبائل الصنهاجية، وكان اتباعه يكرهونه، إما لقلة عطائه حسب ابن الأثير[19]، أو لأنه أساء عشرهم وسلط عليهم أحد غلمانه وهو خلف الحميري الذي سامهم الخسف[20]، فلم يثبتوا في الحرب ضد زناتـــة وكانوا أول المنهزمين وهو ما أثر على بقية الجيش الذي حاول ابن أبي العرب رده ولكنه فشل، في حين كانت زناتة تقاتل موحدة تحت إمرة زيري بن عطية.

واجتمع القواد الصنهاجيون الثلاثة مع فلولهم المنهزمة بأشير، وأمر زيري بن عطية أتباعه بعدم ملاحقة الفارين وفضل البقاء في تيهرت، في حين وصلت أنباء الهزيمة إلى المنصورية في عشرين جمادى الأولى. ويتفق كل من صاحب المفاخر وابن خلدون على أن زيري بن عطية وإثر الانتصار الذي حققه على صنهاجة في تيهرت بعث إلى المنصور العامري يستقيله الزلة ويسأله العودة إلى الولاية ويذكر أنه أقام الخطبة باسمه واسم ابنه عبد الملك فيما صار إليه من بلاد صنهاجة بعد دعائه للخليفة هشام المؤيد[21]. وقد عز على الأمير المغراوي أن يضيع منه المغرب الأقصى؛ فأراد استرضاء المنصور العامري، وذلك بما حققه في المغرب الأوسط على حساب صنهاجة ليحكمهما معا باسم خلافة قرطبة التي كانت تضفي دوما الشرعية على حكمه في بلاد المغرب.

لم يمكث زيري بن عطية إلا قليلا في تيهرت بعد انتصاره على صنهاجة، ثم توجه إلى أشير قاعدة المغرب الأوسط الثانية لحصارها، فخرج باديس بن المنصور صاحب إفريقية من المنصورية في الثاني من جمادى الآخرة 389 هـ لإيقاف الزحف الزناتي، ومر على طبنة وبها يومئذ عاملها فلفل بن سعيد بن خزرون المغراوي الزناتي الذي آلت إليه منذ سنة 382 هـ بعد وفاة أبيه، بأمر من المنصور بن بلكين. ولما أرسل باديس في طلبه خاف منه وبعث يعتذر إليه

ويطلب منه سجلا جديدا على طبنة[22]، ولم توضح الرواية التاريخية مصدر هذا الخوف. ومع ذلك فقد استجاب باديس لمطالب فلفل بن سعيد ورحل باتجاه أشير، وما إن ابتعد عنه حتى تحول إلى ثائر ينشر الفساد والخراب في تلك الجهات وحاصر باغاية وسيطر على ما ولاها، ولم يعبأ باديس بن المنصور بما أقدم عليه فلفل، وواصل سيره لحرب زيري بن عطية الذي كان يحاصر أشير[23].

وهنا يتبادر إلى الباحث سؤال ملح حول هذا التزامن في إشعال الحرب ضد الدولة الزيرية من طرف الأميرين المغراويين الزناتيين، زيري بن عطية يحاصر أشير، وفي الوقت ذاته ينقل فلفل الصراع الزناتي الصنهاجي إلى قلب إفريقية، ويتحول من عامل للدولة إلى ثائر محارب لها. ما نفهمه من سياق الأحداث الواردة في المصادر التاريخية أنه لم يكن ثمة تنسيق أو اتفاق بين الزعيمين المغراويين في حربهما ضد باديس، وإلا كيف نفسر رحيل زيري بن عطية عن أشير بمجرد أن علم بوصول باديس إلى المسيلة، ومنها إلى تيهرت التي غادرها باتجاه فاس حين عرف أن الأمير الصنهاجي يلاحقه، وترك فلفلا وحده يقاتل في إفريقية.

ولم تسجل لنا المصادر أن فلفلا قد لجأ إلى الجهات الغربية طالبا الدعم رغم انهزامه أمام جيوش باديس، وبقيت ثورته مقتصرة على الجهات الشرقية، والملاحظة نفسها يمكن سحبها على زيري بن عطية الذي لم يفكر في نقل الصراع إلى إفريقية إلى جانب فلفل، واكتفى بالمغرب الأوسط فقط، وكان يفضل الهروب والانسحاب غربا كلما داهمته قوات باديس. وعليه فإن الأمر لا يعدو أن يكون استغلالا لظروف الانشقاقات التي كان يعرفها البيت الزيري بين باديس وأعمامه.

وعندما انسحب زيري بن عطية إلى ناحية فاس قفل باديس بن المنصور راجعا إلى إفريقية لمواجهة فلفل بن سعيد بعد أن عين على تيهرت وأشير عمه يطوفت بن بلكين الذي استخلف بدوره ابنه أيوب في أربعة آلاف فارس على تيهرت[24]. ووصل باديس إلى المسيلة في أول شوال 389هـ، حيث عيّد بها عيد الفطر، وأثناء هذه المناسبة بلغته أنباء خروج عمومته عليه وشقهم عصا الطاعة في أشير، ومحاولتهم قتل عاملها يطوفت وهم ماكسن وزاوي وجلال ومغنين وعزم أبناء زيري بن مناد[25].

ولم يحاول باديس العودة إلى أشير لإخماد ثورة أعمامه، لأن خطر فلفل تفاقم بشكل كبير وأخذ يزحف إلى القيروان، فكان على باديس ان يتدارك الوضع ويعجل بلقاء الثائر الزناتي وهو ما حصل من خلال الحرب الشديدة التي دارت بينهما في وادي أغلاق في 10 ذي القعدة[26]. وعلى الرغم من كثرة الجموع الزناتية المشاركة إلى جانب فلفل بن سعيد والتي لا تحصى عددا، فإنها منيت بهزيمة منكرة أمام صنهاجة وقتل منها حوالي سبعة آلاف وفر زعيمها فلفل إلى جبل الحناش.

في الوقت الذي كان فيه باديس منشغلا بحرب فلفل بن سعيد في إفريقية، عاد زيري بن عطية إلى أشير وضرب عليها الحصار ثانية، مستغلا تمرد أعمام باديس عليه في هذه المدينة. وما إن حاصرها حتى استأمن إليه زاوي بن زيري ومن معه من أكابر أهل بيته المنازعين لابن أخيهم باديس وأعطاه ما سأل[27]، ولم تذكر المصادر أن هؤلاء المتمردين قد شاركوا إلى جانب زيري بن عطية في حصار أشير حين استأمنهم، ولكنها تؤكد تحالفهم بعد ذلك مع الأمير المغراوي الآخر فلفل بن سعيد الذين اجتمعوا إليه وتعاقدوا معه على حرب باديس، حيث حاصرت هذه القوات المشتركة تبسة وذلك في أول سنة 390 هـ[28].

ولما بلغ باديس خبر تحالف عمومته مع فلفل خرج إليهم، فافترقوا خوفا منه، ثم التحقوا بزيري بن عطية من جديد الذي كان يحاصر أشير، ولم يبق مع فلفل سوى ماكسن وابنه محسن ورجع باديس إلى المنصورية. وطالت مدة الحصار المضروب على أشير من طرف زيري بن عطية الذي كان يغادي ويراوح أهلها بالقتال ويستفزهم بنبش قبورهم حتى يجبرهم على الخروج من المدينة التي استعصت عليه[29]. وما أن استراح باديس من حرب فلفل بعض الوقت حتى خرج في رجب سنة 390 هـ لقتال زيري بن عطية الذي فك الحصار عن المدينة ورحل متجها إلى الغرب عندما وصله خبر خروج باديس فرجع الأخير إلى المنصورية[30].

وفي سنة 391 هـ خرج باديس في طلب فلفل بن سعيد ثانية، الذي كان يحاصر قابس ولكن سرعان ما جاءه كتاب عاملها يوسف بن عامر يذكر فيه أن فلفلا رحل إلى طرابلس، فخرج إليه صاحبها فتوح بن علي وجماعته فتلقوه وأدخلوه المدينة فاستوطنها منذ ذلك الوقت[31]. ويبدو أن زيري بن عطية قد عاد مرة أخرى لحصار أشير، ولكن العلة اشتدت

عليه وقويت بسبب الجراح التي أصيب بها سنة 388 هـ في حربه مع الأمير الأندلسي عبد الملك المظفر، فاضطر للعودة إلى بلاده عند بني عمه ليقضي نحبه في 12 رمضان 391 هـ[32].

وكان حماد بن بلكين قد قضى في المغرب الأوسط، قبل تسعة أيام من موت زيري بن عطية، على عمه ماكسن بن زيري وابنيه محسن وباديس في الثالث من رمضان من السنة المذكورة بعد حروب شديدة، وهكذا تخلص باديس من خطر الأمير الزناتي الشهير زيري بن عطية، وأعمامه المتمردين في وقت واحد، ولم يبق أمامه سوى فلفل بن سعيد الذي لجأ إلى طرابلس، فاقتصر بذلك الصراع الصنهاجي الزناتي على إفريقية. وهذا ما يؤكد مرة أخرى أنه لم يكن ثمة أي تنسيق أو تحالف بين زيري بن عطية وفلفل بن سعيد في حربهما ضد باديس وأن كل طرف كان يعمل لحسابه الخاص مستغلا ظروف الانشقاقات والانقسامات داخل البيت الزيري.

الهوامــش

1– ابن أبي زرع علي، الأنيس المطرب بروض القرطاس. الرباط: دار المنصور، 1973 ص: 105.

2– ابن خلدون عبدالرحمن، كتاب العبر. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، مج7، ص: 38

3– نفس المصدر والصفحة.

4– مجهول، مفاخر البربر، تحقيق عبدالقادر بوباية (رسالة ماجستير مخطوطة) ص: 156.

5– نفس المصدر، ص: 158. العبر، مج7، ص: 39.

6– ابن أبي زرع، القرطاس، ص: 105.

7– مجهول، مفاخر البربر، ص: 160. العبر، مج7، ص: 39.

8– ابن أبي زرع، القرطاس، ص: 105. ابن الخطيب، الأعلام، ج3، ص: 158.

9– نفس المصدر، ص: 106.

10– وهو المكان الذي يتفق عليه كل من ابن أبي زرع، ص:105 وابن خلدون، مج7، ص:39.في حين يذكر صاحب المفاخر جبل غاي غاي، ص:172، ويذكر ابن عذارى جبل أبي حبيب، ج2، ص:282.

11–مجهول، مفاخر البربر، ص: 162.

12–ابن خلدون، العبر، مج7، ص: 39.

13–في الوقت الذي يتفق فيه كل من صاحب المفاخر، ص:164– وابن أبي زرع، ص:106. وابن الخطيب، ص:158 . على أن منفذ العملية غلام أسود كان زيري بن عطية قد قتل أحد أقربائه، نجد ابن عذاري قد خالفهم في ذلك ونسب محاولة الاغتيال إلى ابن عمه الخير بن مقاتل، ج2، ص:282. في حين اكتفى ابن خلدون بالإشارة إلى أنه من اتباع زيري بن عطية، مج7، ص: 39.

14-مجهول، مفاخر البربر، ص:163- ابن أبي زرع، القرطاس، ص: 106 - ابن الخطيب، الأعلام، ج3، ص:159، ابن خلدون، العبر، مج7، ص: 40.

15-نفس المصدر والصفحة- ابن خلدون نفس المصدر والصفحة. وإذا كان صاحب المفاخر وابن خلدون يتفقان هنا على أن زيري بن عطية فر إثر هزيمة شوّال 388 هـ، جريحا إلى فاس ومنها إلى الصحراء. فإن ابن أبي زرع وابن الخطيب يذهبان إلى أن زيري بن عطية بعد هزيمته التي جرح فيها أمام عبد الملك المظفر، فر إلى مضيق الحية قرب بلاد مكناسة، واجتمعت إليه فلوله وحاول معاودة الحرب ضد الأمير الأندلسي ولكن الأخير فاجأه وألحق به هزيمة نكراء أُجبر إثرها عل الفرار إلى فاس ومنها إلى الصحراء. ولكن ابن أبي زرع يجعل ذلك في منتصف رمضان 387 هـ، ص: 106، وهو خطأ، ويخالفه ابن الخطيب في ذلك حين يذكر منتصف رمضان 388 هـ وهو الصحيح لتوافقه مع ابن خلدون وصاحب المفاخر.

16-مجهول، مفاخر البربر، ص: 166 - العبر، مج7، ص: 40 - القرطاس، ص: 107

17-ابن عذاري، البيان، ج1، ص: 250، وهو المكان الذي يسميه النويري آمسان، ص: 325. ويحدده صاحب المفاخر بوادي مينة على بعد عشرين ميلا من تيهرت، ص: 168، ويورده ابن خلدون باسم وادي مناس، مج7، ص: 40. ولعله تحريف من الناسخ لمينه.

18-ابن عذاري،البيان، ج1، ص: 250. النويري، نهاية الأرب، ص: 325.

19-ابن الأثير، الكامل، ج7، ص: 199.

20-النويري، نهاية الأرب، ص. 325. ابن عذاري، البيان، ج1، ص: 250.

21-مجهول، مفاخر البربر، ص. 167 - العبر، مج7، ص: 40.

22-ابن عذاري، البيان، ج1، ص: 250 - ابن الأثير، الكامل، ج7، ص: 199.

23-نفس المصدر والصفحة.

24-ابن عذاري، المصدر السابق،ج1، ص250- النويري، المصدرالسابق ص 326.

25-ابن خلدون، العبر، مج 6، ص: 186 - النويري، نهاية الأرب، ص: 327.

26-ابن الأثير، الكامل، ج7، ص:199 - ابن عذارى، البيان، ج1، ص: 151.

27-ابن خلدون، العبر، مج7، ص: 40 - المفاخر، ص: 168.

28-ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص:199 - ابن عذاري، البيان، ج1، ص: 251 - النويري، نهاية الأرب، ص: 328.العبر، مج7، ص: 40. ونشير هنا إلى أن أعمام باديس المتمردين عليه هم: زاوي وماكسن وجلال وعزم ومغنين، وكان حماد الوحيد الذي وقف إلى جانب باديس ضدهم، في حين ظل أبو البهار مترددا متلونا في مواقفه، إذ حاول الاتصال بالمنصور العامري يطلب الدخول في طاعته، فبعث إليه رسوله في آخر شوال سنة 389هـ لكن دون جدوى، فاضطر إلى مراجعة طاعة ابن أخيه باديس واعتذر إليه. المفاخر، ص: 169 - العبر، مج7، ص: 41.

29-مجهول، مفاخر البربر، ص: 169.

30-ابن عذاري، البيان، ج1، ص: 251.

31-ابن عذاري، المصدرالسابق، ص ص: 251-252.

32-مجهول،مفاخر البربر ص:169- البيان،ج1،ص:252- العبر،مج7،ص:41.

مخطوطات علماء كنته في خزائن الصحراء الكبرى.

أ/ أحمد الحمدي

يختلف مفهوم الصحراء عند المؤرخين المسلمين وغيرهم من الغربيين على حد سواء، ولكنهم يتفقون على التفريق بين العمران والخلاء، حيث يطلقون اسم الصحراء على الخلاء،[1] ويخصون بذلك صحراء أقصى جنوب بلاد شنقيط والتوارق إلى السودان الغربي.[2] أمّا الجغرافيون الغربيون فالهم يتحدثون عمّا يسمّونه بالصحراء الكبرى، ويحددونها بين جبال الأطلس الصحراوي شمالا والسودان جنوبا، ومن المحيط الأطلسي غربا إلى تخوم مصر شرقا.[3]

وسأعمل من خلال هذه المقالة على إبراز النتاج العلمي لقبيلة كنته الصحراوية، والتي كان لها الدور الكبير في إسلام الزنوج خلال عقود طويلة.[4] وينحدر أفراد هذه القبيلة من نسل عقبة بن نافع الفهري الفاتح الكبير.والقبيلة تنتشر الآن في مساحات شاسعة من توات، وتيديكلت،إلى شنقيط،بالاضافة إلى ساحل السودان الغربي،والسنغال.ولذلك سيقتصر الباحث على التطرق إلى مخطوطات علماء هذه القبيلة، بمنطقة تيديكلت،وهقار، وأزواد.وهي المناطق التي يوجد بها الكثير من الآثار العلمية.

علم المخطوطات: المخطوطات بمثابة الكنز، ولذلك ورد في تفسير قوله تعالى: "وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما"[5] أن المراد بالكنز ألواح علم كانت مخبأة، ويؤكد ذلك رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما قرّر أنّ العلم أفضل من المال؛ فالمال يحرسه الإنسان،بينما العلم يحرس الإنسان.[6]

ويبحث علم المخطوطات الحديث في تاريخ المكتبات، وفي مصادر المخطوطات، وفي

---

*- أستاذ مساعد في التاريخ الإسلامي بقسم الحضارة الإسلامية- جامعة وهران.

الفهرسة، وفي النسخ والنسّاخ وفي الجوانب المادية للمخطوط، وفي كل ما هو خارج عن النص.

إن التفتيش عن المخطوطات وفهرستها وتاريخها والبحث في مضانها يعد المرحلة الأولى في الدراسة سواء لدى عالم المخطوطات الذي يهتم بالمخطوط كقطعة مادية، أو بالنسبة للباحث اللغوي الذي يسعى إلى نقد نص المخطوط ونشره.[7]

البحث عن المخطوطات: إنّ البحث عن المخطوطات وجمعها تعتبر المرحلة الأولى التي يمر بها الباحث الذي يريد أن يحقّق مخطوطة معينة. وهنا يلجأ الباحث إلى فهارس المخطوطات.[8] وقد وضعت عدة مولفات عن ذالك من قبل المتخصصين[9]. وفي عالم المخطوطات لا يمكن لشخص بمفرده إنجاز ما يسعى إليه، ويبقى العمل الجماعي يحتل الصدارة فوق كل شيء.[10] إنّ طائفة من الجمّاعين قد كوّنوا لأنفسهم،منذ عهد بعيد، مجموعات من الوثائق الأصلية والمنسوخة، اقتنوا بعضها بالمال، وبعضها بوسائل مريبة.[11]

علم الوثائق: التاريخ يصنع من وثائق. والوثائق هي الآثار التي خلّفتها أفكار السلف وأفعالهم. والقليل جداً من هذه الأفعال هو الذي يترك آثارًا محسوسة، إن وجدت فنادراً ما تبقى؛ لأن عارضا بسيطا قد يكفي لزوالها. وبفقدان الوثائق صار تاريخ عصور طويلة من ماضي الإنسانية مجهولاً أبداً. إذ لابديل عن الوثائق.[12]

ويُفضّل أن تكون الوثائق مَصونة في مجموعات تملكها مراكز متخصصة،من أن تكون عرضة لتقلبات الأحداث والأيام أو بعيدة تماماً عن الاستطلاع العلمي. ويجب أن تكون مجا ميع الوثائق من المنافع العامة. ومن المرغوب فيه من حيث المبدأ، ألاّ تكون مستودعات الوثائق كثيرة العدد جداً. والوثائق التي تضمها المستودعات، والخزائن، التي لم تفهرس هي وثائق كأنها ليست لكل الدارسين. بيدا أن عدم وجود أثبات وصفية بخزائن الوثائق، معناه عملياً استحالة العلم بوجود وثائق، اللّهم إلاّ مصادفة. ومن الواجب أن يحيط العلماء المحصّلون، والمؤرخون وبخاصة الناشئة منهم، إحاطة دقيقة بحال أدوات البحث التي في متناولهم، وأن يكونوا على علم متجدد بما يدخل على هذه الأدوات من إصلاح[13]. ويجب أن أشير هنا أن الوثائق في المعنى العام تدل على كل الأصول التي تحتوي على معلومات تاريخية.[14] دون أن ينحصر ذلك فيما دوّن منها على الورق.

النسخ والنسّاخ: يجب الاهتمام بدراسة حياة النسّاخ ووضع قوائم لهم،[15] والبحث في سلوكهم وإخضاعهم بحسب الإمكان لما يسمى عند المحدثين بنظرية الجرح والتعديل للتأكد مما ينسخون. إنّ هذه الدراسات يفتقر إليها تراثنا العربي الإسلامي، ومفروض القيام بها عملياً قبل الاهتمام بعملية التحقيق العلمي. وأصبح لازماً التفكير في إنشاء معهد لدراسة وتدريس علم المخطوطات، وتكوين مختصين في هذا العلم، قادرين على الاهتمام والعناية بأضخم تراث مخطوط عرفه تاريخ الإنسان. إنّ الأعمال العلمية والتقنية التي سيقوم بها علماء المخطوطات في مجال المخطوط العربي ستفيد الباحثين المهتمين بالتحقيق أيّما إفادة، وإن النتائج التي سيفضي إليها هذا النوع من البحث من شأنها أن: تعطي وجهاً آخر للنصوص التي اعتمدت حتى الآن في استخلاص النتائج وإصدار الأحكام.[16] ويمكن للمتمرس في علم المخطوطات أن يلاحظ الفرق بين العديد من النسخ التي بين يديه. ويستطيع أن يميّز بين نُسخ خالية من إشارات العلماء، ولكنها تمتاز بأنها أصح متناً وأكمل مادة، يظهر ذلك لدارسها وفاحصها.[17]

أهمية الكتب الفقهية في الكتابة التاريخية: وطبيعي أن يجد المؤرخ في كتب الفقه بيانات كثيرة عن أحوال الشعوب الإسلامية ونظمها، ولا سيما أن الفقهاء يتّجهون في بحوثهم إلى كافة طبقات الشعب وإلى الجوانب المختلفة من حياة المسلمين، فلا عجب إذا كانت مؤلفاتهم غنية بالإشارات إلى مستوى المعيشة والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والمالية، وإلى الأخلاق والعادات، وإلى البدع المنتشرة بين أفراد المجتمع.[18] وهي تشير إلى الأحوال التي كان المسلمون يعيشونها والمشكلات التي تطرأ في حياتهم.

أماكن تواجد مخطوطات علماء كنته في الصحراء: وسيقتصر الباحث هنا على ذكر أهم الخزائن المتواجدة على امتداد تيديكلت حتى أزواد مرورا بهقار. ويجب أن أشير في البداية إلى الدراسات التي أنجزت عن مخطوطات علماء كنته في السابق. ومنها بحث حسن الصادقي والذي تحدث فيه عن مؤلفات الكنتيين المخطوطة في المغرب. بحيث عثر على نسخ جديدة لم يشر إليها الأستاذ المنوني،ومنها رسائل جديدة للكنتيين.[19] بالإضافة إلى الدراسات التي قام بها الأستاذ مأمون محمد أحمد، والباحث محمد محمود ولد ودّادي، والشيخ بادي بن باي بن باب. وسأبدأ بخزائن منطقة تيديكلت:

-**1**- خزانة الشيخ باي بأولف: مؤسّس هذه الخزانة هو الشيخ محمد بن عبد القادر بلعالم الملقب بباي،لايزال إلى الآن يزاول التدريس والفتوى بمدرسته الدينية. وهو أبرز وجه ديني بمنطقة تيديكلت،له العديد من التآليف والتي تتوزعها كل التخصصات في العلوم الشرعية. وبهذه الخزانة من المخطوطات الكنتية:

- المختار الكبير الكنتي، نزهة الراوي وبغية الحاوي، وهو في الأصول والفرائض والفروع والأحكام، يقع في **21**باباً وعدد صفحاته **470**، ناسخه إمّاد بن جدو بن الطالب عثمان.

- محمد الخليفة الكنتي، الطرائف والتلائد في مناقب الشيخين الوالدة والوالد، ويشتمل على تاريخ المختار وشيوخه. وقد رتّبه على مقدمة وسبعة أبواب.[20]

- المختار الكبير الكنتي، فتح الودود في المقصور والممدود، ويقع في **462** صفحة، ناسخه الطالب بركة بن محمد بن الناجم بن أحمد بن محمد.

- محمد بن بادي الكنتي، بلوغ الغاية على الوقاية، وهو في اللغة العربية. ويقع في **290** صفحة أوراقه من الحجم المتوسط.

- المختار الكبير الكنتي، بغية النبيل على بيان جمل التسهيل، وهو في اللغة العربية.

- محمد الخليفة الكنتي، الروض الخصيب في شرح نفح الطيب في الصلا ة على النبي الحبيب، وهو في العقيدة والتصوف، ويقع في **690** صفحة.

- المختار الكبير الكنتي، الجرعة الصافية والنفحة الكافية، وهو في الإخلاص، وهو سفر كبير. ناسخه علي بن محمد بن عبد القادر بن حسان بن الشيخ.

- المختار الكبير، نصيحة لبعض الاخوة، وهي في الإرشاد والتوجيه.

-**2**- خزانة سيدي أحمد العالم: مؤسّس هذه الخزانة هو قاضي الجماعة بأولف في فترة الاحتلال الفرنسي. لا تعرف سنة مولده غير أنه توفي سنة **1942**م. بعد عمر حافل بالتدريس والإصلاح. وقد وضع فهرس مخطوطات خزانته بتاريخ **5** ذو القعدة **1318**هـ الموافق ل **24** فبراير **1901** م. وهي تحتوي على أربعة وثلاثين صفحة من الحجم المتوسط، وتضم العديد من العلوم. غير أنه يلاحظ أن كل المخطوطات الكنتية تمت إعارتها ولم تُرد إلى الخزانة وبقي منها فقط:

- المختار الكبير الكنتي، جمل وجيزة ومفيدة على تفسير فاتحة الكتاب، وقد تعرّض إلى المحو في آخره بسبب مياه الأمطار.

-3- خزانة الطالب داده سيدي أحمد: وهو الذي تولى خطة القضاء بعد وفاة سيدي أحمد العالم، وبها من المخطوطات علماء كنته:

- المختار الكبير الكنتي، مخطوط في الأحكام والوثائق، وقد تعرضت أوراقه الأخيرة إلى التلف بسبب مياه الأمطار.

-4- خزانة الحاج محمد برمكي: مؤسّسها هو مفتي وإمام مدرس بزاوية مولاي هيبة بأولف. ويوجد بها من المخطوطات الكنتية:

- المختار الكبير، زوال الإلباس في طرد الوسواس الخناس، يتحدث فيه عن المواطن التي يأتي الشيطان منها ابن آدم، وعن أسرار الصلاة. ويقع المخطوط في **58** صفحة من الحجم الكبير.

- المختار الكبير، الجرعة الصافية والنفحة الكافية.

- المختار الكبير الكنتي، نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب.

-5- خزانة زاوية أبي نعامة الكنتي بأقبلي: أسّس هذه الخزانة الشيخ محمد بن عبد الرحمان الملقب بأبي نعامة المولود عام **1060**هـ، وهو شيخ ركب الحج السوداني لمّا يصل إلى توات. ومن المخطوطات الموجودة بها:

- نصائح للشيخ المختار وولده محمد في التصوف.

- المختار الكبير، بغية النبيل في بيان جمل التسهيل.

- المختار الكبير، كشف الشبهات بالبراهين والبينات.

-6- خزانة المنصور بأقبلي: وهذه الخزانة بحوزة عائلة الأنصاري، ومؤسّس هذه الخزانة هو الحاج محمد بن الحاج علي الأنصاري. وبها من المخطوطات:

- المختار الكبير، فقه الأعيان.

- المختار الكبير، نضار الذهب من كل فن منتخب.

- جذوة الأنوار في الدفع عن أولياء الله الأخيار.

- المختار الكبير، فتح الوهاب في الفقه.

- المختار الكبير، الكوكب الوقّاد على شرح الأوراد، وهو في التصوف.

- شرح المقصور والممدود.
- الجرعة الصافية والنفحة الكافية.
- قصائد لسيدي أحمد البكاي الكنتي في أغراض مختلفة، ومعها قصيدة للمختار الكبير.
- رسالة لسيدي أحمد البكاي بعثها إلى ابن عمه سيدي أمحمد بن بابا أحمد. وتقع في 12 صفحة.

-7- خزانة الطالب التهامي بأركشاش: مؤسّسها هو محمد التهامي بن عبد القادر توفي بتمنغست سنة 1982م، وقد نسخ أغلب مخطوطاته بخط يده. وبها من المخطوطات:

- المختار الكبير، البرد الموشّا في قطع المطامع والرّشا، وهو من الحجم الكبير.
- زوال الإلباس في طرد الوسواس الخناس.

-8- خزانة سيد العابد بأقبلي:وهي بقصبة سيد العابد، وتدعى بيت العود وبها من المخطوطات الكنتية:

- قصيدة للأديب اللغوي سيد المختار بن محمد الأمين بن المختار الرقادي الكنتي.
- رسالة من المختار بن أحمد الكنتي إلى أبناء محمد الزناتي.
- المختار الكبير، الشموس الأحمدية في العقائد المحمدية.

وتجب الإشارة إلى أن مخطوطات خزائن تيديكلت تعرضت للعديد من الأخطار منها الأرضة ومياه الأمطار، خاصة مع هشاشة النمط العمراني. ومن الخزائن التي تضررت كثيرا خزانة الشيخ بن مالك التي يوجد بها المئات من المخطوطات، والتي تعتبر في مرحلتها النهائية.وخزانة عائلة باشيخ بتقراف، وكذا خزانة ولد سيد الدولة بزاوية حينون، وخزانة الطالب عباسي سيدي أمحمد بالجديد.

مخطوطات منطقة هقار: وأهم الخزائن هي:

-1- خزانة فيلي موسى: وضع أساس هذه الخزانة الطالب التهامي بن عبد القادر. وأهم مخطوطاتها:

- محمد بن بادي، النوازل.
- الشيخ باي بن عمر، النوازل.
- المختار الكبير، الجرعة الصافية.

– المختار الكبير، نضار الذهب.

– نزهة الراوي.

– زوال الإلباس.

– الأجوبة المهمة لمن له بأمر الدين همّة.

–2– خزانة الشيخ أولاد البكاي: مؤسّس هذه الخزانة هو ابن محمد بن بادي. وهي بقطع الواد، وبها من المخطوطات:

– المختار الكبير، زيل الكوكب الوقاد، ويقع في **140** ص من الحجم الكبير.

– شرح الاسم الأعظم، وهو من الحجم الصغير.

– زوال الإلباس.

– محمد بن بادي، شرح الوظيفة الزروقية.

– محمد الخليفة، مطلع شموس العارف، وتعرض لعوامل التعرية، وهو بخط مؤلفه رحمه الله.

–3– خزانة الشيخ حيمد: مؤسّسها لا يزال يمارس التدريس بزاويته بوسط تمنغست. وبها من المخطوطات الكنتيه:

– المختار الكبير ،المنّة في اعتقاد أهل السنة.

– البرد الموشا في قطع المطامع و الرّشا.

– الشيخ باي بن عمر الكنتي، شرح صحيح البخاري.

وتوجد مخطوطات أخرى للكنتيين عند الأفراد بتمنغست، منها:

– فقه الأعيان، للمختار الكبير،لدى ولد الطالب ناجم بتهقارت.

– العلم النافع، للمختار الكبير، وكشف الشبهات له أيضا، بحوزة الشيخ التهامي عبد الوهاب.

– نوازل الشيخ باي، لدى الطالب محمود صديقي.

و توجد بمنطقة أزواد العديد من الخزائن أهمها الخزانة المتنقلة، وهي على ظهور الجمال لدى البدو الرحل من الكنتيين وغيرهم. وهي تضمّ الكثير من المخطوطات الكنتية. وقد تعرّض العديد منها للتلف والضياع بسبب الأوضاع السيئة العامة للبدو. ومن المشاكل التي تواجه الباحث، هي صعوبة تحديد أماكن تواجدها، لأنّ أصحابها يتتبعون الكلأ ومواطن الانتجاع.

– مركز المختار الكبير الكنتي للبحث والتوثيق بجاو: أسّس هذا المركز الشيخ ولد اهمادة، والشيخ بادي بن سيدي محمد بن البكاي، وسيدي عمر بن هني بن السويد، والسيد بن بيلا بن عابدين الفرد، وكلهم ينتمون لقبيلة كنته[21]. والشيخ بن اهمادة هو تلميذ الشيخ حيمد أخذ عنه الإجازة في علوم الحديث و القراءات. ويحتوي هذا المركز على أغلب المخطوطات الكنتية. وقد مارست الطريقة المختارية الكنتية دورا بارزا في الصحراء الكبرى. وهذا ما سهّل انتقال العديد من المخطوطات من بلادنا إلى البلدان المجاورة. خاصة وأنّ هذه البلدان قامت بتأسيس مراكز متخصصة في الوثائق.

ويضم هذا المركز العديد من المخطوطات الكنتية أهمها:

– المختار الكبير، الحجة الباهرة في تفسير البسملة.

– هداية الطلاب، وهو مختصر فقهي في مذهب الإمام مالك.

– لطائف القدسي في آية الكرسي.

– المختصر الجامع لما تدعو إليه الحاجة من الحر والعبد والمرأة والصبي.

– الممزوج بين الشريعة والحقيقة.

–كشف اللبس فيما بين الروح والنفس.

– يتيمة اللآلي في الرد على علماء تنيالي.

–كشف النقاب عن فاتحة الكتاب.

– نصيحة المنصف المبصر المتعطف.

– الرسالة في التصوف.

– جنة المريد.

– ألفية في العربية

– الذهب الإبريز في التفسير.

–كشف الغمة.

– الأجوبة اللدنية.

– شرح القصيدة الفيضية.

– الأجوبة الشافية.

إنّ المخطوطات في الصحراء تتعرض للعديد من التحديات، ففي تيديكلت كانت نكبة 1965م، وبالاً على المخطوطات. حيث طمس العديد منها، بالإضافة إلى الأرضة. والشيء نفسه يقال عن مخطوطات هقار. وقد خسرت الجزائر آلاف الوثائق والتي تمّ تهريبها إلى الأقطار المجاورة. كما لحقت العديد من الأضرار بالمخطوطات من جراء تعامل الباحثين الهواة، الذين يجهلون طرق وكيفية استغلال مادها.

لقد تبين من البحوث السابقة مدى تأثير الحرارة على المخطوطات. فازدياد الحرارة على 25 درجة مئوية يؤدي إلى جفاف الأوراق و فقدان الرطوبة منها، وهذا بالتالي يؤدي إلى تكسرها وضياع ألوان الحبر المستعمل، وتشقق الجلود بحيث يصبح المخطوط غير صالح للتناول والمطالعة. وتساقط مياه الأمطار على المخطوطات يؤدي إلى تلاصق الأوراق والتوائها وتغير لونها، ونمو الفطريات فيها[22]. وهذه بعض الاقتراحات لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذه الوثائق:

-1- تأسيس معهد متخصص في علم المخطوطات يقوم بتكوين متخصصين في المحافظة على الوثائق.

-2- إقامة أيام تحسيسية لأصحاب الخزائن، للفت الانتباه إلى قيمة ما يملكون.

-3- تأسيس مخبر وطني لترميم المخطوطات وصيانتها، وتكون له فروع في الأماكن التي تتواجد بها العديد من الوثائق.

-4- توحيد عمليات فهرسة المخطوطات وفقًا لتقنيات يُتفق عليها، ويُلزم باستخدامها مما يساعد على إمكان تبادل معلومات الفهرسة.

وهكذا فإنّ الحديث عن المخطوطات في الصحراء يثير في النفس الاعتزاز والشفقة، أما الاعتزاز فهو في احتضان هذه المنطقة لأعداد هائلة من المخطوطات. مما يشير إلى مكانة العلماء العرب المسلمين في دفع عجلة الحضارة الإنسانية. وأما الشفقة ففي وضع تلك المخطوطات حيث أنها تحتاج إلى الكثير من الإمكانيات لإنقاذها ومن الواجب بذل الجهد والمال للحفاظ عليها.

الهوامش:

[1] -الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط ودار الغرب الإسلامي بيروت، ط الثانية 1983، ج2، ص:112.

[2]-E f Gautier. le Sahara BAYOT PARIS 1950 PP 9- 35.

3-A G P MARTIN QATRE SIECLES DISHTOIRe MAROCAINE EDITIONS LA PORTE PARIS 1923 P 01

4 – مصطفى أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، مطبعة دار النشر المغربية الدار البيضاء المغرب، ط الأولى 1982،ص:269.

5 – سورة الكهف، الآية 82.

6 – جاسم الياسين وعدنان الرومي، المرشد الوثيق إلى مراجع البحث وأصول التحقيق، دار الدعوة الكويت ودار الوفاء مصر، ط الثالثة 1992، ص:99.

7– أحمد شوقي بنبين، "علم المخطوطات والتحقيق العلمي"، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، عدد يناير 1993م، ص: 1981.

8– كامل حيدر، منهج البحث الأثري والتاريخي، دار الفكر اللبناني بيروت، ط الأولى 1985،ص:155.

9 – يمكن للمهتم أن يطالع الكتاب الجيد الذي وضعه كراتشكوفسكي وسماه: مع المخطوطات العربية، دار التقدم موسكو،دون تاريخ.

10– أرنست كاسيرد، في المعرفة التاريخية، ترجمة أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط الثانية 1997،ص: 54

11– لانجلوا وسينوبوس وبول ماس وامانويل كنت، النقد التاريخي، ترجمة عبد الرحمان بدوي، وكالة المطبوعات الكويت، ط الرابعة 1981، ص:9.

12– المرجع نفسه، ص:5.

13– المرجع نفسه، ص:22.

14– قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني بيروت، ط الأولى 1990، ص:53.

15– وهو تقليد قديم سبق إليه: محمد بن إسحاق النديم في كتابه الفهرست، ص ص: 518–548. أنظر: محمد بن إسحاق، الفهرست، حققه مصطفى الشويمي، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط 1985.

16– أحمد شوقي بنبين، علم المخطوطات والتحقيق العلمي، ص:250.

17– عبد السلام محمد هارون، تحقيق النصوص ونشرها، مكتبة السنة القاهرة ، ط الخامسة 1410ه ، ص: 37.

18– سيدة إسماعيل كاشف، مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، مكتبة الخانجي القاهرة، ط 2–1976، ص 78.

19– حسن الصادقي ،" مخطوطات في موضوع فاس و إفريقيا "،ندوة فاس و إفريقيا الدولية ، نظمها معهد الدراسات الإفريقية وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، فاس 28–30 أكتوبر 1993، مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء، ط الأولى 1996، ص: 14.

20– عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغر ب الأقصى، دار الفكر بيروت، ط الأولى 1997، ص ص:145 –146

21– هذه المعلومات مأخوذة عن مطبوعة صادرة عن المركز بتاريخ 1999.

22– راشد بن سعد القحطاني، خدمات المخطوطات العربية في مكتبات مدينة الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض، ط 1996، ص:132.

دور الرحالة والمستكشفين في حركة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية.

د/ عبد القادر بوباية

مقدمة: إن كتابة التاريخ الوطني مهمة ملقاة على عاتق المثقفين عامة، والمؤرخين منهم خاصة، ذلك لأنه، ولحدّ السّاعة، مازالت الكتابات الإستعمارية هي المصدر الوحيد لجلّ ما يتعلق بتاريخنا، وبخاصة في الفترة الإستعمارية، ومن ثمّ فإن كثيرا من المغالطات والتزييفات مازالت عالقة بهذا التاريخ.

إنطلاقا من هذه الحقيقة، فإن كتابة التاريخ الوطني بأقلام وطنية يصبح أكثر من ضرورة ملحة، وفي هذا الإطار؛ فإن الملتقيات التاريخية التي تنظمها بعض الوزارات، وعلى رأسها وزارة المجاهدين والجمعيات الوطنية تساهم بشكل فعّال في القيام بهذه المهمة الوطنية، ومساهمة مني في هذا المجهود الوطني، سأشارك بهذه المقالة المتواضعة التي يتمحور موضوعها حول الدور الذي قام به الرحّالة والمستكشفون في التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية.

إن ضم القسم الأكبر من القارة الإفريقية بصفة عامة، والصحراء الكبرى بصفة خاصة، يدخل في إطار المرحلة الإمبريالية القاضية باقتسام القارة السمراء بين القوى العظمى، ولذلك عرفت هذه المناطق توافد عدد من الرحالة والمستكشفين كان هدفهم الأساسي التعرّف على كل ما يتعلق بالصحراء الكبرى والمناطق الواقعة في جنوبها.

لقد عرف الأوروبيون الصحراء وعلاقاتها التجارية المزدهرة مع بلدان شمال إفريقيا خلال القرون الوسطى والحديثة من خلال ما كتبه الرحالة والجغرافيون المسلمون من أمثال أبي عبيد البكري صاحب كتاب "المسالك والممالك"، وابن حوقل مؤلف كتاب "صورة الأرض"، والشريف الإدريسي صاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وابن بطوطة مؤلف

* أستاذ محاضر في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ- جامعة وهران السانية.

كتاب "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، وحسن الوزان صاحب كتاب "وصف إفريقيا" وغيرهم، ومن ثم عزموا على غزو الصحراء واستعمارها، ومن أجل تيسير ذلك اهتموا بمعرفة الطرق الصحراوية، وتتبع الأنهار الإفريقية، وأنشأوا الجمعيات الجغرافية والعلمية التي شجعت إرسال البعثات الإستكشافية، وحددت مهمتها الأساسية في جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات المتعلقة بهذه المناطق لتسهيل مهمة الاستعمار، وكانت إنقلترا السباقة في هذا المجال، حيث شكلت سنة 1788م جمعية أطلق عليها "الجمعية الإفريقية"، وهي تستهدف دراسة هذه المناطق، وجمع كل ما يمكن من المعلومات عنها وعن سكانها بقصد التوغل داخل القارة [1].

وفي الربع الأول من القرن التاسع عشر دخلت فرنسا المنافسة خوفا من استحواذ بريطانيا وألمانيا على مناطق واسعة من الصحراء خاصة وإفريقيا عامة.

إهتمام الإستعمار الفرنسي بالصحراء ودوافعه: بعد نجاحهم في السيطرة على القسم الشمالي من الجزائر، تحمس الفرنسيون لبسط نفوذهم على الصحراء الإفريقية إلا أن مقاومة سكانها أعاقت تقدم القوات الفرنسية، وأخرت سيطرتها على كامل الصحراء إلى نهاية القرن التاسع عشر، ويمكن تفسير هذا الإهتمام الكبير الذي أولاه الفرنسيون للصحراء بما يلي:

1- يتمثل الهدف الأساسي للفرنسيين في التوسع الإستعماري، والذي أسموه بالاستكشاف، والتعرف على هذه المناطق المترامية الأطراف، واقترن هذا الغزو والتوسع الاستعماري بمحاولة التعرف على إمكانات الصحراء الإقتصادية والبشرية، واستكشاف المظاهر الجغرافية المختلفة للصحراء، كما اقترن أيضا بدراسة المجموعات السكانية، والتعرف على عاداتها وتقاليدها، وتاريخها السياسي والحضاري، وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

2- تحقيق أهداف إستراتيجية وتجارية: ويمكن أن نستشف ذلك من خلال قراءة التقرير الذي رفعه الماريشال سولت SOULT- وزير الحربية -إلى الملك لويس فيليب، والذي قال فيه: "يجب أن تؤلف الصحراء الجزائرية صنفا ثالثا من الجهات الإدارية؛ ففي هذه الجهات لا أثر للمعمرين، ولا تطأها الجيوش إلا عرضا لقمع الفوضى، أو لإعداد ظروف ملائمة لإقامة العلاقات التجارية أو لتوسيعها، وهي مناطق تفتح لنا المجال لطرق هامة في الحركة

التجارية المؤمنة"،[2] ويصب التقرير الذي أرسله الوالي العام بيجو إلى الماريشال سولت في نفس الاتجاه، وفيه يقول: "وبسيطرتنا على هذه المناطق تنفتح لنا آفاق واسعة لازدهار تجارتنا وربطها بإفريقيا الداخلية..."(3)

3- محاولة وضع شبكة من طرق المواصلات الحديدية والمعبدة وأسلاك الهاتف لتسهيل سبل التنقل في ظروف آمنة للقوات العسكرية بين مختلف المناطق الصحراوية، ومن أجل تحقيق ذلك شرع الفرنسيون في دراسة المظاهر التضاريسية والطوبوغرافية والمناخية لتحديد المناطق التي تصلح لمد هذه الشبكة من السكك الحديدية والطرق البرية وتحديد إتجاهاتها، والذين سيكلفون بإنجاز هذه الدراسة هم المستكشفون والدارسون الذين استغلوا طرق القوافل الصحراوية للاستفادة منها في مشاريعهم الاستعمارية، ولفتح طريق تتغلغل من خلاله التجارة الفرنسية إلى قلب القارة الإفريقية، كما حاول هؤلاء أن يستفيدوا من كتب الرحّالة العرب وكبار مؤرخيهم، وبذلك أمكنهم التعرف على شبكة الطرق الصحراوية التي وضعوا لها رسومات وخرائط يسّرت مهمة الإستعمار (4).

4- توفير الأمن للمعمرين وللمناطق التي يتواجدون بها في الشمال، لأن ثورات الشعب الجزائري في الشمال كانت سببا في تحول الواحات الصحراوية في الجنوب إلى معاقل للثوار والمجاهدين الذين كانوا يفرون إليها للاعتصام والاستعداد لمواجهة العدو، ولذلك عزم الفرنسيون على التوسع في أعماق الصحراء، وبخاصة بعد ثورة سكان واحة الزعاطشة بمنطقة بسكرة عام 1849م، وحركة الشريف محمد بن عبد الله بالأغواط وورقلة وتوقرت، وثورة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني عام 1864م(5)، ومما حتم هذا الأمر أيضا تعرض بعض الحملات الفرنسية إلى هجمات المقاومين الجزائريين في أعماق الصحراء، وأدى هذا إلى تقوية عزمهم على التوسع، والسيطرة على كل الواحات الصحراوية، ووضع حاميات عسكرية بها لتضمن لهم الأمن، وتسمح لهم بالتصدي لمقاومة سكان الصحراء.

لقد شاهد الرحالة الألماني جيرهارد رولف- الذي زار إقليم توات سنة 1864م- مدى فعالية مشاركة أهل الجنوب لأهل الشمال؛ فقال على الخصوص: "قبل كل شيء على الفرنسيين أن ينقلوا حدودهم إلى نهاية وادي الساورة، فمن هناك بالضبط تبدأ كل المصاعب

وكل الفوضى، ومادام الفرنسيون لم يستولوا على هذه الحدود الطبيعية؛ فلن يكون هناك أي هدوء دائم في جنوب مقاطعة وهران[6].

5- العمل على ربط المستعمرات الفرنسية في شمال إفريقيا عن طريق الصحراء بمستعمراها في إفريقيــا الغربية، وبخاصة السنغال التي استقر لها الأمر فيه منذ سنة 1856م-1857م، ومالي الذي احتلته سنة 1880م،[7] وما يؤكد هذا الأمر هو القرار الذي اتخذته الجمعية الجغرافية في باريس سنة 1855م، والقاضي "بتقديم مبلغ 6000 فرنك لكل من يقوم برحلة من الجزائر إلى السنغال أو بالاتجاه المعاكس بشرط أن يمر بمدينة تمبوكتو، ويأتي بمعلومات دقيقة وجديدة حول القوافل التي تعبر هذه القفار".[8]

نشاط الرحالة والمستكشفين: كان الإنقليز والألمان السباقون إلى إكتشاف القارة الإفريقية؛ وبخاصة المناطق الداخلية منها، وخوفا من استحواذ هاذين البلدين على القارة السمراء، قررت فرنسا تشجيع مواطنيها للقيام برحلات هدفها استكشاف الأجزاء غير المعروفة من هذه القارة، ولتحفيزهم على القيام بذلك، قررت الجمعية الجغرافية الفرنسية تخصيص مبلغ مالي مكافأة لأول فرنسي ينقل ملاحظات إيجابية دقيقة عن تمبوكتو وعن المناطق الداخلية للقارة الإفريقية.[9]

إن هذه الرحلات كانت تمهد للتوسع الفرنسي في المناطق الصحراوية، ودليلنا في ذلك تصريحات وكتابات الفرنسيين أنفسهم، ومن ذلك ماجاء في نهاية التقرير الذي وجهه الأمير هنري دورليان (**Henri D'Orléans**) إلى الوالي العام بالجزائر، وهو يتكلم عن الحملة الفرنسية التي استولت على بسكرة في 4 مارس 1844م، حيث قال: "لقد بعثت عيوني من الضباط الذين يحسنون اللغة العربية؛ فاختلطوا بجميع القبائل، وفي ظرف عشرة أيام أتوني بالإرشادات السياسية اللازمة، والإحصاءات الصحية التي مكنتني من إنشاء سلطة متينة، واتخاذ التدابير الأولى المستعجلة لفائدة فرنسا."[10]

لقد شارك في هذه الرحلات الاستكشافية رحالة ومستكشفون من جنسيات مختلفة، ولكننا سنقتصر في مقالتنا هاته على ذكر نشاط الرحالة الفرنسيين بالدرجة الأولى، وبعض الأجانب الذين عملوا لمصلحة فرنسا مع العلم أن التنافس الاستعماري الذي اشتد ما بين الدول الكبرى كان يحتم على كل رحالة أن يخدم مصلحة بلده بالدرجة الأولى.

1- روني كايي (Caillé): يعتبر من أوائل المغامرين الفرنسيين الذين توغلوا في أعماق الصحراء، وقد شرع كايي في رحلته إلى تمبوكتو سنة 1827م مدعيا للقبائل التي يمر بها في طريقه أنه مصري تربى في فرنسا منذ صغره، وفي 14 مارس 1828م وصل هذا المستكشف إلى نهر النيجر، ثم دخل مدينة تمبوكتو في 20 أفريل، وبذلك كان أول أوروبي يعود بوصف دقيق لهذه المدينة، ومنها عاد عبر الصحراء إلى مدينة طنجة؛ فمر بمنطقة توات وتافيلالت التي وصل إليها في شهر جويلية، وفي 14 أوت دخل إلى مدينة فاس.

سجل كايي ملاحظات، وأنجز رسوما قيمة أثناء رحلته، و"بذلك فقد قدم إلى فرنسا والمصالح المختصة بالتوسع الاستعماري معلومات جغرافية وحضارية هامة على هذه المناطق، ساعدتها فيما بعد في عمليات الغزو الفرنسي للجنوب الجزائري، والتوسع في الصحراء الإفريقية، وكشفت لها أسرار هذه الأصقاع." [(11)]

2- النقيب بون مان (BONNEMAIN): قام هذا النقيب سنة 1856م برحلة إلى غدامس، وتعرف على الطريق الرابط بين الوادي وغدامس، ووضع رسما لطريقين جغرافيين يربطان بينهما، كما وضع مخططا للمدينة، وجلب الكثير من المعلومات ذات الطابع التجاري. [(12)]

3- هنري دوفيري (DUVEYRIER): يعتبر من أبرز الرحالة الفرنسيين نظرا لتعدد رحلاته، وما قدمه من معلومات حول المناطق التي زارها.

قام دوفيري برحلة تمهيدية إلى الجزائر سنة 1857م زار خلالها إلى جانب العاصمة، الهضاب العليا والأغواط والجانب الصحراوي من الأوراس، وفي واحة الأغواط تعرف دوفيري بأحد رجال التوارق، وبعد عودته نشر دراسة عن القبائل البربرية ضمنها ترجمة لمفردات من لغتهم، وفي نفس السنة قابل المستكشف الألماني هنري بارث الذي قدم له كثيرا من النصائح والتعليمات التي تفيده في سفره، وعندما توفي هذا الأخير حولت أسرته إلى دوفيري جزءا مهما من أوراقه ووثائقه؛ فاستفاد منها كثيرا في رحلته الكبرى.

قام دوفيري بإعداد رحلته الاستكشافية؛ فاطلع على كثير من الكتب، واستشار عددا كبيرا من المتخصصين الأوروبيين في شؤون الصحراء، كما تعلم الأدوات وطرق تحديد المواقع، وقام بزيارات إلى المتاحف أين أتم معلوماته في الجيولوجيا وفي علم الطبيعة، وحصل على

معلومات عن الإيشنولوجيا والسلالات الصحراوية، وبعد سنة من التحضير والاستعداد سافر إلى الجزائر، وذلك سنة 1859م، ومنها إتجه إلى بسكرة (8 ماي 1859م) ثم غرداية، ومنها إلى القليعة التي لم تكن قد وطأها قدم أوروبي قبله.

قام دوفيري ببعض العمليات الفلكية، وذلك في ظروف قاسية نظرا لاستياء الأهالي من وجوده رغم أنه كان يرتدي أثناء رحلته ثياب سكان المنطقة، وهو الأمر الذي اضطره إلى العودة من جديد إلى الجزائر، وبعد هذه الرحلة في جنوب الجزائر، قام برحلة أخرى في جنوب قسنطينة وتونس، وفي رحلته إلى التوارق قام بأبحاث مستفيضة في كل مكان مرّ به عن السكان، ومن أجل تحديد موقعه الجغرافي، وللتعرف عن النباتات والمعادن التي تصادفه في طريقه.

إتجه دوفيري إلى توارق الشمال المقيمين بجبال طاسيلي إنطلاقا من غدامس، وفي طريقه وجد مساعدة كبيرة من شخصين من التوارق هما الأمينوكال إيخنوكن والشيخ عثمان، كما دعمه نابليون الثالث في مهمته.

وصل دوفيري إلى غات، وكانت مدينة مستقلة، وقابله سكانها بعداء شديد خوفا من نواياه الحقيقية المتمثلة في بسط السيطرة الفرنسية على المنطقة، والتحكم في تجارتها، في الوقت الذي رحب به التوارق، واستغل وجوده بينهم؛ فتعلم لغة تماشق وحروفها الهجائية (التيفيناغ)، وصار يحضر اجتماعات القبيلة وينتقل معها، وهو في كل ذلك يتعلم ويسجل ملاحظاته.

عاد إلى الجزائر فطلب منه الوالي العام أن يقدم تقريرا مفصلا مزودا بخريطة عن رحلته، وبعد ما أنجز عمله مرض بحمى التيفويد، وبعد ثلاثة أشهر من المرض أصيب بفقدان الذاكرة، ومع ذلك فإن المذكرات والملاحظات التي سجلها كتبت بعناية ودقة، وبعد ثلاث سنوات نشر كتابه القيم عن التوارق تحت عنوان "توارق الشمال"، وهو عبارة عن دراسة شاملة لمنطقة التوارق، كما تتضمن معلومات هامة عن الجغرافية الطبيعية وطبقات الأرض وموارد الماء، إضافة إلى اشتمالها على ملاحظات تتعلق بالحيوانات والنباتات وأحوال المعيشة والطقوس الدينية، وأخلاق التوارق وعاداتهم وتقاليده وأصولهم.[13]

بعد حرب 1870م ضد ألمانيا، استأنف دوفيري أبحاثه ودراساته فوضع كتابا كبيرا عن الطرق الدينية، ونشر عددا من الوثائق عن جغرافية إفريقيا، وأصبح مستشارا وناصحا لكل من أراد القيام برحلة إلى الصحراء.[14]

4- جيرهارد رولفس (**Gerhard Rohlfs**): هو من أصل ألماني، إنخرط في اللفيف الأجنبي الفرنسي، وشارك في العمليات العسكرية التي تمت في بلاد القبائل، وتعلم خلالها اللغة العربية، واكتسب معرفة بعادات الأهالي وتقاليدهم، ثم غادر اللفيف الأجنبي سنة **1861**م، وقام بحلق رأسه وأعلن إسلامه، ثم بدأ رحلته سنة **1862**م من تافيلايت لكن السكان شككوا في إسلامه فأسروه ولم ينقذه من انتقامهم سوى عملية الختان التي كان قد قام بها، ورغم اعتداء دليله عليه نجح في مواصلة رحلته في اتجاه البحر الأبيض المتوسط عبر جنوب وهران.

رغم فشل هذه الرحلة قرر رولفس القيام برحلة جديدة إلى تمبوكتو عن طريق الصحراء الجزائرية، ولكن ثورة أولاد سيدي الشيخ منعته من ذلك، وعندئذ قرر أن يسلك طريقا آخر إنطلاقا من المغرب الأقصى.

عاد رولفس إلى تافيلالت، ودرس بعناية مجموعة الواحات المغربية والجزائرية المتاخمة لها قبل أن يواصل رحلته رفقة ثلاثة من الأهالي إلى توات ثم إلى إيقلي فإلى بني عباس ثم أدرار، ومن هناك عرج إلى الشرق، وفي **1864/09/17**م وصل إلى عين صالح، وكان وصفه لهذه المدينة، الوصف الوحيد الذي وصل إلى العالم قبل احتلال الفرنسيين لها في نهاية القرن التاسع عشر.

لقد نجح رولفس في اختراق الصحراء من المغرب الأقصى حتى ليبيا عبر الصحراء الجزائرية.[15]

5- بول صوليي (**Paul Soleillet**): شرع في تحضير رحلته منذ سنة **1866**م، وذلك بالتعرف على عادات وتقاليد سكان الجزائر والتعود على لغتهم، كما درس كتب التاريخ والجغرافيا والكتابات الإقتصادية حول إفريقيا.

غادر مرسيليا في **6** ديسمبر **1872**م متجها إلى الجزائر، وبعد إنهاء الاستعدادات بدأ رحلته نحو عين صالح؛ فزار الأغواط وغرداية، ثم دخل متليلي التي غادرها في **02/14/ 1873**م، وفي **1873/02/19**م بدأ كما يقول: "رحلته الاستكشافية الحقيقية" من المنيعة إلى عين

صالح، وكانت بعثته تتكون من 26 فردا وعشر جمال وثلاثة خيول وفي 1873/02/23م وصل إلى المنيعة، وفي 6 مارس 1873م وصل إلى مشارف عين صالح التي رفض أصحاب قصبتها أن يفتحوا الأبواب للبعثة؛ فاضطر صوليي إلى العودة من حيث أتى، ومع ذلك فقد قدم معلومات هامة في كتابه، وبخاصة حول هضبة تادمايت وماجاورها، والتي استفادت منها سلطات الاستعمار في توسعها في الجنوب.(16)

6- آخرون: نظم فيل (Vill) رحلة إلى حوض الحضنة والصحراء في أواخر الستينيات، كما قام إيروينق دوباري (Erwing de bary) برحلة قادته إلى مدينة غات، كما زار توارق آجار وطاسيلي، وتوفي بمدينة غات خلال رحلته هاته وذلك عام 1877م.(17)

نتائـــج الرحـــلات الإستكشافيـــة:

1- الإهتمام بدراسة الإمكانات الاقتصادية التي تتوفر عليها هذه المناطق، والتعرف على المظاهر الجغرافية الطبيعية، وعلى مصادر المياه والثروات الزراعية، وذلك بهدف استغلالها والاستفادة منها خلال التوسع وبعده، وبفضل ذلك تم إنجاز مجموعة من الدراسات والأبحاث، حيث درس أحد الضباط (أوجيرا- Augieras) المظاهر الطوبوغرافية والآبار المائية لمنطقة ورقلة، واهتم بربروقر (Berbrugger) بدراسة الآبار، والإنتاج الفلاحي لمنطقة وادي ريغ، واهتم داتانو بدراسة الأرض والإنتاج، وكيفية الاستغلال الاقتصادي للمنطقة الصحراوية، ودرس بيسي (Bisset) منطقة تديكلت من الناحية الجغرافية والبشرية، ومصادر الثروة، ودرس كانسل (Cancel) جغرافية عـــرق إيقدي وواد الساورة، وتعرض كـــابوري (Capot-Rey) لأهمية آبار وادي ريغ مـــن الناحية الاقتصادية والسياسية، ودرس دوليك (Deluc) مصادر المياه في الجنوب الوهراني.

2- تحقيق الأهداف التجارية للإستعمار الفرنسي: لقد وقع تنفيذ الأغراض التجارية التي بدت واضحة منذ بداية الاحتلال الفرنسي بعدد ضخم من "المهمات" التي كانت تسبق الوحدات العسكرية أو تصبحها، وذلك للقيام بمعاينة المكان لتيسير الغزو، وبدراسات مضبوطة للأسواق التجارية؛ فمنذ سنة 1848م قام التجار الذين استقروا بقسنطينة بغزو سوق توقرت، ونشر براكس (Prax) دراسة حول "العلاقات التجارية الجزائرية مع مكة والسودان" في سنة 1851م، وفي سنة 1859م قام هزي دوفيري برحلة إلى القليعة، ثم دخل في حماية إيخنوكن،

وذلك للقيام بزيارة سوق غدامس، وجمع الوثائق والمعلومات التي نشرت سنة **1864**م في كتاب عنوانه" توارق الشمال"، كما تحصل دوفيري على معاهدة تجارية مع زعيم التوارق سنة **1862**م، والتي يلتزم بمقتضاها هؤلاء بأن "يساعدوا مرور التجار الفرنسيين أو الأهالي عبر أراضهم مع الالتزام بحمايتهم حتى وصولهم إلى السودان"،(18) ومن جهتها كلفت الغرفة التجارية بالجزائر بول صوليي سنة **1874**م بمهمة "تقديم بعض منتوجاتها الصناعية لسكان الصحراء الوسطى"(19)

لم تلق هذه العمليات الاستطلاعية إلى ذلك الحين شيئا من الحواجز لأن رؤوساء تلك المناطق وسكانها، وحتى الرحل أنفسهم كانوا يرون في هذا التصرف فرصة لربط علاقات متوازنة بفضل الوحدة القديمة بين التل والصحراء، ولكن الواقع كان غير ذلك أذ أن الجيش كان يعقب مباشرة تلك البعثات التجارية، وفي حالة وصول الجيوش قبل البعثات فإنها تشرع في استقصاء الأسواق لفائدة الاستعمار التجاري، وفي نفس الوقت تقوم بالتعرف على القوة العسكرية المحلية، وهو الأمر الذي أنيط ببعض الدراسات مثل دراسة دوماس (**Daumas**) بعنوان " الصحراء الجزائرية" سنة **1842**م، أو دراسة دي كولومب (**De Colomb**) بعنوان "إكتشاف القصور وصحراء جهة وهران" سنة**1858**م، إضافة إلى بحث آخر عنوانه "الصحراء الكبرى" صدر سنة **1848**م، والذي ركز على تقييم الإمكانات المتاحة لاستعمال طريق القوافل من ورقلة إلى أقاديس مرورا بالقليعة وتيموون وعين صالح والهقار.(20)

3- توفير الأمن للمعمرين في الشمال وبداية التوسع في الجنوب: لقي الجيش الفرنسي مقاومة عنيفة بالصحراء إلى درجة أن سكان تلك المناطق كانوا يشاركون في التحركات التي شهدها المناطق الشمالية، والدليل على ذلك هو أن نفوذ الأمير عبد القادر في أوج قوته (**1839**) جعلت خليفته يزيح الفرنسيين عن بسكرة والزيبان، وكانت الأغواط تدفع له الإتاوة بعد القضاء على التيجانية في عين ماضي، وامتدت سلطته إلى وادي ريغ والمزاب، كما سيرحب بمقدمه أولاد سيدي الشيخ وأولاد نايل، كما انضم إليه أهالي القصور في جنوب وهران.

نظرا لما تقدم فإن بدايـــة التوغل في الصحراء كانت مصحوبـــة بمحاربة الأمير عبد القادر حيث قام الفرنسيون باحتلال بسكرة والأغواط لأول مرة سنة **1844**م، وفي سنة

1845م استولى جيري (Gery) على قصور حميان وستيتن وغسول وبريزنة، وأثناء احتلال منطقة القبائل الشرقية والأوراس ثارت الحضنة والزيبان وأيدهما منطقة مزاب، وانتهت هذه الثورات بفرض السيطرة الفرنسية على واحات الزعاطشة وبوسعادة سنة **1849**م، وتمت السيطرة على الأغواط سنة **1852**م بعد ما قاوم السكان فرادى وجماعات الاحتلال الفرنسي، وسمح الاستيلاء النهائي على الأغواط للماريشال راندون بمد نفوذ الاستعمار الفرنسي إلى ورقلة (**1854**م). كما فرض معاهدة على المزاب 29 أفريل سنة **1853**م جعلت هذه المنطقة تابعة لفرنسا.

الخـــــاتمة:

مما لاشك فيه أن الاستعمار الفرنسي قد حضر عملية الاستيلاء على الجزائر، والتوسع عبر أراضيها بشكل جيد، وكان الرحالة والمستكشفون حجر الزاوية في هذه العملية، وذلك لأنهم جمعوا كمية ضخمة من المعلومات عن كل ما يتعلق بسكان هذه المناطق (عاداتهم وتقاليدهم وتنظيماتهم وقواتهم...)، وبطبيعتها الاقتصادية، وبخاصة في المجال التجاري نظرا للدور الكبير الذي كانت تلعبه في ربط الصلات التجارية بين شمال إفريقيا والمناطق الواقعة جنوب الصحراء، وبفضل هذه المعلومات أمكن لجيوش الاحتلال ترتيب الأمور المادية التي ستسمح لهم بالاستيلاء على الصحراء الجزائرية رغم المقاومة التي قام بها سكان هذه المناطق الذين نجحوا في تأخير السيطرة الفرنسية على كامل التراب الجزائري إلى غاية بداية القرن العشرين.

إن هؤلاء الرحالة والمستكشفون مهدوا للاحتلال ويسروا إنجازه، ذلك لأنهم زودوه بكافة المعلومات والخرائط والرسومات التي يسرت له التحرك في هذه المناطق، وانطلاقا من هذه الحقيقة فإنه لا يمكن موافقة الرأي الذي يقول بأنهم قاموا برحلاتهم هاته رغم كل ما تنطوي عليه من أخطار سببتها طبيعة المنطقة في حد ذاتها أو تسببت فيها مقاومة الأهالي الذين شعروا بالنوايا الحقيقية لهؤلاء الرحالة (مقتل العديد من هؤلاء الرحالة في الصحراء الجزائرية) من أجل البحث والعلم فقط.

صحيح أنهم أثروا المكتبات بكم هائل من المعلومات حول طبيعة الصحراء وسكانها وثرواتها الاقتصادية، ولكن هذه الأخبار كانت موجهة بالدرجة الأساسية لخدمة الاستعمار الفرنسي، وإلا فكيف يمكن أن نفسر الدعم المادي والمعنوي الذي قدمه الحكام والهيئات الحكومية الفرنسية لهذه البعثات الإستطلاعية.

الهـــوامـــــش:

1- إسماعيل العربي- الصحراء الكبرى وشواطئها- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1983 - ص 64.

2-أندري بريينان وآخرون - الجزائر بين الماضي و الحاضر - ترجمة رابح اسطنبولي وآخرون - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1984 - ص 384 - 385.

3- E. MANGIN – notes sur l'histoire de Laghouat in Revue Africaine – n° 38 Année 1894 – O.P.U. Alger P.87.

4- يحي بوعزيز - ثورات الجزائر في القرنين 19 - 20 - ج1: ثورات القرن 19م - منشورات م.و.م - الجزائر - 1996م - ص 309.

5- PAUL AZAN – conquête et pacification de l'Algérie – librairie de France- Paris – 1929 P. 407.

6-يحي بوعزيز - نفس المرجع - ص 310.

7-Malte Brun (V.A)-résumé historique et géographique de l'exploration de Gerhard Rholfs an touat et in Salah – Paris 1866 – P 67.

8-إسماعيل العربي - الصحراء الكبرى و شواطئها - ص 101.

9-A.Bernard et Lacroix –la pénétration Saharienne –Gouvernement Général de la France – Alger . 1906 – P.13 – 14.

10-اسماعيل العربي - نفس المرجع - ص 70.

11-محمد العربي الزبيري - مقاومة الجنوب للإحتلال الفرنسي - ش.و.ن.ت. الجزائر - 1972 - ص32.

12-ابراهيم مياسي - توسع الإستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري - منشورات م.و.م- 1996 - ص 48.

13-Henri Lhote – les touaregs du Hoggar– lib. Payot– paris– 1944–P.328-329.

14-G.O. Meynier - la pacification du Sahara et la pénétration Saharienne – Pub. Du Comité Nat. Métrop. Du Centenaire –Alger – 1930 – P. 11.

15-اسماعيل العربي - نفس المرجع - ص 88.

16-اسماعيل العربي - نفس المرجع - ص 90-91./ G.O. Meynier – op-cit P. 10

17-ابراهيم مياسي - نفس المصدر - ص 59 - 60.

18-يحي بوعزيز - نفس المرجع - ص 315.

19-أندري بريينان و آخرون - نفس المرجع - ص 389.

20-نفسه - ص 389.

21-نفسه - ص 385 - 386.

تجربتنا مع الرواية الشفوية.

د/ عبد القادر خليفي*

التعريف بالموضوع:

تتمثل هذه التجربة في رسالتنا لدكتوراه الدولة التي ناقشناها خلال السنة الجامعية 2000/ 2001 والموسومة بـ: "المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة"، والتي قسمناها إلى بابين: الباب الأول ومضمونه تاريخي يرتبط بمسيرة الشيخ من خلال تزعمه للطريقة الشيخية من جهة وزعامته للجهاد والمقاومة من جهة أخرى، والباب الثاني وهو عبارة عن تحليل للنصوص والروايات الشفوية التي تم جمعها من الميدان على أساس موضوعاتي.[1]

إنّ الرسالة التي حضّرناها، هي عمل ميداني تطلب منا جهدا وإرادة كبيرتين، لاتساع الرقعة الجغرافية التي كانت ميدانا للحركة، وهي المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر، ولتوزع السكان عليها توزعا كبيرا، وتوطن آخرين في مناطق متعددة من القطر الجزائري والمغربي وصعوبة معرفة أماكن تواجد الرواة ذوي القدرة على الحفظ والرواية المتقنة، كما أنّ الفرد الواحد لا يمكنه مهما أوتيَ من قوة وجَلدٍ أن يِلُمَّ سوى بالجزء اليسير مما كان يمكن الوصول إليه فيما لو قام بذلك فريق من الباحثين يتوزعون على مختلف الجهات، بعد أن يتقاسموا العمل فيما بينهم مع التنسيق الدائم واللقاءات الدورية، إلى جانب توفر الإمكانيات المادية لتحقيق أكبر النتائج. وقد لاحظنا ثراء الموروثات الشعبية لدى الفئة النسوية، إلاّ أن تمسك السكان بالعادات والتقاليد ومنع المرأة من الاتصال بالرجل الأجنبي قد أثر سلبا على النتائج التي كانت مرجوة.

إن مقاومة الشيخ "بوعمامة" هي إحدى تلك المقاومات الشعبية المسلحة الجزائرية التي واجهت الاستعمار الفرنسي بكل قوة معبرة عن رفض الشعب الجزائري للسيطرة الفرنسية

* أستاذ محاضر في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- جامعة وهران.

ومحاربة تلك التبعية التي حاول الفرنسيون إرغامه عليها؛ وما ذلك إلا دليل على تلك الهوة التي تفصل بين شعبين وحضارتين مختلفتي المصادر والخصائص.

لقد وقع اختيارنا على هذا الموضوع لما تكتسيه شخصية الشيخ بوعمامة من أهمية في تاريخ الجزائر، حيث تزعمت حركة شعبية قامت للدفاع عن الهوية الأصيلة للشعب الجزائري. ودراسة مأثورات هذه الحركة أو جانب منها هو إبراز لبطولة الشعب الجزائري الذي لم يرض بالاحتلال الأجنبي، فلم يستكن ولم يسترح يوماً إلا ليعد العدة للنهوض من جديد –دفاعا عن مقوماته– مستمداً ذلك "من تقاليد شعب بطل أحب دائما الفَرَس والبارود، وكان تتابعها (المقاومات) على الأخص في البوادي، حيث الخيل المسَوَّمَة والمجال الفسيح، متوفران لدى القبائل".[2] كما أننا لمسنا الأهمية الكبيرة التي يوليها الناس في المنطقة الجنوبية الغربية للمأثورات الشعبية التي يتداولونها في تجمعاتهم المختلفة، وما يفتح لديهم من رغبة للإستماع إليها وما يثيره ذلك من نقاش وجدال في بعض الأحيان.

المآثر الخالدة:

تعتبر سِيَرُ الأبطال من المآثر الهامة التي تحتفظ بها الذاكرة الشعبية لأنها تحفظ للجماهير الشعبية أسسها الراسخة وعلو شأنها وتميز شخصيتها الفذة.

لقد خلد الشعب الجزائري في جهات عديدة حركة الشيخ بوعمامة في ذاكرته الجماعية وبخاصة في المناطق التي كانت ميداناً لها. إذ لا يزال الناس يقصون عن حركة الشيخ بوعمامة الأخبار المتعددة الواقعية منها والخيالية، ويتغنى الرجال والنساء في تجمعاتهم المختلفة بقصائد ومقطوعات منظومة باعتباره مجاهدا حينا، ورجلا صوفيا صالحا حينا آخر، تُبْرِزُ كلها بطولة الشيخ وصَوَلات رفاقه في ميادين المعارك ضد العدو المحتل. "إن دوافع البطولة التي تَمَيَّز بها البطل في المجتمع العربي كانت دائما نابعة من إيمانه بالقدر وإيمانه بالخلود بالقضية الحية التي يطيب من أجلها الإستشهاد ويحمد فيها الخلود ويستطاب بذكرها الحديث الدائم، وقد دفعه هذا الإيمان إلى أن يخوض الحرب بلا خوف ويصارع الطغيان بلا هوادة وينشد الحرية بلا تردد."[3]

إن البحث في مجال مثل هذه الشخصيات الوطنية والدينية ينبغي أن يقوم على استقراء طويل للمصادر الشفوية والنصوص المكتوبة في آن واحد، وإيراد هذه المرويات بألفاظها تدليل

على النتائج المستخلصة منها، إذ أن النص الشفوي أو المكتوب في البحث الأدبي والتاريخي يحل محل التجربة في البحث العلمي.

المناطق التي زرناها:

لقد قمنا بجمع هذا النوع من المرويات من بين السكان الذين يعيشون في المناطق التي كانت مسرحا لحركة الشيخ "بوعمامة"؛ أي بين الأفراد الذين شارك أسلافهم فيها أو ممن سمعوا من آبائهم أو أجدادهم ما كان يتداوله الناس عنها، وبخاصة في المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر. وكنا نختار كبار السن من كل قبيلة، حتى تكون الرواية أقرب إلى مصدرها من جهة وأثرى محتوىً من جهة أخرى، واستعنا – أحيانا – في الاتصال ببعض الرواة بأفراد نعرفهم حتى يكون الاتصال سهلا والحوار بنّاءً. وهكذا زرنا الكثير في منازلهم أوخيامهم؛ حيث سجلنا عنهم ما يروونه عن حركة الشيخ، وهم في غالبيتهم من كبار السن الذين عاشوا أكثر سني عمرهم قبل الاستقلال، حين كانت الحياة اليومية للناس بسيطة، مما سهل لهم الحفاظ على موروثاهم بعيدا عن تأثيرات العصر من وسائل إعلام ورفاهية عيش وسرعة مواصلات أبعدت المجتمع عن الاستماع إلى ما كان يرويه الأجداد للأبناء والأحفاد. وهؤلاء هم إما من أبناء شهود العيان أو من أحفادهم الذين سمعوا عن الحركة من آبائهم أوْ أجدادهم أو من مختلف الأفراد الذين شاركوا أو سمعوا من غيرهم، وذلك مباشرة أو عن طريق العنعنة.

وزرنا الأسواق الأسبوعية كسوقي عين الصفراء والأبيض سيد الشيخ، حيث تضم المنطقتان أكبر تجمعين لأولاد سيد الشيخ وللقبائل التي ناصرت الحركة من أتباع "خُدام" الطريقة الشيخية. وكنا نتقدم إلى الواحد من رواد السوق بكل لباقة ونعرض عليه مبتغانا والأهداف المتوخاة من ذلك، وإذا امتنع أحدهم كأن يطلب انتظار الوقت المناسب لعدم ملاءمة المكان والزمان، سهلنا له الأمر بأن نقترح عليه الانزواء في أحد أركان السوق لنسجل ما لديه أو الاستعانة بالسيارة المتواجدة عن قرب.

كما كنا نغتنم مناسبة إقامة موسمي (وَعْدَة) سيدي أحمد المجدوب ببلدة عسلة وسيد التاج ببلدة مغرار التحتاني التابعتين لمنطقة عين الصفراء، لنلتقي بالرواة من رواد الموسمين الذين لهم دراية بتراث الأسلاف، وقد استفدنا كثيرا من ذلك.[4]

وواصلنا التردد على المنطقة الجنوبية الغربية هذه -حيث جرت جل أحداث هذه الحركة- لنتصل بمختلف أفراد القبائل المنتسبة للعائلة الشيخية أو القبائل الموالية لها، والتي وقفت إلى جانب الشيخ بوعمامة. وكنا ننتقل إلى مختلف المناطق بدواً وحضراً لنتصل بهذا أو ذاك من الأشخاص المشهود لهم بالرواية المتقنة وأخبار الأسلاف.

كما زرنا منطقة دلدول بولاية أدرار حيث كان الشيخ لاجئاً (1883-1894)، والتقينا هناك ببعض أعيان بلدة أولاد عبو وبكبار السن منهم، وقد تمكنا من الإتصال برجل كان الشيخ مستقرا بدار أحد أسلافه[5]، وقد أمدنا هؤلاء بروايات شفوية مهمة. وكان لشيخ البلدية دور مهم في جمع هؤلاء لتسهيل الحوار معهم؛ حيث اجتمعنا بهم داخل "القصبة" ببيت الرجل المذكور، وقد شاهدنا هناك "مقام الشيخ بوعمامة"، وهو عبارة عن قبة أقيمت على ذكراه، بنيت في المكان نفسه الذي كان يقيم فيه الشيخ بوعمامة وأتباعه خارج القصبة، بعد أن ضاقت بهم هذه الأخيرة على اثر التحاق عدة قبائل به هناك. وقام سكان بلدة أولاد عبو بإعادة بناء القبة على إثر ردم الرمال للقبة الأولى وأقاموها فوقها مباشرة. كما يتواجد بالبلدة ضريح السهلي ابن الشيخ بوعمامة الذي توفي في تلك الفترة.

وراسلنا شيخ الزاوية الشيخية ببلدة عين بني مطهر بالمغرب الأقصى، وهو سليل الشيخ بوعمامة؛ حيث كان سيد الطيب بن سيدي بوعمامة، خليفة والده على الطريقة، قد استقر بعد وفاة والده. وقد أمَدنا شيخ الزاوية سي حمزة بن عبد الحاكم[6] بكُتيب عن "ملامح التصوف في فكر الشيخ أبي عمامة" لنجله بلحرمة الذي قدمه كمذكرة تخرج في شهادة الليسانس بجامعة وجدة؛ والذي اعتمد في مذكرته هذه على وثائق أصلية. وقد قابلنا الشيخ بعد ذلك في ماي من سنة 1999، حين قيامنا بزيارة المغرب، وتمكنا من الوصول إلى الزاوية بصعوبة لبعد مقرها عن بلدة عين بني مطهر بحوالي ثماني كيلومترات في طريقٍ فرعي. وكان وصولنا إلى الزاوية يوم جمعة، وقد حضرنا الدرس الذي ألقاه الشيخ قبل خطبة الجمعة وكان الموضوع فقهيا، وقد أصاب وأجاد وكأنه جده الشيخ بوعمامة يعظ مريديه وأتباعه، خاصة وأنه قصير القامة مثلما يقال عن جده. كما أشرف الشيخ بنفسه على الاختتام بأدعية متوارثة رغم أنه ليس موظفا بالمسجد.

أقمنا في الزاوية مدة يومين سجلنا خلالها رواية شيخها وبعض أتباع الطريقة، وقد أمدنا الشيخ بكتاب عن الضابط الفرنسي "ليوتي" **Lyautey**، وهو عبارة عن رسائل كان الضابط الفرنسي هذا قد بعثها إلى أسرته ورؤسائه، وهي أشبه بتقارير عن أوضاع المنطقة الجنوبية الغربية خلال فترة تواجده بعين الصفراء كقائد لإقليمها العسكري من سنة **1903** إلى **1906**. وكلف شيخ الزاوية ابنه "العربي" بمرافقتنا إلى الأماكن التي كنا نود زيارتها كبلدة وجدة وتاوريرت وعيون سيدي ملوك، واتصلنا ببعض الأساتذة ذوي الاختصاص في كل من جامعة الرباط وفاس ووجدة، وزرنا عدة مكتبات ومراكز المخطوطات وكانت النتيجة هامة.

طريقتنا في العمل[7]

كنا نبحث دائما عن الأشخاص الذين شارك أسلافهم في الحركة، وننتقل من عائلة إلى أخرى فنسأل عن الأفراد المشهورين بعملية القص عن الأسلاف، ورغم صعوبة الأمر إلا أننا تمكنا من الوصول إلى الكثير من هؤلاء. وكان سؤالنا دائما كالتالي: ما هي الأخبار التي ترووها عن الشيخ بوعمامة وكيف كانت مشاركة أسلافكم في حركته؟ فينطلق الراوي في سرد ما يعرفه بكل حرية وطمأنينة إلى أن ينتهي مما لديه. وغالبا ما كنا نطرح على الراوي أسئلة واستفسارات أثناء عملية القص أو بعدها، حول النقط الغامضة التي تحتاج إلى توضيح، أو حول معلومات نريد معرفتها ومعرفة رأي الراوي المعني فيها.

وقد استعملنا آلة التسجيل ذات الحجم الصغير التي تسهّل العمل في كل مكان، وإذا ماعدنا إلى البيت نقلنا ذلك التسجيل في كراسات خاصة دون تغيير، مع ترك هامش على اليمين لتسهيل عنونة عناصر المرويات في مرحلة لاحقة.

وكنا نجد– في أغلب الأحوال– كل القبول والترحاب من كبار السن هؤلاء، بل لقد عرض علينا بعضهم أن يمدنا بما لديه من معلومات حول الثورة التحريرية، لأنه شارك فيها، ولكننا كنا نعتذر عن ذلك لأنه لم يكن من مهمتنا في ذلك الحين، وألح علينا أحدهم كي نسجل عنه قصيدة حول ثورة أول نوفمبر ففعلنا ذلك مجاملة له.

ولم نلق أية صعوبة في الاتصال بالرواة الذين قصدناهم، رغم أننا لم نكن نحدد معهم موعدا للقاء، وهم في مجملهم من سكان البوادي والأرياف الذين يتميزون بالبساطة وحسن الاستقبال، ولا يشترطون موعدا ولا مكانا محددا، وقد اعتبر بعضهم دراستنا عملا مفيدا

ومحبذا، لأنه مرتبط برجل صالح ومجاهد؛ أما أولاد سيد الشيخ عامة فقد اعتبر الكثير منهم عملنا هذا خدمة للعائلة الشيخية وتسجيلا لموروثاتها وتخليدا لمآثرها.

نوع الرواة:

ينقسم الرواة الذين قابلناهم واعتمدنا على مروياتهم إلى قسمين:

أ-رواة لهم علاقة بالأحداث أي شهود عيان، وقد تمكنا من الالتقاء بثلاثة أشخاص جزائريين يتجاوز سنهم القرن، أما الرابع وهو سي الأخضر بن سيد الطيب حفيد الشيخ المستقر حاليا بتاوريرت بالمغرب الأقصى، فقد تجاوز القرن هو أيضا، إلا أنه فَقَدَ الذاكرة وهو لا يتذكر شيئا عن ماضيه. وقد توفي الثلاثة الأوائل، أما الرابع فما يزال على قيد الحياة (أفريل **2004**).

ب-رواة شارك آباؤهم أو أجدادهم في الحركة، وهم من مختلف القبائل الشيخية أوالمناصرة للمقاومة، المتواجدون في الجزائر والمغرب.

وقد لاحظنا أن هؤلاء الرواة يعتدّون في مجملهم بمروياتهم، وهم لا يَرْوونها إلا إذا وجدوا الأذن الصاغية، وكانت الثقة متبادلة بينهم وبين محاورهم، إذ يعتبرونها ذات قيمة جد محترمة، إن لم تكن مقدسة، وبخاصة مايروونه من كرامات. -ولأخبار الثورة التحريرية كرامات- والراوي يؤمن أشد الإيمان بجدية روايته ويوازيها بالتاريخ، أي إعطاء الرواية بعدا واقعيا، أي الدفع بها إلى واقعية صلبة ويقينية تتجاوز مجرد التخمين.

والسند وارد في مرويات هؤلاء الرواة، فمِن أجل إعطاء الرواية مصداقيتها اللازمة يورد الراوي أشخاصا ذوي مكانة في المجتمع وفي دائرة الشيخ، كالمقدَّمين (المقدم هو مساعد شيخ الطريقة) والآباء والأجداد الذين وقفوا إلى جانب الشيخ ورافقوه في تنقلاته وهجراته، ومن أحاديث كبار السن الذين هم أقرب إلى الأحداث من غيرهم من الذين يلونهم في السن. ومن الرواة من يؤكد أنه كان يجالس كبار السن ويستمع إلى أحاديثهم في طفولته وشبابه، وأنه لم يكن يشارك الأطفال لَهْوَهُم وألعابهم.

وقد تمكنا من جمع أكثر من مائة رواية من المناطق التي زرناها والتقينا فيها بالرواة، وذلك في كل من المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر في ولاية النعامة والبيض وبشار، ومن منطقة دلدول بأدرار، ومن سيدي بلعباس وتلمسان ووهران ومن عين بني مطهر في المغرب الأقصى.

ويتوارى هؤلاء الرواة عن الحياة يوما بعد يوم؛ حيث يتخطفهم الموت وتدفن معهم مروياهم بلا عودة. وقد توفي بالفعل عدد كبير منهم وبخاصة من تجاوز عمرهم الثمانين سنة حين قابلناهم، وبالتالي فإن ما قمنا به مع هؤلاء هو إنقاذ لجزء من التراث المروي، خزين الذاكرة الشعبية، المنقول أبا عن جد، والذي كان يمكن أن يقبر مع حامليه بلا رجعة.

كما اطلعنا على بعض المطبوعات التي كتبتها فرق من معلمي منطقة عين الصفراء والبيض بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لانتفاضة سنة 1881، والتي أحيتها السلطات المحلية في المنطقتين وأقيمت أثناءها مهرجانات الفروسية وأمسيات شعرية، وكتبت عنها الصحافة الوطنية آنذاك. ومن أشهر من زارهم هذه الفرق صحبة الصحفيين، هو أحد "خُدام" الشيخ، والمدعو فراجي المستقر آنذاك ببلدة قَنْدِي بنواحي بني ونيف، والبالغ من العمر قرنا وسبعة عشر سنة (117سنة) والذي توفي بعد ذلك في سنة 1983، لذلك لم نتمكن من مقابلته. وقد اتسمت كتابات هذه المطبوعات بالبساطة وسايرت الرؤية الشعبية التي تجعل بطلها هو المنتصر دائما، ولم يحسن كتابها استغلال الوثائق التي تحصلوا عليها استغلالا علميا، ومهما يكن من أمر فإنهم مشكورون على جهودهم وحسن نواياهم.

نتائج وملاحظات:

نود هنا أن نضيف ملاحظة هامة وهي أنه وبعد مرور فترة من الزمن أصبَحَت لنا نظرة واسعة عن مختلف الأحداث التي يرويها الرواة من خلال ما حصلنا عليه من معلومات ميدانية.

ونتيجة لهذا الإطلاع على الموضوع أيضا، استطعنا أن نصحح بعض الأخطاء التي وقع فيها بعض الكتاب الذين اكتفوا بالوثائق الرسمية الفرنسية مع الاستنتاج منها.

أ- وهكذا تمكنا من أن نعرف من يحمل ثروة معلوماتية ممن يفتقر إليها؛ وتبعا لذلك أيضا اكتشفنا زيف أحد الرواة الذي ادعى أنه شاهِد عيان لحركة الشيخ بوعمامة:

*من خلال المعلومات البسيطة التي يحملها.

*من خلال الأخطاء التي وقع فيها بعد إجاباته عن الأسئلة المطروحة عليه.

*من خلال مظهره الخارجي ومن قامته المنتصبة التي لا تدل على أنه تجاوز العقد التاسع من عمره، فكيف به يشارك في معركة تازينة سنة 1881! مثلما صرح لنا بذلك، وعكس ما نشرته بعض الصحف الوطنية من أنه تجاوز القرن، وذلك تبعا لتصريحاته هو نفسه.[8]

فمداومة الباحث على العمل في مجال محدد تجعله على دراية كبيرة بموضوعه ومعرفة ببعض الحيثيات المرتبطة بمجال بحثه، مما يساعده، في أحيان كثيرة، على التمييز بين الصادق في القول من المزيف.

ب- حول سي سليمان بن قدور:

ومن ذلك مثلا ما يذكره بعض الكُتاب الذين تعرضوا في كتاباتهم لحركة الشيخ بوعمامة، من أن سي سليمان بن قدور زعيم أولاد سيد الشيخ الغرابة، قد انضم إلى حركة الشيخ بوعمامة حين كان هذا الأخير لاجئا في الجنوب الجزائري، وذلك استنتاجا من الكتابات الفرنسية التي لا تعط التفاصيل الدقيقة عندما يتعلق الأمر بالأحداث المرتبطة بالطرف الجزائري؛ لأن ما كان يهمها هو كل ما يرتبط بالحركة الاستعمارية ويخدمها هي، ولا شيء غير ذلك.

بينما يجمع كل رواة الحركة أن سي سليمان بن قدور كان من أشد المنافسين له في زعامة أولاد سيد الشيخ، وقد اتهم سي سليمان الشيخَ بإجبار الناس على اتباعه دون حق، وأنه ليس أهلا للقيادة، وحاول القضاء على حركته باستمالة بعض القبائل التابعة للشيخ بوعمامة، وتمكن هو وقدور بن حمزة من صرف عدد من أتباع الشيخ عنه بعد انتهاء مرحلة الصدام المباشر مع القوات الفرنسية (**1881 -1882**)، وانضم إليهما بعض من كان مع الشيخ، وبقي البعض الآخر معه في واد زوزفانة.[9]

لقد كان هدف هدبن الرجلين هو اصطناع أكبر مايمكن من الخدام والأنصار من بين القبائل التي كانت تدور في فلك أولاد سيد الشيخ؛[10] بينما كان هدف الشيخ بوعمامة نشر الطريقة الشيخية من جهة، ومواصلة الجهاد ضد الفرنسيين من جهة ثانية.

كما يُذكر أن سي سليمان هذا كان قد حاصر زاوية الشيخ بوعمامة في ضواحي بلدة فكيك وتمكن من الاستيلاء على الزمالة بما فيها من متاع وأغذية وذخيرة، بعد أن قرر الشيخ الانسحاب وترك الزاوية بكل محتوياتها منعا لإراقة الدماء والتخفيف من حدة الصراع والتنافس بين أبناء الأسرة الشيخية الواحدة. ويَذكر الرواة أن لالة ربيعة زوجة الشيخ سألته:

- كيف نغادر المكان ليلا؟، فرد عليها قائلا:
- "قال لها احْنا خرَجْناها بْليْل وسليمان بن قدور يَخرُجْها بنهَارْ."[11]

ولا تزال إلى اليوم، تلك الحساسية قائمة بين أحفاد هذا وذاك، وهذا ما لاحظناه وسمعناه خلال تنقلاتنا بين القبائل المختلفة في الجزائر والمغرب على السواء.

وقد قتِل سليمان بن قدور على يد البْرَابَرْ من قبيلة أوش-شاون المغاربة بجبل الثلج، الذين خدعوه انتقاما لبعض رجالهم الذين كان قد قتلهم قبل ذلك، ولم يحس سي سليمان بن قدور بالمكيدة إلا بعد فوات الأوان، هو ورفاقه الإثني عشر فردا في النصف الثاني من سنة 1883، وبإشارة متفق عليها تم قتل الضيوف.[12]

ج- تسمية "بوعمامة":

يعتقد البعض أن الشاعر الشعبي محمد بلخير وقف إلى جانب الشيخ بوعمامة في حركته، اعتمادا على إحدى قصائده التي يخاطب فيها شخصا يُدعى "بوعمامة"، ونتيجة لهذه التسمية يظن القاريء أو المستمع أن الشخص المعني هو الشيخ بوعمامة المعروف، لكن الواقع أن بوعمامة المقصود هنا هو عبد القادر بن محمد المعروف بـ "سيد الشيخ" مؤسس الطريقة الشيخية وجَدّ أولاد سيد الشيخ المتوفي سنة 1025هـ/1616م، دفين بلدة الأبيض سيد الشيخ بولاية البيض. ذلك أن سيد الشيخ مثله مثل بقية المشائخ المرابطين والأولياء الصالحين لهم ألقاب وتسميات أطلقها عليهم مريدوهم وأتباعهم شرقا وغربا؛ وإلى جانب لقب "سيد الشيخ" و"بوعمامة" هناك ألقاب أخرى تطلق على هذا الولي وهي: القرْمامِي، زينْ القبابْ، رَحْلْ البَيْضا، مُولْ الفَرْعَة، مول القبابْ سَبْعَة، مول الشهْبا...[13]

والقصيدة التي وردت فيها كلمة "بوعمامة" هذه هي التي يقول في مطلعها:

يالفارَسْ حَشمْتك عِيدْ الأخبارْ وَاش حالْ القرْمَامِي رَايَسْ القوْمْ؟

والشاعر هنا يأتي بأحد ألقاب سيد الشيخ وهو "القرمامي"، ويفسِّر البيت الثاني والُموالي منِ القصيدة مَن هو المقصود فعلا بالمدح في هذه القصيدة، من خلال ذِكْره لمسألة هدم القبة التي نفذها الجنرال نيقري في 15 أوت من سنة 1881 انتقاما لهزيمة الفرنسيين في معركة تازينة في 19 ماي من السنة نفسها أمام قوات الشيخ بوعمامة، والتي ما هي سوى قبة سيد الشيخ التي كان المقاومون "من أولاد سيد الشيخ ومن لف لفهم-كما يقول بن منصور- كانوا يتعاهدون تحتها على قتال الفرنسيين."[14] وقد تأثر بهذا الحادث كل أولاد سيد الشيخ

وخدامهم، وحتى الذين كانوا تحت السلطة الفرنسية، كما أن الفرنسيين أنفسهم انقسموا إلى قسمين بين مؤيد ومعارض للقضية في الجزائر وفي فرنسا. والبيت هو:

الْيَائِكْ مَنْ الأبْيَضْ فرْحَة وْتبْشارْ الشيخ اتّبْنى وَإلا مازَالْ مَهْدومْ؟

ويبين الشاعر العدد الكبير من قوات العدو التي حضرت لهدم القبة في القصيدة نفسها ويقول:

نوبَة انْ دَارُوا بَالقبَّــة الكــفــار غيرْ غارْ نحَلْ وَإلا فَرْق جَحْمومْ!

وينعته في بيت آخر باسم "بوعمامة" ويَذكُر جَدَّه أبابكر رفيق النبي في البيت التالي:

بوعمامة مُولَى سَطْــوَة وْزِيَّــارْ وابّاهْ بين كتاب النبي المعصوم.

وفي البيت الموالي يشيد بمشيخة الرجل وبمكانته بين الناس فيقول:

بوعمامة يَعْطِي تسْبِيــحْ الأذكَــارْ بــوعمامة سَرّهْ للنــاس مَفهوم.

ومن الأبيات التي يستنجد فيها الشاعر بسيد الشيخ في القصيدة نفسها قوله:

أنت مْرَافَقني في صَحْرًا وقِفــارْ وشادْ اعْلامَكْ بِيدِي بية مَحْرومْ

وانت رْفيقي يومْ الحَزّة والاشوارْ وأنت مْسَلكْني بين القوْم وَالقوْمْ.

ويتبين لنا من البيت الموالي مَن المقصود بــ "بوعمامة" بإضافته لِلقب "مول القباب سبعة" في قول الشاعر نفسه:

نَغْدُوا للشيــخ بوعمامــة غــوَّارْ مولْ القبَابْ سَبْعَة راني عْليكْ شايَق

الفــرْعَــــــة بالتعْـــــزَازْ بَرْخامْ وزَليجْ يْبَــانْ غــيْر يَبْــرَق

وعْبيــده لابْســيْن مَلْــفْ تجــارْ وَلكْسي وبْرَانيسْ حْرير مَن لمزيــقْ.[15]

"والمعروف أن محمد بلخير (1835-1905) هو شاعر مقاومة 1864 ومن مداحي سيد الشيخ، وهو ينتمي إلى إحدى القبائل التابعة روحيا للطريقة الشيخية "خُدام"، وهي قبيلة الرزيقات من الأغواط اكسل. وفي قصائد الشاعر تفانٍ في خدمة سيد الشيخ، فهو يجعله في كثير من الأحيان قربانا أو وسيطا مُهِما عند الله ليقضي مصالح عامة... فبناءُ أغلب قصائده فيها معنى واحدا هو سلطة سيد الشيخ الروحية وتأثيرها على القناعات ومنطق الحياة من خلال قداستها وخوارقها الظاهرة والخفية."[16]

وهو يستنجد به في كل حين وآن، ويَذكره في أغلب قصائده سواء منها الحربية أو البكائية التي قالها وهو في السجن، ففي القصيدة السادسة من كتاب"Etendard Interdit" لبوعلام بسايح يبتديء القصيدة بما يلي استنجادا بهذا الشيخ ويقول:

دَبَّرْ عَني يا سلطان كُل امْشالي   يا سلاك الواحَل مَن ايْدين الروم

ادعيتك لله الواحد القيوم

دبر عَنِّي يا سيد الشيخ الوالي   يا رايس الأقطاب الفارس المعلوم.

ويواصل الأسلوب نفسه في كثير من أبيات القصيدة.

وفي القصيدة السابعة يستنجد الشاعر بسيد الشيخ ويقول:

رجال الله من توات إلى لسطيـــف   رَضّـــوا عَني الشيخ سقام الفرسان.

وفي القصيدة الثامنة من الكتاب نفسه يخاطب الشاعرُ سيدَ الشيخ حفيد أبي بكر خليفة النبي قائلا:

يا الرايس ولد خليفـــة البشيـــر   لا هَرّب دم اعضاك من جسدي

دبر لي كيما منين كنـــت صغـــير   ديـــر فوق ايدين الطايقين ايْدِي.

وفي القصيدة التاسعة يقول:

وانا سيد الشيخ سقام الفرسان   بجاهه امْعمر الفرعة.

ويقول أيضا:

ياسيد الشيخ دَوِّرْ عَني . . .   والتكْـــل على الله وانت

اعط نـــورك للمغـــني   وانعَرْني كي زمان فات.

وفي القصيدة العاشرة المذكورة سابقا والتي يذكر فيها بوعمامة، وقد مررنا على المدح الذي يوجهه لسيد الشيخ، يقول:

أنت ذخيرة قلبي وربيع الابصار   وأنت المالكني بعد افرايض الصوم...

وفي القصيدة الحادية عشرة بمنفاه بكالفي يستنجد بسيد الشيخ قائلا:

يا سايلنـــي لا تسَـــوَّلْ   خليني في احكام رَبَّ العالمين

نسْتنى كامل الخصايل   رحـــل البيضا إمام الصالحين.

ويقول أيضا:

شيخي في ذا البلاد غربة ضاقت روحي اعييت صابر
انجيني مـــن غير سَبَّــة ما جابــك نيــف لا معــاير
إذا كنــا علــى محبــة اتعإلى كي قبيــل غايــر.

وفي القصيدة الثانية عشرة يبتديء بمناداة سيد الشيخ بأحد ألقابه وهو "رَحْل البيضا" ويقول:

رحل البيضا ليه حُرْمْتك عارَك لا تنســانــي
جَبنا لك الصُّلاح ويْن طافــوا فــي كل بلاد
سَرَّحْني يا سيدي انجي نشوف وطنك وأوطاني
وانسال على الأحباب كان ما زالوا جارك عاد.

ويقول في القصيدة الثالثة عشرة مخاطبا سيد الشيخ بلقب "مول القباب سبعة":

من عند المحبوب ما جــاني بَشــار عَجِّل يا ربي يجيــني وإلا نجيه
مول سَبْع اقباب مَرْكَــعْ الزيــار مول السر الطاهر عليَّ رضيه.

وفي القصيدة الرابعة عشرة يفتتح شعره بما يلي:

سيد الشيخ حُرْمتك ليك هربت أنايــاَ سيــدي كــن مــعــــايـــا
من قاصد شيخ لازم عليه تبان افضــالُه رحل البيضا بعيد وانا باغي زَوْرَة لُه.

يتبين لنا إذن من خلال القصائد الأربعة عشر التي دَوَّنها بسايح، أن الشاعر يذكر شيخه في تسع منها مادحا أو مستنجدا. أما القصائد الخمس الأخرى فموضوعها الحب والغرام وبالتالي لا مجال لذكر الشيخ فيها. وهكذا نجد أن سيد الشيخ حاضر في أغلب قصائد الشاعر المعروفة، وهو الوحيد الذي يستنجد به.

وها هو الشاعر نفسه ينفي مدح أي كان من غير شيخه(سيد الشيخ) والرسول صلى الله عليه وسلم والله سبحانه وتعالى، وهذا في البيت التالي:

ماني مداح نجوع غير أنت والعدناني وإلا رب العز اللي عليه الرحمة والزاد.

(أنظر: بوعلام بسايح: **Etendard Intérdit** – ص: **115**)

وبوعلام بسايح، مثلا، لايشير إلى أية صلة مباشرة لمحمد بلخير المترجم له، في كتابه "Etendard interdit"، بالشيخ بوعمامة، وإذا ماذكره مع شخص ما فإنه يذكره إلى جانب قدور بن حمزة.

وقد أورد بسايح مثلا القصيدة التي رد بها محمد بلخير على قاضي البيض حين كان متواجدا بالجنوب المغربي.[17] فقد أصدر القاضي عطا الله فتوى وصف فيها المجاهدين بـ"الخارجين عن القانون"؛ وهي تشمل كل مجاهدي أولاد سيد الشيخ ولا تخص حركة الشيخ بوعمامة فحسب، ولكن قيام الشيخ بالحركة زاد الطين بلة للفرنسيين من جهة، ولأن زعيمَيْ أولاد سيد الشيخ الآخريْن كانا مايزالان في حركة معادية للفرنسيين آنذاك من جهة أخرى، من ذلك أن سليمان بن قدور هاجم بعض القبائل الموالية للفرنسيين بعد عودته من المغرب– في الوقت الذي كانت حركة الشيخ بوعمامة على أشدها– واتجه إلى الجنوب من منطقة عين الصفراء ولاحقته القوات الفرنسية؛ ولذلك سارع هؤلاء إلى استصدار مثل هذه الفتوى بعد قيام حركة الشيخ، في الوقت الذي كان الفرنسيون يظنون أن أولاد سيد الشيخ قد انتهى أمرهم. وكان رد محمد بلخير شديدا من خلال قصيدة طويلة منها:

قولوا لعطا الله واش كلفــك يا حزين ولاه تشمت في اللي ما لداهم قران

لَعْبَت بــك الدنــيا أيامــها فانييــن ما اخيار انتايَ وإلا كلاب رحمان![18]

ومما يؤكد ميل محمد بلخير إلى مقاومة 1864 البيت الوارد في القصيدة نفسها التي يذكر فيها أصحاب الضابط بوران Burin Dubuisson في قوله:

رانا ضَرْوَك راسْ النجوعْ مَتنزهين ما قعْدوا في الذل إلا أصحاب بوران.

كما أن حمزة بوبكر صاحب كتاب "Un Soufi Algérien، Sidi Cheikh" الذي تحدث فيه كثيرا عن تاريخ أولاد سيد الشيخ وعن الطريقة الشيخية وكل ما يرتبط بها، لايشير هو من جهته إلى مثل هذا الأمر.[19] بل إنه يوضح لنا من جهة أخرى موقف محمد بلخير المناهض لحركة الشيخ بوعمامة، مثله في ذلك مثل زعيمي مقاومة أولاد سيد الشيخ: سي قدور بن حمزة وسي سليمان بن قدور، الذيْن اعتبراه منافسا لهما، وأنه أفسد عليهما أمر الزعامة بصرف أتباع الشيخية عنهما، وبخاصة وأن محمد بلخير كان من رفقاء سي قدور بن حمزة حتى استسلامه سنة 1883؛ حيث يورد صاحب الكتاب المذكور بيتا لمحمد بلخير من القصيدة الميمية المذكورة

آنفا؛ يَعْتبر فيه حركة الشيخ بوعمامة السبب غير المباشر في هذا الحادث المهين وهو هدم القبة، وقد جاء البيت مترجما إلى اللغة الفرنسية، حيث أن المؤلف أورد كل القصيدة مترجمة، كالتالي:

Tout cela s'est produit à cause de ces gens qui ont déclenché la guerre sainte sans conviction religieuse، bien que les rigueurs du destin soient inéluctables.[20]

وقد أورد بوعلام بسايح البيت على الشكل التالي:

اسبابْها ذا الناس اللي جات هُجَّار بْلا محبة والوعد قضاه محتوم.[21]

ويذكرأن القصيدة كتبت بالقليعة في 1883-1884، وهذا يعني أن الشاعر لم يكن مع الشيخ بوعمامة. فهو حينا في القليعة (المنيعة حاليا) وحينا في تافيلالت وأخرى في البيض أو في كالفي بالمنفى. ومع ذلك فإن بسايح يرى أن المقصود بـ "بوعمامة" في القصيدة هو زعيم المقاومة في تلك المرحلة.[22] إلا أننا لا نوافقه على هذا للأسباب المذكورة سابقا. أما سي حمزة بوبكر فيذكر في كتابه "ثلاث شعراء جزائريين باللغة الشعبية"، أن المقصود بـ بوعمامة في القصيدة هو سيد الشيخ مثله في ذلك مثل قصْدِه بـ "المير" سيد الشيخ أيضا، ولا يقصد أبدا الأمير عبد القادر مثلما ذهب إليه بوعلام بسايح، وأن هذا الأخير لم يستند على مصدر محدد في هذا الأمر؛ إلا أن الكاتب يثمن عمل بوعلام بسايح المتمثل في كتابه المذكور هذا ويثني عليه.[23]

ومما يزيد من صحة وجهة نظرنا هذه هو ما ذكره الضابط الفرنسي "تريمولي" سنة 1892، الذي استند في تلك الفترة على روايات شعبية من رجال مشهود لهم بالرواية المتقنة عن الأسلاف، أن التسميات التي تطلق على سيد الشيخ عديدة منها: "سيد الشيخ الكبير" تمييزا له عن سيد الشيخ الصغير أحد خلفه والمدعو بن الدين، وأنه يعرف أيضا بـ"ولد بوبكر الصديق"، و"بوسماحي"، و"الحمياني"، و"العارف" و"المرابط" و"بوعمامة" و"رحل البيضا" أيضا.[24]

وإذا كان البعض يريد ربط الصلة بين محمد بلخير والشيخ بوعمامة للرفع من مكانة هذا الأخير أدبيا، فإن بوعمامة لا تنقصة القيمة الرفيعة التي فرضها ميدانيا منذ 1881 وحتى وفاته سنة 1908. ويكفيه من الشعر ما قيل في حركته من قبل شعراء معاصرين له وبخاصة ما قاله الشاعر الشعبي قدور المهناني في رثائه في قصيدة مشهورة مطلعها:

عزوني يا الناس فـي شيـخ العُـرْبان عزي وعنايتي مفتـاح أورادي

تبكي عيني على بوعمامة طو ل الزمان تبكي عيني على مْدَكس ميعادي.[25]

وما قاله الشاعر الشعبي البشير الجريري بن أحمد ولد علي:

واجَبْ الشكْران يْواتِي عْلى السّماحاتْ عَندَك لا تجيبْ عْلَى مَن وَإلى وْلا تعَدُّه

شوف يا وَدِّي وينْ اعْقابْـــها اتّـــلات بوعمامة قاعْ ادّاها وْجَـــات في ايدُه.[26]

وأما محمد بلخير فقد فرض نفسه في ميدان الشعر الشعبي ونُعِت بـــ"شاعر الحب والحرب". فقد مَجَّد مقاومة 1864 ومدح سيد الشيخ، وكان في كل ذلك بطلا بصوته وسلاحه، ذلك الشعر الذي صمد سنين طوالا من خلال انتقاله بين الشفاه من مكان لآخر بين سكان المنطقة الجنوبية الغربية كلها، إلى أن كانت الثورة التحريرية الكبرى المظفرة التي اندلعت سنة 1954.

أما الرواية الشفوية التي قمنا بجمعها حول الشيخ بوعمامة، فهي لاتتعرض للشاعر المذكور لا من قريب ولا من بعيد. وأما فيلم الشيخ بوعمامة الذي عُرض على الشاشة منذ سنين والذي يجعل الشاعر مصاحِبا للشيخ بوعمامة؛ فإننا نعتبر ذلك عملا فنيا وليس تاريخيا، أضفي على الفيلم مسحة فنية شاعرية، ولذلك وجدنا الشاعر يصاحب الشيخ طيلة الفيلم، يلقي قصائده الحماسية التي قيلت في مقاومة 1864 ويقاتل معه الأعداء، "هو شاعر عضوي وصوت الجماعة الذي تحيا الجماعة به الحاضر كجماعة موحدة عبر نقل هويتها التاريخية."[27]

خلاصة

نستنتج مما سبق أن الإستفادة من الثقافة الشعبية والإتصال بسكان المنطقة موضوع الدراسة مهم جدا ومفيد لكثير من المعلومات التي لايمكن معرفتها إلا بهذه الوسيلة؛ إذ أن الوثائق الرسمية لاتغطي كل الأحداث، وأن الرواية الشفوية كثيرا ما يكون "فيها من الأخبار التي قد تكشف عن الأسباب العظمى الخطيرة أكثر مما تكشف عنه التحليلات التاريخية المنظمة."[28] إن المزج بين المصادر المكتوبة والشفوية يعتبر من أسس الدراسات المضبوطة والقريبة من الواقع التاريخي، وبخاصة ما يتعلق منها بالتاريخ القريب كالمقاومات الشعبية والحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.

الهوامش

1-أنظر مقالتنا: "ببليوغرافيا حول الشيخ بوعمامة" في العدد الثالث من هذه المجلة، ص: 77.

2-مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق 1986، ص: 20.

3-نوري حمودي القيسي، البطل في التراث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1988، ص: 11.

4-توجد بلدة عسلة شرقي مدينة عين الصفراء بـ 70 كيلومتر، أما بلدة مغرار التحتاني فتوجد إلى الجنوب منها بحوالي 60 كيلومتر.

5-هو محمدي محمد بن أحمد بن عبد السلام، 75 سنة، فلاح، المقابلة في بلدة أولاد عبو بولاية أدرار في 28 ديسمبر من سنة 1994.

6-هو بوعمامة حمزة بن عبد الحاكم بن الطيب بن بوعمامة، شيخ الطريقة الشيخية الحالي، عين بني مطهر بالمغرب الأقصى ماي 1999.

7-أنظر مقالتنا "الرواية الشفوية والتاريخ" في العدد الأول من هذه المجلة.

8-هو الزناتي العيد ولد محمد، المشهور في بلدة راس الما بولاية سيدي بلعباس بـ "حفار الآبار"، المقابلة في بلدة شطوان بالولاية نفسها في جوي 1995، توفي الرجل سنة 2002. وقد نشرت جريدة الشعب في أحد أعدادها أن سن الرجل هو 150 سنة، والجريدة كانت متواجدة مع الرجل.

9-أنظر: Charles Robert Agéron، Les Algériens musulmans et la France، imprimerie Tardy Bourges، France 1968. P 65.

10-أحمد مزيان، فجيج، مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر، مطبعة فجر السعادة، المغرب 1988، ص: 488.

11-رواية عدد كبير من الرواة من أولاد سيد الشيخ.

12-عبد القادر خليفي، المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة، أطروحة دكتوراه دولة نوقشت بكلية الآداب اللغات والفنون بجامعة وهران في 2000-2001، ص: 155.

13-نفسه ص: 430.

14-عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، الجزء الثاني، المطبعة الملكية، الرباط 1979.ص:76.

15-جلول يلس والحفناوي أمقران، المقاومة الجزائرية في الشعر العربي الملحون، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر 1975، ص: 92.

16-ع. خليفي، المرجع السابق، ص: 430.

17- Boualem Bessaih، Etendard interdit، la bibliothèque Arabe Sindbad Paris 1979. P 78.

18-أنظر: Ibid P/ 138

19- Si Hamza Boubakeur، Un Soufi Algérien Sidi Cheikh، Editions Maisonneuve et larose Paris، 1990.

20-أنظر: Si Hamza Boubakeur، ibid، P/ 253.

21-أنظر: Boualem Bessaih. Ibid P/ 124.

22-أنظر بوعلام بسايح، هامش البيت المترجم إلى الفرنسية: Ibid P/ 92.

23-أنظر: Si Hamza Boubakeur، Trois poètes algériens de langue populaire، Editions Maisonneuve et Larose، Paris 1990، P/ 18 et 19.

24-أنظر: Trumelet c. L'Algérie légendaire، Presses de D. Jouaust Paris 1892، P/ 159 et 160.

25-أنظر سي حمزة بوبكر، المرجع السابق، ص:259. والذي يذكر في ص: 256 أن الشاعر هو المهناني قدور بن لخضر من متليلي، وأنه قال القصيدة بتاريخ 27 رمضان 1326هـ/ الموافق 20 أكتوبر 1908م، فهل نسبة الشاعر لمتليلي تعني أنه من الشعامبة؟ الواقع أننا التقينا بالراوي بن مشيش عبد الحاكم (88 سنة) في شهر أوت من سنة 1996 ببلدة المشرية ولاية النعامة وأخبرنا أن قدور المهناني هذا من قبيلة الزغم من أولاد سيدي عبد الحاكم، أي أنه من أولاد سيد الشيخ، وأن هذا الراوي تعلم القرآن على يديه في زاوية الشيخ بوعمامة بعد وفاة هذا الأخير. ويذكر الراوي أن أحفاد المهناني متواجدون في بلدة عين بني مطهر بالمغرب الأقصى، أما بني عمومته الآخرين فهم متواجدون ببلدة تانيرة بنواحي سيدي بلعباس.

26-أنظر الملحق من أطروحتنا السابقة الذكر.

27- عبد القادر جغلول، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ترجمة سليم قسطون، دار الحداثة، بيروت 1984، ص: 161.

28 -عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، دار النهضة العربية، القاهرة 1968، ص: 217.

الجزائريون المقيمون في تونس والثورة التحريرية من خلال كتاباتهم في الصحافة التونسية 1955-1956.

أ./ براهمة بلوزاع

المقدمة: كانت السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية غنية بالأحداث على المستويين الخارجي والداخلي، أدت في نهايتها إلى تغيير جذري للعلاقات التي تربط الدول المستعمِرة والدول المستعمَرة، بل و بين الشعوب في ما بينها، تكرّس التوجه نحو تصفية الاستعمار الذي لم يعد قضاءا وقدرا على الشعوب التي ابتليت به. في خضم هذه الظرفية عاش البعض من الجزائريين في البلاد التونسية سواء كطلبة أو كجالية كان للاستعمار دور رئيس في تكوّنها هناك، حيث أدركهم اندلاع الثورة التحريرية والتي كان لهم أن يتأثروا بها رضوا بذلك أم أبوا. فكيف تم ذلك؟ وما هو الدور الذي لعبه جزائريو تونس في السنتين الأوليتين من الثورة الجزائرية؟

1- الدعاية للثورة في أوساط الشعب التونسي:

كانت المهمة المستعجلة للجزائريين هو توضيح للتوانسة أن الأمر في الجزائر يتعلق بثورة حقيقية تحريرية، وليس مجرد "فلاقة" أو "قطاع الطرق" كما كان الإعلام الفرنسي- ممثلا في وكالة الأنباء الفرنسية بالخصوص- يصور الثوار الجزائريين، بعدما تأثرت بهذا الطرح الصحافة التونسية خاصة تلك الناطقة باسم الحركة الوطنية التونسية- مما يجعل الضرر كبير جدا- كجريدة "العمل" "l'action" الناطقة بالفرنسية التي دأبت على نعت "أحرار الجزائر" الوطنيين الثائرين بالعصاة "Rebelles"، وهذا تزوير فاضح للحقائق، لأنه في هذه الحالة- كما يجادل الجزائريون-"...يجوز لنا أن نسمي [حتى] الزعماء بورقيبة وبن يوسف ومحي

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر- المركز الجامعي مصطفى سطمبولي- معسكر.

الدين القليبي مجرمين [لمجرد أهم] ثاروا على الظلم والبؤس والفقر. ولم يرضوا بالحالة المؤلمة التي يحياها الشعب [التونسي]..."[1]. هذا الأمر فتح الأعين على وجوب شرح أسباب الثورة للأخوة في تونس، حتى لا يتأثروا بالدعاية الفرنسية ليكونوا خلصا للثورة الجزائرية.

إن الدافع الأساسي للثورة هو الظلم وهو "... السبب الرئيس في ثورة الأمم على الاستعمار، وإذا اشتد الاضطهاد على أمة فبشّر باستقلالها"[2]. ذلك ما كان يتنبأ به الإمام عبد الحميد ابن باديس على صفحات مجلة الشهاب[3]. كان الشعب الجزائري يضج من الظلم الاستعماري إلى حد يجعل رجلا معتدلا مثل فرحات عباس يقول سنة 1953: " لا يوجد حل آخر غير الرشاشات"[4].

لقد أشارت كل الكتابات إلى أهمية عامل الظلم في نشوب الثورة التحريرية. فالاستعمار قد "... داس كرامتنا، ولوث شرفنا المجيد بعد أن افتك منا أرضنا الخصبة وأرزاقنا الكثيرة المتعددة ظلما وعدوانا وأخرجنا من بيوتنا تجبرا وعتيا، وجعلنا عبيدا مهانا [كذا] في الوقت الذي انتهى دور العبيد [...] أصبحنا في بلاد أجدادنا أذلاء بعدما كنا أعزاء، ألم يفتك منا مساجدنا العتيقة ويقلبها [...] كنائس وبيعا، وحتى بيوتا للفسق والفساد [...] مثّل بأحرارنا الأبطال وزعمائنا الأبرار، وملأ منهم السجون والمحتشدات لا لشيء فعلوه، ولا لجريمة ارتكبوها سوى أنهم يريدون لنا الحياة السعيدة، حياة الشرف والكرامة..."[5]. ومن ذلك تيقن الجميع أن «... لا حياة لهم ترجى إلا من هذا السبيل، سبيل رفع السلاح، والصعود إلى الجبل حيث الأمن والحرية التي اشتد عطشهم إليها [...] وحيث يجدون الراحة التي ما بعدها راحة، راحة الضمير وراحة النفس اطمئنانا"[6].

كان الظلم موجها ضد جنس بأكمله "الشخص يسحق لكونه جزائريا دون اعتبار آخر، لفائدة أقلية أوروبية متسلطة."فالشرطي الذي يجلد أو يعذب أوروبي، صاحب العمل أو القيّم أوروبي، الضابط أوروبي الأستاذ أوروبي، الاحتقار أوروبي، والفاقة عربية..."[7]. أي أن المغنم للأوروبي والمغرم على الجزائري... في جزائر فرنسية غنية وقوية، حيث الاحتكارات والأقلية المالية هي التي تصنع القانون..."[8] فكان لابدّ من الانفجار خاصة حين تجري المقارنة بين المستوى المعيشي الذي تعيشه الجالية الأوروبية ونظيره الذي يعيشه الجزائريون، أناس في أعلى القمة وأناس آخرون في القاع[9]. لن تسلم هذه الجالية في امتيازاتها، وستفعل أي شيء للمحافظة

عليها حتى ولو خرّبت الجزائر وفرنسا على السواء[10]، فهي كالسرطان لا تعيش إلا الوضعيات الشاذة، راحتها من شقاء الشعب الجزائري[11]. فلا حل لهذا الأمر إلا الثورة وحمل السلاح ضدها. إنه وضع متعفن يثير سخط وغضب حتى الأطفال على فرنسا، ويدفعهم إلى الثورة التي يفهمونها، بالتمرد على المدرسة الفرنسية[12] – إن كانوا من المحظوظين ودخلوها –، وربما اتهموا الأجداد بأنهم لم يقاوموا الاحتلال في بدايته، وبأنهم "... استكانوا إلى الراحة وتركوا البلاد تئن أنينا تحت هذا الطاغي الذي لا يعرف لا رحمة ولا شفقة ؟..."[13]. رغم ما في هذا الكلام من تجريح للأجداد إلا أنه دليل على مبلغ الوعي الذي بلغه الشعب الجزائري خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية.

لقد اكتسح هذا الوعي العالم[14] متعززا باستقلال كل من الهند، الباكستان، إندونيسيا، سوريا ولبنان، وأخيرا لم يعد الاستعمار قضاءا وقدرا. ويحق للشعب الجزائري أن يطالب بوجوده "... كأمة قائمة الذات والمميزات لها جميع حقوق الأمم وعليها واجباتها ضمن الأسرة الأممية الكبرى العاملة لخير الإنسانية والسلام العالمي..."[15] إلا أن ذلك يعتمد أولا وقبل كل شيء على لغة السلاح، خاصة وأن الجزائر كانت عبارة عن ثلاث عمالات فرنسية، وجزء لا يتجزأ من فرنسا، بل "الجزائر هي فرنسا" في نظر كل فرنسي لكن دون الجزائريين المسلمين.
كانت الجزائر في حاجة إلى التحرك، وقد تحرك جيرانها في الشرق والغرب خصوصا تونس نظرا لسبقها في الثورة، فزاد سخط الشعب الجزائري وتململه[16] وهو يشاهد ويسمع عن نجاحات الثورة التونسية وأهمها تسجيل القضية التونسية في جدول أعمال الأمم المتحدة، الشيء الذي جعل اندلاع ثورة الجزائر مجرد قضية وقت، وجاء الوقت المناسب في الفاتح من نوفمبر 1954 لتعم الثورة كامل المغرب العربي إلى أن يقع ما اعتبره البعض من طعنة أخوة في الظهر، وذلك بتوقيف القتال وإبرام اتفاقات الحكم الذاتي التونسية الفرنسية.

2- الموقف الجزائري من الاستقلال الدّاخلي لتونس:

كان تصريح قرطاج ليوم 31 جويلية 1954 – والذي اعترف فيه رئيس الحكومة الفرنسية "منداس فرانس" بالاستقلال الداخلي لتونس[17] – نقطة البداية في طريق أدى إلى استقلال تونس التام في 20 مارس 1956، بعد تجربة قصيرة من الحكم الذاتي ابتداء من 03 جوان 1955، الشيء الذي أدّى إلى توقف المقاومة المسلحة التونسية نهائيا بتسليم أسلحة

المقاومين في شهر ديسمبر 1954 أي في الوقت الذي انطلقت فيه الثورة الجزائرية في شهر نوفمبر 1954.

لم يرض هذا الأمر الجزائريين خاصة وأنهم في بداية الطريق وفي حاجة ماسة إلى المساندة، مما جعلهم يرفعون عقيرتهم لاستنكار استسلام المقاومة التونسية، معتبرين ذلك "عار على تونس" و"نقطة سوداء تسجل في تاريخ تونس الحافل بالبطولة الحق والمواقف الرهيبة والكفاح المرير والجهاد المقدس..."[18]. أما تجربة التفاوض، فتجربة خاطئة[19]، تنكرها الأمة الجزائرية وتصفها بكل سوء[20]، نتج عنها استقلال خال من كل معاني الاستقلال[21] حسب ما يراه هؤلاء.

لقد تحمل الديوان السياسي للحزب الدستوري الحر وزر هذه التجربة فوجهت له الكثير من الاتهامات أقلها أنه ارتكب جناية على الحركة الثورية بالجزائر عندما أرغم الثوار التونسيين على الاستسلام[22]. الملاحظ أن هذه ليست المرة الأولى التي يتعرض فيها الديوان السياسي للانتقاد من طرف الجزائريين بل ذلك يعود إلى أيام مشاركته في حكومة شنيق التفاوضية خصوصا عند موافقته على إصلاحات 08 فيفري 1951، فكأنه "... ضرب القضية المغربية [المغاربية] عامة من خلف وفي وقت عصيب..."[23]. إن أنصار الدّيوان السياسي– في نظر البعض من الجزائريين – أناس انتفا عيون دون مبادئ يدافعون عنها، ووصل الأمر إلى حد مهاجمة بورقيبة – باعتباره رئيس الحزب ومهندس المفاوضات والاتفاقيات مع فرنسا – بواسطة منشورات أذيعت في الجزائر العاصمة[24].

لهذا فقد اتخذ الجزائريون جانب الصالح بن يوسف في معركته ضد بورقيبة، خاصة وأنه كان ينادي بسقوط اتفاقات الاستقلال الداخلي، وبوجوب مواصلة الكفاح المسلح إلى غاية الاستقلال التام للبلدان الثلاث – تونس، الجزائر والمغرب – عن فرنسا دفعة واحدة. "وقد جرّ عليهم هذا الموقف مضايقات وملاحقات من طرف الشرطة التونسية عقب انتصار جناح بورقيبة"[25].

لعلّ هذا الموقف الذي اتخذه الجزائريون كان بتأثير من تلك المنشورات وكذا البلاغات التي كان يصدرها الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني لتأييد الصالح بن يوسف ضد الحبيب بورقيبة.

تضاءلت الانتقادات بعد تحقق الاستقلال التام لتونس، وتحكّم الحبيب بورقيبة في الأوضاع وإن ظهر البعض منها فبطريقة لينة وخافتة[26]. ويحق لنا أن نتساءل لماذا كلّ هذا لهجوم على الحكم الذاتي التونسي ؟

رأى الجزائريون في نهاية المقاومة المسلحة في كلّ من تونس والمغرب، عزلة عسكرية للجزائر[27] بغلق مسارب التموين بالسلاح خاصة إذا اتفقت فرنسا مع أسبانيا التي تحتل شمال المغرب. وهذا يعني اختناق الثورة الجزائرية وموتها وهي في المهد، خاصة وأنّ كلّ الأجهزة الأمنية والعسكرية بقيت في يد فرنسا ولمدة عشرين سنة مع مراقبة الحدود والمجال الجوي[28]. إذن اتفاقات الحكم الذاتي لم تفعل شيئا إلاّ أنها حررت قوات إضافية، تحولها فرنسا إلى الجزائر لقمع الثورة، وتتيح لها الفرصة لتستجمع قوتها للضربة الأخيرة، مع توفير ميزة إضافية وهي تقليل المصاريف العسكرية التي كانت تثقل كاهل الميزانية الفرنسية[29]، وهذا كله يؤدي إلى أن "... تزيد قدم الاستعمار رسوخا في الجزائر فيكتب له بذلك الخلود، وتعيش الجزائر المسكينة محتلة احتلالا أبديا سرمديا..."[30] وذلك هو الخوف الأكبر.

أما بورقيبة فكان يؤمن دوما بأولوية الاستراتيجية السياسية على العمل العسكري[31] وبأنه يستحيل تكوين قيادة عامة تسيّر من القاهرة الثورات في البلدان الثلاث التي هي في مراحل مختلفة من التطور والنضج، ولأن الحركة الوطنية التونسية هي الأنضج والأشدّ تطورا والأكثر تنظيما وهي التي بدأت النضال أولا فمن حقها أن تكون الأولى التي تعقد اتفاقا مع فرنسا لاسترجاع جزء من الاستقلال كمرحلة أولى والاستقلال الناجز كمرحلة ثانية في أقصر مدة لا تتجاوز الستة أشهر نظرا للظرفية المغاربية الملائمة-بحسب إفادة محمد لبجاوي-[32].

أدى هذا الجدل العقيم إلى اتفاق ضمني بين الطرفين خاصة بعدما تيقّن الجزائريون أنه "...ليس ثمة حكومة مغربية أو تونسية تقبل بأن ترى بلادها في حالة حرب فيما هي تنال الاستقلال ولو مقرونا ببعض التحفظات"[33]. دفع هذا الوعي الجزائريين إلى كسب ود القادة التونسيين والمغاربة، قصد تحويل هذين البلدين المجاورين إلى قاعدتين أساسيتين لنشاط الثورة السياسي والدبلوماسي والعسكري، ومن جهة ثانية فإن زخم الثورة وموقف الصالح بن يوسف دفع الحبيب بورقيبة إلى التصلب في سياسته نحو فرنسا[34] وبالتالي تحقيق الاستقلال التام لتونس، والتي قدمت ما عليها وزيادة على درب استقلال الجزائر. أقلها وجود جالية جزائرية تعيش في

هذه الأرض منذ عقود، لا بدّ من التكفل بها والتعامل معها في هذه الظروف العصيبة، والتي قدرت المعروف – من جانبها – وتفهمت الوضع الجديد، وتحملت مسؤولياتها.

3– وعي جزائري تونس بذاتيتهم:

تواجد الجزائريين في تونس كجالية منذ فجر الاحتلال الفرنسي للجزائر، حيث كانوا دائما يجدون المأوى والمأمن بعد الهجرة إليها سواء أكانت اختيارية أو إجبارية. فلا نخال أن تكون الجالية الجزائرية بتونس – وإن عزتنا الإحصائيات – كثيرة العدد. لقد تحمّل جزائريو تونس مسؤولياتهم بتأييد طموح شعبهم للتحرر، وذلك بالتنديد بما يتعرض له من قمع وقهر وتدمير، لدى السلطات الاستعمارية في باريس[35]. ولما لم يشفع هذا الاحتجاج، تأكّد لهم ألا حلّ أمام الجزائر إلا استعمال القوة لاسترجاع حقوقها المهضومة منذ ما يزيد عن القرن وربع القرن فاندفعوا في تأييد جيش وجبهة التحرير الوطنيين. لا شكّ أن الاستقلال التام لتونس والذي أيده جزائريو تونس[36] قد ولّد في نفوسهم تأكيد الذاتية الجزائرية.

كان الجزائريون يعتبرون "فرنسيين مسلمين" حسب القانون الفرنسي وتواصل الأمر في تونس حتى بعد استقلالها واندلاع الثورة التحريرية التي أعادت النظر في كلّ الأسس التي قام عليها الوجود الفرنسي بالجزائر. فكان لابدّ من أن يتحرك جزائريو تونس لإعادة الأمور إلى نصابها بأن أكدوا بأنهم ليسوا "فرنسيين مسلمين" لأنه لقب كريه"[37] بالنسبة لهم. وتوجهوا إلى الشعب التونسي طالبين منه اعتبارهم جالية عربية مسلمة "لا فرنسية" لأن "... الشعب الجزائري الثائر لم يثر ثورته الجامحة هذه إلا دفاعا عن كرامته وعزته وعروبته وإسلامه ومحق هذه الأسطورة الخرافية التي يتشرف بها الفرنسيون والانسلاخ من هذه الجنسية التي ألحقت بنا قرنا وربعا ونحن منها براء يشهد بذلك إسلامنا وعروبتنا وما قاساه الشعب الجزائري من إهانة وذل وعذاب [...] فإن كان الشعب الجزائري كبيره وصغيره، شيوخه وشبانه، نساؤه ورجاله يذهبون ضحية العدوان في سبيل هذا الأمر الجلل، ثم نأتي هنا ونرضى بهذه الجنسية الممقوتة ونرضى أن نبقى نعامل كالفرنسيين فما نحن إلا خونة مارقون حقت علينا غضبة الشعب، ويل للمرء من غضبة الشعب الجريح المكافح [...] إنا عرب مسلمون فعاملنا معاملة العرب المسلمين [...] نريد أن [الشعب التونسي] تعتبرنا جزائريين مسلمين عرب، نحن من الجزائر وإلى الجزائر العربية ننتسب في سبيل الجزائر نحيا ونموت"[38].

4- موقف الطلبة الجزائريين بتونس من اندلاع الثورة:

كان الطالب الجزائري بتونس متعطشا للثورة، وقد سنحت له الفرصة أن يقارن بين الأوضاع بالجزائر ونظيرها بتونس، ليخلص أنه لا فائدة من الاستعمار، ولا حل أمام الشعوب إلا الثورة ولذا فلا نظن أن اندلاع الثورة في الجزائر قد فاجأت الطلبة الجزائريين، خاصة وأن الثورة كانت معتملة - بشكل أو بآخر - في تونس والمغرب المجاورتين للجزائر.

فتفاعل الطلبة مع الثورة منذ انطلاقتها[39]، فانطلقوا بدورهم للقيام بالواجب الملقى على عاتقهم، فشارك الطالب "... إلى جانب متابعته لدروسه في ثورة شعبه الصامد في كفاحه فعرّف بقضية بلاده، وانتقد السياسة الاستعمارية بقلم (فتي) ولكنه سام ولاذع فتاك... كما حطّم فريق آخر من الطلبة أقلامهم وآثروا مخاطبة الاستعمار بما يفهمه، والتحدث إليه بلغة صريحة لا تقبل التأويل هي لغة الرشاش والقنابل اليدوية..."[40]

وكان هناك طريق ثالث لإظهار الثورة على الاستعمار، وهو الإضراب اللاّنهائي عن الدّراسة، كما فعل باقي الطلبة الجزائريين المنبثين في فرنسا والجزائر الذين أضربوا منذ 19 ماي 1956 فأضرب الطلبة الجزائريين بتونس استجابة لنداء جمعية الطلبة الجزائريين[41] أظهروا ذلك على صفحات الجرائد[42] إلا أن البعض لم تقنعه هذه الخطوة واعتبرها قاصرة عن أداء المهمة، ولا يرى حلا إلا الالتحاق بالجبال والأخذ بثأر ضحايا الاستعمار الأبرياء، لم يطل انتظار هؤلاء، حيث صدر نداء الطلبة الزيتونيين للعودة إلى الدراسة في سبتمبر 1956 [43] رغم أن الإضراب تواصل في الجزائر وفرنسا إلى غاية أكتوبر 1957، والسبب في ذلك هو حرص جبهة التحرير الوطني على المستقبل الدراسي لإطارات الجزائر المستقبليين بتفادي الانقطاع الطويل عن الدراسة، خاصة وأن كلّ الدّلائل كانت تشير إلى أن نهاية الحرب في الجزائر لن تكون في القريب العاجل[44].

ورغم مشاركة وامتثال الطلبة لقرارات جبهة التحرير، إلا أن الملفت للانتباه هو أنهم لم ينضموا إلى الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بمجرد تأسيسه سنة 1955. ويبدو أنه كانت هناك خلافات بين الطلبة[45] بين مجموعة تريد الاحتفاظ بجمعية الطلبة الجزائريين كإطار تقليدي ممثل للطلبة[46] وبين مجموعة أخرى تريد إنشاء جمعية جديدة ربما لتكون فرعا للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين[47] استمرار الخلاف أدى بالطالب يحي بو عزيز إلى كتابة

مجموعة مقالات بعنوان رسالة الجمعيات[48]، حاول فيها تشريح عمل وأهداف وأهمية الجمعيات بل وحتى كيفية النضال داخلها، ودعى إلى الوحدة في العمل، إلا أن دعوته ذهبت أدراج الرياح، ولم ينته الخلاف إلا بتدخل جبهة التحرير الوطني وإنهائها الوجود الرسمي لجمعية الطلبة الجزائريين بالدعوة إلى انتخاب فرع للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في 12 ماي 1957 [49] واستيعابهم في هياكل الجبهة، كمجندين أو مكلفين بالقيام بأعمال الدعاية(المساهمة في تحرير جريدة المجاهد) والتموين وتعليم اللاجئين والإشراف على مرافق حيوية متعددة[50].

إن السنة الأولى من حياة الثورة الجزائرية بالنسبة لجزائريي تونس هي فترة التعرّف على هذا المولود الذي أعطاهم الإحساس بأنهم فعلا متميزون عن فرنسا ذوي انتماء خاص بهم، بينما كانت السنة الثانية فترة الارتماء في أحضان الثورة و الدعاية لها، السنة التي شهدت الزخم الأكبر من كتابات الجزائريين في الصحافة التونسية إلى حد يمكن اعتبار هذه الكتابات هي الناطق الرسمي باسم الثورة في تونس قبل إنشاء جريدة المجاهد.

الهوامش:

1- العربي الونيسي: "أمجرمون أم وطنيون"، الأسبوع، 04جويلية 1955، ص 06.

2- اعشتروت: " قوة الشعب أقوى من أن تقهر"، الصباح، 02ديسمبر 1956، ص 04.

3- المصدر نفسه

4- Charles - Robert Ageron: Histoire de l'Algérie contemporaine: de l'insurrection de 1871au déclenchement de la guerre de 1954، T2، PUF، paris، 1979، p 617.

5- محمد الشريف المقراوي: "لماذا ثارت الجزائر ؟"، الصباح، 15 ديسمبر 1956، ص 03.

6- المصدر نفسه

7- J.F. Lyotard: la guerre des algériens: écrits 1956 - 1963، ed. Galilée، Paris، 1989، pp 45-46.

8- Ferhat Abbas: autopsie d'une guerre-l'aurore، Ed.Garnier frères، paris،1980، p 63.

9-محمد الشريف المقراوي: "لم أنت ثائر يا سعيد"، الصباح، 30 ديسمبر 1956، ص 03.

10-العابد بوبقيرة: "حرب جائرة من أجل كمشة نذلة"، الزهرة، 12 جويلية 1956، ص 02.

11- أحمد محجودة الجزائري: "الثائر المجهول"، الصباح، 17 نوفمبر 1956، ص 03.

12-حمادي بغريش: "بالعصي... لا بالفكر"، الصباح، 05 جويلية 1956، ص 03.

13- محمد الشريف المقراوي: "لم انت ثائر يا سعيد ؟".

14- مفدي زكريا – محمد الحاج الناصر: "فلنتحدث حديث رجل مع رجل، ولنتفاهم بشكل أوضح"، الصباح، 12 فيفري 1956، ص 03.

15- دون إمضاء: "بعد إدراج قضية الجزائر في الأمم المتحدة"، الزهرة، 04 اكتوبر 1955، ص 01.

16- الحبيب بن ناسي: "الثورة الجزائرية وكيف نشأت ؟"، الأسبوع، 23 جانفي 1956، ص 03.

17- Voir le texte intégral in Mohamed Sayah: le Néo-Destour face à la troisième épreuve 1952 - 1956 -. la victoire، col « Histoire du mouvement national tunisien. Documents XIV »، ed. Dar El Amal، Tunis، 1979 ، pp 325-331.

18- العربي الونيسي: "عار عليك يا تونس"، الأسبوع، 26 ديسمبر 1955، ص 10.

19- فضيل الورتلاني: الجزائر الثائرة، دار الهدى، عين مليلة، ط3، 1992، ص 51.

20- توفيق المدني (تصريح للعلم المغربية): الزهرة، 02 ديسمبر 1955، ص 02.

21- ع. م: "لقد جاء"صالح" وألقى عصاه. "الأسبوع، 21 نوفمبر 1955، ص 02.

22- الحبيب بن ناسي: المصدر السابق.

23- عبد الرحمان بالعقون: "الإصلاحات المهينة"، الأسبوع، 12 فيفري 1951، ص 04.

24- محمد لبجاوي: حقائق عن الثورة الجزائرية، دار الفكر الحر، 1971، ص 124.

25- مراسلة الشاعر محمد الأخضر السائحي بتاريخ 19 مارس 1999.

26- يحيى بو عزيز: "الصباح في معارك التحرير: و "صوت الجزائر الحرة""، الصباح، 27 أكتوبر 1956، ص 03.

27- Une lettre de Ben Bella à Krim، Bentobbal et Boussouf daté du 26 avril 1958 in Mohamed Harbi: les archives de la révolution algérienne، ed. Jeune Afrique، Paris، 1981 ، p 187.
28- Charles-André Julien: Et la Tunisie devint indépendante (1951-1957، ed. Jeune Afrique، Paris، 1985 ، p 194.
29- Fathi Al Dib: Abdel Nasser et la révolution algérienne، ed. L'Harmattan، Paris، 1985 ، pp 123-124.
30- حمادي بغريش: "نهاية تخشاها فرنسا..."، الصباح، 07 أوت 1956، ص 02.
31- Jean Rous: Bourguiba: L'homme d'action de l'Afrique، ed. John Didier، Paris 1969، p 167.
32- محمد لبجاوي: المرجع السابق، ص 115.
33- المرجع نفسه
34- Samya El Machat، les états-unis et la Tunise: de l'ambiguïté à l'entente: 1945-1959، ed. l'harmattan، col « Histoire et perspectives méditerranéennes »، Paris، 1996 ، p 83.
35- "برقية من الجزائريين بتونس إلى رئيس الحكومة الفرنسية":الزهرة، 04 أوت 1955، ص 01.
36- أحمد بالويس: "برقية تهنئة إلى رئيس الحكومة التونسية"، الصباح، 23 مارس 1956، ص 04.
37- "نداء من جزائريي تونس": الزهرة، 20 ماي 1956، ص 02.
38- المصدر نفسه.
39- مراسلة الدكتور يحي بو عزيز بتاريخ 24 مارس 1998.
40- حمادي بغريش: "تحية أدبية إلى الطالب الجزائري من شاب تونسي"، الصباح، 17 ماي 1957، ص 03.
41- نداء إلى جميع الطلبة الجزائريين، الصباح، 29 ماي 1956، ص 02.
42- الطاهر وطار: "إنا راحلون"، الصباح، 06 أكتوبر 1956، ص 03.
43- نداء من جمعية الطلبة الجزائريين: الصباح، 28 سبتمبر 1956، ص 04.
44- Guy Pervillé: « les étudiants algériens en guerre 1955 ، -1962 » in armée، guerre et politique، en Afrique du nord: XIXe-XXe siècles، ed. Presse de l'Ecole Normale Supérieure، Paris، 1977 ، p 69.
45- نداء من الاتحاد العام، الطلبة المسلمين الجزائريين إلى الطلبة الجزائريين بتونس: الصباح، 22 مارس 1956، ص 03.
46- يحي بوعزيز: "لم نختلف أبدا..."، الصباح، 04 مارس 1956، ص 04.
47- إبراهيم زعيوب: "علام نختلف ؟"، الصباح، 24 فيفري 1956، ص 03.
48- الصباح: 20 ديسمبر 1956 و 1.04.16.27 جانفي و 06 فبراير 1957.
49- الصباح: 11 ماي 1957.
50- محمد الصالح الجابري: وآخرون، الأدب العربي شمال إفريقيا: مقالات نقدية، وببليوغرافيا وصفية، دار مهجر كمبريج ماساشوستس 1982، ص 37.

ضـــريح عـــائلة الملك صيفـــاقس.

أ./ رابـــــح لحسن

الموقع: يقع الضريح بسيغا على الضفة اليمنى لوادي تافنة، على بعد 4 كلم من مصب الوادي وحوالي 1 كلم شمال شرق دائرة بني رنان، و13 كلم غرب بني صاف. يعلو احدى قمم جبل سخونة [1] على ارتفاع 221م فوق سطح البحر، و يشرف على افاق واسعة منها: وادي التافنة، وموقع سيغا القديم غربا والبحر وجزيرة رشقون وخليجها شمالا، وجنوبا حاجز جبال تلمسان، وشرقا سبا الشيوخ.

بني هذا المعلم بالحجر المنحوت، من النوع الكلسي اللين المسامي، واستعمل لربط الحجارة إسمنت وملاط متكون من الجير و البزولان البركاني [2] والرماد [3].

يتشكل جبلي سخونة وسيغا من طبقات صخرية يغلب عليها النوع البركاني او البزولاني، وهو ما سمح بتوفر المادة الخام للبناء. إلى جانب هذا هناك محجران آخران غنيان بالحجر الكلسي، احدهما يقع في الهضبة القريبة من بني رنان، والآخر قريب من المنطقة المسماة حجرة القط الغنية بمادة الجص، اما الرماد البركاني فقد استخرج من الأرضية التي تشكل اساس المعلم [4].

2 –التسمية والأصول الهندسية:

لقد ارتبط ضريح سيغا منذ مطلع القرن العشرين بعادة محلية شائعة في المنطقة، فآهالي البلاد يلقبونه بكركورالعرايس،[5] حيث جرت العادة ان يقوم الزوجان في يوم الزفاف بالدوران حول الضريح عدة مرات، الغرض منه ضمان الوفاء والإخلاص بينهما. غير انه وبسبب عدة عوامل لم تعد هذه العادة تمارس من طرف الآهالي.

*- أستاذ التاريخ القديم – قسم التاريخ – جامعة الجيلالي ليابس- سيدي بلعباس.

ينتمي معلم سيغا إلى النوع الثاني من الأضرحة البرجة ذات التأثير الهلنسي- الفنيقي، وهي التي تنفرد بتصميم سداسي الزوايا وجوانب تتعاقب في الإنحناء والإستقامة، اقدمها ضريح هونشير بورغو بتونس[6] المؤرخ في نهاية القرن III، وضريح صبراته (B) [7] في ليبيا المؤرخ في القرن III أو II ق.م [8]. يستوحي هذا الأخير الذي يشبه كثيرا ضريح سيغا [9]، هندسته من مزيج من الفن المعماري الهلنسي- الإسكندري المتمثل في: أعمدة وتيجان أيونية، ركن جداري ناتيء، قمة هرمية، والفن الفنيقي المتميز بتكثيف عناصر زخرفته: كالتماثيل ــ فتيان واسود ــ سماكة الأعمدة الأيونية، وتثقيل نضد البناء فوق الأبواب الوهمي [10].

3 ــــ انتهاك وهديم الضريح:

لم يبق من المعلم اليوم الا قسمه السفلي الذي يبلغ علوه 4 امتار، اما قبوه الأرضي فيبدو انه تعرض إلى انتهاك وهديم متعمدين منذ زمن بعيد، حيث لاحظ فيمو **Vuillemot** أثناء حفرياته سنتي 1960-1961 آثار تضرر كبير مسّ الحجارة المتناثرة حوله من شدة قوة التحطيم [11]، وكذلك ضربات المعول في عدة جهات من المعلم.

إلى جانب هذا عثر على عدة احجار تحمل العديد من الأشكال الهندسية في وسط الركام لازالت في حالة جيدة، مما يدل على ان المعلم تعرض للتهديم ولم يمر على تشيده فترة طويلة [12].

أثناء زيارتنا للموقع، لم نتمكن من تحديد ما لاحظه فومي، ذلك ان حجارة المعلم وحتى المتساقطة منه تبدو متضررة اكثر من قسوة الطبيعة، فوقوعه في قمة جبلية مرتفعة قريبة من البحر جعله اكثر عرضة لمظاهر الحت وفعل المياه والرياح. اذا كان فيمو يرى ان الضريح تم تحطيمه أثناء غزوات ماسينيسا لمملكة ماصيصليا [13] بعد معركة زاما سنة 203 ق.م، فالراجح ان يكون هدم أثناء تحطيم سيغا العاصمة، ويعزز اكثر هذا الرأي ما ذكره سترابون سنة 20 ق. م عن هذه المدينة حيث يقول: "هناك مدينة سيغا على بعد اقل من الف غلوة [14] من ملوية...عاصمة صيفاقس وهي الآن مهدمة" [15] غير انه لم يحدد تاريخ حدوث ذلك.

اننا لاندري بالضبط في أي فترة تم تحطيم هذه المدينة، هل أثناء غزوات الماصيل في الغرب في النصف الأول من القرن II ق. م ؟ ام خلال نصفه الثاني، أثناء حكم يوغرطة ؟ ام خلال حكم بوكوس الأول او الثاني في النصف الأول او الثاني من القرن الأول ق. م ؟ يصعب

علينا الفصل في هذه المسألة. اذا كان سترابون قد اشار اليها كمدينة مهدمة في العشرينات من القرن الأول ق. م فالأرجح في نظري انها هدمت في النصف الأول من القرن الأول ق. م إبان الحروب الأهلية الرومانية التي دارت رحاها في ارض المغرب: الأولى مابين سنتي 49 و47 ق.م بين قيصر وبومبي، والثانية في الفترة مابين 43 و36 ق.م بين انصار اوكتافيوس وانطونيوس؛ وقد شارك في هذه الحروب ايضا حكام بربر امثال: يوبا الأول، آرابيون، هيرباص، بوغود وبوكوس الشاب.

يبدو ان اهميه سيغا التاريخية والإستراتيجية، دفعت الولاة الرومان إلى اعادة بنائها من جديد بدليل ذكرها سنة 70م كمدينة هامة ذات كثافة سكانية معتبرة **Oppidum Syphacis Regia** من طرف بلين القديم [16]. وفي القرن الثاني عرفت المدينة تحت حكم السيفريين نموا ملحوظا، حيث تشير المصادر القديمة إلى ادراجها ضمن خانة البلديات الرومانية [17] **Municipium**، كما تم تزويدها ببعض المنشآت المدنية والدينية لاسيما حمامات كركلا والأنطونيين.

4 -الدراسات والحفريات:

أولى وأهم الحفريات [18] التي استهدفت دراسة هذا المعلم، كانت من طرف الفرنسي فيمو مابين سنتي 1960-1961، وتتلخص أعماله فيمايلي [19]:

-رفع الأنقاض المتراكمة حول كتلة الضريح، وإخلاء القبو الأرضي من الأتربة والحصى التي غمرت قسما هاما منه نتيجة تحطيم بعض الأجزاء من التبليط العلوي والأبواب الزلاقة بداخل القاعات.

-قام بإستخراج أثاث مدفني متواضع.

-وصف الضريح ومحاولة إعادة تشكيله.

-دراسة الأثاث الجنائزي ووضع مخطط المدفن القبوي.

إلى جانب هذه الأعمال، قامت البعثة الألمانية مابين سنتي 1977 و1979 وبالتنسيق مع مختصين جزائيين، بحفريات منظمة في موقع سيغا القديم والضريح [20]؛ وفيما يتعلق بالمعلم تمكنت الفرقة الآثرية من التعرف اكثر على مخططه الهندسي الداخلي، واعادة تشكيل مظهره العام اعتمادا على تصنيف ودراسة مختلف القطع الهندسية والزخرفية المتناثرة حول محيطه [21].

5- الوصف:

أ- الشكل الخارجي: بني الضريح فوق طبقة صخرية تتشكل من البازلت واللافا والتراب البركاني [22]، وهي ارضية سميكة تبدو مناسبة لتشييد بناء شاهق على ارتفاع كبير فوق سطح البحر. يحيط بقاعدة المعلم ساحة مبلطة تشكل سقف المدفن الأرضي، بنيت ببلاطات موضوعة بشكل متعرج سمكها يصل إلى 0،30م.

يبلغ ارتفاع القسم المتبقي منه 4م، حيث يتكون من ثلاثة مدرجات سفلى تعلوها قاعدة مشكلة من 8 مداميك، طول محيطها 22،39م، اذ يرسم مخططها شكل مثلث ذو واجهات مقعرة ومستقيمة طول كل واحدة منها 3،90م. يبدو ان شكله الهندسي هذا، جعل فيمو يقول ان مخطط الضريح كان في الأصل مستدير وان حجم البناء هو الذي دفع المهندس إلى تغير مخططه الدائري، ليعطيه هذا الشكل حتى يخفف من ثقل البناء. إلى جانب هذا يرى هذا الباحث ان تشابه تقنيات بنائه مع قبر تيبازة، يسمح بإعتبار نموذجه كمرحلة انتقالية بين المعالم الإسطوانية والمباني البرجية [23]. يظهر ان نظرية فيمو ليس لها مايدعمها، فقد اثبتت الحفريات التي اجريت في سنوات السبعينات ان التصميم السداسي الزوايا ذو الجوانب المنحنية والمستقيمة، لم ينفرد به ضريح سيغا فحسب، بل استعمل مثله في ضريحي صبراتة A وB وهونشير بورغو، وهو بهذا يعد نموذجا فنيا خاصا، ونوعا هندسيا مستقلا مثله مثل المخططات الهندسية الأخرى.

لقد سمحت ملاحظة ودراسة مختلف احجار ركامه، من اعادة تشكيل الأقسام العلوية للضريح [24] الذي يُعتقد ان يصل ارتفاعه إلى 30م [25]. ويتشكل البناء العام حسب راكوب من ثلاثة اقسام رئيسية هي:

-دكة ذات ثلاثة درجات، تعلوها قاعدة مسدسة الزوايا لها ستة واجهات: ثلاثة مقعرة وثلاثة مستقيمة، وتنتهي بكورنيش.

-يرتفع فوق القسم القاعدي طابق ثاني، وفي كل واجهة من واجهاته المنحنية ينفتح باب وهمي مؤطر بعمودين وتيجان على الطراز الإيوني، يعلوه نضد بناء منته بكورنيش ذي حلق مصري [26]

-بناء هرمي متعدد الأوجه يشكل قمة الضريح [27]، وتماثيل زخرفية من المحتمل جدا انها كانت تزين القمة الهرمية [28]

ب-القبو الأرضي:

هيئ أسفل قاعدة المعلم، ويشكل مخططه المعقد نموذجا فريدا، حيث صمم تقريبا على شاكلة المخطط الهندسي الخارجي [29]، أي مسدس ناقص ذو جهات اربعة فقط: اثنان مستقيمة واثنان منحنية؛ فتناظر نظامه Symétrie غير كامل، بحيث يفتقد إلى واجهتين اخريتين، منحنية ومستقيمة في الجهة الشرقية والشمالية الشرقية، ولايمكن ان يتناسق ويكتمل المخطط الداخلي الا بوجودهما.

يمتد المدفن على طول 45م، ويتكون من عشرة غرف [30] بعضها مستطيل والبعض الآخر مربع، حيث تشكل سلسلة متتالية سقفها مقبب وأرضيتها غير مبلطة، ولها ارتفاع مشترك يقدر بـ2،60م وطولها يتراوح مابين 2،60م و5،60م[31]، أما عرضها فيتراوح ايضا مابين 1،95م و2م. جدرانها وضعت مباشرة على الأرضية بدون اساس وبنيت بالحجر المنحوت يشد بعضه بعض بملاط يتشكل من الجير، الكلس والرماد البركاني [32].

تتوزع هذه القاعات على ثلاثة مجموعات يفصل بينهما اسوار سميكة [33]، وعلى كل واحدة منها ينفتح باب ذو بلاطة مزلاقة، وبإستثناء المجموعة الثالثة المكونة من غرفة واحدة تقع في اقصى الشمال، فإن جميع القاعات المجموعة الأول والثانية تتصل فيما بينها بواسطة ممرات علوها 0،90م ومجهزة بمداخل ذات اقواس قوطية [34].

6- الأثاث الجنائزي:

على خلاف ضريح الخروب، لم يعثر في قبوه الأرضي الاعلى اثاث متواضع [35] يتشكل غالبيته من قطع فخارية بعضها مصنوع باليد والبعض الآخر مدولب، تمثل في معظمها شظايا مرمدات بعضها يؤرخ إلى القرن الثالث ق. م والبعض الآخر يؤرخ إلى نهاية القرن الثاني ق.م [36].

ويتمثل الأثاث المكتشف [37] في مايلي:

- مصباح عربي مبرنق.
- عنق مصباح يشبه السندان صنع في القرن الثاني ق.م.
- عمق صحن اسباني ـــ مورسكي مبرنق.
- بقايا زجاج رقيق وقطعة من رصاص.

– شفرة سكين.

– كسر فخارية تمثل دنان **Amphores** يمكن تعريفها كالتالي:

– جرّات من نوع لومبوغليا **Lamboglia** تحت إشارة 1C [38]، تؤرخ حسب فيمو إلى نهاية القرن الثاني ق.م.

– جرتان أخريتان تؤرخان إلى نهاية القرن الثاني ق.م: الأولى من نوع لومبوغليا **4** ذات عمق منتفخ، والثانية ذات عنق يشبه فتحة البوق [39].

– قطع من عنق احدى الجرات تحمل كتابة بونيقية غير كاملة باللون الأحمر [40].

– جرتان صغيرتان كاملتان، إحداهما ذات بطن كروي شائعة الإستعمال في القرنين الثالث والثاني ق.م والأخرى منسلة تؤرخ إلى القرن الثالث ق.م.

إلى جانب هذا، توصل فيمو بعد غربلة منظمة لكامل الأتربة التي كان يعج بها القبو إلى اكتشاف شظايا عظام حيوانية وبشرية وجدت مبعثرة في العديد من القاعات ولاتحمل أي آثار للحرق [41] ؛ هي عبارة عن عظام طويلة، فقريات وعظم الفخذ.

يبدو أن العثور على دنان طينية إلى جانب عظام بشرية، قد يجعلنا نعتقد على غرار صومعة الخروب، في ممارسة نوعين من الدفن:

*– الحرق: ربما وضعت بداخل بعض الجرات رماد الميت بعد حرقه، ثم المحل في التراب بعد تكسيرها من طرف الناهبين.

*– تجريد الجثة من اللحم: ربما جردت جثة الميت من لحمها ووضعت بداخل الجرات، وبعد انتهاك المعلم حطم الناهبون الجرار وعبثوا بما فيها، وهو ما يشهد عليه العظام المبعثرة في بعض القاعات. وبما ان هذه العظام لاتحمل أي آثار للحرق، فمن المحتمل الها جردت بشكل طبيعي [42]. لاشيئ بثبت صحة هذا او ذاك.

7– تأريخ الضريح: اغلب الباحثون ينسبون هذا الضريح إلى الملك فرمينا **Vermina** وعائلته، الذي يكون قد حكم ما بين سنتي **201** و**191** ق.م على ما تبقى من مملكة ابيه صيفاقس بعد غزو ماسينيسا لماصيصليا [43]. يصعب علينا تصديق او نفي ذلك، فتاريخ سيغا غير معروف خلال القرن الثاني ق.م، كما ان المصادر القديمة لم تذكر الملوك او الأمراء الذين تعاقبوا على حكم نوميديا الغربية عقب انتهاء الحرب البونية الثانية ؛ أي في

الفترة ما بين نهاية حكم فرمينا سنة 191 ق.م وبروز الخلاف النوميدي على العرش حوالي سنة 118 ق.م.

وتشير من جهة اخرى هذه المصادر، إلى مملكة ماصيصيليا كقوة كبيرة في المغرب في نهاية القرن الثالث ق.م تحت حكم صيفاقس (220- 203 ق.م)، حيث لعبت دورا بارزا أثناء الصراع الروماني-القرطاجي [44]. وبناء على هذا من المحتمل جدا ان يكون الضريح شيد في النصف الثاني من القرن الثالث ق.م، أي في فترة قوة الماصيصيل، ووجه خصيصا لدفن أفراد العائلة الملكية التي كانت تقيم في العاصمة سيغا. ويعزز هذه الفرضية شيوع استعمال هذا النوع من الأضرحة- المسدسة الزوايا- في تلك الفترة، بدليل أن أضرحة صبراتة (A، B) وهونشير بورغو المشابهة له تؤرخ حسب بعض الباحثين إلى القرنين الثالث والثاني ق.م كانت تقيم في العاصمة سيغا.

بالتأكيد لم يضم القبر رفاة الملك صيفاقس الذي توفي حسب تيت ليف اسيرا في المنفى بإيطاليا [45]، لكنه يحتمل جدا أن يكون دفن فيه خلفاءه الوراثيين كفرمينا وعائلته، و يشهد على ذلك تعدد قاعات القبو والعثور على عظام بشرية في بعضها.

من المحتمل أيضا أن حكام نوميديا الغربية استطاعوا مقاومة توسعات ماسينيسا في المناطق الغربية من مملكة ماصيصيليا، وأن هذا الأخير يكون قد اكتفى حتى العشريات الأخيرة من النصف الأول من القرن الثاني ق.م، بالإستيلاء على الجهات الوسطى من الجزائر الحالية لينشغل في التوسع شرقا على حساب ممتلكات قرطاجة. وتبعا لهذه النظرية فإن موطن الماصيصيل الغربي، لم يخضع نهائيا لسيطرة الملوك النوميديين الشرقيين بعد ماسينيسا الا في النصف الثاني من القرن الثاني ق.م، ليصبح منذ نهاية هذا القرن الأخير تحت نفوذ مملكة بوكوس القديم الموسعة.

الإحالات:

(1) سميت هكذا حسب شهادة احد العارفين بالمنطقة، لأن صخورها من أصل بركاني، وهذا ما لاحظناه أثناء زيارتنا للموقع.

(2) نوع من الصخور البركانية، ضارب إلى الإحمرار.

(3) Cf. Vuillemot G.، Fouilles du mausolée de Beni-Rhenan، C. R. A. I. B. L.، 1964، p. 72.

(4) Ibid.، p. 90.

(5) تستعمل هذه الكلمة غالبا للدلالة على ركام حجري يتخذ كإشارة او كمعلم لتحديد مكان ما. Cf. St. Camps، G. Aux origines... rites... p. 56 ; Gsell، Histoire ancienne... t. VI، p. 185. من المحتمل ان آهالي المنطقة اطلقوها على هذا النصب حينما كانت تغمره الأنقاض، أي قبل الكشف عن شكله الهندسي الخارجي (الصورة 13) ومخططه الداخلي ؛ يبدو ان هذه التسمية ليست لها أي علاقة مع الضريح، بدليل ان معظم السكان المجاورين يجهلون كون هذا المعلم يمثل قبرا، فالسلف عندهم حسب شهادة بعضهم لايعدو كونه اساطير، حيث يعتقد هؤلاء ان المبنى يحتوي بداخله كنوز تحرسه كائنات خيالية.

(6) Cf. Weiremmi، J. A. Bourgou (Henchir، Mausolée)، Encyclopédie bèrbère، X، 1991، Alger، 1983 ; Camps، G. Mausolée princiers... p. 54.

(7) نسبة إلى مدينة صبراتة بليبيا التي تعد احدى المدن الثلاثة لأقليم طرابلس ؛ هذا الأخير انسلخ عن الهيمنة القرطاجية بعد معركة زاما لينضم إلى مملكة نوميديا الموحدة، وبالتالي من المحتمل جدا انه شيد في تلك الفترة، من اجل أعيان نوميديين. وإلى جانب هذا المعلم يبدو ان هناك ضريح آخر من هذا النوع في صبراتة يسمى (A)، يعتقد انه اكثر قدما. Cf. Camps، G. Mausolées princiers... p. 54.

(8) Rakob، F. op. cit. p. 146 ; Camps، G. Mausolées princiers... p. 52. وعن شكله الهندسي وإعادة تشكيله انظر: Di Vita، A. Il mausoleo punicohellenistico B di Saratha، R. M. D. I.، t. 83، 1976، pp. 273-285 ; Id.، Mélange d'école française de Rome، t. 80، 1968، p. 7، 31.

(9) سواء من حيث المظهر العام او المخطط الهندسي، غير انهما يختلفان من حيث المدفن القبوي، فضريح صبراتة مثل دوقة لايتوفر على مدفن ارضي، وانما قاعات مهيئة في الطابق الأول والثاني، بينما يتشكل مدفن ضريح سيغا من سلسلة من القاعات مهيئة اسفل البناء.

(10) Camps، G. Mausolées princiers... p. 54 ; Rakob، F. op. cit. p. 146-149.

(11) Vuillemot، G. art. cit. p. 75.

(12) Ibid.، p. 91.

(13) Ibid.، p. 92.

(14) وحدة قياس رومانية.

(15) Lethielleux، J. op. l.، p. 362.

(16) Ibid.، p. 361.

(17) قبل هذا اشار اليها الجغرافي بطليموس سنة 140م بإسم مستعمرة رومانية Colonia Romana.
Ibid.، p. 361.

(18) يظهر ان اولى الحفريات التي جرت في هذا المعلم، كانت في سنة 1921 من طرف الفرنسيين، غير انه لم يُنشر أي تقرير عن ذلك، ونحن لانعرف شيئا عن نتائج هذه الأعمال. Cf. Malik Fodil et Chermat، Mohamed. Beni-Saf، passé et présent، Reportage dans le journal quotidien Le Matin، du 18/09/1995 au 24/09/1998.

(19) Cf. Vuillemot، art. cit. p. 71-95.

(20) انظر: Rheinsches landesmuseum Bonn، Die Numider، Heinz Gunter Horn und ChristophB. Ruget، Rudolf Habelt Verlag GmbH، Bonn.

(21) انظر: Rakob، F. op. cit. p. 151-156.

(22) Ibid.، p. 150.

(23) Cf. Vuillemot، G. art. cit. p. 93-95.

(24) بشكل تقريبي فقط لأن انقاضه لم تعد تسمح بإعادة تشكيله، اذا كان بعضها محطم فالبعض الآخر مهشم بفعل مياه الأمطار وعمل الحت.

(25) Camps، G. Mausolées princiers... p. 55.

(26) مثل ما إعتقد ذلك فيمو. Cf. Vuillemot، art. cit. p. 77-78.

(27) يرى راكوب انه من الصعب جدا التأكد ان كانت قمة المعلم الهرمية مدببة او ذات شكل دائري.
Rakob، F. op. cit. p. 151.

(28) لقد عثر أثناء حفريات 1978 على تمثالين نصفيين احدهما يرمز إلى ذكر والآخر إلى انثى، مما جعل راكوب يعتقد انهما يمثلان الزوج الملكي. Cf. F. Rakob، op. cit. p. 151. إلى جانب هذا عثر فيمو على حجر منحوت نحت عليه زخرف يمثل رأس إنسان ؛ يرى هذا الباحث ان هذا الشكل ليس له علاقة بالشخصية المدفونة بقدر ما يمثل صورة احد الآلهة الشفيعة، ويحتج على ذلك بعدم وجود تشابه بينه وبين الصور التي نصادفها غالبا في النقود المورية والنوميدية. Vuillemot، art. cit. p. 78-79.

(29) يبدو ان تهيئة مخطط القبو بهذا الشكل، دفع فيمو إلى عدم استبعاد وجود غرفة سرية اسفل النواة المركزية للمعلم. Cf. Vuillemot، art. cit. p. 83.

(30) يبدو ان تعدد قاعات القبو دفع راكوب إلى القول ان المدفن اعيد تهيئته بشكل يتناسب مع الدفن الجماعي. Cf. Rakob، op. cit. p. 152.

(31) لمعرفة مقايس الغرف، انظر: Ibid.، p. 80.

(32) Rakob، F. op. l.، p. 152-153.

(33) يبدو ان هذه الأسوار حطمت منذ مدة طويلة من طرف الناهبين، مما جعل القبو اكثر طولا وتعقيدا، وهو مادفع آهالي المنطقة في نظري إلى الإعتقاد في "وجود نفق ارضي طويل يربط بين المعلم وموقع سيغ القديم و يمر حسب رأيهم اسفل وادي تافنا ". ان طول المسافة التي تفصل الضريح بسيغا، وهي حوالي 4كلم ووقوع وادي تافنا في وسطهما، وارتفاع جبل سخونة، تجعلنا نستبعد اطلاقا فكرة وجود نفق على هذا النحو.

(34) Vuillemot، G.art. cit. p. 80، 84.

(35) لاشك ان الآثاث الثمين تم نهبه منذ أمد بعيد.

(36) Ibid.، p. 89 ; Rakob، F. op. cit. p. 153-154.

(37) Vuillemot، G. art. cit. p. 86-89.

(38) Lamboglia، N. Sulla chronologia delle anfore romaine، in Rev. Et. Lig.، 1955، p. 248، fig. 15. عن فيمو: G. Vuillemot، art. cit.. p. 89.

(39) Ibid.، p. 247، fig. 1.

(40) هذه ترجمتها حسب فيفري Fevrier: B° L Z W YD، عن: Vuillemot، G. art. cit. p. 89.

(41) Ibid.، p. 88-89

(42) ولمزيد من التفاصيل حول هاتين الشعيرتين انظر، لاحقا.

(43) Cf. Camps، G. Mausolées princiers... p. 55 ; Vuillemot، G. art. cit. p. 92 ; Rakob، F. op. cit. p. 154.

(44) Tite-Live، L. 28، Ch. 17. عن Lethilleux، J. op. cit. p. 326.

(45) يخبرنا هذا المؤرخ، ان الجمهورية الرومانية، اخذت على عاتقها مصاريف تشييع جنازته في تيبير بإيطاليا. Cf. Tite-Live، XXX، 45.

مصادر البحث "العلمي" ومنهجيته في العالم القديم: مصر نموذجـــــا.

أ./ أم الخير العقون صاحبي.

مقدمة: لا أريد من وراء طرح إشكالية إذا ما كانت هناك علوم منظمة تتبع أساليب بحث ممنهجة عند المصريين القدامى (أو العالم القديم عموما)، أو طرح قضايا العلوم والفنون والخروج بنتائج مسبقة، بل أن أحدد مفاهيم من بينها: البحث وطبيعته في العالم القديم، ثم أساليب البحث والمحيط الحضاري آنذاك .

إنني أعلم مسبقا أن الموضوع معقد وشائك ، ذلك لأن مفاهيم و مصطلحات قد ارتبطت في أذهان الباحثين حول التاريخ القديم، يصعب الآن زحزحتها أو مناقشتها أو حتى التعليق عليها، لاعتبارات فكرية ومعرفية منها: ارتباط مفاهيم ومصطلحات كثيرة في ميدان البحث بالعصر الحديث، إذ لا يمكن حسب بعضهم إسقاط معيار أو أسلوب أو منهج سار عليه العلم الحديث–كان تتويجا لجهد استغرق مئات السنين بل الآلاف - على جملة من المنجزات الفكرية والعلمية وقعت في حقبة تاريخية يحكمها نظامها ومنطقها الخاصين، مثلما هو الشأن عند المصريين القدامى.و لا أجد مانعا في أن أعيد طرح هذه المسألة (حركة الإنجاز الفكري في مصر القديمة وارتباطها بجملة من الأساليب والمناهج) على ضوء معطيات تاريخية بحتة.

ونشدانا لهذا الهدف، سيتبع بحثنا الخطوات التالية:

– محاولة ضبط لمصطلحات علمية مثل: البحث – العلمية – المنهج .
– مناقشة فرضيات في شأن وجود أو عدم وجود علوم منظمة في ذلك العصر.
– رصد لأهم المنجزات (العلمية) في مصر القديمة.

* أستاذة التاريخ القديم بقسم التاريخ وعلم الآثار– جامعه وهران السانية .

أولا: ما هو البحث ؟

ليس الهدف من هذا السؤال هو إعطاء تعريف قاموسي للكلمة، بل محاولة ضبط هذا المصطلح وتتبع تاريخه إذا أمكننا ذلك، ومحاولة للإجابة عن هذا السؤال، يمكن القول بأن "البحث" "Recherche"، هو عملية تقصي عن الحقائق علمية كانت أو غير عملية، وذلك بطرح السؤال وإعادة طرحه حتى يتمكن المرء من محاصرة ما يقضّ مضجعه؛ فليس هناك علم أو تقدم علمي إلا عن طريق البحث.

ا- بين المعرفة والعلم: يتفق جلّ الباحثين على أن المعرفة أوسع وأشمل من العلم ذلك لأن المعرفة تتضمن معارف علمية وأخرى غير علمية، ونستطيع أن نميز بينها على أساس قواعد المنهج وأساليب التفكير التي تُتبع في تحصيل المعارف.

فإذا سار الباحث علىقواعد المنهج العلمي، و اتبع خطواته للتعرف على الظواهر والكشف عن الحقائق الموضوعية، فإنه قد يصل إلى المعرفة العلمية .

ويمكن أن نستشف من خلال هذا التعريف العام للمعرفة وللعلم ،الذي يُغني عن تعاريف أخرى مشابهة، بأن مصطلحي:البحث والعلم أو العلمية يشيران إلى عملية معقدة لها شروطها الموضوعية والذاتية. فالأول أي البحث وسيلة للاستعلام والاستقصاء المنظم، بغرض الوصول إلى حقائق يمكن الإستفادة منها في المجالين: الحياتي (تطبيقي) والمعرفي (نظري) بشكل عام.

أما الثاني أوالعلم فهو: فرع من فروع المعرفة أو الدراسة "خصوصا ذلك الفرع المتعلق بتنسيق وترسيخ الحقائق والمبادئ والمناهج بواسطة التجارب والفروض"[1]. ويشترك المصطلحان في قضية أساسية أخرى تتمثل في الأسلوب والمعالجة، وبدونهما لا تكون أي جدوى من كليهما وهذه القضية هي المنهج .

ب-بين العلم و المنهج :

الواقع أن مصطلح منهج -أو مناهج- **Méthodes**، مرتبط بعلوم القرن السابع عشر، حينما شرعت في الولوج إلى قضايا علمية وفكرية- تختلف من حيث التركيب والصياغة عن مثيلاتها قبل القرن السابع عشر- على يد مجموعة من العلماء والباحثين من أمثال: فرانسيس بيكون وكلود برنار وجون ستيوارت ميل وغيرهم كثير.

لكن أهمهم من الناحية المنهجية والفكرية هو فرنسيس بيكون (1561- 1626)، الذي وضع نصب عينيه مهمة إقامة منهج علمي جديد، يرتكز إلى فهم مخالف للفهم الذي وضعه أرسطو خلال النصف الثاني من القرن الرابع ق.م، في مدينة أثينا. ويكفي الإشارة في هذا المقام، إلى عمله الطليعي "الأورغانون الجديد" عام 1620م الذي لم يأت مناقضا لآراء أرسطو المنهجية القائمة على النظر العقلي والقياس المنطقي فقط، بل أيضا من حيث الشكل، حيث تشير تسميته إلى معارضة المؤلف المتعمدة للفهم القديم للعلم، ومنهجه المستند إلى "أورغانون أرسطو" .

الحقيقة أن – بيكون – وهو أحد رموز القطيعة مع علوم القديم في العصور الحديثة، قد سار على نهج معاصريه من المفكرين، في فهم مهمة العلم على أنها سيطرة الإنسان على الطبيعة لكن هذه الناحية العلمية لا تعني أن البحث العلمي "يجب أن يقتصر على الأمور ذات المنفعة العلمية المباشرة فقط، لأن المعرفة تستند إلى معرفة الأسباب الحقيقية الكامنة وراء ظواهر الطبيعية [(2)].

<u>*ج- بين " البحث العلمي " والمنهج .*</u>

من الأهمية بمكان القول بأن الإنسان المعاصر لا يزال يكتسب معرفة تتضمن معارف علمية وأخرى غير علمية، وأن أغلبية تفسيراته للكون ولمظاهره، لا تزال ترزح تحت سلطان المعارف غير العلمية، وذلك على الرغم من التطوّر المذهل للعلم وشيوع وسائله. وهذا الأمر يدل على أن الإنسان هُوَ هُوَ، لا يزال كما كان في العصورالقديمة يطرح التساؤلات ويتعجب من الإجابات. انطلاقا من هذا الأمر، يمكن القول بأن "الإنتاج العلمي" أو التقني أو الثقافي بصفة عامة، يتبع الثقافة السائدة في المجتمع مهما كانت طبيعته، ومهما كانت درجة رقية أو انحطاطه.

ويتضح ذلك من الأنماط الثقافية التي سادت المجتمع البشري أن الفكرة التي لا تتلاءم مع الأوضاع السائدة يكون شأنها شأن الطائر الذي يبيض في عش لا وجود له، و"خليق بالناس أن يتوصلوا إلى اختراعات لها دلالتها، عن طريق تحسين وتحوير الأشياء الموجودة بالفعل، وليس عن طريق التأمل والتفكير في أشياء صعبة التحقيق.. "[(3)]

فإذن عملية التفكير قد صاحبت النشاط الإنساني منذ اللحظة التي فكر فيها الإنسان في تسخير الطبيعة لصالحه، أما أهم الطرائق في ذلك، فقد كانت تتراوح بين طرح التساؤل البسيط، ومحاولة الإجابة عنه بعد الملاحظة الطويلة لظاهرة من الظواهر، وبين تعميم الخبرة وتطويرها كما هو الشأن عند المصريين القدامى بالذات .

أولا: هل كان للمصريين القدامى علوم ممنهجة ؟

إن البحث في موضوع العلوم في مصر القديمة،من المواضيع الهامة بالنسبة للدارس والباحث على حد سواء، ذلك لأنه من خلال العلوم يمكن إدراك الأساس الذي اعتمدت عليه هذه الحضارة في تحقيق إنجازاتها الهندسية والمعمارية والثقافية والاقتصادية، التي يشهد لها عالم اليوم بالعبقرية والإبداع في الوقت الّذي كانت فيه مناطق واسعة من العالم لم يخرج سكانها بعد من طور البدائية . يقول هيرودوت: "... أما عن المصريين أنفسهم، فهم أولئك الذين يعيشون في الأراضي المزروعة ،و يهتمون دون سائر الناس اهتماما كبيرا بتمرين الذاكرة، وهم في العلم يتفوقون كثيرا على كل الشعوب التي خبرتها."[4]

غيرأنه، وعلى الرّغم من هذه الشهادة الصادرة عن "أبي التاريخ"، فإنّ الصعوبة تكمن في الاختلاف في الرأي بين جمهرة المختصين والباحثين حول طبيعة وحقيقة هذه المعارف، فبعضهم يرى أن الشعب المصري القديم ، وغيره من بلاد الحضارات الرفيعة في الشرق، لم يكن لها علوم بالمعنى المعروف، وإنما كانت لها معارف، قامت على ملاحظات واقعية وتجارب وخبرات "علمية"، دفعت إليها ظروف الحياة خلال الزمن الطويل، وشابتها في بعض الأحيان أساطير وخرافات من رواسب الماضي السحيق؛ في حين يرى الفريق الآخر أن المصريين القدامى كانت لهم بجانب معارفهم وعلومهم التطبيقية، علوم نظرية قامت على أساس من الفكر الإنساني والبحث المنظم والمنهج "التجريبي"، ولكنها لم تكن تعالج بنفس العمق أو على أساس من قواعد البحث العلمي المتبعة الآن.

وقد نتساءل على ضوء ما سبقت الإشارة إليه، هل هناك فرق ملموس بين العلوم التطبيقية التي مارسها المصري القديم، والعلوم النظرية ؟ أليست التجربة أساس نشأة النظرية، هل نستطيع أن نفصل بين الاثنين ؟

ومحاولة في المساهمة في هذا النقاش القديم –الجديد، حول إمكانية توصّل قدماء المصريين للعلوم، أم أن هذا الاختراع العظيم هو حكر للثقافة الغربية ممثلة في التراث اليوناني؟

لقد ناقش البروفسور آبال راي قضية الفكرة العلمية، بمعنى أن العلوم بمفهوم الكلمة الحالي لم تكن معروفة بعد، وبأنها لم تظهر إلا في القرن الخامس ق.م في بلاد الإغريق. وبأننا منذ ذلك التاريخ فقط بدأنا ننظر لتاريخ العلوم بمدى ارتباطها بالعقل والفكر.

وإذا عمدنا إلى تطبيق نظرية – أوغست كونت – حول المعرفة واكتسابها في ميدان العلوم، عند المصريين القدامى، لأمكننا القول بأن المراحل الثلاث التي يتحدث عنها كونت متوفرة في التاريخ المصري القديم[5]؛ لأن لكل حضارة أو ثقافة ميكانيزماتها الخاصة المتولدة من جملة من المعطيات الذاتية والموضوعية. وعلى الرغم من التقسيم الذي وضعه مؤرخو العلوم، بين صنفين متميزين في الذهنية **Mentalité**،ذهنية الشعوب القديمة التي كانت تمزج في علومها بين الدين والتقنية والعلم، والمسماة بالمرحلة الفكرية ما قبل منطقية **Pré-logique**، وذهنية أخرى قائمة على أساس علمي– أي بعيدة عن السحر والخرافة – التي تميزت بها المرحلة الحالية المسماة بمرحلة التفكير المنطقي.

ويواصل البروفيسور بأن لكل نشاط ذهني اجتماعي أو ديني منطقه الخاص الذي لا يختلف بالضرورة عن منطق الإنسان الحديث في طبيعته بل في درجته **En degré pas en nature**"[6].

ثانيا: أهم المنجزات "العلمية" في مصر القديمة.

أ–الفلك: من العلوم التي برع المصريون فيها علم الفلك، وكان نبوغهم هذا قائما على أساس مواجهة ظاهرة أساسية في حياة المزارعين المصريين، وهي فيضان النيل. إذ كانوا يلزمون بالاستعداد لمواجهة الفيضان قبل أن يحدث، بتقوية الجسور وإعداد الحقول ومنع الأرض من الغرق، ولعل هذا الجانب بالذات هو الذي دفع المصريين القدامى أكثر من غيرهم للعمل من أجل التقويم الشمسي، الذي وضعوا أسسه لأول مرة في التاريخ، وانفردت مصر عن سائر المجتمعات الأخرى التي اعتمدت على التقويم القمري.

لقد اهتم المصري القديم بالشمس، ودفعه خلو السماء من السّحب والغيوم معظم أيام السنة، إلى اتخاذهم لبعض الكواكب آلهة .

فالإله "رع" الذي يتمثل في الطاقة في قرص الشمس، يعبُر السماء في "مركبته المقدسة"، و إلى "السماء أيضا ترتفع أرواح الفراعنة المقدسة". وبالتالي فالشمس كانت منذ أقدم العصور مركز اهتمام المصريين، وبخاصة كهّان هليوبوليس[7] الذين توصلوا الى التقويم الشمسي.

ولقد كانت للكهنة معرفة تطبيقية بالسماء، أتاحت لهم تحديد الجهات الأصلية الأربع، التي نظموا بها توجيه عمائرهم ومنشآتهم الدينية، فكان أساس البناء في أي معبد يتم بعد الاسترشاد بمراقبة السماء. ولذلك فإنه لطول نظر كهان هليوبوليس في السماء لاحظوا مع مرور الزمن أن بشائر الفيضان كانت تطالعهم مع ظهور نجم يبدو في السماء واضحا قبيل شروق الشمس، وهو النجم الذي سمّاه العرب "الشعري اليمانية "، وهو أكثر النجوم تالقا فى السما ء،[8]وعرفت عند قدماء المصريين باسم "سوبدت ".

وهكذا فقد لاحظ المصري القديم منذ أقدم العصور أن الفيضان يأتي منتظما في كل عام، وفي وقت معين، وهو يوم ظهور هذا النجم في وقت شروق الشمس في السماء اتجاه مدينة هليوبوليس.

ولما استقرت هذه الظاهرة في أذهانهم، ولاحظوها زمنا طويلا أصبحوا يترقبونها عن قصد، وأطلقوا على هذا النجم " جالب الفيضان ".

واعتبروا ظهورها في الفجر المبكر (حوالي **19** جويلية من التقويم الحالي) أول يوم في السنة. وبعد مشاهدة طويلة ودقيقة للشمس والنجوم من طرف الكهان، لاحظوا أنه تنقضي **365** يوما بين كل ظهور ين متتالين لجالب الفيضان.

وعلى هذا الأساس أنجز الكهان هذا العمل الكبير، وهو التقويم الشمسي. وقسّموا هذه السنة اختباريا الى **12** شهرا، في كل منها **30** يوما، وأضافوا إليها خمسة أيام تكميلية، تقام فيها أعياد دينية، و تسمّى بأيام النسيء، ثم جمعت هذه الشهور في مجموعات رباعية، وهي فصل الفيضان (اخت)، فصل الزرع (برت) وفصل الحصاد (شمو)[9].

ولم ينتبه كهّان هليوبوليس إلا بعد عشرات، وربما مئات السنين لذلك الفارق البسيط بين السنة المدنية والسنة الحقيقية، وهو ربع يوم، فبعد أجيال طويلة ارتبك الكهان لما لاحظوه من تأخر فيضان النيل عن موعده، كما لاحظوا أنه بعد أربعة سنوات تتأخر السنة المدنية يوما

عن السنة الحقيقية المحصورة بين ظهورين متتالين للنجم. غير أن عدم التطابق هذا لم يؤثر إلا بعد مرور عشرات الأجيال، فبدأت البلبلة والارتباك فأصبحت الأعياد الصيفية تقع في الشتاء ... وهناك نص يشير الى هذه الملاحظة، و هو نص يرجع للأسرة 19 لكاهن يتضرع: "... تعال الي يا آمون، خلصني من السنة المضطربة، إن الشمس لم تعد تشرق، الشتاء يأتي في الصيف، والشهور تسير القهقرى...)[10]

وفي مسألة تأريخ هذا (الإنجاز العلمي)، لقد أرجع بعض المختصين أقدم تاريخ ممكن لعملية التقويم هذه الى سنة 4200 ق.م، فى حين يعارضهم فريق آخر، ويرى بان معارف قدماء المصريين فى تلك الحقبة من الزمن كانت بسيطة ولا يعقل انهم توصلوا الى ايجاد سنة من 365 يوم، ولدلك يفضلون تاريخ 2800ق.م، أو ربما الى عهد فرعون مينا (نعرمر) حوالى3200ق م، ذلك أننا نعلم أن الفارق الطفيف بين السنة المدنية والسنة الشمسية يتضخم ويصبح سنة كاملة بعد مضي 1460سنة، أي أن الاقتران يحدث مرة واحدة كل 1460سنة، ولمعرفة متى بدأت هذه الظاهرة أي الاقتران، وبعملية بسيطة، نتوصل الى التواريخ التالية 1317 ق.م، 2772 ق.م، 42 ق.م أي نتوغل في التاريخ المصري القديم حتى 4225ق.م.

والتاريخ الأول يمثل أواخر الأسرة 19، ولهذه الفترة يرجع تاريخ النص الذي يتضرع فيه الكاهن للإله آمون ليصحح اضطراب السنة، أما التاريخ الثاني فهو يمثل أيام بناة الأهرام، ومن خلال متون الأهرام نتبين أن قدماء المصريين كانوا يعرفون أيام النسيء، حتى نصل الى تاريخ 4225 ق.م، ويكون التاريخ الافتراضي لبداية التقويم الشمسي لدى قدماء المصريين[11]

أما عن تطوّر هذا التقويم الشمسي الذي يرجع الفضل في اكتشافه لكهنة هليوبوليس، فبحوزتنا مرسوم مكتوب في مارس 237 ق.م، ويقوم كدليل على أن المصريين بحرصهم الغريزي على التقاليد لم يسعوا وراء إصلاح ذلك الموقف.

ففي هذا المرسوم يُعلن بطليموس الثالث، إدخال يوم سادس الى أيام النسيء الخمسة كل أربع سنوات حتى يمنع وقوع الأعياد الوطنية التي تحدث في الشتاء أن تجيء في الصيف، غير أن محاولة بطليموس سرعان ما أُهملت؛ وقد أخذ يوليوس قيصر (120-44 ق.م) التقويم الشمسيى وطبقه في روما بالإصلاح الذي أدخل عليه، ثم طبق الإمبراطور الروماني "أغسطس"على المصريين التقويم اليوناني المكوّن من 365 يوم و1/4 يوم، وإن كان كل من –

ديودور الصقلي وسترابون قد نسبا هذا التعديل إلى المصريين أنفسهم، ثم جاء البابا جريجوريوس الثالث عشر في القرن السادس عشر ميلادى(1502-1585)، وأجرى عليه بعض الاصلاح، ولم يزل العالم ياخذ به حتى الان.[12]

ولم تتوقف معارف قدماء المصريين عند هذا الانجاز (التقويم) فحسب، وإنما كانت لهم دراية واسعة بمواقع الكثير من النجوم والكواكب السيارة، وعرفوا دائرة البروج، وتركوا من آثار ذلك خرائط تفصيلية للسماء، في سقوف المعابد والمقابر، ومنها تلك التي كانت في معبد -دندرة – وهي الآن بالمتحف الفرنسي (اللوفر)، وأخرى لا زالت قائمة في سقف مقبرة الفرعون – سيتي الأول (الأسرة 19)، وثالثة في سقف المعبد الجنائزي لرمسيس الثاني (الأسرة 19) المعروف بمعبد الرّمسيوم.

كما ميزوا في السماء غير الشمس والقمر،كواكب عديدة منها عطارد والزهرة "نجمة المساء ونجمة الصباح"، ثم المريخ "الحورس الأحمر"، والمشتري "النجم الثاقب"، وأخيرا زحل "حورس الثور".

كما أفادتنا النصوص القديمة، بأن كهّان مصر عرفوا أيضا ظاهرة الخسوف، وقد جاء في الخبر كيف أرعب الخسوف جنود الإسكندر (اليونان) وهم يحاربون جنود داريوس (الفرس)، وأن أحد الكهّان المصريين أذهب عن قلوبهم الرّعب[13]

-الرياضيات:

من المؤكد أن علم الحساب قد تقدم عند البابليين أكثر مما تقدم في مصر. ويرجع السبب في ذلك إلى أن العراق كان أكثر اعتمادا على التجارة الخارجية؛ فموقعه الجغرافي جعل منه همزة وصل لطرق التجارة آنذاك، بينما كانت مصر معزولة نسبيا.

وهذا ما يؤكد أن العلوم في الشرق القديم قد نشأت لتحقيق غرض علمي أولا؛ فالحاجة لضبط حسابات المعبد وتبادلاته التجارية حتمت معرفة الأعداد، وبرز قدماء العراقيين في الحساب والجبر، في حين أن المصريين وحاجتهم الملحة لإقامة قبور للفراعنة المؤلّهين جعلتهم يتفوّقون في الهندسة أكثر.

لكن ليس معنى هذا أن قدماء المصريين لم يهتموا بالحساب والجبر؛ فمن المصادر المادية التي ترجع إحداها – وهي عبارة عن كراسة المعلم أحْمس إلى الفترة الإنتقالية الثانية أي أثناء

حكم الهكسوس، وهي صورة من أصل يرجع لعهد الأسرة **12**، وتتناول هذه الكراسة **84** مسألة من مسائل الحساب والمعادلات مصحوبة بحلولها. وقد أُطلق على هذه الكراسة اسم بردية ريند **Papyrus Rhind**.

أما البردية الثانية: **Papyrus de Mosau**، فتتضمن **19** مسألة مختلفة، وواضح أنها أقدم من البردية الأولى [14]. وتتناول هذه الكراسات مسألة تتعلق بالجمع والطرح والضرب والقسمة بأعداد صحيحة وبالكسور، ثم تنتقل إلى مسائل تتعلق بالمكاييل وتحويلها إلى مضاعفاتها أو إلى أجزائها، وكذلك المعادلات البسيطة والمعادلات من الدرجة الثانية.

و لاشك في أن مقتضيات الحياة وجهود المصريين في حل المشاكل المتصلة ببيئتهم، وحرصهم على ذلك، كانت جميعها من أسباب تقدمهم في علم الحساب؛ فتنظيم مياه النيل وقياسها وضبطها وتحديد مواسم الزراعة والحصاد وأعمال البذر، وجمع الضرائب العينية والإحصاء الذي كان يجري مرة كل سنتين، كانت كلها أمور تدعو إلى استخدام الحساب. ومن الأمثلة في المسائل الرياضية في كراسة أحمس يتبين لنا أن المعلمين المصريين القدماء كانوا يختارون مسائل تعتمد على الحياة اليومية مثل توزيع الخبز والغلال والدهن والجعة (النبيذ) على العمال.

وعلى هذا، فإن فريقا من المختصين يرون بأن قدماء المصريين لم ينظروا للحساب والجبر نظرة أكاديمية بالمعنى المفهوم، ولم يحاولوا تطويرها أو استقصاء أحوالها النظرية، بل ان اتجاههم حيالها كان عمليا يكاد يقتصر على الناحية التطبيقية [15].

وعلى الرغم من هذا التقصير الذي يؤخذ عنها، فإن هذه الطريقة نفعت وأثمرت، وأدت كل ما كان ينتظر منها، وسدّت مطالب الشعب في كل نواحي الحياة.

ومن بعض الأمثلة التي سيرد ذكرها نتبين كيف أن المصري القديم كان ينطلق دائما من بيئته وطبيعة حياته الزراعية، وحياته اليومية لإجراء عمليات حسابية والتوصل إلى النظرية، فهو يوفق بين الشيء المادي الذي يسهل تصوّره وبين الصياغة النظرية، وفي هذا المجال يقول فارنغتون: "إن منبع العلم هو التجربة، هو أهدافه العلمية، وهذه التجربة هي محك نجاحه، والعلم ينشأ من خلال الاتصال بالأشياء وهو يعتمد على أدلة الحواس. بمعنى أنه لا يحق لنا ان نعيب على قدماء المصريين، في إعطاء أمثلة مادية من حياتهم اليومية، أو اعتبار بعض المسائل

تافهة وبسيطة، فهذا تعسف وعدم إنصاف أن نقيس جهود القدماء منذ أكثر من أربعة آلاف سنة بمقاييسنا الحاضرة.

ثم إن ما يلاحظ هو الصبغة التعليمية النظرية، الّتي لم تغب عن المعلمين المصريين في صياغة بعض مسائلهم إلى جانب ما كانوا يُعنَون به من إعداد الطالب لمهام الكاتب العملية في وظيفته في المجتمع الزراعي. وطبيعة هذا المجتمع الزراعي وما يتطلبه من احتياجات، جعلت المصري القديم يهتم بعلم المساحات والأبعاد، وذلك لإعادة تقسيم الأراضي بعد أن يغمرها فيضان النيل. كذلك كان من مهام الكاتب المصري إحصاء الضرائب بعد جمعها بمختلف أنواعها من حبوب ونبيذ وزيوت، ولهذا كان يتوجب عليه معرفة وافية بالأحجام وتقدير الغلال ومعرفة أبعاد المخازن المكعبة والأسطوانية. ومن أمثلة ذلك ما تقدّمه كراسة أحمس حيث كان يُعطى للتلميذ الأبعاد من طول وعرض، ويُطلَب منه تقدير ما تسعه من غلال، أو يذكر ما تسعه من غلال و تتطلب من أبعاد.

فلتقدير حجم المكعب يُضرَب طوله في عرضه في ارتفاعه، ومع بساطة هذه القاعدة، فقد أشاد أفلاطون بفضل المصري في توجيه الإغريق إلى تقدير الأشياء، ذات الأبعاد الثلاثة الطول+ عرض+ عمق[17]. وفي المكاييل أيضا، طبق التلميذ المصري أمثلة من الحياة اليومية، فقد ورد كمثال في كراسة أحمس طلب معرفة نصيب يوم واحد من خراج عام من الدهن مقداره **100**حقة (الحقة وحدة كيل مصرية قديمة تساوي **292** بوصة مكعبة).

فكان في رد التلميذ أن حوّل الحقات إلى وحدات أصغر منها، وحول السنة إلى **365** يوم، وقسم كمية الدهن على عدد أيام السنة، وقد كان التلميذ قبل ذلك يحفظ عن ظهر قلب مضاعفات وأجزاء المكاييل.

الهندسة:

يكفي للتدليل على تقدّمها أن ننظر إلى تراث المصريين المعماري ومخلفاتهم الأثرية من أهرامات ومعابد و مسلاّت. وبكل ثقة نستطيع أن نقول بأن علم الهندسة قد وُلد وبزغ على يد أولئك المصريين الذين تولوا حساب مساحات الحقول لتقسيمها من ناحية، ولتقدير الحَبّ اللازم لبذرها، والإيجار والضريبة المتوقع دفعها عنها من ناحية أخرى.

فلقد توصلوا إلى معرفة القانون الخاص بمساحة المستطيل وحساب المثلثات، والأشكال الرباعية، كما توصلوا إلى حساب الدائرة بطريقة مذهلة وقريبة جدا من القيمة الحقيقية المستخدمة اليوم. وإن معرفة العالم القديم التجريبية بكثير من خواص الأشكال الهندسية كانت في الحقيقة البذرة الأولى في نشأة علم الهندسة. كذلك أدّت مشاريعهم لحفر الترع وبناء الأهرامات والمعابد وتخطيط المدن إلى نتائج مذهلة في دراسة المساحات والزوايا والإرتفاعات.

وتجربة بناء الهرم في الأسرتين الثالثة والرابعة وتطوّرها من المصطبة إلى الهرم المدرج بـ"سقارة " إلى الهرم المائل ونهاية عند الهرم الكامل، تبيّن هذه الدراسة الناتجة عن التجربة والخطأ وتصحيح الخطأ، البعد النظري الذي استطاع المصري القديم التوصّل إليه.

ومن النظريات التي تعود نشأتها أصلا للمصريين القدامى، وكانت معروفة لديهم عمليا، وتُستخدم لإنشاء زوايا قائمة، النظرية التي تنسب اليوم للعالم فيتاغورس، ولا ننسى أن فيتاغورس زار مصر، وتأثر بفكرة تناسخ الأرواح في الديانة المصرية.

وعلى ضوء ما سبق، نعرض قول "سونيرن" بأن المعلومات الحسابية والهندسية لدى المصريين القدامى، كانت محاولات وأساليب غير كاملة النضج، وكان الأمر فيها يبلغ منتهاه عند المسائل العملية التي تواجه الكاتب أو المهندس[18]، وفي واقع الأمر فإن هذه المعارف والنظريات كانت الأساس الذي انطلق منه فيتاغورس وأمثاله في التراث العلمي اليوناني.

ج- الطبّ و فن التحنيط:

يرى العلم الحديث في الطب الشرقي القديم مجموعة معارف وتجارب إنسانية ارتبطت ارتباطا وثيقا بالطقوس الدينية والأرواح الشرّيرة والأرواح الخيّرة ارتبطت بالطب البابلي أكثر من ارتباطها بالطب المصري، أو بالأحرى أنها لم تكن ظاهرة في الطب بنفس الحدّة. لقد اعتقد سكان وادي الرافدين بأن المرض هو بمثابة عقوبة تسلطها الآلهة على البشر جراء آثامهم، مثل تجاوز بعض المحرّمات، وإغفال الطقوس الدينية وغيرها.

ولما كانت علّة الرّوح تقتضي الركون إلى التطبيب الروحي، لذلك فإن العلاج المطبق، كان علاج ذو منحى سحري- ديني. إذ يُطلب من العرّاف أو الكاهن اكتشاف الذنب الكامن المسؤول عن إثارة حقد الآلهة.

ومن خلال الألواح الطينية المكتشفة، وترجع في معظمها إلى القرن 8 و5 ق.م، وهذا في المرحلة الثانية من العهد الإمبراطوري الآشوري أي بعد أن قطع الطب أشواطا طويلة من التطوّر، فيلاحظ في هذه الألواح التأكيد على التكهن أكثر من التشخيص، واعتقاد الأطباء وإيمانهم بالأصل ما فوق الطبيعي لأكثر الأمراض.[19]

أما مصادرنا عن الطب في مصر القديمة، فإنها تبيّن بأن المجتمع المصري القديم، ككل المجتمعات القديمة، كان يؤمن بالأرواح الخيرة والأرواح الشريرة. وأن معارفهم الطبية شابها شئ من الخرافات والشعوذة، ولكنهم تخلصوا منه مبكرا – مقارنة بجيرانهم العراقيين القدامى (والحقيقة أن هذه الأمور لم تتخلص منها الدنيا حتى يومنا هذا، وخاصة في الأرياف، ووسط الجاهلين) كما فرّقوا بين طب يمارسه المشعوذون، وطب يمارسه أشخاص بعد دراسة طويلة خضعت للتجربة أحيانا. ولقد ساعدها في ذلك كثيرا، اعتقاد المصريين في الحياة الأخرى، وبَعث الأموات أحياء في عالم أوزيريس.

وكان هذا الاعتقاد هو السر الكامن وراء نبوغهم في علم التشريح، وعلى ضوئه عمقوا معارفهم الطبية، وأرجعوها لأسباب موضوعية، أكثر منها ما وراء طبيعية. ولقد خلّف لنا الأطباء المصريون القدامى جزءا مما توصلوا إليه من المعارف حول حالات طبية بعد الملاحظة الشديدة في العديد من البرديات.

– نذكر من هذه البرديات على سبيل المثال، بردية "إدوين –سميث"، وهي مؤرخة بالقرن 17 ق.م، عن نسخة أقدم منها ترجع لعهد بناة الأهرام، وهذه النسخة ملك للجمعية التاريخية بنيويورك. ولقد درسها عالم المصريات الشهير جيمس هنري برستد الّذي يقول عنها: "نقرأ فيها لأول مرة، كيف يحاول العقل الإنساني أن يميّز الحقائق ويسجّلها، ثم يستخلص منها النتائج على ضوء الحقائق التي لاحظها، فهي دراسة في الجراحة وعن الطب الظاهري تبدأ من أعلى الرأس وتتناول الجسم جزءا جزءا"[20].

ولقد ورد فى هذه البردية 48 حالة مرضية منها حالات عن أمراض الرأس والجمجمة، كما ورد فيها كيفية المعالجة والتشخيص، ومما ورد فيها، اذا فحصت إنسانا مصابا بجرح مفتوح فى رأسه متوغل فى العظم، ومهشم لجمجمته وفاتح للمخ فى جمجمته؛ فعليك أن

تجس جرحه، فإذا وجدت أن ذلك الكسر شبيه بالتموجات التى تتكون على سطح النحاس المنصهر، وتحس شيئا يخفق تحت أصابعك مثل الجزء اللين من مقدمة رأس الطفل...[21].

من خلال النص نتبين بان الطب المصرى القديم أدرك وجود الاغشية السحائية الخاصة بالمخ، وتظهر لأول مرة كلمة "مخ" في بردية "إدوين سميث"، وقد توصّل ذلك الجراح صاحب هذه الوثيقة، إلى أن المخ هو الذي يتحكم في أعصاب الأعضاء المختلفة، وأوضح لنا نوعا من التحقيق العلمي عن وظيفة المخ لم يصل إليه البحث العلمي إلا منذ عهد قريب، كما اكتشف أن القلب هو القوة المحركة للنظام في الجسم، وهو ذاته مركز هذا النظام.

– بردية برلين وتعود في تاريخها للأسرة 19، وهي تحوي تشخيصا لأمراض متعددة، وعلاجها في 170 تذكرة طبية، كما فيها باب خاص بالعروق والدورة الدموية، وبحوث في أمراض النساء .

– بردية إيبردس: نسبة لصاحبها، وهي موجودة في جامعة ليزنخ الألمانية، ويذكر صاحبها الأمراض بأنواعها، ومنها تصلب الشرايين ومرض السل. وهذا التراث الطبي يدل في محتوياته، على معرفة المصريين بهذا العلم، ذلك أنها احتوت على الكثير من النظريات الصادقة في ألوان العلاج الناجحة، المبنية على ملاحظات واقعية، وخبرات علمية، وإلمام كبير بالتشريح ووظائف الأعضاء.

وتجدر الإشارة إلى أن ما يعرفه العالم اليوم عن الطب المصري القديم ليس هو كل شئ، ذلك أن الكهنة أخفوا من أسراره أضعاف ما أبدوا. وتلك حقيقة يشير إليه ويؤكدها— سترابون حين يقول: "إن علوم الطب كانت سرا من أسرار الكهنة المصريين". ثم يدلل على ذلك بأن بعض من طلبوا شيئا من أسرار المصريين في معارف الطب، قد ظلوا يلازمون أبواب الكهنة ثلاثة عشر عام.[22]

ولقد اشتهر كبير كهنة هيليوبوليس في الأسرة الثالثة في عهد الفرعون "زوسر"، الطبيب الكاهن " إيمحوتب" الذي عرفه الإغريق باسم إيموثبس، واعتبروه إلها له القدرة على الإبراء.

وشهد هيرودوت بأن الطب عند المصريين القدامى ينقسم إلى فروع، ولكل مرض طبيب مختص فيه لا أكثر، وبلادهم كلّها غاصة بالأطباء، بعضهم متخصصون في العيون،

وبعضهم في الرأس، وبعضهم في الأسنان، وبعضهم في الأمعاء، وبعضهم في الأمراض الخفية أي الباطنية. والحقيقية أن التخصص في ميدان الطب، مارسه وعرفه قدماء المصريين منذ أكثر من عشرين قرنا قبل هيرودوت، وقد ثبت هذا من خلال البرديات الطبية، بالإضافة إلى أنهم لم يكونوا في نفس المرتبة، فمنهم طبيب القصر الأول، وطبيب الأسنان الأول للقصر، وعميد الأطباء..وإن دل هذا التخصص على شئ، فإنما يدل على أن الطب عند المصريين القدامى مرجعه الدراسة الوافية المتخصصة .

كما تجدر الإشارة إلى التفرقة بين هؤلاء الأطباء الدارسين، وبين من سواهم من اشتغل بالتطبيق كانت مفترضة، ويدل عليها أن بردية إيبرس مثلا، قد ميزت بين كاهن سخمت أو زخمت (وهي ربة الفتك، ومذيعة العلل والأوبئة) وبين الراقي. وجعلت العلم بوظائف القلب من أسرار الطبيب وحده[23].

ومن معارفهم بالقلب ووظائفه أن توصلوا إلى أن للقلب أربعة أوردة، تنطلق منه إلى كل عضو حسب حاجته (بردية إيبرس)، كما تضمنت هذه البردية كيفية العناية بالجهاز الهضمي ووجع البطن مثل مضايقة الحامض المعدي، واعتبروا النزيف المعدي دليل القرحة، بالإضافة لعلاج الأذن والأنف والحروق والأورام والجروح والكسور .

التحنيط :

إن موت الإنسان لم يكن يعني لدى المصريين القدامى انتهاء الحياة، فالموت عندهم هو باب يفتح على العالم الآخر تتحدد فيه روح الإنسان مع جسده. ولهذا فقد كان للاعتقاد في الحياة الثانية وإيمانهم الشديد بها، أثره الفعال في حرصهم على المحافظة على أجساد موتاهم بمختلف الطرق واشهرها التحنيط، الذي ارتبط إلى حد كبير بالطب والتشريح.

فقد كانوا يُبدعون في تفريغ الجمجمة من المخ عن طريق المنخرين– فتحة الأنف– بواسطة آداة معدنية، ثم يشقون الجسد من الجهة اليسرى، ويفرغونه من محتوياته، ما عدا القلب (لأنه يجيب نيابة عن صاحبه أمام محكمة الإله أزيريس)، ثم يعالجون ما يخرجون من محتويات ببعض المواد النباتية المستخلصة كميائيا، ثم يستخلصون السوائل التي تكون 75% من وزن الإنسان، وذلك باستخدام ملح النطرون، ثم يحشون الجسد بمواد نباتية في معظمها مثل الحنة — الدباغة —الراتنج– زيت الصنوبر– الصمغ – ثم يُلّف الجسد بلفائف من قماش.

لقد تطوّر فن التحنيط الذي ترجع أقدم آثاره إلى القرن 27ق.م، آخر الدولة الحديثة، وأصبح بالإضافة إلى ما سبق ذكره، عبارة عن عمليات جراحية للتجميل والتزيين، وذلك لإبعاد لون الموت عن المومياء، وإضفاء صبغة الحياة عليها، بأن قاموا بحشو الوجنتين وغيرها من أجزاء الوجه بالطمي، يُدفع إلى الداخل عن طريق فتحتين تعمل في الجلد، وبعد ذلك يطلى وجه الميت بالألوان.

ومن كل هذا نستخلص، أن قدماء المصريين استخرجوا أدويتهم أساسا من النباتات، وبنسبة أقل من أصل حيواني، وهذا يجعلنا نقول أنهم كانوا على حظ لا بأس به في معرفة ما يعرف اليوم بالكيمياء، بل من الباحثين من ينسب معرفة الكيمياء لعلماء مصر. حتى أنهم ليرجعون باسمها إلى أصل مصري قديم، كمت أو كيمت، وتطلق على بلاد مصر بمعنى الأرض السوداء – تمييزا لها عن دشرت– أي الرمال الحمراء.

ولا شك أن هذه المعرفة أفادتهم في صنع كثير من الأصباغ والألوان، التي ما زالت تحافظ على بهائها في معابد ومقابر المصريين، بعد حوالي خمسة آلاف سنة.

كما ساعدتهم في تحضير مواد التحنيط اللازمة من مراهم وزيوت وأصباغ وعقاقير.
لقد خُصّص في بردية إيبرس على سبيل المثال، بابا كاملا لنبات الخروَع والأدوية المستخرجة منه[24].

وكخلاصة لكل ما سبق قوله عن الطب عند المصريين القدامى–وكافة أشكال المعرفة "العلمية" التي اشتهروا بها–، فإنه بالرغم من خلطه بالخرافة أحيانا، فقد تميز بسمات العلم الإيجابي الناجع مثل الملاحظة و التشخيص .و إنه هو الطب الذي انتقل إلى الإغريق، ومهّد إلى الإصلاح الأبيقراطي العظيم للطّب في القرن 5.م، وتأثر الإغريق وأخذهم من المعارف المصرية القديمة، لم يقتصر على مجال الطب، بل تناول من العلوم والفنون التي برعوا فيها. يقول هيرودوت أقدم أئمتهم الذين زاروا مصر طلبا للعلم والمعرفة: "لقد اكتشف المصريون من آيات الغيب، أكثر من كافة الشعوب قاطبة، وذلك لأنه كلما حدثت معجزة خارقة، راقبوا نتيجتها وسجلوها، فإذا ما حدث شيء مشابه بعدئذ، ظنوا أن عاقبته ستكون شبيهة بما سبقها.[25]. أو بمعنى آخر؛ فإن معظم أسباب "العلم "أو المعرفة العلمية قد وَجدت عند قدماء المصريين

أدواتها التي لم تعلن عن نفسها بمصطلحات شبيهة بمصطلحات العصر الحديث مثل "الملاحظة" و"التجربة" و"القانون"...

الهوامش و التذييلات :

(1)- أحمد بدر،أصول البحث العلمي و مناهجيه . ط5، الكويت: وكالة المطبوعات،،1979 ص 17.

(2)- موجز تاريخ الفلسفة،تأليف جماعة من الأساتذة – ترجمة : توفيق إبراهيم سلوم ، ط.3، موسكو : دار الفكر 1971. ص 239 .

(3)- و ليام هاولز، ما وراء التاريخ ، ترجمة : أحمد أبوزيد ، بيروت : درار النهضة العربية 1984. ص 355

(4)- هيرودوت يتحدث عن مصر : ترجمة محمد صقر خفاجة ، و شرح : أحمد بدوي القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987. ص 182 .

(5)- تقول نظرية أوغست كونت ، بأن هناك ثلاث مراحل أساسية في تطور العلوم :

ملاحظة الظاهرة .

تسجيل هذه الظاهرة

ج- التفكير فيها .راجع ذلك في :

Madeleine Gravitz- Méthodes des sciences sociales.، Paris. Dalloz 1981.
6-Abel Rey : La Science dans L'Antiquité : La science orientale avant les Grecs; Ed Albin. Michel، Paris .1942.p63،.

(7)- هليوبوليس: وكانت تعرف أولا باسم – أونو– وتعرف حاليا بعين شمس ولقد أطلق عليها في المتون المصرية اسم " أونو أفق السماء " و "أونو سماء مصر "، وقال عنها هيرودوت "هليوبوليس أحكم أهل مصر".

-عبد العزيز صالح،التربية و التعليم في مصر القديمة. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر 1966.ص 356.

(8)-عُرف هذا النجم عند الإغريق باسم نجم سوتيس أو سيريوس ،و مكانه في دوائر الفلك خلف الجوزاء.

(9)أيام النسيء و هي أيام خمس يُحتفل فيها بالآلهة الكبرى. أوزيريس– ست – إيزيس – نفتيس و حورس .

فصل الفيضان 15 جويلية إلى 15 نوفمبر ، فصل الزرع 15 نوفمبر –15 مارس،ثم فصل الحصاد 15مارس– 15 جويلية.

-E.Drioton، J.Vandier،les peuples de l'orient méditérranéen.TII l'égypte.4ed. -انظر:Presse universitaire de France، 1962 ،p.12.

(10)- أحمد بدوي،في موكب الشمس ، الجزء 1، ط2 ، القاهرة : لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، 1955 . ص 112.

وانظر أيضا: نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر و الشرق الأدنى القديم،ج1 مصر.ط.6، القاهرة: دار المعارف، 1966 ص 54.

-(11) -E.Drioton، J.Vandier، OP.CIT، pp .15-16

(12)- نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق ،ص.52.

(13)- سيرج سونيرون ، كهان مصر القديمة ، ترجمة زينب الكردي ، مراجعة : أحمد بدوي ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب 1975.ص170،.

(14)- عبد العزيز صالح،المرجع السابق . ص238 .

(15)- أحمد بدوي و جمال الدين مختار،تاريخ التربية و التعليم في مصر ، الجزء الأول ، العصر الفرعوني ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب 1974. ص ص.88-89.

(16)- عبد العظيم أنيس، العلم و الحضارة: الحضارات القديمة واليونانية . المؤسسة المصرية للتأليف و النشر ، 1967. ص 28 .

(17)- عبد العزيز صالح،المرجع السابق . ص 311.

(18) سيرج سو نيرون،المرجع السابق . ص ص 171-172.

(19)- جورج رو، العراق القديم . ترجمة حسين علوان حسين .ط2،بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة ، 1986. ص ص.489-490.

(20)- جيمس هنري برستد،انتصار الحضارة " تاريخ الشرق القديم " ترجمة أحمد فخري ، القاهرة : مكتبة الأنجلو مصرية ،دت .ص120.

(21)- حسّان حلاّق، مقدمة في تاريخ العلوم و التكنولوجيا: الشرق الأدنى القديم،اليونان،الرومان، العرب.(الأردن): الدار الجامعية،1990،ص ص 14-15.

(22)- محمد صقر خفاجة، في هامش كتاب "هيرودوت يتحدث عن مصر" .ص 190 .

(23)- عبد العزيز صالح ، المرجع السابق . ص 365 .

(24)- أحمد بدوي و جمال الدين مختار : تاريخ التربية و التعليم في مصر ، ص 92 .

(25)- هيرودوت،المرجع السابق ، ص18.

الخطاب التاريخي عند محمد حربي والعوامل المؤثرة فيه.

أ./ رابح لونيسي

تمهيد حول الموضوعية و الذاتية في الخطاب التاريخي:

يسود نقاش حاد حول مدى موضوعية البحث في العلوم الإنسانية، وقد أخذ البحث في التاريخ حصة معتبرة في هذا النقاش، وانقسمت الأراء بين من يعتبره علما كاملا مادام أنه يمتلك منهاجا علميا يسمح لنا بالوصول إلى الحقيقة وإعادة بناء الواقعة التاريخية وتفسيرها تفسيرا علميا، و نجد في مقابل أصحاب هذا الطرح من يقول أنه ليس علما رغم المنهاج العلمى الذي يمتلكه، و يستند هؤلاء في طرحهم على وجود عوامل ذاتية تؤثر تأثيرا بليغا على المؤرخ وتفقد بحثه الموضوعية و العلمية بشكل أو بآخر[1]. وأن كنا لا ننفي ذلك إلا أن هذه العوامل الذاتية التي تشكل عوائق إبستمولوجية بالنسبة للباحث في التاريخ نجدها موجودة في كل العلوم بما فيها العلوم الدقيقة، إلا أنها تختلف في درجة تأثيرها من علم إلى آخر، و تفرض هذه النسبية العلمية البحث المستمر و الدائم في نظريات المعرفة و تطوير مناهج البحث العلمي في كل العلوم سواء كانت علوما إنسانية أو دقيقة، و أن هذا التطوير المستمر هو الكفيل بتحطيم أكبر قدر ممكن من العوائق المعرفية و الإبستمولوجية مما يسمح لنا بالوصول أو إكتشاف الجزء الأكبر من الحقيقة العلمية، و ينطبق ذلك على العلوم كلها و منها البحث في التاريخ.

فبالنسبة للبحث في التاريخ، فأنه كلما أستخدمنا أكبر قدر ممكن من المصادر القيمة سواء كانت مادية كالآثار أو مخطوطة كالوثائق و المذكرات و حتى الشهادات كلما أقتربنا من إعادة بناء الواقعة التاريخية و تفسيرها و تحليلها تحليلا عميقا، لكن ذلك غير كاف بل يجب إنجاز أكبر عدد من البحوث حول نفس الواقعة يقوم بها مؤرخون يختلفون فيما بينهم من ناحية

*- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ وعلم الآثار- جامعه وهران السانية.

الظرف والإنتماء الزماني و المكاني، و بتعبير أدق لم يعيشو في أمكنة و أزمنة واحدة، كما يجب أن يكونوا مختلفين أثناء القيام ببحوثهم من ناحية السن أي نجد ضمنهم شبابا وكهولا وشيوخا، كما يشترط أيضا الإختلاف فيما بينهم من ناحية الإنتماءات الطبقية و الإيديولوجية والثقافية، وكذلك من ناحية القرب والبعد الزماني والمكاني والروحي من الواقعة دون أن ننسى الأخذ بعين الإعتبار ضرورة التباين في علاقاتهم بمختلف السلطات السياسية والإقتصادية والدينية القائمة في فترات القيام ببحثهم.

إن قيامنا بهذا العمل يقربنا بشكل كبير من الحقيقة التاريخية، لأنه من المؤكد أن يقع إجماع على بعض القضايا التي تخص الواقعة التاريخية التي نحن بصدد البحث فيها رغم إختلاف العوامل الذاتية بين مختلف هؤلاء الباحثين، أما القضايا المختلف حولها فعلينا أن نبحث في مدى تأثير العوامل الذاتية على كل واحد من المؤرخين الذين قاموا بالبحث في هذه الواقعة التاريخية التي نريد إعادة بنائها وفك ألغازها، وبذلك نقترب أكثر من الحقيقة، وكلما تواصلت عملية البحث في الواقعة ثم إعادة النظر في بنائها من جديد كلما أقتربنا أكثر فأكثر من الحقيقة حتى نصل إلى الحقيقة التاريخية النهائية. فعملية الوصول إلى الحقيقة التاريخية في هذه العملية الأخيرة تشبه إلى حد ما عملية الوصول إلى الحقيقة المطلقة عند هيغل والمتمثلة في الجدلية بين الأطروحة ونقيض الأطروحة التي يتولد عنها المركب الذي سينتج نقيضه وهلم جرا حتى نصل إلى الفكرة المطلقة[2].

أن عملية البحث في مدى تأثير العوامل الذاتية على الكتابة التاريخية أصبحت اليوم أكثر من ضرورية في عملية تطوير منهج البحث في التاريخ، ويجب أن تصبح هذه العملية علما لذاته يقوم بعملية نقد وتفكيك لأي بحث تاريخي منجز، وتركز هذه العملية على الباحث المؤرخ ومدى تأثير نفسيته وحياته وانتمائه الطبقي والإيديولوجي والثقافي على بحثه التاريخي والنتائج التي توصل إليها، ونستعين في ذلك بمختلف العلوم وبخاصة علم النفس، بالإضافة إلى المناهج الحديثة في تفكيك النصوص، كما يجب على الذي يقوم بهذه العملية أن يركز بشكل كبير على نقد المنهج العلمي الذي أستخدمه المؤرخ في بحثه، بالإضافة إلى الإهتمام بشكل كبير على الظروف المحيطة بعملية البحث وبشكل أخص الظروف التي أحاطت به أثناء عملية الصياغة النهائية لبحثه. ولهذا السبب ومن أجل تطوير منهج البحث التاريخي وجعله أكثر

موضوعية بتزع كل ما هو ذاتي عنه، يتوجب أن يرفق كل بحث في التاريخ بمعلومات وافية عن صاحب البحث بالتركيز على العناصر التي يمكن أن يكون لها تأثيرا سلبيا على موضوعية بحثه كالإنتماء الطبقي والإيديولوجي والفضاء الثقافي واللغوي والظروف المحيطة بعملية البحث والصياغة النهائية له وغيرها من العناصر الأخرى.

يعتبر هذا العلم الجديد الذي يمكن أن نطلق عليه علم نقد البحث التاريخي علما ضروريا للباحث المؤرخ، لأنه يساعده على ربح الوقت والتوظيف العقلاني للمراجع التاريخية التي يستخدمها دون العودة إلى التذكير بالمهمة الرئيسية لهذا العلم التي تطرقنا إليها آنفا، والتي تتمثل في الفصل بين الموضوعية والذاتية في أي بحث تاريخي.

كي يكون أي بحث في التاريخ أكثر موضوعية يجب على الباحث ذاته أن يقوم بنفسه بعملية النقد العلمي الذاتي للبحث الذي أنجزه بداية من نقد المنهج الذي أستخدمه مع الأخذ بعين الإعتبار العناصر الذاتية التي يمكن أن تؤثر في بحثه، ثم يعرض البحث المنجز على المختص في علم نقد البحث التاريخي للفصل أكثر بين ما هو موضوعي وماهو ذاتي في هذا البحث، لكن رغم هذه العمليات كلها إلا أنه من المستحيل أن يصل البحث إلى درجة الموضوعية الكاملة شأنه في ذلك شأن كل العلوم سواء كانت إنسانية أم دقيقة، كما لا يجب أن يغيب عن ذهننا أن حتى الذي يقوم بعملية النقد العلمي للبحث يقع تحت تأثيرات عناصر ذاتية مثل الباحث المؤرخ ذاته.

وقبل شروعنا في إعطاء نموذجا بسيطا عن مدى تأثير عناصر ذاتية ومنهجية في بحث تاريخي، علينا أن ننبه و نحذر من إمكانية إنحراف علم النقد العلمي للبحث التاريخي عن الهدف الذي وضع من أجله والمتمثل في خدمة البحث التاريخي، فيقبل عليه المؤرخون وينشغلون به بدل الإهتمام بالبحث في التاريخ ذاته بسبب صعوبة هذا الأخير وحاجته إلى الصبر وطول النفس مقارنة بعلم النقد العلمي للبحث التاريخي، فيتحول المؤرخون بذلك إلى الإجترار واجترار الإجترار كما وقع في عصر الإنحطاط الإسلامي عندما ساد الإجترار حول كتب الفقه والتفسير التي أنجزها علماء كبار في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية.

وبعد هذا التمهيد المطول حول علم النقد العلمي للبحث التاريخي، والذي يحتاج إلى تعمق و نقاش أكبر، سنحاول الآن أن نقوم بعملية نقدية بسيطة لأعمال المؤرخ الجزائري محمد حربي

من خلال محاولة إبراز مدى تأثير شخصيته ومسار حياته وانتمائه الأيديولوجي والطبقي والثقافي والمنهج العلمي الذي يستخدمه والظروف المحيطة به على خطابه التاريخي سواء في سرده للوقائع أو في قراءته التاريخية لها. وقد أخذنا المؤرخ محمد حربي كنموذج لعدة أسباب ومنها أنه الأكثر إنتاجا حول الثورة الجزائرية ومسار الحركة الوطنية التي مهدت لها من ضمن المؤرخين الجزائريين كلهم، و بغض النظر عن ذلك فهو الأكثر حرية من أغلب هؤلاء المؤرخين، بل يمكن لنا القول أنه يمثل بحق الخطاب التاريخي المعارض للخطاب التاريخي الرسمي للنظام الجزائري، وإضافة إلى ذلك كله فمحمد حربي هو المؤرخ الجزائري الوحيد الذي كتب على الأقل جزءا من مذكراته إلى جانب المؤرخ أحمد توفيق المدني[3]. وقد سبق لنا أن قلنا أن السير الذاتية للمؤرخين هي من الأدوات الرئيسية في عملية النقد العلمي للبحث التاريخي، ولا داعي لنا للتذكير أن حتى هذه المذكرات والسير الذاتية تحتاج بدورها إلى تمحيص ونقد علمي، بل يمكن لنا أن نذهب أبعد من ذلك بهدف تطوير المنهج العلمي للبحث في التاريخ، فنوسع طريقة الجرح والتعديل من علم الحديث النبوي إلى علم التاريخ، ونطبقه على المؤرخ وصاحب المذكرات والشهادات كما يطبق على رواة الحديث في الماضي.

العوامل المؤثرة في خطاب محمد حربي التاريخي:

يمكن لنا أن نحدد خمس عوامل يمكن أن يكون لها تأثيرا على الخطاب التاريخي لمحمد حربي من ناحية إهتماماته واختياره للمواضيع وسرده للوقائع وقراءته التاريخية لها وتفسيرها وتحليلها. وتتمثل هذه العوامل في شخصيته ومساره النضالي في حركة إسترجاع الإستقلال الوطني للجزائر، وكذلك انتمائه الطبقي والأيديولوجي وفضائه الثقافي، بالإضافة إلى منهجه العلمي والظروف المحيطة ببحثه وكتاباته وهدفه منها. وسنحاول الآن إبراز مدى تأثير هذه العوامل في خطابه التاريخي.

1- شخصيته و مساره النضالي[4]

ولد محمد حربي عام **1933**م بالحروش أين زاول دراسته الإبتدائية في المدرسة الفرنسية، وبدأ احتكاكه بالحركة الوطنية الإستقلالية الممثلة في الحركة من أجل الإنتصار للحريات الديمقراطية بعد انتقاله إلى الدراسة الثانوية بمعهد دومنيك لوسياني في سكيكدة بعد الحرب العالمية الثانية، وأصبح عضوا في خلية الحزب بهذا المعهد عام **1950**م، وبعد عام أصبح

مسؤولا عليها خلفا لعبد الحميد معطى الله، كما كان له نشاطا نقابيا بارزا في مدينة سكيكدة، ويدخل ذلك في إطار إستراتيجية الحزب الجديدة في اكتساب الطبقة العاملة وعدم ترك الساحة شاغرة للحزب الشيوعي الجزائري، وبعد رسوبه في امتحان بكالوريا فلسفة أرسله أبوه إلى فرنسا عام 1952م بهدف مواصلة الدراسة في كوليج سانت بارب **Saint Barbe** بباريس، لقد أستهدف أبوه من ذلك أيضا إبعاده عن النشاط السياسي المعارض للسلطات الإستعمارية، لأن هذا النشاط أقلق أباه وأسرته لأنه يهدد نفوذها الذي أكتسبته من علاقاتها بالإدارة الإستعمارية في كل من الحروش وسكيكدة. ولم يكن أباه يعلم أنه بذلك قد قربه أكثر من قيادات الحزب التي يوجد العديد منها في فرنسا آنذاك، فاحتك هناك بالعديد من المناضلين، ومنهم محمد يزيد وبن يوسف بن خدة وصالح الوانشي ومحمد بوضياف وديدوش مراد وغيرهم، كما كان له نشاطا بارزا في صفوف فيدرالية فرنسا لحزب الحركة من أجل الإنتصار للحريات الديمقراطية بالإضافة إلى نشاطه الطلابي بعد دخوله الجامعة حيث تولى منصب أمين عام ودادية الطلبة المسلمين لشمال أفريقيا عامي 1953م و1954م.

عاش محمد حربي عن قرب أزمة الحركة من أجل الإنتصار للحريات الديمقراطية عام 1953م بحكم قربه الشديد من قيادات الحزب المتصارعين سواء كانو مصاليين أو مركزيين، وقد وقف إلى جانب هؤلاء الأخيرين، وشارك في مؤتمرهم عام 1954م، ويفسر موقفه هذا بقوله: "وجدت لدى المركزيين إطارا للتعبير عن أفكاري بحرية تامة ودون أن توصف بالأفكار الشيطانية" عكس مايقع عند المصاليين الذين "يعاقبون ويشوهون كل من لا يتبع الزعيم بشكل أعمى في كل ما يقوله"[5].

عند إندلاع الثورة المسلحة كان محمد حربي مطاردا من البوليس الفرنسي لأنه أعتبر هاربا من الخدمة العسكرية في الجيش، وبقي متخفيا إلى أن التحق بالثورة المسلحة عام 1956م، أي في نفس الفترة التي قرر فيه المركزيون الإنضمام إلى جبهة التحرير الوطني، وقد تولى أثناء الثورة المسلحة عدة مسؤوليات، منها عضو لجنة الإعلام والأخبار التابعة لفيدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا قبل أن يتولى رئاستها، فأصبح بذلك عضوا في لجنة فيدرالية فرنسا التي يرأسها عمر بوداود، واستقال منها عام 1958م لأنه لم يكن يتفق تماما مع بوداود الذي كان ينظر إليه بعين الريبة والشك بدعوى أنه شيوعي. وكان من المفروض أن يلتحق بوزارة الأخبار

بتونس بعد أن طلب منه ذلك محمد يزيد الذي كان على رأسها، لكنه وجد نفسه في الأخير مسؤولا على الديوان المدني لوزارة القوات المسلحة بعد أن ألح على ذلك كريم بلقاسم الذي كان على رأسها، واستغرب محمد حربي هذا الإلحاح لأنه كان يعلم أن كريم بلقاسم لا يكّن له أي ودّ لأنه كان شديد النفور من الشيوعيين، وأنه كان وراء محاولات إبعاده من لجنة فيدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا، ويقول حربي أن كريم بلقاسم أستهدف من ضمه إلى وزارته تحقيق غرضين وهما إكتساب العقيد علي كافي إلى جانبه في إطار الصراع بين الباءات الثلاث (بلقاسم كريم، بن طوبال لخضر، بوصوف عبدالحفيظ) لأن كافي هو خال حربي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أراد كريم أن يوظف حربي كعين له تراقب تحركات علي كافي[6]، ويبقى هذا التفسير في نظرنا مجرد تخمينات محمد حربي الذي لا يرتاح بتاتا إلى كريم بلقاسم وعدد كبير من المناضلين الذين ينحدرون من منطقة القبائل، ويعود ذلك إلى تأثير الفضاء الثقافي والتربوي الذي ترعرع فيه حربي كما سنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد.

استمر محمد حربي يعمل تحت رئاسة كريم بلقاسم، وبقي على ذلك حتى عندما أصبح هذا الأخير وزيرا للخارجية عام 1960، فتولى حربي فيها عدة مناصب هامة، ومنها رئاسة قسم بلدان الشرق الشيوعي بالوزارة ثم إدارة قسم الإعلام فيها، فربط بذلك علاقات وطيدة بالصحف الصادرة في مصر آنذاك، كما مثل جبهة التحرير الوطني في منظمة تضامن الشعوب الآفرو- آسيوية والمؤتمر الدولي للسلام، وكلف أيضا بمهمة خاصة في غينيا. وبعد أن أخذ سعد دحلب مكان كريم بلقلسم على رأس وزارة الخارجية عام 1961م ارتقى محمد حربي إلى منسق للإدارة المركزية لهذه الوزارة، ويقول حربي أن دحلب قد أعترف له بأنه كان يرغب توليته الأمانة العامة للوزارة إلا أنه كان يعلم مسبقا أن عبد الحفيظ بوصوف سيقف ضد هذا التعيين لأن هذا المنصب من إختصاص مجلس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية[7]، ويعود موقف بوصوف المعادي لحربي حسب ما يبدو إلى الصراع الذي كان قائما ين الباءات الثلاث، وكان حربي يحسب على علي كافي الذي كان بدوره حليفا لبن طوبال ثالث هؤلاء الباءات. وقد شارك حربي في هذه الفترة كعضو في وفد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في مؤتمر حركة عدم الإنحياز ببلغراد عام 1961، كما ترأس لجنة الخبراء في مفاوضات إيفيان الأولى.

بعد إسترجاع الإستقلال الوطني تم تعيينه كمساعد لمحمد بوضياف الذي كان أمينا

عاما للشؤون الخارجية في المكتب السياسي لجبهة التحرير الوطني، ويبدو أنه كان عين بن بللة على خصمه اللدود بوضياف، ويكون قد كلفه بن بللة بمهمة شق صفوف مجموعة تيزي وزو التي تضم بوضياف وكريم بلقاسم، والتي كانت في مواجهة مجموعة تلمسان التي يقودها بن بلة وبومدين أثناء أزمة صيف 1962م، وما يدفعنا إلى هذا الطرح هو إعتراف حربي ذاته من أنه حاول إقناع بوضياف بالابتعاد عن كريم بلقاسم لأن بن بلة لن يغفر له بتاتا تحالفه مع عبان رمضان ضده عام 1956م[8].

حاول حربي في مذكراته أن لا يتحدث كثيرا عن أزمة صيف 1962م، وأحاط موقفه منها بنوع من الغموض، وأنه كان مع بن بلة لكنه ضد هواري بومدين، إلا أنه في الحقيقة كان معهم لعدة أسباب ومنها أنه لايمكن أن يقف إلى جانب كريم بلقاسم لأنه من منطقة القبائل، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن حربي كان انتهازيا مثل أغلب المثقفين حتى ولو حاول تبرير مواقفه بإيديولوجيته والبرامج التي تخدم الكادحين مثل قوله أنه التحق ببن بلة بعد إصداره قانون الإصلاح الزراعي عام 1963م[9].

لقد كان لمحمد حربي تأثيرا كبيرا وفعالا في نظام الرئيس أحمد بن بلة وتوجهاته بداية من مشاركته في صياغة ميثاق طرابلس عام 1962م ثم ميثاق الجزائر 1964م، كما كان أحد البارزين فيما يعرف بـــ"يسار جبهة التحرير الوطني" آنذاك، ولا نستبعد أن يكون وراء استقدام زعيم الأممية الرابعة اليوناني التروتسكي ميشل رابتيس المدعو بابلو، والذي قال عنه هواري بومدين فيما بعد أنه جاء مع ماركسيين آخرين لتجريب أفكارهم على المجتمع الجزائري، وكشف بومدين أن رابتيس كان يتقاضى أجرة تقدر بمليون فرنك فرنسي قديم في الوقت الذي لم تتجاوز فيه أجرة الفلاح الجزائري 500 فرنك فرنسي قديم[10].

ألقى نظام بومدين القبض على محمد حربي بعد إنقلاب 19 جوان 1965م بسبب تورط هذا الأخير في إنشاء منظمة المقاومة الشعبية الشيوعية، والتي كانت تنوي القيام بأعمال إرهابية ضد نظام بومدين. وبقي حربي في السجن مدة خمس سنوات ثم وضع تحت الإقامة الجبرية، وفي عام 1973م تمكن من الهروب من الجزائر ليستقر بفرنسا، وواصل دراساته الجامعية في التاريخ ليتحصل على دكتوراة الحلقة الثالثة بموضوع حول جذور جبهة التحرير الوطني مركزا على أزمة الحركة من أجل الإنتصار للحريات الديمقراطية 1953م[11]، ثم تحصل

على دكتوراة دولة بموضوع حول الثورة الجزائرية، وقد نشر عام 1980م تحت عنوان "جبهة التحرير الوطني بين السراب و الواقع"[12]، ويعد هذا الكتاب من أشهر وأبرز أعمال المؤرخ محمد حربي على الإطلاق، وقد نشر حربي كتبا تاريخية أخرى في الوقت الذي زاول فيه مهمة تدريس التاريخ في جامعة باريس 8، ومن هذه الكتب " الحرب تبدأ في الجزائر" عام 1984م[13] و"الجزائر ومصيرها" عام 1992م[14]، كما نشر عام 1981م "أرشيف الثورة الجزائرية"، وهو عبارة عن وثائق سبق أن جمعها وأستند على العديد منها في أطروحته لنيل دكتوراة[15].

يتبين لنا مما سبق أن محمد حربي قد أهتم في كتاباته التاريخية حول الجزائر بفترة عايش أحداثها ملاحظا ومشاركا فيها، كما عرف العديد من صناع هذه الأحداث عن قرب، فمكنه ذلك من الحصول على كم هائل من المعلومات والوثائق، لكن هذه المشاركة لها تاثير سلبي على قراءاته وتفسيره لهذه الأحداث بالإضافة إلى توظيفه للمعلومات والوثائق الموجودة بحوزته، هذا ما يظهر جليا مثلا من مواقفه وتصويره لبعض الشخصيات التي اختلف معها كبوصوف وكريم بلقاسم وعمر بوداود وهواري بومدين على سبيل المثال لا الحصر، فركز على ما يراه سلبيا فيهم، هذا إن لم تكن العديد من هذه السلبيات من صنع خياله، ونجد عكس ذلك على الإطلاق عندما يتحدث مثلا عن علي كافي وبن طوبال. ونلاحظ نفس الإمر عند حديثه عن التنظيمات التي كانت موجودة قبل إندلاع الثورة المسلحة وبخاصة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، فاعتبر مواقفها سلبية تجاه الإستعمار الفرنسي إن لم يقل أنها متحالفة معه، أما الحزب الشيوعي الجزائري فقد شفع له نوعا ما تقاربه الإيديولوجي معه، كما سنرى فيما بعد عندما نتطرق إلى تأثير انتمائه الإيديولوجي على خطابه التاريخي. إن النضال الحزبي لمحمد حربي في الحركة من أجل الإنتصار للحريات الديمقراطية التي كانت على إختلاف مع التنظيمات الجزائرية الأخرى منعته من أن ينظر بموضوعية إلى هذه التنظيمات أو الغوص في أعماقها لعله يكتشف عكس ما تمليه عليه الشحنة العاطفية العدائية التي غرسها فيه خطاب قيادات حزبه ضد التنظيمات الأخرى وهو مناضل صغير ومبتدئ في هذا الحزب. إن هذه الظاهرة نجدها اليوم لدى أغلب إن لم نقل جل الذين أنضووا تحت راية هذا التنظيم حتى إندلاع الثورة المسلحة.

هذا قليل جدا من الكثير من الحالات التي تبين لنا مدى التأثير السلبي لشخصية محمد حربي ومساره السياسي والنضالي على خطابه التاريخي، والتي يجب على القاريء والمؤرخ أن يأخذها بعين الإعتبار، ويبرز لنا ذلك مدى حاجتنا إلى نقد علمي عميق لهذا الخطاب التاريخي على يد مختصين في العلم الذي أطلقنا عليه "علم النقد التاريخي".

2- تأثير إنتمائه الطبقي:

يلاحظ المتمعن بعمق في الخطاب التاريخي لمحمد حربي حول الثورة الجزائرية و جذورها أنه ينظر إلى قاعدها الإجتماعية نظرة إزدرائية متسترة، فيصفها بالشعبوية، ويغلب عليها العاطفة الدينية والجهالة، ولا تمتلك أي روح نقدية، وهي حاقدة على كل أوروبي لأنه كافر، وتنظر بنفس النظرة إلى كل جزائري يتشبه بهم أو يبدر منه سلوك يشبه سلوك الأوروبي، كما تكن عداءا للمثقف الذي تخرج من المدرسة الإستعمارية، كما هي على إستعداد للإمعان في القتل والذبح[16].

ليس هذا معناه أن محمد حربي يشير إلى هذه الصفات بشكل صريح، بل هو يستخدم أسلوب التماهي بشكل تجعل القاريء المستسلم أو المحايد لكتبه خاصة كتابه "جبهة التحرير الوطني بين السراب والواقع" تتشكل في ذهنه الصورة أو الصفات التي ذكرناها آنفا حول القاعدة الإجتماعية للثورة.

يختفي وراء هذا الإزدراء المستتر الذي يكنه محمد حربي للقاعدة الإجتماعية للثورة إنتمائه الطبقي، فهو ينحدر من أسرة غنية أكتسبت ثروها في أواخر العهد العثماني، وذلك عندما أعطى العثمانيون آراض خصبة لقبيلته بني مهناسن مقابل أن تصبح من قبائل المخزن التي كانت دائمة الوقوف إلى جانب السلطة العثمانية في الجزائر ضد القبائل التي ترفض دفع الضرائب لهذه السلطة[17].

وحافظت أسرة حربي على هذا النفوذ المالي أثناء العهد الإستعماري بحكم ربطها علاقات وطيدة بالسلطات الإستعمارية، وقد حقق لها ذلك نفوذا سياسيا في الحروش، والذي تدعم أكثر بالنفوذ الديني لأسرة أمه التي تنتمي لعائلة كافي أي أسرة العقيد علي كافي الذي تولى قيادة الولاية الثانية أي الشمال القسنطيني بعد بن طوبال الذي أصبح عضوا في مجلس التنسيق والتنفيذ للثورة وأحد الباءات الثلاث.

فمن الطبيعي أن يحتقر و يزدري محمد حربي البسطاء من الناس والفلاحين وعمال الأرض الذين كانوا يشكلون القاعدة الإجتماعية للثورة الجزائرية، وكيف لا يكون كذلك وهو كان يرى بأم عينيه وهو طفل صغير كيف كان يعامل جده عينة من هؤلاء البسطاء الذين كانوا خدما له ولأسرته.

لكن لم يأخذ هذا الإحتقار والإزدراء لدى محمد حربي طابعا طبقيا بل أختفى وراء طابع ثقافي أي أحتقار المثقف لغير المثقف، وغرابة الأمر أنه أشار إلى هذا النوع من الطبقية التي تختفي في طابع ثقافي عندما قال عن المركزيين الذين كانو يصفون مصالي الحاج بعديم الثقافة والكفاءة بأنه" لا يمكن لنا إلاّ أن ننظر إلى وراء هذه الأحكام نظرة طبقية"[18]، لكنه لم ينتبه إلى أن نفس الأمر ينطبق على نظرته إلى القاعدة الإجتماعية للثورة الجزائرية، ولو قام بنقد علمي لأبحاثه قبل صياغتها النهائية وأخذ بعين الإعتبار إمكانية تأثير إنتمائه الطبقي على خطابه لتفطن إلى هذه المواقف الإحتقارية تجاه قاعدة الثورة الجزائرية، ويمكن أن يتساءل البعض لماذا أخذ هذا الموقف طابعا ثقافيا وليس طابعا طبقيا ؟ فنقول أن ذلك يعود إلى الأيديولوجية الماركسية التي ينتمي إليها محمد حربي، والتي كان لها تأثيرا على خطابه التاريخي كما سنرى الآن، لكن نشير قبل ذلك إلى أن هذه الظاهرة منتشرة بقوة لدى الطبقة البرجوازية والمثقفة الماركسية، و هذا الإحتقار للبسطاء هو الذي يختفي وراء فكرة حزب شيوعي طلائعي يجسد مصالح طبقة البروليتاريا لكن بقيادة نخبة من المثقفين الماركسيين،

3- فضاءه الثقافي واللغوي:

يجب على القارىء أو المؤرخ أن يضع في حسبانه عند قراءة أو توظيف خطاب تاريخي ما الفضاء الثقافي الذي نشأ فيه صاحب الخطاب، ويركز بشكل أخص على الصورة التي يحملها عن الآخر الذي كتب عنه، والتي عادة ما تتشكل لديه منذ الصغر ومن خلال فضائه الثقافي، فالمؤرخ الأوروبي مثلا يحمل صورة غير سليمة 100% مثلا عن المجتمعات الإسلامية مهما أدعى من علمية و موضوعية، فهو يتأثر بشكل أو بآخر بالصورة التي تلقاها عنها سواء في المدرسة أو الأسرة أو عن طريق قراءاته ووسائل الإعلام، لكن تختلف نسبة التأثر بهذه الصورة المشوهة من مؤرخ إلى آخر.

وينطبق نفس الأمر على المؤرخ الجزائري عندما يكتب عن المجتمعات الغربية، لكن بشكل عكسي، إلا أن مصيبة هذا المؤرخ الجزائري أنه يحمل في غالب الأحيان صورة مشوهة وغير سليمة 100% عن سكان مناطق أخرى من بلاده الجزائر دون منطقته طبعا، فتؤثر تلك الصورة على كتاباته عن هذه المناطق الأخرى وسكانها، وعلينا أن نشير أن سكان مناطق القبائل ومزاب والأوراس قد أخذت حصة الأسد من هذا التشويه في الصورة لدى سكان المناطق الأخرى، وتعود هذه الصورة المشوهة عنهم إلى عوامل تاريخية وأسباب أخرى ليس هنا موضوع التطرق إليها.

تبين لنا الدراسة العميقة والنقدية للخطاب التاريخي عند محمد حربي بأن هذا الأخير لم يتمكن من التخلص من فضائه الثقافي والصورة التي يحملها عن سكان المناطق الأخرى خاصة منطقة القبائل، فيلاحظ مثلا القاريء أنه في الوقت الذي يحاول فيه أن يبرر إنسحاب مجموعة قسنطينة من إجتماع الأثني والعشرين في حي المدنية، فأنه يحاول أن يرسخ في الأذهان أن كريم بلقاسم وجماعته قد لجأت إلى التمرد العسكري على السلطات الإستعمارية قبل سبع سنوات من إندلاع الثورة تحت دوافع عائلية أكثر مما هي وطنية[19]. ومثال آخر عن ذلك هو عند تطرقه إلى عدد المجاهدين في كل المناطق في بداية الثورة، فبالرغم من أن كل تلك الأعداد قد وردت في محضر مؤتمر الصومام الذي أستند عليه، فإنه بالنسبة لمنطقة القبائل– التي ورد في المحضر أن فيها العدد الأكبر– قد ذكر نفس العدد الذي ورد في المحضر، ولكن بإضافة عبارة "حسب كريم بلقاسم" دون الإشارة إلى المصدر الأصلي وهو محضر المؤتمر[20]، وهدفه من ذلك واضح كل الوضوح وهو إثارة الشك في هذا العدد لدى القاريء العادي الذي لم يطلع على محضر مؤتمر الصومام، ولا يسعنا إلا القول أن دافعه في ذلك هو الجهوية وإخفاء مزايا سكان منطقة القبائل مقابل تضخيم سلبياتهم، فنجد خطابه التاريخي مليء بصور غير موضوعية عن أغلب القادة المنحدرين من منطقة القبائل، وقد أخذ كريم بلقاسم ومحمدي السعيد وعميروش آيت حمودة ومسؤولي فيدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا وعلى رأسهم عمر بوداود حصة الأسد من النقد، ويظهر ذلك بوضوح أشد في الجزء الأول من مذكراته[21]، فلم يختلف حربي بتاتا عن الصورة التي أعطاها قريبه وحاميه العقيد علي كافي في مذكراته عن أغلب القادة المنحدرين من منطقة القبائل[22].

ويلاحظ القاريء المتمعن لمذكرات محمد حربي أنه كلما تحدث عن هؤلاء القادة المنحدرين من منطقة القبائل نجده يشير إلى صداقته لكل من مبروك بلحسين وعمر أوصديق الذان ينحدران من نفس المنطقة[23]، وكأن حربي يريد بذلك أن يدفع عن نفسه تهمة الإنحياز ضد هؤلاء القادة لأنهم ينحدرون من منطقة القبائل.

يمكن أن تكون بعض هذه المواقف نابعة من إختلافه مع بعض هؤلاء القادة مثل كريم بلقاسم وعمر بوداود، إلا أن ما يبدو لنا أنه خفي عن محمد حربي هو أن الكثير من مواقفه تلك كان مصدرها هي تلك الأحكام المسبقة الموجودة لدى المؤرخ، والتي ترسخت في ذهنه منذ كان طفلا، فماذا ننتظر في هذه القضية من مؤرخ كانت تقول له أمه وهو صغير أن هؤلاء القبائل برانية أي أجانب، بل لم تكن أمه تميز بينهم و بين اليهود فحملتهم مسؤولية أحداث قسنطينة 1934، وكأن اليهودي الذي تبول في المسجد هو قبائلي، فهو بذلك كان سببا لتلك الأحداث[24]. نعتقد أن الصورة التي كانت تعطيها أم محمد حربي لابنها حول السكان القبائل قد ترسخت في لاشعوره، ولم يستطع التخلص منها لتتحول فيما بعد إلى أحكام مسبقة راسخة في مخياله، أثر بشكل أو بآخر على ممارساته ومواقفه و نظرته تجاه كل ما هو قبائلي.

تسود هذه الظاهرة لدى بعض سكان المناطق الناطقة بالعربية بما فيهم المفكرين والمؤرخين والأدباء، كما تسود أيضا لكن بشكل عكسي أي صورة مشوهة عن الناطقين بالعربية لدى بعض سكان المناطق الناطقة بالبربرية كالأوراس ومزاب والقبائل، فما علينا إلا الدراسة العميقة للخطاب الأدبي والتاريخي والفكري الذي أنتجه مؤرخو وأدباء ومفكرو هذه المناطق لنتأكد مما قلناه.

ولم يكن المؤرخ محمد حربي بمنأى عن هذه التأثيرات، ونعتقد أنها شكلت عائقا إبستمولوجيا وعرقلته عن قراءة موضوعية للأزمة البربرية عام 1949م مثلا، ومنعته من أن يدرك أن الذين أشعلوا فتيلها تصرفوا على أساس رد فعل منهم على شعور بالإستفزاز والعنصرية والإقصاء الثقافي واللغوي تجاههم[25].

ومادمنا نتحدث عن مدى تأثير الفضاء الثقافي على الخطاب التاريخي لمحمد حربي علينا الإشارة إلى ضعف قدرته على القراءة باللغة العربية، وقد شكل ذلك لديه عائقا إبستمولوجيا آخر منعته مثلا من العودة مباشرة إلى خطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دون أي وساطة

خاصة أعمال كل من علي مراد ونذير ناير حول جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالفرنسية[26]. وقد كان هذا العائق وراء الأحكام الغير منصفة التي أصدرها على العديد من مواقف جمعية العلماء [27]، ولو أنه بإمكاننا القول أيضا أن إنتمائه الأيديولوجي كان وراء ذلك، والذي كان له تأثير سلبي على خطابه التاريخي كما سنرى الآن.

4- إنتماؤه الإيديولوجي:

يعترف محمد حربي أنه ماركسي ذو توجه تروتسكي، وقد بدأ إعجابه بالتروتسكية عندما كان يدرس في ثانوية سكيكدة حيث تعرف على مبادئها الأولى على يد بيير سويري **Pierre Souyri** الذي درسه مادة التاريخ هناك عام **1949**، وقد أصبح هذا الأخير معروفا فيما بعد ضمن التنظيمات التروتسكية العالمية، خاصة من خلال عضويته في هيئة تحرير المجلة التروتسكية الشهيرة "إشتراكية أو باربرية **Socialisme ou Barbarie** "، وكان يكتب فيها تحت توقيع بيير برون **Pierre Brune** قبل أن ينشأ فيما بعد مجلة "السلطة العمالية **Pouvoir Ouvrier** "، وقد كان لهذا الأستاذ التروتسكي تأثيرا فكريا على العديد من الجزائريين الذين درسو ا في معهد دومنيك لوسياني بسكيكدة آنذاك[28].

وقد كان بيير سويري وراء إكتشافه الأدبيات الماركسية خاصة التروتسكية منها، لكن إنتقاله إلى فرنسا واحتكاكه بالعديد من الماركسيين هناك ومنهم دانييل غيران **Daniel Guerrin** الذي كان أحد الذين دفعوه إلى التعمق أكثر في دراسة الأدبيات الماركسية، ولم يتخل محمد حربي عن تروتسكيته إلى حد اليوم[29].

وقد كان لأيديولوجيته التروتسكية تأثيرا كبيرا على خطابه التاريخي، فهي التي سمحت له باكتشاف مايسميها بـ"البرجوازية البيروقراطية" داخل نظام جبهة التحرير الوطني أثناء الثورة وبعد إسترجاع الإستقلال[30]، كما ينظر إلى ماعاناه مصالي الحاج على يد ما يعتبرها بيروقراطية جبهة التحرير الوطني بنفس نظرته إلى ما عاناه تروتسكي من تهميش وهوان على يد البيروقراطية الستالينية– حسب أدبيات التروتسكيين–[31]. إن هذا الإسقاط هو الذي يختفي وراء تعاطفه المتستر مع مصالي الحاج دون المصاليين ونقده اللاذع لممارسات جبهة التحرير الوطني التي عادة ما يشبهها بشكل غير مباشر بالممارسات الستالينية رغم إنتمائه إلى هذه الجبهة حتى عام **1965**.

ويظهر مدى تأثير الإنتماء الأيديولوجي لمحمد حربي على خطابه التاريخي، ويأخذ ذلك شكلا فاضحا عندما يحاول إيجاد المبررات لمختلف مواقف الحزب الشيوعي الجزائري قبل وأثناء الثورة[32]. فبالرغم من أن الحزب هو حزبا ستالينيا معاد للتروتسكيين، إلاّ أن الإنتماء إلى نفس العائلة الأيديولوجية فرضت عليه ذلك الإنحياز المفضوح إلى جانب الحزب الشيوعي. وفي الوقت نفسه يلاحظ القاريء لخطاب حربي التاريخي مدى تحامله على جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مركزا على المواقف التي يعتبرها سلبية عكس ما يقوم به مع مواقف الحزب الشيوعي، وبلغ إنحيازه إلى درجة القول أن العلماء هم الأخيرون الذين ألتحقوا بالثورة دون أن يلتفت إلى العديد من أفراد قاعدتها الذين ألتحقوا قبل حل جمعية العلماء بعدة شهورفي الوقت الذي يركز فيه على بضعة أفراد من الشيوعيين يقول أنهم ألتحقوا بالثورة في الأوراس، ويظهر إنحيازه أيضا في قوله الغريب الذي يحمل مغالطة، وذلك عندما يقول أن العلماء لم يدعوا قط إلى الإستقلال لكن الشيوعيين على الأقل لم يكونو ضد الإستقلال[33]، ويوحي هذا القول للقاريء غير العارف بالخلفيات أن العلماء كانوا ضد الإستقلال عكس الشيوعيين.

إن هذا قليل من كثير من الأمثلة التي تبين لنا مدى تأثير الإنتماء الأيديولوجي لمحمد حربي على خطابه التاريخي، كما كان لهذا الإنتماء التروتسكي تأثيرا على المنهج الذي يستخدمه في أبحاثه التاريخية، والذي من المفروض أن يقوم صاحب البحث ذاته بعملية نقده قبل أن يقوم بذلك المختص في علم نقد البحث التاريخي، فما هو المنهج الذي يستند عليه المؤرخ محمد حربي ؟ وهل يصلح للبحث في تاريخ الثورة الجزائرية ؟ وأين تكمن نقاط قوته وضعفه ؟

5– منهجه التاريخي:

يستخدم المؤرخ محمد حربي المنهج المتعارف عليه في بحثه التاريخي، وقد سبق لنا أن تطرقنا إلى كيفية حصوله على المعلومات عند تناولنا مساره النضالي والسياسي في الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، فلا نناقش حربي في أسلوبه وطريقة تنظيمه وصياغته لمعلوماته، لكن سنناقشه في المنهج الذي أعتمده في تفسيره للأحداث.

فقد أعتمد على المنهج الماركسي في ذلك، فمواقف العلماء وجماعة فرحات عباس مثلا تحركها و تتحكم فيها المصالح الطبقية البرجوازية بحكم إنتمائهم إلى هذه الطبقة – حسب محمد حربي– [34]. ويقول أنه لم يعتمد على المنهج الماركسي التقليدي الذي يركز على العامل

الإقتصادي فقط بل "حاولت أن آخذ العوامل الثقافية بعين الإعتبار بالنسبة للمجتمع الجزائري"[35]، وهو في الحقيقة لم يدخل بذلك أي تعديل على المنهج الماركسي التقليدي كما يدعي، بل كان أكثر وفاء لهذا المنهج الذي لا يقصي في حقيقته العوامل الأخرى، بل فقط يعتبر العامل الإقتصادي عاملا رئيسيا ضمن عدة عوامل أخرى، وقد وضح فرديريك أنجلس ذلك في أواخر حياته، حيث كتب يقول إنه: "حسب المفهوم المادي للتاريخ، فأن العامل الحاسم فيه في آخر المطاف هو العامل الإقتصادي، لكن لم نقل لا أنا ولا ماركس أنه العامل الوحيد، فإذا جاء أحد فيما بعد وحرف قولنا وقال أن العامل الإقتصادي هو العامل الحاسم الوحيد، فقد حول ما قلناه إلى كلام فارغ لامعنى له"[36].

فلم يأت حربي إذا بشيء جديد خارج المنهج الماركسي التقليدي. ورغم ذلك فقد غلب الصراع الطبقي في تفسيره للكثير من المواقف والأحداث في خطابه التاريخي حول الجزائر، كما كان حربي وفيا لتروتسكيته عندما حاول فهم وتفسير عملية تطور جبهة التحرير الوطني بالإستناد على فكرة تحول قادة التنظيم من بسطاء أو ما يسمى بالعامة إلى برجوازية بيروقراطية تدافع عن مصالحها[37]. وقد تأثر في تفسيراته تلك بالتروتسكيين الذين يفسرون ويقومون بتحليل تحولات الأحزاب الشيوعية الستالينية في الإتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية، و التي برزت بجلاء في مجلتهم "باربرية وإشتراكية **Socialisme ou Barbarie**" التي ظهرت عام **1949**م.

لكن السؤال المطروح هو هل تصلح المناهج الماركسية لتفسير تاريخ المجتمع الجزائري خاصة والمجتمعات الإسلامية عامة ؟ ألم يقع الماركسيون ذاتهم في مأزق عندما أكتشفوا أن تطور أساليب وأنماط الإنتاج في هذه البلدان لم يكن بنفس الطريقة التي تم بها في البلدان الأوروبية، فلجأوا إلى القول بنمط إنتاج آسيوي خاص بهذه المجتمعات ؟[38]. فإن كان حربي يتحدث عن طبقة برجوازية، فهل فعلا وجدت هذه الطبقة في الجزائر آنذاك بكل خصائصها ؟ فحتى ولو تجاوزنا على ذلك كله، فأنه كي نطبق المنهج التاريخي الماركسي يجب علينا في البداية أن نوضح ونحاول أن نكتشف أسلوب و علاقات الإنتاج السائدة في المجتمع الجزائري آنذاك. فهل كان أسلوبا رأسماليا فعلا مما يسمح لنا بالحديث عن طبقات برجوازية وبروليتارية ؟ أم أن هناك خليطا من أنماط وأساليب الإنتاج تعيش جنبا إلى جنب ؟ إن الإجابة على ذلك هو شرط

ضروري لتطبيق المنهج التاريخي الماركسي، لكن غابت الإشارة إلى ذلك تماما في أبحاثه، فلو قام بذلك لأكتشف أن منهجه التفسيري الماركسي غير صالح للتطبيق كما هو على المجتمع الجزائري آنذاك، ونعتقد أن هذه هي نقطة الضعف الأساسية في منهجه، ولانعلم إن تجاهل عدم التطرق إلى أسلوب وعلاقات الإنتاج دون قصد منه أم عمدا كي لا يناقض المنهج التاريخي الماركسي الذي يتماشى مع أيديولوجيته، والإجابة على ذلك تحتاج إلى بحث أعمق ليس هنا مكانه. ولم يبق لنا الآن إلاّ التطرق إلى الظروف التي أحاطت به أثناء عملية البحث وصياغته النهائية، والذي نعتبره عاملا شديد التأثير في أي خطاب تاريخي كان.

6- الظروف المحيطة به أثناء إنجاز أعماله التاريخية: كنا نتمنى أن يكون محمد حربي قد نشر الجزء الثاني من مذكراته، والتي تغطي فترة ما بعد إسترجاع الإستقلال، لأن ذلك من شأنه أن يساعدنا على معرفة ولو جزء من الظروف التي كانت تحيط به أثناء إنجاز وصياغة كل بحث من مختلف أبحاثه التاريخية، ولأن ذلك كفيل بإكتشاف عامل ذاتي شديد التأثير على خطابه التاريخي ويفقده بعض الموضوعية إن لم يأخذ المؤرخ حذره منه عند الصياغة النهائية لعمله.

لكن رغم ذلك سنحاول التطرق بإيجاز إلى بعض الظروف التي تكون قد أحاطت بكل بحث من أبحاث المؤرخ محمد حربي حول الجزائر وثورتها. فبشأن بحثه الأول حول جذور جبهة التحرير الوطني فقد أنجزه عام **1975** أي مباشرة بعد خروجه من الجزائر التي كان يحكمها نظام كان وراء سجنه و تعذيبه، و لهذا يمكن لنا القول أنه بالإضافة إلى رغبته آنذاك في المساهمة في كتابة تاريخ الجزائر والحصول على الشهادة الجامعية، إلا أنه بكل تأكيد يكون قد وضع نصب عينيه الكشف للعامة والخاصة أن حكام الجزائر آنذاك لا يمتلكون أي شرعية تاريخية مادمنا لا نجد ذكرا لأي شخص من عناصر هذا النظام الذي يحكم الجزائر سواء عند تأسيس جبهة التحرير الوطني أو في المرحلة التي سبقت ذلك، خاصة وأن هذا الغياب كان يشكل عقدة نقص لدى عناصر هذا النظام إلى درجة أنه منع ذكر الشخصيات التي ساهمت في إندلاع الثورة من قريب أو من بعيد، وهذا النظام كان وراء فكرة "الشعب هو البطل"، وهدفه من ذلك التغطية على غيابه في إندلاع الثورة والتخلص من عقدته أو العامل الذي يقلل من شرعيته.

أما كتابه الثاني "جبهة التحرير الوطني بين السراب والواقع" الذي أنجزه عام **1980**

فقد جاء في ظروف خاصة بالنسبة للجزائر، ففي هذه الفترة توفي الرئيس هواري بومدين وانعقد المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطني الذي كان يحضر له في عهد بومدين، وكان يرغب إعطاءه صلاحيات ودور أوسع في صناعة القرار كي يتخلص من بعض عناصر مجلس الثورة الذين أصبحوا يعرقلونه، كما أن بومدين أراد الإستناد على هذا التنظيم لدعم سلطته أكثر بعد ما سبق له أن همشه من قبل.

ويبدو لنا أن هذا الظرف له تأثير على عمل محمد حربي، فبالرغم من أنه يقول في مقدمة كتابه أن أحد أهدافه منه تقديم قراءة تختلف عن القراءة الرسمية لتاريخ الثورة الجزائرية، إلاّ أنه حاول أيضا من خلال كتابه إبراز كيفية تحول جبهة التحرير الوطني من تنظيم ثوري إلى مجرد جهاز تستخدمه البرجوازية البيروقراطية لخدمة مصالحها الطبقية على حساب الشعب البسيط الذي ضحى من أجل إسترجاع الإستقلال، وكأن حربي أراد بذلك فضح ما يعتبره توجها ستالينيا للنظام الجزائري آنذاك، وأن رغبة هذا النظام في تدعيم الحزب هو في الحقيقة دعم للستالينية والبرجوازية البيروقراطية وليس خدمة للعمال والفلاحين كما كان يدعي هذا النظام. فكان حربي في حقيقة الأمر يعبر عن موقف سياسي معارض لنظام بومدين لكن بواسطة الكتابة التاريخية. كما سعى أيضا محمد حربي في كتابه إلى نزع كل القداسة التي أحيطت بالثورة ورجالاتها، فكان كثير التركيز على مختلف الصراعات و المؤامرات التي كان تحيكها مختلف العناصر فيما بينها، وكان شديد التركيز نوعا ما وبأسلوب ذكي على الشخصيات التي أصبحت تحكم إلى جانب بومدين في الجزائر.

ولكي يعطي محمد حربي مصداقية أكثر لكتابه "جبهة التحرير الوطني بين السراب والواقع"، وكي يكون له تأثير أكبر فإنه عمد إلى نشر كما كبيرا من الوثائق التي يقول أنه أعتمد عليها عند وضعه هذا الكتاب، فكان ذلك وراء ظهور كتابه"أرشيف الثورة الجزائرية" عام 1981، والذي ضمنه أكثر من مئة وثيقة.

وفي عام 1992 نشر له كتاب "الجزائر ومصيرها: مواطنون أم مؤمنون"، وهو عبارة عن مجموعة دراسات عمق فيها البحث في بعض القضايا الذي سبق له أن تطرق إليها في كتبه السابقة. لكن يلاحظ فيها مدى إرتباط واقع الجزائر آنذاك بهذه الدراسات، ويبدأ ذلك من العنوان الذي يتساءل فيه مواطنون أم مؤمنون ؟، وقد أملى عليه ذلك البروز القوي للتيارات

الإسلامية في الجزائر في آواخر الثمانينات وفترة التسعينات، وإن كان لا يجب أن يغيب عن ذهننا مدى التأثير التي تركه في نفسية حربي ذلك الخلاف حول إضافة كلمة"المسلمون" عند إنشاء الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، وكان هو معارضا لذلك لأنه كان يدرك ما تحمله الكلمة من دلالات وتأثيرات فيما بعد على المواطنة وقانون الجنسية ومصير الغير مسلمين في دولة الإستقلال[39]، وكأن بروز التيارات الإسلامية والخوف من إستيلائها على السلطة أعادت إلى ذهن حربي ذلك النقاش الذي دار داخل التنظيم الطلابي أثناء الثورة المسلحة حول حرف الميم، وحق الطلبة غير المسلمين في الإنضمام إلى هذا التنظيم ورفض جبهة التحرير الوطني ذلك، فكأن حربي أراد القول أن هناك تشابها بين تلك الفترة واليوم، وأن هذه الأحداث المستجدة التي عرفتها الجزائر في التسعينات قد أعطت له الحق بعد أكثر من أربع وأربعين سنة، وأراد أن يذكر كيف أنه كاد أن يفقد حياته من أجل أفكاره آنذاك، وبعبارة مختصرة أراد بذلك أن ينتقم تاريخيا من خصومه الطلاب أثناء الثورة المسلحة، وعلى رأسهم بلعيد عبد السلام وأحمد طالب الإبراهيمي والعياشي ياكر ومسعود آيت شعلال وغيرهم الكثير.

أما كتابه "الحرب تبدأ في الجزائر" الذي نشره عام **1984**، فقد وضعه بطلب من دار نشر **Editions Complexes** البلجيكية التي كانت تنشر سلسلة كتب بعنوان "ذاكرة القرن"، ويخصص كل واحد منها لأحد الأحداث الكبرى التي عرفها القرن العشرين، ويقدم الحدث بشكل مبسط ومختصر، ولهذا جاء هذا الكتاب بشكل سطحي، ولم تسمح شروط نشره بتعمق أكثر، لكن رغم ذلك فأنه يحتوي على معلومات هامة، ولم يخل من مختلف التأثيرات التي ذكرناها آنفا بالنسبة لأعماله الأخرى.

خاتمة: يتبين لنا مما سبق مدى تأثير عدة عوامل ذاتية على الخطاب التاريخي للمؤرخ محمد حربي، وكيف أنه لو قام بعملية نقد لأي عمل له قبل صياغته النهائية، وأخذ فيه بعين الإعتبار مختلف العوامل التي يمكن أن يكون لها تأثير سلبي على عمله لاقترب أكثر من الموضوعية، ومن المفروض على كل مؤرخ أن يقوم بهذه العملية النقدية قبل الصياغة النهائية لعمله، بل نذهب أبعد من ذلك فنقول إنه يجب على هذا المؤرخ أن يعرض نفسه على محلل نفساني ليكتشف خبايا نفسيته كي يعطي لعمله موضوعية أكثر لأن لنفسية المؤرخ والعوامل

التي تطرقنا إليها آنفا تأثيرا بالغا على عملية البحث والخطاب التاريخي، ولا تكفي عملية كهذه بل لابد من عرض البحث على ما أسميتهم بالمختصين في علم نقد البحث التاريخي، وتجب علينا الإشارة إلى أن عمل هؤلاء يقع تحت تأثيرات عدة، لكن على الأقل تقربنا هذه المراحل التي أضفناها لعملية البحث التاريخي والطريقة التي أشرنا إليها في تمهيدنا من الموضوعية والعلمية بشكل كبير جدا.

الهوامش

1-أنظر حول هذا النقاش Benoit Verhaegen، Introduction a l'Histoire immédiate –Essai de méthodologie qualitative-، ed Duculot، Bruxelle 1974 pp33-41

2- G.W.F.Hegel،La raison dans l'histoire-introduction a la philosophie de l'histoire-، traduit parKostas Papaioannou، ed Plon Paris 1965

3- نشر حربي الجزء الأول من مذكراته التي توقف فيها عند عام 1962، و يمكن العودة إليها في: Mohammed Harbi، Une vie debout –mémoire politique-(tome1:1945-1962)، Casbah éditions Alger 2001

4- أعتمدنا في تتبع هذا المسار على الجزء الأول من مذكراته

5- Ibid pp131-132

6- Ibid pp 255-261

7- Ibid pp338-339

8- Ibid p374

9- Ibid pp368-371

10- أنظر: لطفي الخولي، عن الثورة في الثورة و بالثورة -حوار مع بومدين -، منشورات حزب التجمع العربي البومديني الإسلامي، قسنطينة 1990 صص103-104

-11Mohammed Harbi، Aux origines du F.L.N.Le populisme révolutionnaire en Algerie، ed Christian Bourgois Paris

-12 Mohammed Harbi، Le F.L.N. mirages et réalité-des origines a la prise du pouvoire(1945-1962)، éditions Jeune Afrique، Paris 1980 أعتمدنا في هذه الدراسة على طبعة Naqd-Enal Alger1993

-13Mohammed Harbi، La guerre commence en Algerie، Complexe editions، Bruxelles 1984

-14Mohammed Harbi، L'Algerie et son destin-croyants ou citoyens-ouvrent des pistes de recherches nouvelles، Arcantés éditions Paris 1992 أعتمدنا في هذا الدراسة على طبعة Medias Associés Alger1994

-15Mohammed Harbi، Les archives de la révolution Algerienne، éditions Jeune Afrique، Paris 1981

-16 أنظر على سبيل المثال ما كتبه في دراسته بعنوان"الوطنية الشعبوية في سكيكدة" في M.Harbi، l'Algerie et son destin، op-cit pp231-246 و أنظر كذلك Le F.L.N. mirage et réalité، op-cit pp117-118 و une vie debout،op-cit p208

-17-Ibid p10

-18M.Harbi، Le F.L.N.mirage et réalité، op-cit p98

-19Ibid pp102-104

Ibid p127 et p403-20

21- أنظر مثلا في

M.Harbi‹une vie debout‹op-cit pp255-259 et p292 et pp298-299

22- عد إلى: مذكرات الرئيس علي كافي، من المناضل السياسي إلى القائد العسكري(1954-1962)، دار القصبة للنشر الجزائر1999

23-أنظر مثلا M.Harbi‹une vie debout‹ op-cit p257

24-تلقى نفس الصورة عن الميزابيين أيضا أنظر

Ibid pp37-38 et pp41-42

25- أنظر كل من Le F.L.N‹mirage et réalité‹ op-cit pp60-65

وAlgerie et son destin‹ op-cit pp74-83

قارن بين قراءته لهذه القضية و قراءتنا لها في

رابح لونيسي، دعاة البربرية في مواجهة السلطة، دار المعرفة الجزائر2002 صص43-58

-26Ali Merad‹ Le réformisme Musulman en Algerie de 1925a1940-essai d'histoire religieuse et sociale‹ed Mouton Paris 1967

A.Nadir‹ Le mouvement réformiste Algerien‹ thése de 3°cycle‹ université de Paris 1968 -27

M.Harbi‹Le F.L.N.mirage et réalité‹ op-cit p11 et pp136-137 -28

M.Harbi‹ une vie debout‹ op-cit pp78-79

-29Ibid p111

-30M.Harbi‹ Le F.L.N.mirage et réalité‹op-cit pp293-314

31-أنظر في ذلك مقالته Du M.T.L.D. au F.L.N.‹ in Révolution Africaine n°40(2novembre1963)

و كذلك إضافته لمذكرات مصالي الحاج في

Les mémoires de Messali Hadj‹ ed Lattès Paris 1982 و أنظر أيضا

Le F.L.N.mirage et réalité‹ op-cit p6 -32Ibid pp136-140

-33Ibid

34- مثلا في Ibid pp21-22

-35M.Harbi‹ Questions de méthode: a propos de « Le F.L.N.mirage et réalité »‹ in Revue Naqd-revue d'études et de critique sociale- n°2 Fevrier-Mai 1992 pp22-23 -36

F.Engels‹ Etudes philosophiques‹ Paris1961 p128

37-أنظر M.Harbi‹ Le F.L.N.mirage et réalité‹op-cit pp293-314

38-أنظر حول نمط الإنتاج الأسيوي: جان شينو و آخرون، حول نمط الإنتاج الأسيوي، ترجمة جورج طرابيشي، دار الحقيقة بيروت 1972

39-أنظر حول هذا الموضوع في:

M.Harbi‹ Une vie debout‹ op-cit pp160-161

منازعات اجتماعية حول امتلاك العقار الحضري والريفي بمدينتي المدية ومليانة خلال العهد العثماني – دراسة من خلال وثائق المحاكم الشرعية.

أ./ ودان بوغوفالة

تشترك المدينتان الجزائريتان الداخليتان المدية ومليانة في كونهما وقعتا في يد العثمانيين والفرنسيين في ظروف تاريخية واحدة. فمنذ العقد الثاني من القرن السادس عشر ميلادي والمدينتان تدينان بالولاء للعثمانيين، وتحديدا من عام 1516م تاريخ حملة الاخوة بربروس على المنطقة، وعندما قدم الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر خضعتا كذلك له في تاريخ واحد وهو عام 1840 م، تاريخ سقوطهما وانسحاب قوات الأمير عبد القادر منهما[1] .

ولما كانت المعاملات العقارية هي إحدى المظاهر الاجتماعيو– اقتصادية لكل مجتمع، فانه ظهرت خلال الوجود العثماني في المدينتين (1516–1840م)– وخاصة أثناء القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين– عدة صراعات ومنازعات اجتماعية حول امتلاك العقار المبني الحضري القائم داخل المدينة والعقار الريفي الفلاحي والرعوي الموجود بفحوص المدينة وأوطانها. ورُفعت شكاوي عديدة إلى الحكام ودعاوى كثيرة إلى القضاة للفصل فيها بين من يدعي ملكية العقار ومن ينفي عنه ذلك، وآخر يُرافع على أنه وقف ثابت . وهذا ما تتضمنه وثائق النزاعات القضائية المودعة بمركز أرشيف ما وراء البحر (.A.O.M) بـ:آكس–آن–بروفانس بفرنسا المصورة على الميكروفيلم، وهي المصادر الأساسية في هذه الدراسة .

أطراف النزاع :

لقد نشب النزاع واحتدم بين أفراد العائلة الواحدة وما بين العائلات التي تربطها علاقات المصاهرة والعمومة، كما قام النزاع أحيانا بين القبائل في شأن العقارات الفلاحية، وأحيانا أخرى كان وكلاء ونظار الأوقاف هم من حركوا الدعاوى، وحدث أن كان أحد أطراف النزاع من غير المسلمين أصلا، إذ كان من أهل الذمة القاطنين بالمدينة .

* باحث بمعهد الدراسات حول العالم العربي والإسلامي- جامعة بروفانس- فرنسا.

1 :– الأفراد و العائلات :

كان الفرد المالك للعقار– المبني أو الفلاحي– هو من يطرح في بعض الحالات مشكل التملك والتصرف في الملكية، عندما كان يتقدم في وقت من الأوقات يريد حبس عقاره عن الامتلاك والتداول في سبيل وقفه، وبعد مدة يتراجع ويبيع جزءا منه، على الرغم من أن التحبيس قد تم وفق ما أفتى به الإمام أبو يوسف– صاحب الإمام أبي حنيفة – الذي يرى بلزوم الوقف وعدم جواز الرجوع فيه[2]. فحسبما ورد في وقفية مؤرخة بشهر ربيع الثاني عام 1191 هـ/ماي 1777م[3]، اشهد الأخوان أحمد وعمرو على أنفسهما الهما حبسا على مذهب الإمام أبي يوسف ما ورثاه من أبيهما بن العيد الوزري الغروسي من قطعة الأرض الواقعة بالغروس ناحية المدية: "المشتملة على مقاسم شتى وحدايق العنب وبحاير وأشجار الزبوج وأشجار البلوط"، غير أن أحدهما فيما تنص الوقفية باع نصيبه الموقوف وكأنه ملكا عاديا يتصرف فيه كيف ما يشاء، فاعترض على تصرفه هذا أحد علماء المدية وأفتى ضده ببطلان البيع. وفي وقف آخر نص الواقف صراحة على شرط استرجاع ملكية عقاراته المتمثلة في دار بحومة قاع السور داخل مدينة المدية وجنان بفحص المصلى متى احتاج، أي بدعوى الخوف من الفقر، وبالتالي إحلال إمكانية نقل الملكية إلى الغير عن طريق البيع، وهو ما تم فعلا بعد ذلك، حيث ألغى الوقف وباع جزءا منه ومزق وثيقته بحضور أحد العلماء وهو السيد محمد بن قرميط الذي نهاه عن هذا الفعل: "واشترط في أصل التحبيس إن احتاج باع ثم احتاج ومزق الوثيقة المذكورة وباع بعض الدار وأبقى بعضها...وزاد السيد محمد بن قرميط في شهادته وأنه مزق الوثيقة بحضرته ونهاه عن تمزيقها"[4]. وانعقد المجلس العلمي في ربيع الأول 1169هـ/ ديسمبر 1755م بحضور مفتي البلد الشيخ محمد ابركان والقاضي السيد محمد سي حسن وعلماء آخرين وشهود للنظر في هذه النازلة، وصدر الحكم بتثبيت الحبس كما رغب في ذلك الورثة وبإجازة البيع الجزئي الذي مس العقار–الدار– وبالتشديد على رفض كل دعوى لاسترجاع ملكية العقارين المذكورين: "ومن قام بعد ذلك منازعا يروم إبطال لما ذكر فلا تسمع دعواه ولا يلتفت إليها ولا يعول عليها"[5].

وإذا كان ورثة السيد محمد بن الثغري الأطروش في المثال السابق قد طالبوا العدالة بتأكيد الحبس وعدم نقضه، فلأنهم كانوا من المنتفعين الذين خصهم الواقف بالاستحقاق. أما

ورثة العالم الفاضل بن عيسى بن مزيغي قاضي المدية وأحوازها وقتئذ، فإنهم التمسوا من المحكمة الحكم ببيع مخلفات مُورثهم الموقوفة من دور ومرافق وبلاد ومياه سائلة وراكدة وكتب وأواني نحاسية وأفرشة وأسلحة، وكان دافعهم في ذلك فيما يبدو حرمانهم من الانتفاع بغلة العقارات والمنقولات الموقوفة إذ استثنوا من الاستحقاق بموجب وثيقة التحبيس المؤرخة في شوال 1202 هـ/جويلية 1788م: "ليتوصل كل واحد منهم لمنابة إرثا فيمن ذكر"[6]، وعارضهم في استرجاع ملكية المخلفات العقارية والمنقولة وكيل ولدي ابن قاضي المدية المُحبس الذي يتمتع بالاستحقاق من الوقف كابن للواقف دون غير بقوة النص الوارد لصالحه ولصالح عقبه من الذكور[7]. وبت في هذا النزاع المجلس العلمي المنعقد بالمسجد الأعظم لمدينة الجزائر في نهاية عام 1211هـ/ 1797م بأن رفض دعوى استعادة المخلفات العقارية وتقسيمها إرثا بين الورثة وأجاز لهم أن يرثوا من المخلفات المنقولة لان وقفها جاء باطلا[8].

إن وضع اليد على العقار ليصير ملكا منتقلا بأحقية الميراث مثَل صورة تنازع العائلات وتصادمها بشأن تقسيم ميراث أحد المتوفين من الأقارب، الذي استدعت وفاته تخاصم هذه العائلات حول أملاكه، وأثيرت مسألة من يحجب من ؟! في الوصول إلى تملك العقار موضوع النزاع. وتتجسد هذه الصورة من النزاع فيما أشارت إليه إحدى الوثائق المختومة التي تعود إلى العهد العثماني والمؤرخة بشهر رمضان 1184هـ/1771م[9].وحيثيات الوقائع أن ثلاثة أشخاص من عائلة بوسكين تربطهم علاقة عمومة بسيدة متوفاة تركت بستانا (بحيرة) مُحبسا خارج مدينة الجزائر ونصيبها في عقارين آخرين أحدهما داخل مدينة مليانة والثاني خارجها بفحص العناصر، وفيما رأى هؤلاء أنهم عصبة ابنة عمتهم في العقارات المذكورة زعم من عائلة أخرى ابن بنت عم الهالكة أنه هو من يرثها في ما تركت دون غيره، وبعد رفع النزاع إلى قضاء مدينة الجزائر جاء الحكم مؤيداً لعائلة بوسكين الممثلة في أبناء خال المورثة الثلاثة لكونهم أقرب رَحماً من خصمهم. وقد سعى هؤلاء المستفيدون في تاريخ سابق بنحو عامين إلى إبطال معاوضة حبس كانت تعني أحد العقارات، وفضلوا بذلك امتلاك العقار الموجود خارج مدينة الجزائر والانتفاع بحبس عقارات مليانة[10].

وعائلة بوسكين هي عائلة تركية كبيرة فيما يظهر وكانت مستقرة بمدينة مليانة، وتتمتع بأحباس هامة في الريف الملياني منذ عهد الآباء والأجداد الذين كانوا يملكون أراضي

زراعية خصبة بسهل الشلف وعلى ضفاف واديه . وقد تنازع حفدة أبناء وبنات هذه العائلة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي بشأن هذه العقارات[11]. وحمل اسم هذه العائلة العالم الفاضل الفقيه رابح بن بوسكين الذي تنعته الوثائق في نهاية القرن الثامن عشر ميلادي بالورع والصلاح والتقوى، وكان معروفا لدى علماء وفقهاء وقضاة المدية، التي أقام بها بلا شك ولو لفترة وجيزة، فاعتمدوا ما أشرف عليه من تحرير للعقود وتوثيق للمعاملات بين الناس[12]، ويُحتمل نسبه إلى هذه العائلة التي اشتهر منها في نفس الفترة من ينتسب إليها فعلا من بعض القادة العسكريين مثل السيد مصطفى الانجشايري بن حسن بن حسن بوسكين والسيد محمد بلكباشي بن محمد بن حسين بوسكين .

طرحت الأمثلة السابقة إشكالية حرمان بعض الورثة من الاستحقاق في حبس العقارات وهم بعيدون في درجة القرابة أحيانا، وإشكالية الخلاف في تحديد الورثة أنفسهم ومن يتقدم على الأخر ويلغيه . غير أن المثال التالي يطرح ظاهرة استبعاد المرأة من تملك العقار أو التمتع به وهو موقوفا، وهي أقرب إلى المالك من غيرها كالبنت والزوجة. فلطالما عانت بسبب هذا الحرمان البنت والزوجة لصفتهما الأنثوية[13]، فقد كان الأب يُقدم على تحصين كل أملاكه بالحبس ويجعلها في مناعة من الامتلاك والتداول، فيُفضل الذكر وهو بالغ ويخصه بحصة ويستثني الأنثى من الانتفاع وقد تكون قاصرة، بل قد يُفضل ذكراً آخرا ليس بالابن على الابن الذكر أو البنت الصلبية الأنثى، الأمر الذي يدفع الطرف المتضرر إلى الاحتجاج ومقاضاة الخصوم لأكثر من مرة، والسعي إلى تحرير العقارات من يد الغير. وهذا ما كشفت عنه القضية التي عُرضت على مصطفى باي التيطري نهاية عام 1195 هـ/1781م؛ فأمر الحاج خليل بيت المالجي بعقد مجلس علمي لها، واستُدعي قاضي المدية الفقيه عبد القادر بن الفخار وثلاثة علماء آخرين هم الفقيه محمد الغريبي بن عمر بن نصر والفقيه عبد القادر بن سي حميدة والفقيه عبد الرحمان بن عمور، وحضر معهم فريق عسكري، وصدر الحكم بعد المداولة بتأكيد الحبس لفائدة صهر المحبس الشاب علي بن عمر سفار وحرمان العائلة المتضررة من امتلاك عقارات مُوَرِّثهم : ولدٌ يدعي وكيلة أنه موصى له بثلث التركة وثلاث بنات اثنتان منهن قاصرتان وزوجة قد تمكنت من إعادة الزواج[14].

لم يكن المدعي دائماً يخسر دعاوى استرجاع الملكية العقارية، فإن فشل من ادعى الوصية دون أن يتمكن من إثباتها لتعيين حقوق موكله وانتزاعها من المدعى عليه الذي يتمتع بالإثباتات التوثيقية لحقوقه، فلقد نجح في الحصول على نصف التركة من ادعى الهبة على الرغم من أنه لم يُقَدم إلى المحكمة ما يثبت ادعاءه وعجز حتى عن إحضار الشهود، بل كان يكفي أن يعارض ويتمسك بموقفه ولا يتخلى عنه ليحصل على عقارات حضرية وريفية، ما دام خصمه هو الآخر أيضا لا يملك الوثائق اللازمة التي تحمي وتعزز مركزه في العقار[15]. فلقد توصلت جلسة قضائية (المجلس العلمي) أواخر عام 1178هـ/1765م إلى إبرام صلح بين متخاصمين لاقتسام أملاك عقارية بينهما أنصافا بدل إجبارهما على القَسم واليمين المغلظة كما جرى النقاش والاقتراح في البداية. وكان قد طلب هذه الجلسة القضائية أخوان من أبوين مختلفين نشب بينهما نزاع حول عقارات مبنية داخل المدية (تتمثل في بيت وغرفة وحوش وجنان وبحيرتين) كانت في ملك أمهما المتوفاة، فبينما ادعت الأخت آمنة بنت الحاج محمد بن شعلان أن: "أمها وهبت لها في قيام حياتها مسكنا في الدار المذكورة ..." وأغراضا أخرى منقولة، أنكر عليها ذلك أخوها مولود بن مصطفى التركي: "مدعيا عليها أيضاً أنها اخفت عليه التريكة كثيراً وطال نزاعهما..."[16].

إن النزاع ما بين الاخوة حول الملكية احتد حتى وصل إلى الاعتداء الجسدي والاغتيال، حيث ورد في إحدى الوثائق المؤرخة بعام 1237هـ/1821-1822م أن جماعة من كبار السن تتكون من خمسة أفراد من سكان ريف المدية من أهل هوارة شهدوا شهادة واحدة بأن السيد محمد بن التواتي الملقب بـ"ابن السبع" قد اغتيل على يد اخوته بعدما اشترى بمفرده ومن ماله الخاص من السيد محمد بن سيدي عمارة كل البلاد الواقعة في تلا عموش وأضافها إلى أملاكه العقارية السابقة. وحسب شهادة هذه الجماعة فإن الذي أثار حفيظة هؤلاء الاخوة ضد أخيهم ابن السبع، هو أن هذا الأخير لم يُلَب رغبتهم في أن يصبحوا شركاء له في العقارات التي اشتراها هو بنفسه وبتمويل شخصي: "لما أن طلبوه اخوته الشركة ...فأبى...فاتفق له اخوته فقتلوه ..."[17].

لقد كان للشهادة دور بالغ الأهمية في فض النزاعات واثبات الحقوق ورفع الخلافات، سواء كانت شهادة معاينة أو شهادة تسامع أو شهادة حسبة[18]، ولم تكن تُقبل ما لم تستوف

شروطها كصدق الشاهد وانتفاء الشبهة عنه والمصلحة. ويبدو أن الشهادة في مدينة المدية كانت تملك من القوة الحجية ما جعلها تُسقط دعوى أربعة اخوة استظهروا وثائقهم وادعوا حق التملك في دار وأرض انتقلت ملكيتهما إليهم من عمهم بن الحاج سلامة عن طريق البيع والهبة . حيث لجأ الحاج احمد بن الحاج سلامة – ابن عم الاخوة – المعني بالنــزاع إلى الشهود في مرافعته أثناء انعقاد جلسة المحكمة (المجلس العلمي) بالجامع الأعظم لمدينة المدية أواخر عام 1229هـ/1814م، التي حضرها السيد محمد بيت المالجي تحت رئاسة القاضي بن عيسى ولد السيد محمد الغريبـي بن عمر، فطلب شهادة القاضي نفسه وشهادة أعضاء آخرين من المجلس العلمي مثل الفقيه الحاج العربي ولد سيدي أبي القاسم المغربي والفقيه الحاج أحمد بن سيدي الصحراوي، وشهادة السيد علي بن سيدي المزاري أحد عدول المحكمة والسيد احمد بن عيسى مؤدب الصبيان، وشهد الجميع أنهم رأوا رسم تحبيس العقارات المتنازع عليها مؤرخا بعام تسعة وخمسين ومائة وألف–1746م. وبناء على هذه الشهادة وبعد المداولة نطق القاضي بالحكم مؤيداً الشهادة ودون أن يفحص رسميا شراء وهبة العقارات المذكورة اللذين استظهرهما الاخوة [19]، على الرغم من احتمال أن تكون فعلا قد تعرضت هذه العقارات إلى عمليات مختلفة من حبس وبيع وهبة.

اتسمت بعض النــزاعات العائلية في المدية بالتشابك واللبس والتعقيد، أشكل الأمر فيها واستعصى في المحاكم، فلا الوثائق المستظهرة أصبحت قادرة على حسم الخلاف بخصوص الملكية، ولاشهادة الشهود هي الأخرى ظلت وسيلة قضائية فعالة وكافية لرفع المظالم وإنصاف ذوي الحقوق. فكان باي التيطري مصطفى باي يتدخل بنفسه أحيانا في هذه الخصومة، وُيخطر القاضي حينما يعرض عليه النــزاع ويحضر جلسات المحكمة (المجلس العلمي)، وهو ما تم فعلا في القضية التي رفعت إليه عام 1200هـ /1786م[20]، وكان ملف هذه القضية يتكون من:

وثيقة حبس مختومة من محكمة المدية وعليها تأشير يفيد توثيقها بمصالح أوقاف الحرمين الشريفين بمدينة الجزائر .

إثبات كتابي بخط الشاهد بالرجوع عن شهادته بحبس العقار الفلاحي المتنازع عليه الواقع بوطن ريغة .

رد شهادة محرر عقد التحبيس غير المؤرخ وإثبات تجريحه .

إثبات بيع جزئي للأرض المتنازع عليها من طرف مالكها المحبس وانتقال الملكية إلى الغير .

وفحص هذه الوثائق قاضي المدية ومفتيها محمد المازري وبقية العلماء المجتمعين واقتنعوا بحكم إبطال الحبس وتحرير العقار، بيد انهم لم يروا ذلك كافيا، فأقدموا على خطوة أخرى لحسم الموقف، وهي إجراء الصلح بين الطرفين ودعوهما إلى الامتثال له والرضى بحكم اقتسام هذا العقار الفلاحي الريفي على النحو التالي :

- ثلث (3/1) العقار لعائلة الخلادي .

- ثلثا (3/2) العقار لورثة بن مرزوقة مالك العقار .

- تثبيت الجزء المباع من قبل وخصم حصته من الحقوق المقررة . وهذه ثاني حالة – حسب الوثائق التي اطلعت عليها – تضطر فيها المحكمة مع مستهل القرن الثالث عشر هجري إلى اللجوء للصلح، بعدما كانت قد اعتمدته أواخر عام 1178هـ/1765م.

كان الريف الواقع جغرافيا في الطريق الرابط بين مدينتي المدية ومليانة يتمتع بقضاء مستقل عن المدينتين اللتين يبعدان بعضهما عن بعض بـ60 كلم من الشرق إلى الغرب، وهذا ما تشير إليه الوثائق المختومة التي تحمل أسماء القضاة والعلماء وتسميهم بـ"علماء البادية" وبـ"قضاة الجماعة"[21]. فلقد استقبل قضاء جماعة جندل وعمورة عدة نـزاعات قضائية تتعلق بعقارات هي في ملك أفراد القبيلة وأشرف على تحرير مختلف العقود التي تخصها، ولم يمنع هذا بعض الأفراد من عرض قضاياهم على قضاء مدينتي المدية ومليانة مباشرة .

2 :– القبـــائل والطوائــف:

كانت القبائل عموما في الجزائر العثمانية تتمتع بملكية العقار جماعيا، فتستغله بهذه الصفة كمجال للرعي أو للزراعة، وقد درجت على هذا الأسلوب واعتادت عليه عبر أجيال متعاقبة[22]. وكانت هذه القبيلة أو تلك قد وضعت يدها على العقار لأنها وجدته مهجوراً لا مالك له[23]، إما لأنه لم يملكه أحد من قبل أو أن مالكه قد هجره في وقت من الأوقات لأسباب أمنية. وبالقدر الذي كانت فيه القبائل تمثل مصدرا للقوة الاقتصادية وجباية الضرائب كانت تشكل خطراً وتهديدا على الأمن والاستقرار، ولطالما عانى بايلك التيطري على وجه الخصوص من تمرد القبائل وخروجها عن الطاعة[24] ولم يكن خصم القبائل دائما هو البايلك بل كانت القبائل والجماعات تتـنازع في ما بينها أيضاً، ويكون العقار هو موضوع النـزاع، من مثل ما

حدث بين الأشراف من أولاد سيدي يحي وبين اللبابدة في شأن أراضي بوطن بني جعد شمال شرق مدينة المدية . وأوردت إحدى الوثائق الأرشيفية المؤرخة بشهر جمادى الثانية عام 1238 هـ/ 1823م تفاصيل هذا النــزاع، ونقلت أهم حيثياته[25]، وحاصل الأمر أن أبناء جماعة اللبابدة أرادوا استرداد أجزاء من الأرض التي هي موقوفة على خصومهم الأشراف بالدفع أنها ملك خاص قد تقرر لهم بموجب الشراء، وطرحوا على أن هذه الأجزاء التي يدعون ملكيتها تتسمى بغير الاسم الذي تُعرف به الأرض الموقوفة. وأمام إنكار أولاد سيدي يحي (الأشراف) كلية لهذا الادعاء واستمرار النزاع وفشل كل الجلسات القضائية التي انعقدت للنظر في الموضوع، توجه ممثلو الطرفين مجدداً إلى القضاء الحنفي لمدينة الجزائر ووقفوا أمام القاضي أبو الفرج الحاج مفتاح أفندي وبدأ التحقيق في القضية من جديد، بأن تسلم القاضي عقد تحبيس الأرض المتنازع عليها وسمع من الشهود ما يؤكد ذلك، أما مرافعة ممثلي جماعة اللبابدة فتأسست على الدفع بالغش والتزوير في الوثيقة المستظهرة، الأمر الذي دفع القاضي إلى تأجيل الحكم ومواصلة التحقيق.

كان القضاء يعتمد على التحقيق المركز وعلى إشراك شريحة واسعة فيه من ذوي الخبرة وأهل العلم والورع، وحتى من عامة الناس، بهدف تقصي الحقائق وعدم التسرع على الفصل في القضايا الشائكة والانفراد بالحكم فيها، وهو ما قد يؤدي إلى تفاقم الخصومات وتطورها إلى ما لا يحمد عقباه . ولعل هذا ما يمكن الوقوف عليه في قضية جماعتي الأشراف واللبابدة، إذ أرجأ القاضي الحكم بعدم أحقية جماعة اللبابدة في تملك أجزاء من لعقار المتنازع عليه رغم اقتناعه بذلك في الجلسة الأولى للمحكمة، وكوّن لجنة للتحقيق سلمها العقد المطعون فيه وكلفها بالتوجه إلى وطن بني جعد. وتشكلت هذه اللجنة من الشهود الذين أحضرهم جماعة الأشراف وشاهدين عدلين من المحكمة الحنفية والمحكمة المالكية لمدينة الجزائر ومندوب الاصبايحية الذي اختاره يحي آغا الخبير بشؤون القبائل[26]. واستدعى المعنيون بالنــزاع عددا كبيراً من سكان وطن بني جعد والأوطان المجاورة الأخرى المجاورة له، وتمت تلاوة مضمون العقد بدقة على مسامع الحضور، فتقدم للشهادة سبعة أشخاص من كبار السن وصرحوا بأن الحدود المنصوص عليها في الوثيقة تطابق تماما الحدود على الطبيعة، وهي تعني عقارا واحداً يُسمى بعدة أسماء : "وما ذكر من كونها هي مواضع متفرقة ليس هو كذلك بل هي مجرد تسمية

اصطلحوا عليها فقط...[27]. وصادق الحضور على شهادة هؤلاء وحرر العدلان الحاضران محضراً لهذه المعاينة وحملاه إلى القاضي في مدينة الجزائر، وحينئذ حكم لصالح جماعة أولاد سيدي يحي وأسقط دعوى جماعة اللبابدة لاسترداد الملكية .

إنه من الواضح أن التحقيق الموسع والمعاينة الجماعية والتأني في اتخاذ الأحكام وعدم بنائها على الإدعاء بالتملك أو نفيه، هي كلها وسائل قضائية أصيلة ومعهودة عند القضاء بالمدية ومليانة. من ذلك النـــزاع الذي قام بين سكان مدينة المدية وأهل الذمة القاطنين بها في منتصف النصف الأول من القرن الثامن عشر ميلادي بشأن عقار شهير يقع خارج المدينة، والمراحل التي مر بها هذا النـــزاع والإجراءات القضائية التي رافقته حتى تم تسويته نهائيا عن طريق المحكمة في شهر رمضان عام **1140**هـ/**1728**م.

يعود تاريخ هذا النـــزاع حسب الوثيقة التي أشارت اليه [28] إلى الربع الأخير من القرن السابع عشر ميلادي، وكان بين أهالي المدية وأهل الذمة من الطائفة اليهودية [29] المقيمة بالمدية. وتنازع الطرفان لمدة خمسين سنة في شأن إقامة مقبرة على الأرض المسماة "المصلى" أحد فحوص المدينة من عين المرج إلى العين الكبيرة المعروفة بـــ"عين أكبوا"، ولم يُقدم في البداية أي من الطرفين ما يثبت ادعاءه "وكان من دعوى أهل الذمة ملكية الأرض المعدة لمقبرهم المذكورة وطال النزاع والخصام...ولم يتبين وقتئذ عين الحكم حيث لم تكن وثيقة تتضمن دعوى المسلمين سوى مجرد القول فقط"[30]، وظل الأمر على حاله إلى أن حكمت المحكمة بنـــزع ملكية العقار من يد اليهود بعد التأكد من عدم ملكيتهم له عقب جلسة قضائية بإحدى مقاهي المدينة حضرها: "مصطفى بيت المالجي...وكافة العسكر القاطنين بالبلد المذكور الخاص منهم والجمهور...وقاضي الوقت ومفتي المالكية ومفتي الحنفية وعلمائها وكافة أعيان البلد من حضري وبلدي واندلوسي وغربي بل وجميع أهل البلد قاطبة"[31]. ويدل هذا الحضور المكثف دلالة واضحة على الأثر العميق الذي خلفه هذا النزاع لدى مختلف الشرائح الاجتماعية، وقد عبر نص الوثيقة نفسه عن المشاعر العدائية التي أصبح يكنها السكان لطائفة اليهود حينما قال: "أهل الذمة دمرهم الله وأخلا الأرض من جميعهم" أو مثل ما قال عن مدى فرحة المسلمين بحكم المحكمة : "فحينئذ طلعت شمس الإسلام، وانهار نجم الكفار، وظهر الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا...ودعوى أهل الذمة واهية وحجتهم داحضة ولا يلتفت لمقالهم ولا

لدعواهم". واعتبر هذا النص ظهور عقد تحبيس مختوم يخص العقار المتنازع عليه فتحا من الله ونصراً مبينا لأنه حرك القضية من جديد وأدى إلى التحقيق الذي انتهى لصالح المسلمين: "إلى أن جاء الفتح من الله وما النصر إلا من عند الله، وظهرت وثيقة التحبيس للموضع المذكور"[32].

لقد كشف التحقيق حسب الرواية الواردة أن مقبرة أهل الذمة بـ:"المصلى" أقيمت على أنقاض مقبرة المسلمين، وأن أرض المقبرة وما جاورها هي في الأصل ملكية خاصة للسيد رمضان باشا وصارت منه وقفا لدفن الأموات من المسلمين. حيث توجه سكان المدينة إلى عين المكان فاكتشفوا آثار مقبرة المسلمين، وعندما نبشوا زهاء عشرين قبرا عثروا على كل ما يؤكد لهم ذلك، مثل الإشارات الموجودة على القبور ووضعية الميت في القبر واتجاه رأسه: "وزحف كلهم للمقبرة المذكورة وحفروا بقرب منها فوجدوا مقبرة هنالك قديمة عظيمة كانت في السالف مقبرة للمسلمين ودثرت ووجدوا علامات القبور وبناء أهل الإسلام مع التمييز بالشاهدين الحجرين والعظام والرؤوس..."[33] .

إن حساسية المسلمين تجاه اليهود كانت ظاهرة عامة في العديد من المدن الجزائرية خلال العصر الحديث، ويمكن التأريخ لها من النصف الثاني من القرن الخامس عشر ميلادي، عندما تصدى محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت909هـ/1504م) ليهود توات بالجنوب الجزائري ودعى إلى التضييق على اليهود والحد من شوكتهم، وسانده في فتواه معاصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله التنسي (ت899هـ/1494م). وهاجم المغيلي اليهود في كتابه "مصباح الأرواح في أصول الفلاح"، وخاصة في الفصل الثالث منه الذي كان عنوانه: "في ما عليه يهود هذا الزمان في أكثر الأوطان من الجرأة والطغيان والتمرد على الأحكام الشرعية بتولية أرباب الشوكة وخدمة السلطان "، والذي ورد فيه ما يفيد أن اليهود عليهم أن لا يجاوروا المسلمين بموتاهم[34] وأحسن مثال من التاريخ العثماني في الجزائر يُعبر عن تذمر وامتعاض السكان من الجالية اليهودية متى كانت بأعداد كبيرة هو القصة التي أوردها الحاج أحمد الشريف الزهار في مذكراته حينما قدم ولاية الداي مصطفى باشا (1797-1805م)، ومفادها أن الأتراك من سكان مدينة الجزائر قد قتلوا عام 1805م من اليهود زهاء المائتين وشردوا الباقي، فوافقهم على ذلك عامة الناس وحتى بعض الفقهاء، احتجاجاً على النفوذ الكبير الذي أصبحوا يتمتعون به في هرم السلطة[35]، وهي القضية نفسها التي أثارها المغيلي في القرن الخامس عشر ميلادي .

حمدان بن عثمان خوجة (ت1842) هو الآخر أيضا من جانبه وكأحد الأعيان والعلماء المقربين من الدايات والبايات العثمانيين في الجزائر، تحدث في كتابه المرآة[36] عن اليهود واستنكر احتكارهم للتجارة ونفوذهم القوي[37]، وساق مثالا عن استغلالهم لـ باي التيطري مصطفى بن الوزناجي (1772-1792م)[38]. وكان اليهود بالمدية حسب الوثائق الأرشيفية [39] يتعاملون مع باياتها ويملكون عقارات مبنية داخل المدينة وخارجها ويستأجرون أخرى، اتخذوا من بعضها مساكن لهم ومن البعض الآخر محلات تجارية، وكانت ملكيتهم لهذه العقارات أحيانا جماعية مشاعة، كما كان الحال بالنسبة للسكن الواقع بحي ديار أمراد خارج المدينة الذي كان يعرف بـ: دار" بودومة "، وكان يتقاسم ملكية هذه الدار مناصفة أبناء الذمي أبونيف والذمي موشي بن عطية، وباع هذا الأخير نصيبه أواخر جمادى الأولى عام 1228هـ/1813م إلى السيد جعفر باي التيطري بثمن قدره ألف ريال كبيرة الضرب[40]. وتشير إحدى الوثائق[41] أن محلا تجاريا بالمدية قد خصصه اليهودي مسعود للزبائن اليهود فقط: "المعدة لبيع أهل الذمة"، وهو ما يعني أن عددهم وطبيعة طلباتهم التجارية كان يستدعي ذلك، وتضيف نفس الوثيقة أن يهوديا آخرا اسمه "ابن عازار" كان يستأجر دكانا في هذا الحي التجاري .

ما يمكن أن نستنتجه من خلال هذه الدراسة هو أن ظاهرة عدم استقرار الملكية كانت ظاهرة عامة بالجزائر أواخر العهد العثماني، ثم إن لجوء بعض الأشخاص إلى تحبيس كل أملاكهم كان مدعاة لإثارة النزاعات العائلية حول ملكية العقارات خاصة في ما بين الورثة، ومثّل مشكل الإنفاق والتغلب على صعوبات الحياة أحد أهم الأسباب الرئيسية لهذه النزاعات . أما نزاعات المسلمين مع اليهود فمثل ما كانت تتغذى من استفزازات هذه الطائفة يوميا للسكان والتحايل عليهم كانت تتغذى أيضا وفي الأصل من اختلاف ثقافتين صاغت كل منهما ذهنية متصالحة مع نفسها ومعادية للأخرى .

الهوامش

1- لمزيد من الإطلاع انظر :

مولاي بلحميسي، مدينة مليانة عبر العصور، مدينة المدية عبر العصور،ضمن كتاب:

عبد الرحمان الجيلالي،تاريخ المدن الثلاث، الجزائر- المدية – مليانة، بمناسبة عيدها الألفي، الطبعة الثانية، الجزائر، مطبعة صاري بدر الدين وأبنائه، 1972، ص ص 295-337 .

2- انظر: مصطفى أحمد الزرقا، أحكام الأوقاف، الطبعة الثانية، عمان، دار عمار، 1998، ص ص 22-23

3- A.O.M./ 1M1/ Z34/ Bobine 16 .

4- A.O.M./ 1M1/ Z52/ Bobine 26 .

5 - Ibid.

(6) A.O.M./ 1M1/ Z34/ Bobine 16.

(7) Ibid.

(8) Ibid.

(9) Ibid.

(10) Ibid.

(11) انظر مثالا عن هذا النزاع في المصدر السابق :

Ibid .

(12) انظر هذا في: **Ibid**.

(13) عن حالات الاستثناء وشروط استحقاق المرأة من الوقف انظر:

Ouddène BOUGHOUFALA، « Les waqfs des femmes à Miliana »، in Oùssour، N° 3، Oran، 2003، pp.

(14) A.O.M./1M1/ Z34/ Bobine 16 .

(15) تعتبر ظاهرة عدم استقرار الملكية ظاهرة عامة عرفتها الجزائر أواخر العهد العثماني ، راجع :

ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، الفترة الحديثة، الطبعة الأولى،بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2001، ص ص 80-89.

(16) A.O.M./ 1M1/ Z34/ Bobine 16 .

(17) **Ibid .**

(18) شهادة المعاينة: هي معاينة الشاهد للأمر، وشهادة التسامع: هي سماع الشاهد عن الأمر من الناس الثقاة، أما شهادة الحسبة: فهي شهادة بأمر ما دون أن يطلبها أحد له مصلحة

(19) لا تتضمن الوثيقة على الإطلاق ما يشير إلى أن الرسمان المستظهران قد تم تسلمهما أو فحصهما كما كان يجري به العمل في نزاعات أخرى . انظر تفاصيل القضية في:

A.O.M./ 1M1/ Z52/ Bobine 26 .

(20) A.O.M./ 1M1/ Z34/ Bobine 16 .

(21) عن قضاء البادية وأسماء بعض القضاة انظر: **Ibid**.

لاحظ الأستاذ سعيدوني هو الآخر في دراسته لريف دار السلطان وجود قضاء حضري وآخر ريفي.انظر:

Nacereddine SAIDOUNI، L'Algérois rural à la fin de l'époque ottomane (1791-1830)، Beyrouth، Dar Al-Gharb al-islami، 2001، p.311.

(22) René GALLISSOT، « Le mode de propriété des terres algériennes en 1830 »، in Bulletin d'information historique، N° 1، Alger، 1965، pp.15-17.

(23) Eugène ROBE، Propriété immobilière en Algérie، Paris، Chamel Ainé، 1985، p.36.

(24) بلحميسي : المصدر السابق، ص ص 328-331.

(25) A.O.M./1M1 /Z34 /Bobine 16 .

يحي آغا هو أحد القادة العسكريين الماهرين، عينه في هذا المنصب الداي حسين لمدة اثنتي عشرة سنة، ثم عزله ونفاه إلى مدينة البليدة، أشاد به حمدان خوجة في المرآة وأثنى عليه، انظر:

Hamdan KHODJA، Le miroir، aperçu historique et statistique sur la régence d'Alger، Paris، Sindbad، 1985، pp.163-175.

(27) A.O.M/ 1M1/ Z34/ Bobine 16 .

(28) Ibid .

(29) لم تحدد الوثيقة اليهود بعينهم، ولكن يتضح من خلال الأسماء المذكورة في وثائق أخرى (موشي، وعازار...الخ..) أن المعنيين بأهل الذمة هنا هم اليهود. عن مفهوم مصطلح "أهل الذمة " وحقوق هذه الطائفة وواجباتها انظر كتاب:

Hassen EL-MEMMI، La condition des "DHIMMYS" ou les Non-Musulmans dans la civilisation musulmane، traduction de Hedi SAIED، Beyrouth، Dar Al-Gharb Al-Islami، 2000، 220 p.

(30) A.O.M./1M1 / Z34/ Bobine 16 .

(31) Ibid .

(32) Ibid .

(33) Ibid .

محمد بن عبد الكريم المغيلي، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق رابح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1968، ص ص 53-60 .

راجع كذلك في ملحق هذا الكتاب : مواقف بعض فقهاء تلمسان وفاس حول قضية " يهود توات " الموافقة لموقف المغيلي والمعارضة له .

(35) الحاج أحمد الشريف الزهار، مذكرات، تحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980، ص ص 87-88 .

(36) طُبع هذا الكتاب باللغة الفرنسية في باريس سنة 1833م .

(37) Hamdan، op.cit.، pp.137-139 .

(38) أصبح مصطفى الوزناجي بايا على قسنطينة ابتداء من عام 1794م بإيعاز من اليهوديين بوجناح وبكري في عهد الداي بابا حسن (1791-1797م) . عن علاقة هذا الباي باليهود انظر :

Saidouni، op.cit.، p.414 .

(39) A.O.M./ 1M1/ Z52/ Bobine 26 .

(40) لعله الريال الإسباني، ويقول الأستاذ ناصر الدين سعيدوني أن اليهود كانوا ينقلونه من مدن جنوب أوربا إلى المدن الجزائرية، أما الريال التونسي فكان منتشرا في شرق الجزائر، راجع :

ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830)، الطبعة الثانية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 197.

(41) A.O.M./ 1M1/ Z52/ Bobine 26 .

مساهمة عروج بن يعقوب في مواجهة الخطر الأسباني على المغرب الأوسط. 1512-1518م

أ./ بوشنافي محمد.

تعرضت منطقة المغرب الأوسط (الجزائر فيما بعد)، مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي إلى حملة صليبية قادها أسبانيا في إطار حركة استعمارية توسعية، هدفت إلى فرض الهيمنة على المنطقة، وملاحقة مسلمي الأندلس (المورسكيون)، الذين لجأوا إلى المنطقة بعد سقوط غرناطة آخر إمارة إسلامية عام **1492**.

انطلقت الأرمادة الأسبانية [1] بقيادة "بيدرو دي نافارو **Pedro De Navarro**" عام **1505**، من أسبانيا متوجهة نحو سواحل بلاد المغرب الأوسط، وتمكنت في فترة وجيزة من الاستيلاء على المرسى الكبير في نفس العام، ثم وهران في سنة **1509** وبجاية في **1510**. أما سكان مدينة الجزائر فقد سارعوا في يوم **31** جانفي **1510**، إلى إرسال وفد من أعيان المدينة لمقابلة القائد الأسباني في بجاية، وتوجت المفاوضات بالتوقيع على معاهدة صلح، نصت على خضوع المدينة للأسبان [2].

كانت الظروف السابقة الذكر، توحي بأن بلاد المغرب الأوسط ستخضع لحكم أسباني مباشرة دون عناء كبير، إلا أن ظهور جماعة من البحارة الأتراك العثمانيين في منطقة غرب البحر المتوسط، أدى إلى تغيير في الأوضاع وأعاد النظر في موازين القوى، التي كانت إلى حد تلك اللحظة لصالح الأسبان. فقد تمكن الإخوة باربروس من حد التوسعات الأسبانية في المغرب الأوسط.

يذكر صاحب كتاب "الغزوات"، أن أصل هؤلاء الإخوة من جزيرة "مدلي" أو "ليبسوس"، والدهم يدعى يعقوب، كان جنديا إنكشاريا، تزوج بإمرأة مسيحية أنجبت له

* أستاذ بقسم التاريخ- جامعة الجيلالي ليابس- سيدي بلعباس.

أربعة أبناء هم: إسحاق، عروج، خير الدين وإلياس [3]، وكان عروج وخير الدين أبرزهم [4]، إذ سيكون لهما الدور الكبير في تأسيس إيالة الجزائر وتثبيت الوجود العثماني فيها.

ما تجدر الإشارة إليه، أن حياة عروج [5] كانت مليئة بالأحداث والمغامرات، فلقد تميز منذ صغره بشجاعة نادرة وحب فائق للبحر. وفي **1502** أستقر به المقام مع جماعة من أصحابه بجزيرة جربة التونسية، والتي استخدمها كقاعدة أمامية في الجهاد ضد المسيحيين، فمنها كانت سفنه تنطلق لتجوب البحر المتوسط، حيث تحصل على الغنائم، وتساعد مسلمي أسبانيا المضطهدين.

أما سبب اختيار هذه الجزيرة فيعود لقربها من الأراضي المسيحية كصقلية، مالطا والجنوب الإيطالي، وكان ذلك بعد اتفاق تم ما بين عروج والأمير الحفصي أبو عبد الله محمد وينص على منحه الجزيرة مقابل خمس الغنائم [6].

ساهمت أعمال عروج البطولية في تزايد شعبيته، فذاع صيته في كل المنطقة، وأصبح سكان المدن الساحلية ينظرون إليه على أنه "الرجل المنقذ "، الذي سيخلصهم من السيطرة الأسبانية. فكان أول اصطدام بين الأسبان والقوة العثمانية الجديدة في عام **1512**، عندما استنجد سكان مدينة بجاية بعروج، حيث قدم إليها وحاصرها دون أن يتمكن من اقتحام أسوارها [7]، ويمكن إرجاع سبب هذا الفشل إلى ضعف مدفعيته، التي عجزت عن إحداث أي ضرر في الحصن الأسباني. وقد أعاد عروج حصار بجاية في **1514**، ولكن دون جدوى، رغم أن تعداد قواته بلغ هذه المرة أكثر من عشرين ألف مقاتل [8].

في نفس العام-**1514**- قام عروج بعمل إستراتيجي كبير وهام، تمثل في نقل قاعدته من حلق الوادي إلى جيجل، التي كان قد حررها من سيطرة الجنويين، ويقال أن سبب هدا الانتقال يرجع إلى خلاف حاد بين عروج والأمير الحفصي[9] وبهذا العمل اقترب عروج أكثر من خط المواجهة مع الأسبان.

وقد شكل موت الملك" فرديناند **Ferdinand**" الأسباني [10]، تحولا هاما في موقف سكان مدينة الجزائر من التواجد الأسباني الذي تركز لحد الآن في قلعة "البانيون **Penôn**"، والتي لا تبعد عن شواطئ المدينة إلا بثلاثمائة متر فقط. لقد وجد هؤلاء في موته فرصة للتخلص

من قيود المعاهدة التي كبلت حريتهم ونشاطهم التجاري الذي تضرر كثيرا بفعل الحصار وارتفاع قيمة الضرائب المفروضة عليهم، ولهذا قرروا الاستنجاد بعروج المتواجد بجيجل.

ويذكر الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي «أن أول اتصال بين سكان المدينة والإخوة باربروس كان عندما أرسى خير الدين بأسطوله في ميناء الجزائر بعد موت الملك فرديناند، فطلبوا حمايته من الأسبان مقابل تعيينه أميرا على المدينة ولكنه سخط عليهم وغادرهم سنة كاملة ثم ألحوا عليه في العودة فاشترط عليهم إشراك أخيه عروج في ذلك [11]. غير أن معظم المؤرخين لا يذكرون هذه الأحداث ويتفقون على أن أول اتصال بين السكان والعثمانيين كان عن طريق الوفد الذي أرسل إلى جيجل لمقابلة عروج[12].

ويبدو أنه لم يكن هناك إجماع بين سكان المدينة حول قضية الاستنجاد بعروج حيث وجد طرف يرى ضرورة مواصلة دفع الضريبة للأسبان ويعتبر العملية مغامرة خطيرة على مستقبل المدينة خوفا من الانتقام الأسباني، وكان على رأس هؤلاء سليم التومي شيخ المدينة. أما الطرف الثاني فيرى غير ذلك ويعتبر الاستنجاد بعروج فرصة لاستعادة السيادة [13]، وهو الرأي الذي وقع عليه الإجماع، إذ تقرر تشكيل وفد يتوجه إلى جيجل لمقابلة عروج.

عند وصول الوفد استقبله عروج بحفاوة كبيرة، فشكوا له معاناة المدينة بسبب الحصار الأسباني، وطلبوا منه التدخل لمساعدتهم وتخليصهم من تلك الشوكة (قلعة البانيون) قائلين« سمعنا بكم أناسا تحبون الجهاد، وأخذتم بجاية وجيجل من أيدي النصارى ونصرتم الدين، فهنيئا لكم أيها المجاهدون، لابد أن تقدموا إلينا وتخلصونا من أيدي الملاعين الكفرة لأنا في محنة عظيـــمة وذلة شديدة». [14]

ما يلاحظ أن عروج قبل طلبهم بدون تردد، ويرجع ذلك حسب بعض المؤرخين إلى أطماعه في أن يصبح سيد المنطقة كلها، خاصة وأن مدينة الجزائر تحتل موقعا استراتيجيا ولها ميناء مناسب لممارسة القرصنة (الجهاد البحري) يضاف إلى ذلك غناها بالثروات وكثرة سكانها غير أن عروج أخفى كل طموحاته ووعد السكان بمساعدتهم[15]. وهكذا أبعد هؤلاء المؤرخون دافع الجهاد في موافقة عروج، هذا الدافع الذي ركز عليه صاحب "الغزوات" حيث يذكر أنه لما وصل إليه الكتاب أدركته حمية الإسلام ودخلته نخوة الجهاد، واستخار الله تعالى في الذهاب إليهم.[16] وهكذا قرر التوجه إلى مدينة الجزائر لتخليصها من سيطرة الأسبان.

يذكر "هايدو" Haedo "أن عروج قام بإرسال جيش قدره بستة عشرة سفينة شراعية على متنها خمسمائة تركي إلى جانب المدافع والبارود والمؤونة أما هو فسلك طريق البر على رأس ثمانمائة تركي من رفاقه المسلحين بالبنادق إلى جانب ثلاثة آلاف رجل من السكان مدفوعين برغبة الحصول على جزء من الغنائم" (17)، أما صاحب كتاب "الزهرة النائرة" فيذكر "أن عروج توجه إلى مدينة الجزائر على ظهر سفينتين وأرسل إليه أخوه خير الدين مائتين وثمانون رجلا" (18)، ومن الضروري التنبيه إلى ذلك التلاحم الذي تولد بين الأتراك وسكان المنطقة ضد العدو المشترك.

يلاحظ مما سبق أن معظم قوات عروج سلكت طريق البر، وكان وراء ذلك دوافع استراتيجية كثيرة، منها محاولة كسب أنصار جدد من سكان المنطقة، كما أن عروج سعى إلى التخلص من قارة حسن أحد أتباعه الذي كان حاكما على شرشال، إذ أنه تخوف من تزايد نفوذه، وبعد القضاء عليه غادر المدينة تاركا وراءه حامية مكونة من مائة رجل(19).

تذكر المصادر أن عروج عند دخوله إلى مدينة الجزائر، استقبله سكانها استقبال الفاتحين المنقذين، وأن إقامته كانت في قصر ابن التومي، وهو نفس العمل الذي قام به الأعيان مع جنوده (20)، ثم قام بعقد اتفاقية مع السكان نصت على احترام سيادتهم على المدينة، وألا يدفعوا أتاوات جديدة ولا يتدخل في تجارتهم، وأن تقتصر مساعدته لهم على استعادة قلعة الصخرة وتحطيم أسوارها (21). ومنذ الغد من ذلك وجه نيران مدفعيته نحو القلعة لإظهار حسن نيته، ولكن بعد عشرين يوما فشل في تحطيمها لضعف مدفعيته التي لم تشكل أي خطر على الجنود الأسبان الذين ردوا على ذلك بقصف أعالي المدينة (22).

وكان من نتائج هذا الفشل، ظهور تذمر بين السكان الذين رأوا بأنهم أخطأوا التصرف باستقدام هذا "الرجل الخطير" (23)، خاصة بعدما أصبح يتصرف وجنوده كأسياد في المدينة، وقد ولد ذلك معارضة سرية قادها الأعيان وعلى رأسهم سليم بن التومي، الذي يقال أنه اتصل خفية بالأسبان، بعدما رأى أن عروج يهدد عرشه ويتصرف كحاكم مطلق(24)، غير أن هذا الأخير استطاع أن يتفطن للمؤامرة في الوقت المناسب ويتخلص من خصمه العنيد ابن التومي.

لقد ركز كثير من الأوربيين عل قضية اغتيال ابن التومي فيعطينا هايدو تفاصيل دقيقة حول القضية، ومضمونها أن عروج قام بخنق سليم بن التومي في حمامه حينما كان يستعد لأداء صلاة الظهر (25)، أما لوجي دوتاسي " laugier de Tassy " الذي زار الجزائر في عام 1725م، فيذكر «أن عروج أعجب بزفيرة أو سافرة زوجة ابن التومي وحاول كسب ودها ولكنه فشل في ذلك، ولهذا قرر اغتيال الزوج ليتزوجها بمجرد ما تصبح أرملة، إلا أنها فضلت الانتحار بالسم على الزواج به (26)، وقد يكون من وراء سعي عروج للاقتران بزفيرة إن صدقت رواية تاسي محاولته كسب تأييد القبائل العربية المتمركزة في المنطقة خاصة وأن "زفيرة" كانت تنتمي إلى قبيلة ذات شأن ومكانة في منطقة المتيجة (27).

ومهما كانت تبريرات الأوربيين وتفسيراهم لعملية الاغتيال فإنه قد تكون تصرفات ابن التومي دافعا لهذا العمل حيث يورد الأستاذ توفيق المدني وثيقة تدينه وهي عبارة عن رسالة بعثها أحد الإقطاعيين إلى الكاردينال "كسمناس أو خمينيس **ximines** " يطلب دعم أسبانيا ضد عروج ويرى أن تأسيس دولة إسلامية في المنطقة يهدد مصالحهم ونفوذهم (28)، وبعبارة أخرى فإن ابن التومي كان يدبر مؤامرة ضد عروج وجنوده وضد مصلحة المدينة، وما قد يدعم هذا الرأي هروب يحي بن سليم التومي إلى حاكم وهران الأسباني بعد مقتل أبيه ومن هناك نقل إلى أسبانيا (29).

لقد أصبح عروج حاكما على مدينة الجزائر بعد مبايعته من طرف جنوده والسكان المناصرين له، ويظهر أن هذه المبايعة لم تلق أي معارضة علنية خاصة من طرف الأعيان (30). وهكذا بدأ في تنفيذ مشروعه الطموح وكان ذلك بوضع القواعد لدولته فقام بصك النقود، وعمل على تحصين المدينة وتدعيم دفاعاها خاصة حصن القصبة، كما أنه نجح في صد حملة أسبانية ضد المدينة في سبتمبر1516 (31)، وتمكن من التخلص من اثنين وعشرين متآمرا من أعيان المدينة داخل المسجد أثناء أداء صلاة الجمعة (32).

لابد من الإشارة إلى أن مدينة الجزائر لم تكن إلا قاعدة لتأسيس دولة قوية وشاسعة مثلما كانت جربة سابقا ثم جيجل بعدها. فبمجرد توطيد حكمه بها شرع عروج في مد نفوذه غربا، حيث استغل فرصة استنجاد سكان مدينة تنس به ضد حاكمه حميد العبيدي عميل الأسبان، وقبل خروجه قسم المملكة إلى قسمين: قسم شرقي عاصمته دلس وعين عليه أخاه

خير الدين، وقسم غربي عاصمته مدينة الجزائر بقي تحت إشرافه [33]، ويعتبر هذا العمل أول تنظيم إداري أحدثه عروج بعدما أصبح حاكما على الجزائر، وستتبعه تنظيمات أخرى خاصة في عهد خير الدين ثم ابنه حسن باشا.

يذكر صاحب "الزهرة النائرة" أن عروج قبل خروجه إلى تنس لقتال حاكمها استفتى علماء المدينة فأفتوه بإباحة دمه ودم من معه من المفسدين" [34]. وفي طريقه انضم إليه سكان منطقة متيجة، مليانة، المدية، الشلف، وجزء من جبال الظهرة والونشريس [35]، وقد تمكن من إخضاعها في جوان 1517م بعدما تخلص من حاكمها الموالي للأسبان.

لقد ساهمت انتصارات عروج في تزايد عدد المتطوعين في جيشه، كما زاد عدد المستنجدين به، فخلال إقامته بتنس اتصلت به جماعة من سكان مدينة تلمسان لمساعدتهم على التخلص من حاكمهم أبو حمو الزياني عميل الأسبان، والذي كان قد بادر بسجن الوريث الشرعي للعرش مولاي بن زيان [36].

لم يتأخر عروج لحظة في الاستجابة لطلبهم، وتوجه مباشرة نحو تلمسان سالكا في ذلك طريق البر، ويظهر أنه حاول قدر المستطاع تفادي الاصطدام بالأسبان الذين كانوا يعسكرون بوهران، وفي طريقه أخضع قلعة بني راشد التي عين عليها أخاه إسحاق.

وتمكن عروج من دخول تلمسان دون عناء كبير حيث حرر الوريث الشرعي وعينه على العرش، أما أبو حمو فلجأ إلى وهران. إلا أن عروج مالبث أن تخلص من أبي زيان وسبعين شخصا من عائلته، ويجهل السبب الذي جعله يقدم على هذا العمل، ولكن الأستاذ توفيق المدني يرجع السبب إلى تجدد الفتن، وهذا ما أعاقه على تحقيق مشروعه في بناء دولة جزائرية موحدة [37].

غير أن الانتصارات التي حققها عروج في المغرب الأوسط هددت مباشرة مصالح أسبانيا في المنطقة، خاصة بعدما أصبح على مقربة من وهران، كما هددت سلطة الأمراء الصغار ومنهم أبو حمو، فقررت أسبانيا توجيه حملة ضده، والتي نجحت في السيطرة على قلعة بني راشد والتخلص من إسحاق، ثم توجهت نحو تلمسان التي حاصرتها لمدة ستة أشهر حيث تمكنت من دخولها، أما عروج فلجأ إلى"قلعة المشور" في انتظار الدعم الذي كان سيصله من سلطان فاس مولاي أحمد بعد اتفاق تم بينهما سابقا [38]، إلا أن تأخر وصوله جعله يضطر

للتوجه نحو البحر، ولكن الأسبان تمكنوا من اللحاق به، وبعد قتال طويل استشهد عروج مع عدد كبير من جنوده.

غير أن المؤرخين لا يتفقون على رأي واحد في تحديد المكان الذي قتل فيه عروج، فبعضهم يرجح أنه قتل قرب واد المالح حينما كان متوجها نحو البحر للحاق بالسفن العثمانية التي كانت بانتظاره هناك (39)، بينما يرى آخرون أنه قتل في جبل بني موسى غرب تلمسان قرب نهر وجدة على الحدود الجزائرية المغربية (40)، أما "بربروجر **Berbrugger**" فيرى بأنه قتل في جبل بني يزناسن (41)، ويمكن أن يكون للرأيين الأخيرين نصيب كبير من الصواب وما يدعم ذلك هو الاتفاق الذي كان بين عروج وسلطان المغرب. أما عن عمره عند استشهاده، فتؤكد المصادر أنه كان أربع وأربعين سنة (42)، وقد شكل هذا الحادث فرصة لإقامة احتفالات عظيمة في كثير من مدن أسبانيا (43).

أهم ما يستخلص مما سبق ذكره، أن عروج لعب دورا كبيرا في وضع الأسس الأولى لتكوين الإيالة الجزائرية وجيشها، إذ تمكن في فترة وجيزة من توطيد وجوده في مدينة الجزائر، كما دحر كل المؤامرات التي دبرت ضده، هذا إلى جانب توسيع حدود دولته التي امتدت حتى تلمسان، ولولا قلة الجنود والعتاد لأمكنه مواجهة الأسبان وتحقيق نصر ساحق ضدهم.

وقد نالت شجاعته وعبقريته العسكرية إعجاب الجميع حتى الأعداء، فلقد مدحه الراهب هايدو وذكر بأنه قاتل الأسبان بشجاعة نادرة رغم أنه لم يكن يملك إلا يدا واحدة (44)، كما يرجع إليه الفضل في وضع الأسس الأولى لمملكة الجزائر (45)، أما لوجي دوتاسي فرغم أنه ينظر إليه كظالم ومستبد قهر السكان، فذلك لم يمنعه من الإعجاب به والاعتراف بشجاعته (46

وإذا كان عروج قد استشهد في عام **1518**م، فإن أخاه خير الدين واصل مشروع تأسيس الإيالة الجزائرية، إذ أنه بعد اتفاق تم مع سكان مدينة الجزائر، أرسل وفدا إلى إسطنبول لمقابلة السلطان العثماني سليم الأول (**1512-1520**) في أوائل نوفمبر **1519**م (47)، حتى يعرض عليه إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية.

وبعد عرض الاقتراح على السلطان، قبل هذا الأخير الطلب دون تردد، فكان ذلك إيذانا ببداية العهد العثماني في الجزائر، والذي استمر من عام **1520** إلى غاية الاحتلال الفرنسي في **05** جويلية **1830**.

الهوامش:

1-"الأرمادة"، كلمة أسبانية تعني الجيش البحري الكبير العدد والعدة، أنظر: سبنسر، وليم، الجزائر في عهد رياس البحر ترجمة وتعليق عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 27.

2- المدني، أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا (1492-1792)، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص 127.

3- مجهول، غزوات عروج وخير الدين (تصحيح وتعليق نور الدين، عبد القادر). المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، الجزائر، 1934، ص 6.

4- حول حياة الاخوة باربروس، راجع: غزوات عروج وخير الدين ... وراجع أيضا: ابن القاسم، محمد ابن أحمد، سيرة المجاهد خير الدين، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 2603.

5- إن كلمة عروج أصلها "أوروج"، وهي لفظة تركية تعني الصيام أو رمضان، أنظر: نور الدين، عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى العهد التركي. كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965، ص 43.

6- المرجع نفسه، ص 43.

7- كان من نتائج هذه المعركة فقدان عروج لذراعه بسبب طلقة نارية أنظر د- فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، الطبعة الأولى. مطابع ألف باء، الأديب، دمشق، 1969، ص 24.

8- الجيلالي، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ الجزائر العام، الجزء الثالث، الطبعة السابعة. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 38.

9- بوعزيز، يحيى، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500-1830. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص 35.

10- كان عمر فرديناد عند موته 62 سنة، أنظر:

Haedo (Fray Diego de). «Histoire des rois d'Alger»، traduit et annoté par H.D de Grammont. R.A 24-25، p52.

11- الجيلالي، عبد الرحمن بن محمد، المرجع السابق، ص40.

12- أنظر: د.فارس، محمد خير، المرجع السابق، ص52.

Watbled، Ernest. «Etablisement de la domination turque en Algerie ». R.A، Tome 17 (1873)، p 295.

13-Watbled، Ernest. Op. cit، p295.

14- الجديري، محمد، « الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة»، (تحقيق سليم بابا عمر)، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد الثالث، يوليو 1976، ص4.

15- Haedo. «Histoire des rois d'Alger»، p53.

16- مجهول، غزوات...، ص 27.

17- Haedo. Op. cit، p53.

18- الجديري محمد، المصدر السابق، ص 4.

19- ابن أشنهو، عبد الحميد بن أبي زيان، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر. الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 1972، ص68.

20- المرجع نفسه، ص 69.

21-سبنسر، وليم، المرجع السابق، ص31.

22- المدني، أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة...، ص 37.

23- E.Cat. Histoire de l'Algerie، Tunisie، Maroc avant 1830، Tome I. collection Adolph Joudon، Alger، 1889 ، p 240.
24-watebled، Ernest. «Etablissement...»، p 354.
25- Haedo، «Histoire....»،pp 56-57.
26-Laugier de Tassy. Histoire du rayaume d'Alger (1724). Edition Loysel، Paris، 1992، p22.

27- تجدر الإشارة إلى انتشار ظاهرة الزواج السياسي بين الحكام العثمانيين والسكان خلال المراحل المختلفة للعهد العثماني بالجزائر.

28- يذكر السيد توفيق المدني أن هذه الوثيقة موجودة في أرشيف " سيمانكس"، أنظر: المدني، أحمد توفيق، المرجع السابق، ص 175.

29- نور الدين، عبد القادر، المرجع السابق، ص 49. Haedo. «Histoire ...» p 57

30- شوفالييه، كورين، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510-1541)، (ترجمة حمادنة جمال).ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 29.

31- Léon، L'Africain. Description de l'Afrique et des choses mémorables qui y sont contenues (traduction de Jean temporal)، tome I، livre 4 ème. Paris، 1830 ، p 624.
32- Haedo. Op.cit، p60.

33- د. فارس، محمد خير، المرجع السابق، ص 26.

34-الجديري، محمد الزهرة النائرة...، ص 7.

35- سبنسر، وليم، المرجع السابق، ص34.

36- Gaïd، Mouloud. L'Algérie sous les turcs2 ، ème édition، Edition Mimouni، Alger، 1991 ، p 41.

37- المدني، أحمد توفيق، المرجع السابق، ص 189.

38- المرجع نفسه، ص 190.

39- Grammont (H.D.de). «Quel est le lieu de la mort d'Aroudj barbarousse? ». R.A (1878). PP 388-399 et 432.

40- نور الدين، عبد القادر، المرجع السابق، ص 51.

41-Berbrugger (A). «La mort du fondateur de la régence d'Alger». R.A n°4 (1859)، p2.
42- Haedo. « Histoire...»، p117.

وكذلك:

Essais sur l'histoire politique de la régence d'Alger et de son territoire depuis 1505 jusqu'aux temps actuel (manuscrit à la bibliothèque nationale d'Alger n°3178)

43- بقي الأسبان يتذكرون شخصية عروج لمدة طويلة من الزمن، ويفتخرون بنصرهم عليه، ففي عام 1796 نظمت قصيدة تخلد ذلك الحدث الذي وقع في عام 1518، ثم جسد ذلك في مسرحية عام 1827، أنظر:

Sir Godfrey، Fisher. Légende barbaresque، guerre، commerce et piraterie en Afrique du nord de 1415-1830 (traduit et annoté par Frida Hellal). OFU، Alger، 1991، p87.

44- Haedo. Op. cit، p69

45- Ibid، p116.

46- Laugier de Tassy. Op. cit، p33.

47- أنظر: التميمي، عبد الجليل، « أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519 »، المجلة التاريخية المغربية، العدد 06، تونس، جويلية 1976، ص 116.

وكذلك: حماش، خليفة إبراهيم، العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي من سنة 1798إلى 1830، رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الآداب، القاهرة، 1988، ص30.

التحرير الثاني والنهائي لوهران والمرسى الكبير عام 1206هـ/1792م.

أ./ بلبروات بن عتو

مقدمـة: في مطلع القرن السادس عشر، اندفعت الحركة التوسعية الاستعمارية الأسبانية بوتيرة سريعة، مستهدفة القلاع الساحلية لشمال أفريقيا بغية تسخيرها كقواعد للتغلغل إلى المناطق الداخلية. وكانت قلعتي المرسى الكبير ووهران، أولى قلاع المغرب الأوسط التي احتلها الأسبان[1]، ورغم نجاح حكومة الداي محمد بكداش في تحرير هاتين القلعتين سنة 1708م إلا أن الاحتلال الأسباني قد عاد مجددا إلى وهران والمرسى الكبير في جويلية 1732م، وعجز باي الغرب الجزائري بوشلاغم مصطفى في الدفاع عنهما، وكان الاحتلال الثاني نكبة للعثمانيين والعرب والأمازيغ بإيالة[2] الجزائر، فتجدد الحصار من طرف بايات معسكر المتعاقبين- دون جدوى- إلى أن تقلد الباي محمد بن عثمان الكردي الملقب بالأكحل[3] حكم بايليك الغرب عام 1193هـ/ 1779م، فشرع في تنفيذ محاولاته العسكرية لتحرير الثغرين، منذ بداية ولايته إلى أن افتكها من الأسبان صلحا في 04 رجب 1206هـ/ 27 فبراير 1792م، فكان التحرير أو الفتح الثاني والنهائي الذي نستعرض خطوطه العريضة، بالكيفية التالية:

I- دوافع التحرير الثاني لوهران والمرسى الكبير سنة 1792م: بمجرد اعتلاء محمد بن عثمان الكردي، منصب باي الغرب الجزائري عام 1779م وضع نصب عينيه قضية وهران، وتساءلنا عندئذ عن الدوافع التي دفعته إلى تسريع عملية تحرير وهران، من الاحتلال الأسباني، وتصورنا الإجابة على ذلك كالأتي:

1- توالي الانتكاسات العسكرية الأسبانية بساحل مدينة الجزائر في سنوات

---

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- جامعة الجلالي ليابس- سيدي بلعباس.

1775م، 1783 م،1784م[4]، واختيار الحكومة الأسبانية الصلح مع حكومة الداي محمد بن عثمان باشا سنة 1785م ليتم التوقيع على معاهدة السلام سنة 1786م.

2- اشتداد الخطر الأسباني بوهران من خلال إحكام الأسبان لتحصينات مدينة وهران[5]، وتصاعد الهجرة الاسبانية إلى وهران والمرسى الكبير[6]، وترادف الغارات الأسبانية على القبائل[7].

3- دعوة العلماء إلى فتح وهران، ونستقرء ذلك من خلال الفصل الذي خصصه ابن زرفة في مخطوطه الرحلة القمرية في السيرة المحمدية بعنوان" في الترغيب للجهاد والترهيب لمن تغافل عنه من العباد".[8] وكذا المرائي التي استغلها العلماء في دعوة الحكام العثمانيين لمجاهدة الأسبان الذين بوهران.

II- مراحل التحرير: تعدى غزو وهران من طرف الباي محمد بن عثمان الكردي، عشرية كاملة من الزمن (1780م- 1792م) ومكنتنا المصادر من تصنيف سير الغزو طيلة المدة السالف ذكرها إلى ثلاث مراحل متعاقبة حسب التطورات المسجلة، متوجة بمرحلة رابعة، حول سير المفاوضات وعقد الصلح وكذا الاستعداد للفتح ودخول المدينة.

1- المرحلة الأولى: 1780م – 1787م، وميزها ما يلي:

أ- حرب الاستنزاف (الحرب الخاطفة): 1780م – 1785م.

أورد تدينا Thédenat[9] أن الباي محمدا بن عثمان الكردي، كان ينظم غارات ضد الاسبان بوهران كل شهر رمضان من كل سنة، فيقابل بمدافعه حصون وأسوار وهران التي كانت تخلف القتلى والجرحى في صفوف جنوده.[10] وذكر مؤرخو الباي محمدا أنه كان يقصد الثغر الوهراني بقصد الرباط [11] اليوم أو اليومين في السنة دون ملاقاة العدو، كما جرت عليه عادة من سبقوه من البايات، ويفسرون ذلك أنه استأذن الداي محمد بن عثمان باشا، والديوان بمدينة الجزائر مرات عديدة لقتال الاسبان واقتحام أسوارهم، فلم يسمحوا له بذلك، فيرجع دون طائل، لأن – في اعتقادي- الترخيص بالقتال مقرون بحصول الباي على مساعدة مادية وبشرية من طرف الداي أو من البايليكات الأخرى، ما دامت قضية وهران قضية وطنية، وهذا ما لم تسمح به ظروف الحكومة العثمانية الجزائرية، لكن لم يمنعوه من الرباط المحدود المدة، شريطة أن لا يشتبك مع العدو.

ب-هدنة 1786م-1787م: توقفت حرب الاستتراف التي شنها الباي محمد بن عثمان الكردي على الأسبان بوهران سنة 1785م استجابة لمساعي الصلح الاسبانية لدى قصر الداي بمدينة الجزائر، وبعد سنة كاملة تمّ التوقيع على معاهدة الصلح في جوان 1786، ويظهر أن هذه الهدنة قد استغلها الباي محمد أحسن استغلال إذ مكنته من غزو قبائل الهضاب العليا، واخضاعها لسلطته، ومن ثمة استعراض قدراته العسكرية أمام الأسبان وأعوانهم من المسلمين، ولما فرغ من أداء مهامه في الجنوب الجزائري، عزم على مناجزة الأسبان بوهران مجددا، وبطريقة أخرى، تقوم على المحاصرة وتضييق الخناق على العدو الأسباني وأعوانه.

2- المرحلة الثانية 1787م-1790م: وهي مرحلة الحصار الأول الذي ضربه الباي محمد بن عثمان الكردي على مدينة وهران، ويمكن تشخيص أهم تطورات هذا الحصار في النقاط التالية:

أ- قرار الباي بمداومة وتنظيم الرباط في أحواز وهران، باعتماد إجراءات كانت في أساسها إغرائية وتشجيعية وتنظيمية للمرابطين الذين استجابوا وتوافدوا على الرباطات[12] من كل نواحي الغرب الجزائري بأموالهم وأولادهم.

ب-اعتماد الباي محمد في حصاره الأول على بعث السرايا[13] دوريا ونصب الكمائن ومهاجمة العدو برا وبحرا.

ج-تصعيد الباي محمد بن عثمان الكردي لنشاطه العسكري في أعقاب الزلزال الذي ضرب وهران في ليلة 8-9 أكتوبر 1790م، والذي خلف خسائر مادية وبشرية ثقيلة.

د-اتخاد حاكم وهران الجديد الكونت دي كومب هرموزا **comte de cumber hermoza** الذي خلف دون نيكولاس قارسيا **don nicolas garcia** تدابير استعجالية لتطويق الفوضى التي سادت مدينة وهران.

هـ-وصول نجدات أسبانية متعددة الأوجه إلى مينائي: المرسى الكبير ووهران بدءا من 10 أكتوبر 1790م إلى نهاية الشهر.

و-فشل الاقتحام الأول لأسوار مدينة وهران مقابل نجاح العمليات العسكرية الأسبانية، المعتمدة على الهجوم الخاطف، ومتانة المقاومة خلف الحصون.

ي-فشل الاقتحام الثاني[14] وإعلان الباي محمد بن عثمان الرحيل عن وهران، مسرحا القبائل إلى أوطانها وتأخير الفتح ريثما يوفر الأسباب الكافية لذلك، واتخاذه لمجموعة من الإجراءات الدالة على عزمه بمواصلة الحصار والعودة مجددا لوهران.

ويمكن لنا رصد عوامل فشل الحصار الأول في:

1- غياب الدور الباشوي في عملية الحصار الأول، التزاما بمعاهدة الصلح سنة 1786م.[15]

2- ضعف التدريب العسكري للمجاهدين.[16]

3- ثبات الأسبان أثناء القتال.[17]

4- خطر الجوسسة الأسبانية والتغطيس، ونفاق القبائل في ناحية وهران.[18]

5- ضعف الجوسسة الإسلامية.

6 - ضعف الفعالية القتالية لدى المجاهدين.

7- نقص الذخيرة الحربية والعتاد العسكري الثقيل، وغياب قواعد عسكرية واقتصادية خلفية، تدعم القتال في ضواحي وهران.

3- المرحلة الثالثة 1790م- 1791م: وهي مرحلة الحصار الثاني الذي حاول فيه الباي محمد بن عثمان الكردي تجاوز أخطاء الحصار الأول، فقبل مباشرة الحصار، شرع في تجهيز العتاد الحربي[19]، وجمع السلاح والذخيرة الحربية[20]، ونظم جيشه من خلال جمع ذوي الاختصاص الحربي، وجمع طلبة الزوايا المنتشرة بالغرب الجزائري، وتكليفهم بالمرابطة حول وهران، كما نظم أيضا الرباط حيث عين الفقيهين: "محمد بن عبد الله الجيلالي والطاهر بن حواء" أميرين على المرابطين، وكذا أمناء وقواد الرباط. وحرص الباي محمدا على توفير تموين الرباط بالذخيرة الحربية والغذاء والدراهم والخيول وكل ما يحتاجه المرابط من مرافق ضرورية.[21]

ولم يغفل الباي محمدا تدريب الطلبة المرابطين على سلاح المدفعية وحفر الخنادق[22]، وإصلاح الطرق الواصلة بين معسكر ووهران لجر المدافع[23]، وكذا إصلاح العتاد المدفعي وجره وتجميعه ببرج سيق، ونشير إلى أنه أشرك المحبوسين في العملية مقابل إخلاء سبيلهم.[24]

وأمام هذه المستجدات، فكر الأسبان في طرق باب المفاوضات مع الداي محمد بن عثمان باشا، حول قضية وهران التي علقت في صلح 1786م، فبعث الملك الأسباني كارلوس

الرابع carlos IV رسولا إلى مدينة الجزائر، مقترحا على الداي: تسليم مدينة وهران للباي، والاحتفاظ بالمرسى الكبير. [25] ولم يجد هذا الاقتراح ترحيبا من قبل الداي والباي معا، فأعادت حكومة مدريد الكرة التفاوضية، إذ بعثت رسولا إلى الداي محمد بن عثمان باشا، طالبة منه أن يأمر الباي محمدا بن عثمان الكردي بقبول هدنة مدها شهرا واحدا، من 25 مارس إلى 25 أبريل 1791م، بينه وبين الأسبان الذين بوهران، حتى يتمكنوا من إبلاغ الملك الاسباني بمراد الباشا و الباي معا، ويحسموا بين حضرته موقفهم من قضية وهران: التسليم أو استئناف القتال. [26] فأرسل المدد العسكري إلى وهران، وإشتدت شوكة الاسبان. [27] وبدأت المناوشات بينهم وبين الطلبة، وواصل الباي استعداداته الأخيرة للخروج إلى حرب وهران، كتحضير المجاهدين نفسيا، والدعوة إلى الجهاد[28]، ورفع معنويات الطلبة المرابطين، وفرض الحراسة على وادي إيفري، وعلى الطريق الواصل بين ايفري والمرسى الكبير[29]، ونصب متارس المدفعية على جبل المائدة، وجرّ المدفعية إليه، وتدعيم قواته بالجنود الانكشاريين. [30]

وفي نهاية ماي 1791م نشب القتال من جبل المائدة، تم فرض التكتيك العسكري تحويل القتال إلى السهل-الأقدام الجنوبية لجبل المائدة- وقد ألحق ذلك خرابا ببعض الحصون واحراق البرجين الكبيرين: برج العيون وبرج الجديد المقابلين لوادي ايفري، ناهيك عن الخسائر البشرية في صفوف الاسبان.

ولما استعصى الفتح، ظهر للباي محمد بن عثمان الكردي تحويل القتال عند البرج الاحمر، وفي هذه الأثناء المطبوعة باشتداد القتال، توفي الداي محمد بن عثمان باشا يوم الثلاثاء 12 جويلية 1791م، وخلفه حسن باشا[31]، ودخلت حرب وهران مرحلة جديدة، يطبعها بحث أسباني عن مسالك تفاوضية مع حكومة الجزائر، وإنهاء قضية وهران. فتقدم وكيل اسبانيا بمدينة الجزائر إلى الداي حسن باشا، طالبا منه الصلح وفق الشرطين التاليين: تعويض نفقات الباي الحربية مقابل إقلاعه عن حصار وحرب وهران. واستدعى بحث شروط الصلح، إقرار هدنة مدها خمسة عشر يوما، يتشاور فيها أطراف القرار في الجزائر واسبانيا، وقد وقع الاتفاق على الهدنة يوم 20 جويلية 1791م وينتهي أجلها يوم 03 أوت 1791م. [32] ويظهر أن الشرطين قاسيان على الطرفين معا، فلا اسبانيا تقوى على تعويض نفقات الباي، ولا الباي يقوى على ترك وهران للاسبان.

احتراما لشروط الصلح، أمر الداي حسن باشا، الباي محمد بن عثمان الكردي بالرحيل عن وهران والدخول إلى معسكر، فكان ذلك يوم 30 جويلية 1791م. وعندما أوشكت مدة الهدنة على الانقضاء، ورد على مدينة الجزائر وفد أسبانيا.

أبلغ الداي حسن باشا، أن الملك كارلوس الرابع، رفض دفع التعويضات الحربية للباي محمد في ظل بقاء عداوة هذا الأخير وتهديده بالعودة إلى القتال وأنه اختار تسليم وهران دون مينائها، وبناء مخزن أو مخزنين ببرج الميناء. [33] وفي أواخر أوت 1791م كتب الملك الأسباني للداي حسن، يؤكد له أنه اختار نهائيا تسليم البلاد كلية على الصورة التي تركها المسلمون عام 1732م، أي تهديم ما بناه الأسبان عقب عودتهم إليها.

وبناء على استجابة الداي حسن باشا لما تقدم به الملك الأسباني، بعث هذا الأخير رسله إلى مدينة الجزائر، لعقد الصلح النهائي، والحاسم مع الداي حسن في 12 سبتمبر 1791م

4- المرحلة الرابعة 1791م-1792م: ميز هذه المرحلة الأخيرة، من مراحل الصراع الأسباني- العثماني المتجدد حول وهران والمرسى الكبير، عقد معاهدة صلح بين الجزائر وأسبانيا في 12 سبتمبر 1791م[34]، اشتملت على تسعة فصول، حررت بالنصين، العثماني والأسباني، وتم بموجبها انسحاب الأسبان تدريجيا من وهران والمرسى الكبير مقابل الحصول على امتيازات اقتصادية، ولم تتم المصادقة على المعاهدة إلا في 9 ديسمبر 1791م بسبب اختلاف النص الأسباني عن النص العثماني في الفصول التالية:

-في الفصل الخامس: أهمل النص العثماني، دور تجار الأجناس الأخرى في شراء البضائع، إذا دفعوا سعرا أعلى من السعر الذي يقدمه الأسبان.

-في الفصل السابع:تطرق النص العثماني، إلى دخول وخروج السفن من موانئ إيالة الجزائر، بحرية وقيد عملها التجاري حسب احتياجات الموانئ، وهذا ما لم تلتزم به المعاهدة الأسبانية إذ حاولت رفع تلك القيود التجارية، أمام السفن الأسبانية.

-في الفصل الثامن: رفض النص الأسباني سرعة الجلاء عن وهران والمرسى الكبير.

-الفصل التاسع: نبه النص العثماني إلى المعاملة الحسنة مع التجار الأسبان في كل موانئ إيالة الجزائر، أما النص الأسباني، يوسع جزءا من الفصل فيعمم حسن المعاملة إلى كل الأسبانيين، التجار وغيرهم الذين يقصدون وهران.

وفي أعقاب الاتفاق على شروط الصلح، كرم الداي حسن باشا الباي محمد بن عثمان الكردي ولقبه بالكبير، تعظيما لجلائل أعماله، وألبسه الريشة الذهبية[35]، وأوكل إليه أمر وهران بعد دخولها، وقدر رموز أسرته وفي مقدمتهم ولده الأكبر عثمان.

وفي يوم الاثنين 27 فبراير 1792، دخل الباي محمد الكبير مدينة وهران رفقة عائلته وضباطه وعلمائه وجيشه، في جو احتفالي.[36] وفي اليوم ذاته، توجه إلى المرسى الكبير، ثم كتب إلى الداي حسن باشا، وسلطان الدولة العثمانية، وأمراء الأقطار الصديقة لإيالة الجزائر، يبشرهم بالفتح، وأخيرا دعا الباي محمد الكبير إلى تعمير وهران من مختلف مدن الإيالة وأيضا من وجدة وفاس ومراكش. وفي هذا السياق يعتبر الباي محمد الكبير أول حاكم عثماني، يؤسس لوجود الطائفة اليهودية بمدينة وهران، قصد بعث الحيوية والنشاط التجاري والعمراني للمدينة[37].

وفي الختام، نؤكد أن التحرير الثاني لوهران والمرسى الكبير عام 1792 م، ترك آثارا إيجابية، أهمها:

—إبعاد الخطر الأسباني من بايليك الغرب الجزائري.

—استعادة الوحدة الترابية لإيالة الجزائر، وتعزيز سيادتها في الداخل والخارج.

—تجسيد التحام أطراف الحكم العثماني بالإيالة، وكذا التحام العثمانيين والعرب والأمازيغ.

—تأكيد الدور الفعال للمثقفين (الفقهاء، الأدباء، الطلبة) في تسيير كبريات قضايا الدولة، وأن سيادة الدولة ومستقبلها هو شأن الجميع.

الهوامش:

1- احتل الأسبان المرسى الكبير سنة 1505م ووهران سنة 1509م، وواصلوا توسعهم على طول الساحل المتوسطي مركزين على القلاع الإستراتيجية مثل قلعة البينيون penôn المقابلة لمدينة الجزائر وكذا مدينة بجاية 1510م، ومستغانم وطرابلس 1511م.

2- الإيالة: اصطلاح إداري عثماني زال استعماله سنة 1908م وحل محله مصطلح ولاية.

3- لقب الأكحل لصيق بالباي محمد بن عثمان الكردي منذ طفولته، لشدة سمرة بشرته.

4-De Grammont‹ H. Histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830. paris‹ 1887. p342.

5- Ibid‹ p342.

6- ابن سحنون الراشدي، أحمد بن علي. الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، قسنطينة، 1973م ص ص202-203. وأيضا

Casenave‹ Jean."Contribution à l'histoire du vieil Oran ". in revue Africaine‹ 1925‹ pp 329-331

7-Lespès‹ René. Oran. Etude de géographie et d'histoire urbaine. Collection du centenaire de d'Algérie (1830-1930)‹ Paris. Pp 67-69.

8- ابن زرفة، أبو محمد المصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن. الرحلة القمرية في السيرة المحمدية. المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 3320، ورقة 2 أ.

9-تدينا: أسير فرنسي سخره الباي محمد الكبير لإدارة شؤونه المالية بصفة خزندار بين 1779-1782.

10- Emerit‹ Marcel. "Mémoires de thédenat natif d'Uzés en langedoc écrites à Zurich en 1785. " In revue Africaine‹ 1948. p 174.

11- الرباط لفظة مأخوذة من ربط، بمعنى الإقامة وملازمة المكان، ويطلق في اصطلاح علماء الدين على الأمكنة التي تنشأ في المواقع الحربية، لحماية البلاد وحراستها من هجومات الأعداء، وكذلك تطلق على البقاع التي تؤسس لاجتماع المنقطعين لله والمتعبدين الذاكرين، وكذلك المعتكفين لتعلم الدين وتعليمه. عن البوعبدلي المهدي. " الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى" مجلة الأصالة، العدد 13، 1393هـ/ 1973م، ص 20.

12- اشتهرت وهران برباطاتها قبل الاحتلال الأسباني، مثل رباط قصر الأمحال، أو القصر الأحمر الواقع فوق ربوة عالية، تقع في شمال شرق المدينة، تطل على البحر وتسمح للمرابطين باستطلاع أخبار البر والبحر، ورباط صلب الفتح على شاطئ البحر. أما الرباطات المستحدثة بعد الاحتلال الأسباني، فهي كثيرة حول المدينة غربا وجنوبا، أشهرها: رباط إيفري ورباط جبل المائدة، على قمة الجبل المطل على وهران غربا، ورباطات أخرى.

13- السرايا جمع سرية وهي طائفة من الجيش تتكون من خمسة إلى ثلاثمائة مقاتل مهمتها الإغارة وملاقاة العدو، وتصطحب معها سلاح خفيفا.

14- ابن زرفة. المصدر السابق، ورقة 43 ب.

15- ابن سحنون الراشدي. المصدر السابق،ص 214.

16- مجهول. تاريخ الباي محمد الأكحل أو تاريخ استرداد وهران من الأسبان. المكتبة الوطنية الفرنسية، ميكروفيلم رقم 5022. ورقة 9أ.

17- المصدر نفسه، ورقة 9أ.

18- ابن زرفة. المصدر السابق، ورقة 37أ.

19- المصدر نفسه، ورقة 53 أ، 54ب.

20- ابن سحنون الراشدي. المصدر السابق، ص 247.

21- المصدر نفسه، ص235. وأيضا ابن زرفة. المصدر السابق، ورقة 56ب، 61ب.

22- ابن سحنون الراشدي. المصدر السابق، ص 248.

23- ابن زرفة. المصدر السابق، ورقة 90أ.

24- طالع ابن سحنون. المصدر السابق، ص ص 249-250.

25- المصدر نفسه ص 254.

26- المصدر نفسه. ص 254.

27- المصدر نفسه. ص 270.

28- المصدر نفسه.ص ص 274-275.

29- المصدر نفسه. ص 278.

30- المصدر نفسه، ص 277.

31- حسن بن علي باشا: حكم الإيالة الجزائرية بين 1791م-1798م، عرف عنه أنه بالغ في حذره وكان وراء التصفية الجسدية التي مست بايات عهدته، وأظهر تعاونا ملحوظا مع اليهود والفرنسيين.

32- أبو راس الناصري، محمد بن أحمد بن عبد القادر. عجائب الأسفار ولطائف الأخبار. المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3327، ورقة 67ب.

33- ابن سحنون الراشدي. المصدر السابق، ص 307.

34- تمت ترجمة محتوى هذه المعاهدة إلى اللغة العربية عن اللغتين التركية والأسبانية. أنظر: بلبروات بن عتو. الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري. رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف أ.د بلقاسمي بوعلام، جامعة وهران، 2002 م.

35- الريشة الذهبية: تدعى باللغة العثمانية التركية جلنك وهي حلية ذهبية على صفة كف وأصابع اليد، مرصّعة بالأحجار النفيسة، يقدمها الداي لكل باي أو وزير يفتح بلدا من بلدان الكفار، فيجعلها في عمامته تنويها بقدرة، وعلامة على أنه من المقربين للداي.

36-Fey، Henri léon. Histoire d'oran avant، pendant et après l'occupation espagnole. Oran1858 ، . p264.
37-Bloch، Isaac. Les israélites d'oran de 1792 à 1815.Paris، Ager،1886 pp 5-6.

الإصـــدارات الجــديــدة

*** *عنوان الكتاب*: المستفاد من مناقب العباد، بمدينة فاس وما يلهيها من البلاد.

المؤلف: أبو عبد الله بن عبد الكريم التميمي الفاسي (ت سنة 603 أو 604هـ).

دراسة وتحقيق: الدكتور محمد الشريف.

دار النشر: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان-سلسلة الأطاريح الجامعية (4).

تاريخ النشر: أوت 2002.

الكتاب في الأصل أطروحة جامعية تقدم بها صاحبها لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، تخصص: تاريخ بكلية الاداب والعلوم الإنسانية بتطوان أمام لجنة علمية كانت تتكون من السادة الأساتذة: د.أحمد الطاهري (رئيسا).د.محمد بن عبود (مشرفا مقررا).د.إبراهيم القادري بوتشيش (عضوا).د.جعفر ابن الحاج السلمي(عضوا).د.محمد رزوق (عضوا).د. Virgilio Martinez Enamorodo (عضوا)، وقد أوصت لجنة المناقشة بطبعها.

يتألف الكتاب من قسمين، القسم الأول: الدراسة، ويقع في 281 صفحة، تعرض فيه الدكتور محمد الشريف إلى ستة مباحث وهي: المبحث الأول: السلطة الموحدية والتيار الصوفي، المبحث الثاني:المستفاد: ترجمة ذاتية- المؤلف وبينته العائلية والمحلية. المبحث الثالث: "المستفاد": قضاياه المنهجية ومصادره. المبحث الرابع: جغرافية أولياء المستفاد. المبحث الخامس: عالم أولياء فاس. المبحث السادس: المستفاد والسلطة الموحدية.

أما القسم الثاني، وهو النص فيقع في 273 صفحة 213 صفحة تمثل النص المحقق، أما البقية فهي فهارس وقائمة بيلوغرافية. وتضمن هذا القسم ترجمة لعدد من العباد والمتصرفة بلغ عددهم المائة وخمس عشر متصرفا (115).

يدخل تأليف كتاب المستفاد ضمن كتب المناقب التي حقل الدراسات التاريخية الإسلامية، ويذكر محقق لهذا الكتاب في المقدمة: "أن هذا الكتاب ليس بحثا روحانيا حول الحياة الصوفية أو سردا بيوغرافيا للأولياء، وإنما هو بحث تاريخي يهدف إلى نفض الغبار عن نص مناقبي طالما ترقب الباحثون والمهتمون بتاريخ الغرب الإسلامي صدوره محققا من جهة، كما يهدف من جهة أخرى في المساهمة في فهم ماهية التصوف المغربي وإلتحاقه بالمجتمع ودوره على صعيد الأفكار والعقليات، وعلى صعيد التاريخ الاجتماعي ككل".

ينسب هذا الكتاب الذي لم تتوفر منه سبغة كاملة إلى لأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي المختلف في تاريخ وفاته بين سنة 603هـ وسنة 604هـ. لقد نشأ التميمي فاس وولد بها خلال المرحلة المنحصرة ما بين 535هـ و540هـ، وتأثر بالجوار العام الذي كان يطبعها بوجود كبار المتصوفة والمكانة التاي كانوا يحظون بها من قبل المجتمع الفاسي. ولقد كان للتميمي رحلة مشرقية استغرقت خمسة عشر عاما، زار بها خلالها بلاد المشرق ولقي كبار الشيوخ بها على عهده. ويبدو أنه بلغ مستوى راقيا من الثقافة وسنة الاطلاع، حيث تصفه كتب التراجم بالمحدث الحافظ الذاكر للحديث ورجاله وتواريخهم وطبقاتهم. وتصنيف أنه كان فقيها منفننا محصلا رواية رحالا مستوسعا في السماع. كما أن ذات المصادر تتهمه بقلة الضبط إلا أن كتب قد ضاعت ولا يمكننا الحكم عليه من خلال كتاب المناقب هذا لأنه يظهر أنه كان حاذقا في الدراسات الصوفية، بدليل عناوين كتبه التي وصلت إلينا بالإضافة إلى المستفاد وهي: "الإيصاح عن طريق أهل الصلاح"، "كشف أحوال المفتونين عن الدنيا بالدين"و"سبات العابدين وريحان العارفين في ذكر أهل الصفوة والانقطاع إلى الله بالخلوة".

كما كتب أخرى في ميادين مختلفة منها:

– زاد الحاج في مناسك الحج.

– رسالة البرهان في ذكر حنين النفوس إلى الأحبة والأوطان.

– تحفة الطالب، ومنية الراغب، في الأحاديث النبوية العلية السنية.

– اللمعة في ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده السبعة.

– التعزية في المصائب والرزية.

– الإنابة في ذكر طريق الاستجابة.

– الأغذية مما جاء في الحديث.

ولقد ضاعت كل هذه الكتب وغيرها، لأن ابن عبد الملك المراكشي وهو يترجم للتميمي يذكر هذه القائمة، ويرد فيها بعبارة "إلى غير ذلك"، مما يوحي بوجود مؤلفات أخرى. أما مضمون الكتاب، فقد تضمن ترجمة لعدد من المتصوفة والعباد الفاسيين حيث تضمنت الترجمة ذكر لألقاهم وصفاهم، وكذلك كرماهم. وهو لا يختلف كثيرا عن كتب المناقب إلا في المناطق المركز عليها وتاريخ التراجم مثل كتاب التشوف ونشر أن صاحب المستفاد حصر

اهتمامه في المتصوفة الفاسيين سواء المتيمون بمدينة فاس أو الذين انتقلوا إلى الأندلس أو المشرق (بلاد الحجاز ومصر وبلاد الشام)، وهم من أصول فاسية.

ويمكن للباحث الاستفادة من هذا المؤلف من خلال جمع عدة معطيات اجتماعية وثقافية وسياسية وحتى اقتصادية من خلال المعلومات غير المباشرة التي يتضمنها نص الترجمة لكل شخصية.

فتوى لأبي محمد عبد الحق بن عطية أصدرها سنة 616هـ، احتفظ لنا بها ابن الجياب في كتابه "التقريب والتسيير لإفادة المبتدين [أو المبثرثة] بصناعة مساحة السطوح (مخطوط الإسكوريال، رقم 929).

بالإضافة إلى مؤلفات أخرى لم تصلنا منها إلا شذرات في مؤلفات أخرى.

وفي الأخير نشير إلى أن هذا الكتاب "إثبات ما ليس من بد..." يقع في 171 صفحة وقد تضمن المقدمة والتعريف بالمؤلف وبالمخطوط، ويبدأ النص الأصلي من الصفحة 35 إلى غاية الصفحة 143، ثم يليها استدراك، وعرض مختص للكتاب باللغة الفرنسية ثم قائمة المصادر والدراسات إلى آخر الكتاب.

*** *عنوان الكتاب*: إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد.

المؤلف: أبو العباس احمد العزفي السبتي 557-633هـ/1162-1236م.

دار النشر: المجمع الثقافي-أبو ظبي-الإمارات العربية المتحدة.

تاريخ النشر: أوت 2002.

ينسب تأليف هذا الكتاب إلى أبي العباس أحمد بن محمد العزفي، المعروف كذلك بابن أبي عزفة المؤلف إلى إحدى كبريات بيوتات سبتة التي جمعت بين السياسة والعلم، فالأسرة كان لها شأن في تاريخ المغرب وتاريخ العلاقات المغربية الإيبيرية خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري (ق13م) وبداية القرن الثامن الهجري (ق14م) حينما تمكنوا من الاستقلال بمدينتهم "سبتة"، وحكموا بصفة وراثية طوال سبعين سنة.

يبدو أن مؤلف هذا الكتاب كان على حظ كبير من الثقافة، بدليل الوظائف التي شغلها، والمؤلفات التي خلفها، حيث تولى قضاء مدينة سبتة بعد وفاة أبيه، كما لزم التدريس في جامعها مدة عمره، وتتلمذ عليه عدد كبير من علماء الغرب الإسلامي. ولقد أشاد مترجموه سبعة ثقافته الفقهية وإطلاعه الواسع على التيارات المذهبية وتبحره في علم الحديث. ومن أهم مؤلفاته:

– مناهج الرسوخ إلى علم الناسخ والمنسوخ.

– دعامة اليقين في زعامة المتقين.

– الدر المنظم في مولد النبي المعظم.

بالإضافة إلى الكتاب الذي نحاول التقديم له. وإن الفضل في التعرف على هذا الكتاب والإطلاع على محتوياته يعود إلى الأستاذ الدكتور محمد الشريف الذي قام بتحقيقه ونشره، والدكتور محمد الشريف، هو أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد الملك السعدي–تطوان (المغرب الأقصى)، له إسهامات عديدة في نشر التراث الإسلامي، ولعل من أبرز هذه الإسهامات تحقيق ودراسة كتاب: المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد لأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي (ت 603 أو 604هـ)، وكتاب: نصوص جديدة ودراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، بالإضافة – إلى مؤلفات أخرى مثل كتاب: التصوف والسلطة بالمغرب الموحدي، مساهمة في دراسة ثنائية الحكم والدين في النسق المغربي الوسيط، وهو من منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية. هذا زيادة على عشرات المقالات في المجلات المختصة العربية والأوربية. وإن اهتمامات الدكتور محمد الشريف تنحصر في تحقيق التراث الإسلامي ونشره، والاهتمام بالمواضيع ذات الصبغة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

ولعل تحقيق ونشر كتاب "إثبات ما ليس منه لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد"، يدخل في صميم اهتماماته، فالكتاب يقدم خدمة جليلة للباحثين المهتمين بالتاريخ الاقتصادي للغرب الإسلامي لاسيما في الأمور المتعلقة بالمكاييل والموازين ويعتبر إضافة في غاية الأهمية في هذا الاختصاص الدقيق.

يحتوي الكتاب المخطوط على ثمان وثلاثين (38) فصلا، يمكننا تقسيمها إلى ثلاثة أقسام كبرى.

- القسم الأول: يناقش فيه العزفي تقنية المكاييل الشرعية والأوزان، حيث يستند المؤلف على المفهوم المالكي للموضوع، ويكثر من التعريفات المختلفة التي وردت لدى الفقهاء.

- القسم الثاني: يتناول فيه موضوع النقود الإسلامية، حيث يؤرخ لها ويقف عند أوزانها وما ورد فيها من أقوال العلماء. وهنا يتجاوز المؤلف الجانب النظري ليناقش مواضيع مرتبطة بالنقود المغربية الأندلسية.

- القسم الثالث: خصصه لإثبات أسماء المكاييل والموازين وتفسير ألفاظها وأجزائها ومقاديرها، حيث يقدم لنا قاموس بأهم المصطلحات المستعملة في هذا الميدان.

ونشير أنه قد وصلتنا في هذا الاختصاص عدة مؤلفات خاصة بالغرب الإسلامي نذكر منها:

- "مقالات وتنبيهات في المكاييل والأوزان" لأبي بكر خلف الموات قاضي فاس (ت 559هـ/1202م) نشره برونشفيك (Brunschvig) في مجلة " Etudes D'islamologue"، المجلد الأول.

- "ذكر مقدار النصاب الذي تجب فيه الزكاة من الذهب والفضة" لأبي محمد عبد الواحد بن محمد الباهلي الغافقي (مخطوط الخزانة العامة، الرباط، ضمن مجموع (قمة 1586د).

- الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة" لأبي الحسن علي بن يوسف الحكيم، نشره حسن مؤنس، في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السادس، 1958، العدد 1-2 وأعيد نشره ببيروت، دار الشروق، ط2، .1985

ولقد جاء الكتاب في جزئية معززا بقائمة ببيلوغرافية في غاية الثراء والأهمية، كما جاء جيد التبويب والفهرسة، حيث تضمن مجموعة من الفهارس مثل فهرس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والقوافي والأمثال والأقوال المأثورة والكتب والأعلام والأمم والطوائف الجماعات والبلدان والأمكنة والمصطلحات الصوفية ورواة التميمي والمترجم لهم مرتبين أبجديا، مما سيهل على الباحث استغلال محتوى الكتاب، كما يتم ذلك عن جهد جبار قام به الأستاذ المحقق.

عرض الأستاذ عبيد بوداود

*** *عنوان كتاب*: شمال إفريقيا القديم، حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية 305م-429م.
مؤلف الكتاب: محمد المبكّر.
دار النشر: مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء.
تاريخ النشر: 2001م.

هذا الكتاب في الأصل رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، نوقشت سنة 1982م بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، و أشرف عليها الدكتور فوزي مكاوي، ونال صاحبها درجة (حسن جدا)، وتكلفت كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بإدراج هذا العمل ضمن منشوراها .

يقع هذا الكتاب في 380 صفحة، يضم ملحقا من 96 صفحة. إن الدافع وراء اختيار هذا الكتاب يكمن في أنه تناول زاوية مهمة من تاريخ بلاد المغرب القديم؛ فكان السبّاق في معالجة هذا الموضوع.

حاول المؤلف في هذا الكتاب وضع حركة الدوارين تحت المجهر على ضوء النصوص القديمة والأبحاث الحديثة متسائلا: من هم الدوارون؟ ما طبيعة حركتهم ؟ ما علاقتهم بالدوناتية؟. و يمثل هذا الكتاب إضافة مهمة إلىتاريخ بلاد المغرب القديم، في وقت تكاد المكتبة العربية تخلو من كتاب يتناول هذا الموضوع باستثناء بعض الدراسات لمختصين في التاريخ القديم امثال الدكتور محمد البشير شنيتي من جامعة الجزائر. حاول محمد المبكّر الإبتعاد عن التركيب التاريخي والمنهجية الجاهزة المجردة من الرؤيا التاريخية، والتي غالبا ما تتحول إلى اجترار لمعلومات وقعت في التاريخ القديم بمفاهيم القرن الماضي، والتي لا تزال تتكرر بأقلام محسوبة على البحث الأكاديمي المغاربي.

إنه كتاب يستحق القراءة ليس من المختصين في التاريخ القديم فحسب، ولكن من طرف جميع المهتمين بتاريخ المنطقة، فعنوانه وإن بدا موجه إلى المنتخصصين، إلا أنه حقيقة كتاب على درجة عالية من المعلومات التي يجب أن يعرفها كل مؤرخ ومهتم بتاريخ بلاد المغرب. ولو إنتقلنا إلى كم المفاهيم والمعلومات الغزيرة الواردة فيه، لقلنا إن طبيعته جعلت المؤلف يدعم هوامشه التوثيقية إلى حدّ كبير، وهو واجد العذر لذلك خاصة وأن هذا الكتاب في الأصل رسالة أكاديمية تتطلب منهجية علمية في الكتابة والتوثيق.

يتناول صاحب الكتاب تاريخ نشوء الصراع المتشعب الذي دار في هذه الجهة من الإمبراطورية الرومانية بين الكنيستين الإفريقيتين: الدوناتية والكاثوليكية، ولم ينحصر هذا الصراع في المستوى اللاهوتي بل سرعان ما امتد إلى مستويات كثيرة وتدخلت فيه فئات أخرى، لدرجة أنه – في نهاية المطاف– اتخذ صبغة صراع إجتماعي عام كما يقول المؤلف: "مما أرغم الدولة على التدخل فيه بالقوة لصيانة أمن البلاد وتأمين مصلحة روما في تلك الأقاليم الغنية التي أصبحت تمثل الخزان الرئيسي لإيطاليا بعد أن أصبح قمح مصر يوجه إلى العاصمة الشرقية الجديدة القسطنطنية ".(ص 23)

تكمن إشكالية هذا البحث في إبراز إختلاف الباحثين عندما يتعلق الأمر بتحديد طبيعة حركة الدوارين وعلاقتهم ودورهم في تطور التاريخ الدوناتي مما يحتاج إلى تفسير.يقسم محمد المبكّر كتابه إلى مقدمة وسبعة فصول وخاتمة وملحق، هذا الأخير الذي ضم مجموعة من النصوص التي تعلقت بموضوع هذا البحث، وثمة ثلاث خرائط للأبرشيات الدوناتية والكاثوليكية في إفريقيا البروقنصلية و بيزاكينا في مناظرة قرطاج ونوميديا وموريطانيا السطيفية، وخريطة أخرى خاصة بمحاولة تحديد مجال حركة الدوارين في القرنين الرابع والخامس الميلادي. زيادة على قائمة مصادر ومراجع مستفيضة، وبعض مواقع الأنترنيت التي أثرت موضوع البحث.

إن الفصل الأول بعنوانه الظروف العامة في الارياف الإفريقية على عهد الدوارين، هو استعراض تاريخي للظروف الإقتصادية والاجتماعية في تلك الأرياف: كيف كان الإنتاج الفلاحي منظما ؟ ما هو نظام ملكية إستغلال الأراضي ؟ ما هي الطبقات المستفيدة والمتضررة من ذلك النظام الإقتصادي ؟ ومكانة الدوارين بين سكان تلك الارياف؟.

يدور الفصل الثاني تحت عنوان ماهية الدوارين حول تحديد معنى كلمة الدوارين، وفيه يرسم المؤلف صورة لمختلف الأطروحات التي تناولت هذا المصطلح، ويذكر: " أن الإتفاق لم يتم بعد بين الباحثين حول تسمية الدوارين نفسها. ويرجع هذا الإختلاف–حسب ما يبدو–إلى تباين الآراء حول نشاطات الدوارين وحول طبيعة حركتهم، إذ لا زالت هذه الحركة لغز ومحل تساؤلات. " (ص86).

.كرّس محمد المبكّر الفصل الثالث لطبيعة حركة الدوارين مبينا إنقسام الباحثين حول هذه القضية إلى تيارين:تيار يركز على الطبيعة الاجتماعية و الثورية لحركة الدوارين ، و تيار يرى أن تلك الحركة كانت دينية أساسا ، فخصص هذا الفصل للجوانب الاجتماعية و الفصل الرابع للجوانب الدينية.و خلص في الفصل الثالث ان حركة الدوارين كانت موجهة ضد الملاك و الاسياد و المرابين، لحماية المستضعفين من العبيد و المزارعين كما فند رأي بيكار " G.Ch.Picard" الذي يرى أن تزايد السكان في إفريقيا أثناء الإحتلال الروماني يعلل حركة الدوارين، ،بينما رأى صاحب الكتاب عكس ذلك في أن الأسباب الرئيسية تكمن على الأرجح في التطورات التي عرفتها إفريقيا منذ القرنين الثالث والرابع الميلادي إثر الإصلاحات الجبائية وتزايد ضغط الملاك على الفلاحين، مبينا أن تجليات تلك الأزمة ظهرت في هجرة الملاك لبعض الأراضي، في الوقت الذي زاد ضغط الأفارقة الأحرار، مما يفسر أن الدوارين كانوا من العناصر غير المرومنة وقليلة الترومن.

خلص مؤلف هذا الكتاب في فصله الرابع إلى أن الدوارين الذين دخلوا في القرن الرابع في اشتباكات مع الجيش وأنصار السلطة، لم يستشهدوا من أجل قضية المسيح ولا ولا من أجل قضية دوناتوس بقدر ما استشهدوا في سبيل مناهضة أوضاع اقتصادية واجتماعية وسياسية معينة، و يحذّر الباحث من الإنسياق تماما مع نظرية فراند "Frend " التي تركز على ارتياد الدوارين لأضرحة الشهداء، وترى أن مفتاح "الغزهم" يكمن في التعصّب الديني للدوناتية، ويضيف المؤلف قائلا إن:"التركيز على هذا الجانب أكثر من اللازم يمكن أن ينزع عن حركة الدوارين كل ما تضمنته من خصوصيات تتجلى أساسا في أعمال العنف الموجهة ضد جهات معينة. وبتعبير آخر، لو ركزنا على هذا الجانب من نشاط الدوارين لصعب تفسير الحركة ككل " (ص169).

تبنى محمد المبكّر في الفصل الخامس أسلوبا آخر يتمثل في تحديد العلاقات بين الدوارين والدوناتية معتمدا على نصوص الكتّاب اللاتين، والمؤرخين المحدثين بحذر شديد مستعرضا مختلف النصوص بأسلوب نقدي، موضحا من خلاله المحورين الأساسيين لتفحص العلاقات بين الدوارين والدوناتية، وهما موقف الكنيسة الرسمي الذي يمثله الأساقفة وخاصة في

الحواضر، وموقف الإكليروس الصغير والريفي في القرى، ثم يستنتج أن الموقفين لو يكونا متطابقين تماما.

يتناول الفصل السادس أحداث باغاي ومنعرج عام 347م الذي ترك صدى في كتابات الكاثوليك والدوناتيين على السواء، فأورد صاحب الكتاب فقرات مهمة من الكتاب الثالث من مؤلف أبطاتوس لهذا الحادث، وخلص المؤلف إلى تحديد الدور الذي لعبه الدوارون في هذه الأحداث، وبالتالي الكشف عن نوع العلاقات التي أصبحت تربطهم بالدوناتية وموقفهم من الكنيسة الدوناتية وقضيتها، كما طرح تصورا يتمثل في كيفية تبني الدوارين لقضية الدوناتية، وتدخلهم ي الصراع الديني ضد الكنيسة الرسمية، هذا التحالف الذي لم يقع قبل أحداث نوميديا ولكن بعد ذلك.

وخصّص المؤلف الفصل السابع والأخير من هذا الكتاب لتوضيح التحالف الذي كان بين الدوارين والكنيسة الدوناتية، والذين أصبحوا يعملون جنبا إلى جنب ضد الكاثوليك، كما أبرز الحذر الذي كان الإكليروس الدوناتي يعامل به الدوارين رغم التقارب الملحوظ الذي فرضته ظروف اضطهاد الدوناتية، وخلص محمد المبكّر إلى أن: "حركة الدوارين-رغم ما طبعها من سمات دينية لا يمكن إنكارها-ظلت حركة اجتماعية بالأساس، وأن السرّ فيها يكمن في الظروف الإقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عرفتها البلاد في تلك الفترة، وفي اعتقادي أيضا أن التحالف الذي تم بين الدوناتيين والدوارين، والذي تطور في اتجاه اندماج متزايد بين الحركتين لم يكن بسبب إديولوجية إجتماعية خاصة كانت تميز الدوناتية عن الكاثوليكية منذ البداية." (صص263-264)

تضمنت خاتمة الكتاب بعض النتائج والملاحظات، ومنها الترابط الوثيق بين ماهية وطبيعة وحركة الدوارين وعلاقتهم بالدوناية، واعتقد المؤلف أن التحالف الذي تم بين الدوناتيين والدوارين لم يكن بسبب إديولوجية إجتماعية خاصة كانت تميز الدوناتية عن الكاثوليك، فالفوارق العقائدية كانت شبه منعدمة بين الكنيستين. ولكن ظروف اضطهاد الدوناتية أدت بالدوناتيين-رغم عنهم على ما يبدو-إلى الاعتماد أكثر فأكثر على الفئات الدنيا من المجتمع، ومن بينها فئة الدوارين.

يلاحظ على الكتاب خلوه من الفهارس، ولكن ذلك لا يقلل من أهميته التي أشرنا إليها، وغالب الظن أن المؤلف يكون قد تعمد عدم إدراج الفهارس في هذا الكتاب عن طبعه، والتي أنجزها ضمن طيات مؤلفه هذا عندما أقدم على عرضه كرسالة للمناقشة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ سنة 1982م.

عرض الأستاذ محمد بن عبد المؤمن

*** عنوان الكتاب: كتاب الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية

المؤلف: أبو راس محمد بن الناصر المعسكري

المحقق: سليمة بن عمر

دار النشر: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ودار صنين للطباعة والنشر- المملكة المغربية.

تاريخ النشر: 2002م.

مقدمة: تكتسي المخطوطات أهمية كبرى في مجال البحث العلمي التاريخي باعتبارها مصادر لا غنى عنها لأي باحث في هذا المجال، ولهذا السبب ارتأيت عرض وتقديم كتاب الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية، وهو في الأصل أطروحة دكتوراه دولة أنجزتها باحثة مغربية من جامعة تطوان سنة 1992م، وتم نشرها سنة 1370هـ/2002م.

قسمت الباحثة سليمة بن عمر عملها إلى جزأين حاولت في الجزء الأول توضيح الأسباب التي دفعتها لاختيار هذا الموضوع، وأبرزها:

1- إيمانها العميق وقناعتها الراسخة في أن جوانب هامة من تراثنا المغاربي لا يزال في حاجة ماسة إلى البحث والدرس، ومن ذلك مؤلفات أبي راس بن الناصر المعسكري التي ربت على 136 مؤلفا.

2-رغبة الباحثة في دراسة علم ينتمي إلى العصر العثماني الذي تعود الباحثون على نعته بالفراغ الثقافي والعقم الفكري.

3-المساهمة في تحقيق جزء من التراث المغاربي المخطوط الذي عملت الدول الاستعمارية على نقله إلى مكتباتها بعدما استفادت منه لتحقق تطورها العلمي بداية من عصر النهضة الأوروبية، إضافة إلى إغناء المكتبة المغاربية ووصل الحاضر بالماضي.

طبيعة العمل: قسمت الباحثة رسالتها إلى جزأين هما:

1-التقديم: وسعت من خلاله إلى تقديم المؤلف للقارئ وذلك من خلال جرد تاريخي لحياته انطلاقا من مولده واسمه ونسبه ومرورا بكنيته ولقبه وعائلته ونشأته وشيوخه ورحلاته وتلامذته ومؤلفاته ووفاته إضافة إلى الحديث عن عصر المؤلف.

2-التحقيق: وشمل المقابلة بين النسخ أ ب ج والتخريجات أي تخريج وتوثيق ما في المتن من أحاديث وآيات وأعلام وأماكن وأشعار وأمثال.

الدراسة: وعمدت الباحثة فيها إلى التعريف بكتاب "الحلل السندسية في شأن وهران...أو الخبر المعرب عن الأمر المغرب..." من حيث موضوعه وحدوده الزمنية والمكانية وأسباب ومكان تأليفه وأسلوبه وشروحه ومنهج المصنف وقضايا الكتاب.

وقد مهدت الباحثة لرسالتها بمقدمة تحدثت فيها عن قيمة العمل ومنهجه والأدوات المعتمدة والصعوبات التي اعترضتها في إنجازها كما ختمت رسالتها بالنتائج التي توصلت إليها، وذيلتها بالفهارس العامة.

منهج التحقيق: اعتمدت الباحثة على ثلاثة نسخ ولتحقيق النص قسمت عملها إلى قسمين:

أ- المقابلة وكان هدفها من ذلك الحصول على نص كامل وموافق لما أخرجه صاحبه، ومن أجل ذلك قابلت بين النسخ الثلاث وبعد قراءتها بإمعان كانت تقارن بينها لتلحظ ما يوجد في كل واحدة منها من سقط أو تحريف أو تصحيف أو غلط أو اختلاف أو زيادة، وكانت تصحح الأخطاء الإملائية والنحوية دون إيرادها.

ب- التخريجات: وشملت هذه العملية ما ورد في المخطوط من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأشعار وأمثال وأخبار وأعلام وأماكن وبلدان.

التعريف بالأعلام: بشكل مختصر مع تبيان المجالات التي نبغوا فيها مع ذكر عصورهم وتاريخ ميلادهم ووفاتهم وميولاتهم، وقد ركزت على الأعلام المغمورين فقط.

التعريف بالأماكن غير المعروفة- تخريج الأشعار وضبطها بشكل تام اعتمادا على دواوين الشعر والمصادر المحققة- شرح غريب اللغة- تخريج الآيات القرآنية- تخريج الأحاديث النبوية.

منهج الدراسة: اختارت الباحثة المنهج الوصفي ولم يكن اعتمادها عليه محايدا أو عرضا مجردا بل هو منهج يقوم أيضا على التحليل والفهم والاستنباط كما تضيف إليه شيء من المناقشة والتعليق.

منهج دراسة قصيدة المصنف السينية: تعتبر الباحثة القصيدة السينية التي تخترق المتن بمثابة العمود الفقري له باعتبار أن كل ما ورد داخله من وقفات واستشهادات هو شرح لها وتذييل، ولتحليل هذه القصيدة اختارت الباحثة منهجا متكاملا يستجلي ملامحها ويحيط النص من كل أبعاده وجوانبه، وتقع المقدمة في اثنتين وعشرين صفحة.

الباب الأول: وتناولت فيه حياة المؤلف وترجمته وعصره بالاعتماد على المصادر المخطوطة، ومنها كتاب "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" لأبي راس بن الناصر المعسكري (اعتمدت على مخطوط ضمن مجموع في نسختين بالخزانة العامة بالرباط: ك 2332 وك 2263)، والحسام المشرفي للعربي المشرفي (مخطوط بالخزانة العامة رقم ك 2276)، والمطبوعة ومنها الأعلام للزركلي و"أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع"، و"تعريف الخلف برجال السلف"، و"تاريخ الجزائر الثقافي"، و"دليل مؤرخ المغرب الأقصى"، و"فهرس الفهارس"، و"المجلة التاريخية المغربية"، و"معجم المؤلفين"، و"الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" (الحلل السندسية – ص 28-29).

تطرقت الباحثة إلى حياة المؤلف ونسبه وكنيته ولقبه وعائلته ونشأته وشيوخه.(الحلل السندسية – صص 32-40)، ثم إلى رحلاته داخل الجزائر وخارجها؛(نفسه– ص 41-42).

وبخاصة إلى المغرب ولقائه بعلماء فاس وبالسلطان المغربي سليمان العلوي وزيارة تطوان أين ألف كتابا سماه "روضة السلوان المؤلفة بمرسى تطوان" (نفسه– صص43-46).

ثم تعرضت الباحثة إلى انتصابه للتدريس بمعسكر لمدة ست وثلاثين سنة متصلة، وتذكر أنه اجتمع له في بعض السنين سبعمائة وثمانون طالبا، ومن خلال محاوراته مع طلبته يذكر أبو راس الكثير من أسماء هؤلاء.(نفسه– صص 46-48)، ثم عرضت مؤلفاته وقد اعتمدت في ذلك على مؤلفي أبي راس الموسومين بـ"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" و"شمس المعارف تكاليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التآليف" والتي أتمها أبو راس قبل وفاته بثلاثة أسابيع فقط، لتحديد مؤلفات أبي راس التي بلغ عددها 136 مؤلفا، وتنقسم

حسب المواضيع إلى: 34 مخطوطا في التاريخ و33 في الشعر وشروحه، و12 في علوم القرآن، و 11 في الفقه، و10 في التوحيد والصوفيات، و8 في الحديث، و7 في المذاهب، و5 في النحو، و 3 في اللغة، و3 في علم الفلك، و2 في الأدب، و2 في الأصول، ومخطوط في الجغرافية، وآخر في المعاني، وآخر في البديع، وآخر في العروض.(نفسه- صص 48-59).

وفاته: تقول الباحثة إن هناك اختلاف حول تاريخ وفاته حيث قيل 15 شعبان سنة 1238هـ/17 أفريل 1823م وقيل في 13 جمادى سنة 1239هـ/1823م. نفسه- ص60

المبحث الثالث: وتناولت الباحثة فيه عصر المؤلف من خلال عرض الملامح العامة للعصر التركي؛ فتكلمت عن عناصر المجتمع الجزائري واللغة الرسمية والحياة السائدة في البلاد والقائمة على أساس الجهاد ضد القرصنة الأوروبية، كما تحدثت الباحثة عن المؤسسات الثقافية والتعليم في العهد التركي والعلوم السائدة، .نفسه- صص 61-93.

الباب الثاني: وخصصته الباحثة لدراسة كتاب الحلل السندسية، وقد اعتمدت على ثلاثة نسخ أولها نسخة الخزانة العامة الحاملة لرقم ك 2332 (مجموع)، وتم نسخها سنة 1298 هـ، وثانيها نسخة توجد بالخزانة العامة وتحمل رقم ك 2273 وتم نسخها سنة 1296هـ، وثالثها النسخة رقم ك 2263 وتم نسخها عام 1281هـ.النفسه- صص 95-109.

وخصصت المبحث الثاني لموضوع الكتاب فحددت حدوده الزمانية والمكانية وتطرقت إلى شروحه وأسلوبه ومصادره.نفسه- صص 111-118.

وتناولت في المبحث الثالث منهج المصنف من خلال قضايا الكتاب ومواده ومنها المادة التاريخية والجغرافية واللغوية والنقدية والأدبية والتراجم.نفسه- صص 119-181.

وختمت الباحثة دراستها بذكر أهم النتائج التي توصلت إليها ومنها:

1-أن العصر التركي لم يكن عصر جمود فكري كلي، وأثبتت ذلك من خلال إيراد أسماء كثير من مؤلفات هذا العصر.

2-التعريف بأبي راس بن الناصر المعسكري باعتباره أحد أعلام الجزائر في العهد التركي

3-المساهمة في الجهود التي يبذلها الباحثون لإحياء التراث المغاربي وتحقيقه ودراسته نفسه- صص183-191.

الجزء الثاني: تناولت الباحثة في الجزء الثاني من كتابها تحقيق نص كتاب أبي راس بن الناصر المعسكري الموسوم بـ"الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية، والذي سماه بـ"الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحالّ بالأندلس وثغور المغرب"، وخصصت هوامش ضافية حققت فيها محتوى المخطوط من أعلام بشرية وجغرافية إضافة إلى الفروق الموجودة بين النسخ المعتمدة في التحقيق، كما قامت بتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وشرحت الكلمات الصعبة فضلا على تحريك كل كلمات المخطوْط مما جعله واضح القراءة والفهم.نفسه- صص 195-518.

وفي آخر الكتاب ألحقت الباحثة بالنص المحقق فهارس عامة، وتتمثل في ما يلي:

مصادر التحقيق: وتمثلت فضلا عن القرآن الكريم وكتب الصحاح في المصادر المخطوطة وبلغ عددها 22 مخطوطا، والمصادر المطبوعة وبلغ عددها 105 مصدرا، إضافة إلى عدد من المراجع والمجلات والمعاجم.(نفسه- صص 519- 530).

وذيلت الباحثة كتابها بفهارس أخرى منها الفهارس الخاصة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال والأشعار والكتب الواردة في المتن والقبائل والأماكن والأعلام.نفسه- صص 531- 597.

الخاتمة: تعتبر الدراسة التي قامت بها الباحثة المغربية سليمة بن عمر مساهمة كبيرة في إحياء التراث الجزائري المتواجد بمكتبات وخزائن المملكة المغربية، كما أن تمكن الباحثة من أدوات اللغة العربية واستعمالها لعدد هائل من المصادر المخطوطة والمطبوعة ساهم بقسط كبير في إخراج نص مؤلف أبي راس في الشكل الذي كان يود هذه الأخير أن يكون عليه، وبالتالي فإن عمل الباحثة قد ألم بجميع جوانب التحقيق العلمي المنهجي الذي نتمنى أن يكون نبراسا للباحثين الشباب الذي يريدون الخوض في مجال تحقيق التراث المخطوط المتواجد في كثير من خزائن ومكتبات الجزائر.

عرض الدكتور عبد القادر بوباية

النشاطـــات العلمية لأعضـــاء المخبر

المشاركة في الملتقيات الدولية والوطنية:

*** د. عبد القادر بوباية

1-الملتقيات الدولية:

* الندوة العلمية الدولية حول لسان الدين ابن الخطيب المنعقدة في جامعة حلب- سوريا- أيام 3 و4 و5 ديسمبر 2003م بمحاضرة عنوانها: "مساهمة لسان الدين ابن الخطيب في التأريخ لمسلمي الأندلس: كتاب أعمال الأعلام نموذجا".

* إلقاء محاضرة في جامعة كمبلوتنس-قسم الدراسات العربية والإسلامية-(مدريد-إسبانيا) يوم 28 جوان 2004م حول "دور البربر في فتح الأندلس".

2- الملتقيات الوطنية:

* الصالون الوطني الأول للمخطوطات المنعقد بمعسكر يومي 20-21 أفريل 2004م بمداخلة عنوانها: "عرض وتقديم كتاب الحلل السندسية لأبي راس بن الناصر".

*الملتقى الوطني المنعقد في إطار مهرجان موسم الشيخ المختار بلعمش في مدينة تندوف يومي 2 و3 أكتوبر 2004م بمحاضرة عنوانها "أعلام منطقة تندون: أسرة بلعمش نموذجا".

* الندوة العلمية الأولى حول الزوايا ودورها في الحركة الوطنية وثورة التحرير الكبرى المنعقدة بمدينة النعامة يوم الأربعاء 13 أكتوبر 2004م بمحاضرة عنوانها: "الطريقة الرحمانية ودورها في ثورة 1871م.

*** د. عبد القادر خليفي

1-الملتقيات الدولية:

* الندوة العلمية الدولية حول المؤرخ أبي القاسم سعد الله المنعقدة في جامة الإخوة منتوري- قسنطينة- يومي12 و13-01-2004م بمحاضرة عنوانها: البعد الإسلامي في كتابات سعد الله".

2-الملتقيات الوطنية:

* الملتقى الوطني حول الشهيد حسين رويبح المنعقد بجامعة جيجل في ماي 2004م بمحاضرة عنوانها :"دور الأدب الشعبي في المقاومة".

* الملتقى الوطني المنعقد في إطار مهرجان موسم الشيخ المختار بلعمش في مدينة تندوف يومي 2 و3 أكتوبر 2004م بمحاضرة عنوانها "الشيخ بوعمامة في الجنوب الجزائري".

* الندوة العلمية الأولى حول الزوايا ودورها في الحركة الوطنية وثورة التحرير الكبرى المنعقدة بمدينة النعامة يوم الأربعاء 13 أكتوبر 2004م بمحاضرة عنوانها: "دور الطرق الصوفية في الحفاظ على الهوية الوطنية".

*** د. محمد بن معمر:

1 – الملتقيات الدولية:

* الملتقى المغاربي الأول حول "المخطوطات" المنعقد بجامعة ابن خلدون تيارت يومي 13–14/ 2003/12م، عنوان المحاضرة، "تجربتي في تحقيق مخطوط رحلة المقري إلى المغرب والمشرق".

2– الملتقيات الوطنية:

* اليوم الدراسي حول "تاريخ أرزيو وأحوازها" المنعقد ببلدية أرزيو يوم 18 ديسمبر 2003م.

* عنوان المداخلة: "محمد بن علي الجباري قاضيا وأدبيا".

* الصالون الوطني الأول حول "المخطوطات" المنعقد بولاية معسكر أيام 21–24 أفريل 2004 بمحاضرة عنوانها: "قراءة في مخطوط أعمال الأعمال لابن الخطيب "الجزء الأول".

* الملتقى الوطني الثاني حول "تاريخ وأعلام منطقة تيارت" المنعقد يومي 5–6 ماي 2004 .بمداخلة عنوانها: "ابن الربيب التاهرتي القاضي الأديب".

* الملتقى الوطني المنعقد في إطار مهرجان موسم الشيخ المختار بلعمش في مدينة تندوف يومي 2 و3 أكتوبر 2004م بمحاضرة عنوانها "الحياة الثقافية في الجنوب الغرب خلال القرن 19م".

* الندوة العلمية الأولى حول الزوايا ودورها في الحركة الوطنية وثورة التحرير الكبرى المنعقدة بمدينة النعامة يوم الأربعاء 13 أكتوبر 2004م بمحاضرة عنوانها: "دور الحركة السنوسية وعلاقتها بمقاومة الشريف محمد بن عبد الله".

*** أ. رابح لونيسي

1–الملتقيات الدولية:

* الندوة العلمية الدولية حول المؤرخ أبي القاسم سعد الله المنعقدة في جامة الإخوة منتوري– قسنطينة– يومي 12 و13 جانفي 2004م بمحاضرة عنوانها: "الخطاب التاريخي عند أبي القاسم سعد الله والعوامل المؤثرة فيه".

مناقشة أطروحات الدكتوراه ورسائل الماجستير:

*** د. عبد القادر بوباية:

1- أطروحات دكتوراه دولة:

* نجيب بن خيرة- الحياة العلمية في الدويلات الإسلامية بالمشرق (خراسان وبلاد ما وراء النهر) 205-432هـ/8-10 - جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة- قسنطينة.19-04-2004م.

*خالد بلعربي-التطور السياسي والحضاري للدولة العبد الوادية في عهد السلطان يغمراسن (633-681هـ/1235-1282م)- جامعة الجيلالي ليابس-قسم التاريخ-سيدي بلعباس-09-10-2004م، وقد قررت اللجنة تعليق منح الدكتوراه (نظام جديد) نظرا للأخطاء العلمية واللعوية والمنهجية الواردة في رسالة الطالب.

***-Attou Nouria- los sermones de Ibn Nubata segun el Manuscrito de almonacid de la sierra- universidad de complutense- Madrid-25/06/2004.**

رسائل الماجستير:

* شباب عبد الكريم- صورة المجتمع في المغرب الأوسط خلال القرنين 7-8هـ من خلال كتاب العبر لابن خلدون-26-02-2004م. قسم التاريخ بجامعة وهران.

* بلقاسم فيلالي- "التعليم والدعوة الموحدية"- قسم التاريخ-جامعة الإخوة منتوري-قسنطينة- 29 ماي 2004.

***-Benosman nacira-Moriscos y judios en el Oranesado siglos 16éme-17éme-seccion de espanol-opcion civilizacion-universidad de oran-avril 2004.**

***-Mous latifa-la ocupacion espanola de Oran a traves del manuscrito de Abu Ras Anasiri Al-M'asakri "Viajes extraordinarios y noticias agradables- seccion de espanol-opcion civilizacion-universidad de oran-01-07-2004.**

*** د. غازي جاسم الشمري

1-أطروحات دكتوراه دولة:

* محمد فرقاني- رسائل عمر بن عبد العزيز جمعا ودراسة وتحقيقا-جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة- 27-01-2004م.

* نجيب بن خيرة- الحياة العلمية في الدويلات الإسلامية بالمشرق (خراسان وبلاد ما رواء النهر) 205-432هـ/8 -10 - جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة.19-04-2004م.

* كمال بن مارس- الظهير الشامي في عصر الحروب الصليبية من الحملة الصليبية الأولى إلى الحملة الصليبية الثالثة، 491-588هـ 1096-1192م- 31-05-2004م. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة.

* بوشيخي الشيخ- الحركة الوطنية والثورة التحريرية الكبرى، 1954-1962جامعة وهران- قسم التاريخ وعلم الآثار- في 26-05- 2004م.

* ولد محمد فال حماه الله- المجتمع الأهلي الموريتاني- تاريخ السلطة والمؤسسات الأهلية 1591 -1899م-في 20-03-2004م. جامعة وهران- قسم التاريخ.

2-رسائل الماجستير:

* شباب عبد الكريم- صورة المجتمع في المغرب الأوسط خلال القرنين 7-8هـ من خلال كتاب العبر لابن خلدون-26-02-2004م. قسم التاريخ بجامعة وهران.

* كرزاز فوزية- دور المرأة في الغرب الإسلامي من القرن 5 إلى منتصف القرن السابع الهجري-20-06-2004م. قسم التاريخ بجامعة وهران.

* بن جبور محمد- صورة الجزائر والجزائريين من خلال الكتابات الفرنسية في القرنين 17-18 م-03-12-2003م-قسم التاريخ بجامعة وهران.

* عبد الجليل قريان-السياسية التعليمية للدولة الزيانية 633-962هـ-30-05-2004م. جامعة الاخوة منتوري- قسنطينة.

*** د. محمد بن معمر:

1-رسائل الماجستير:

* بن سدات نصر الدين-المدرسة النظامية في بغداد ومنهجها التعليمي-قسم الحضارة الإسلامية-جامعة وهران- ديسمبر 2003.

* حمدادو بن عمر-أبو راس الناصر المعسكري وكتاباته التاريخية- قسم الحضارة الإسلامية-جامعة وهران-سبتمبر 2003.

* بن داود نصر الدين- علماء أسرة المرازقة ودورهم الثقافي في تلمسان-قسم التاريخ وعلم الآثار-جامعة وهران- مارس 2004.

* شباب عبد الكريم- صورة المجتمع في المغرب الأوسط خلال القرنين 7-8هـ- قسم التاريخ وعلم الآثار-جامعة وهران -أفريل 2004.

* بلقاسم فيلالي- التعليم والدعوة الموحدية-قسم التاريخ-جامعة منتوري بقسنطينة- ماي 2004.

قائمة برسائل الماجستير

ودكتوراه الدولة

والدكتوراه التي نوقشت

بمعهد (قسم) التاريخ منذ

سنة 1985م.

قائمة برسائل الماجستير التي نوقشت بمعهد التاريخ
من سنة 1985 إلى سنة 2004 (أكتوبر)

1- النظام القديم:

الإسم واللقب	عنوان الرسالة	المشرف	تاريخ المناقشة
سيد أحمد بلبوري	الاحتلال الإسباني الأول لوهران وانعكاساته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.	منور الصم	1985م
إبراهيم مهديد	الحركة الوطنية الجزائرية في القطاع الوهراني خلال عقد الثلاثينيات: النهضة والصراع السياسي.	منور الصم	1986م
خديجة منصوري	الدوناتية وثورات القرن الرابع في شمال إفريقيا	محمد البشير شنيتي	1987م
محمد بن معمر	تاريخ القضاء الإسلامي وتطوره ببلاد المغرب على عهد المرابطين والموحدين.	إبراهيم فخار	20/03/1995م
عبد القادر بوباية	مخطوط "مفاخر البربر" دراسة وتحقيق.	إبراهيم فخار غازي الشمري	13-11-1996م
كريمة مجدوب	ظاهرة انعدام الأمن وإشكالية المقاومات الاجتماعيبة والشعبية بالقطاع الوهراني (1881-1914م).	منور صم	18-06-1997م
سليمان بهلولي	الدولة السليمانية والإمارات العلوية في المغرب الأوسط (173-342هـ/789-954م).	غازي جاسم الشمري	08-04-2000
عبيد بوداود	ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين 7-9هـ/13-15م.	غازي جاسم الشمري	29-06-2000
عدة بن داهة	الثورة الجزائرية بمعسكر وضواحيها 1954-1958م.	دحو فغرور	10-10-2001
حنيفي هلايلي	الموريسكيون الأندلسيون في المغرب الأوسط خلال القرنين 16-17م.	عبد الحميد حاجيات	18-11-2000
عمر بلبشير	مرجعية الإحياء وإشكالية الحكم في تاريخ المغرب الإسلامي من بداية ق 6هـ إلى نهاية ق 8هـ.	غازي جاسم الشمري	30-04-2002
جازية هرباش	ثورة بني غانية من سنة 580 إلى سنة 633هـ.	عبد المجيد بن نعمية	05-06-2002

لحسن جاكر	نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر 1931- 1956م.	دحو فغرور	08-06-2002
بشير بلمهدي علي	المساجد الرسمية وموقف صحافة جمعية العلماء المسلمين منها 1931-1956م.	عبد المجيد بن نعمية	08-06-2002
مصطفى أوعامري	الحركة الوطنية الجزائرية في القطاع الوهراني خلال الحرب العالمية الثانية (1939-1945).	دحو فغرور	20-06-2002
جيلالي بلوفة عبد القادر	نشاط حزب الشعب الجزائري/حركة إنتصار الحريات الديمقراطية في عمالة وهران (1939-1951).	دحو فغرور	22-06-2002
محمد بوشنافي	الجيش الانكشاري خلال العهد العثماني في الجزائر 1700 -1830م.	بوعلام بلقاسمي	11-06-2002
نورالدين زرهوني	الطب والخدمات الطبية في الأندلس خلال القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).	عبد المجيد بن نعمية	02-10-2002
كريم ولد النبية	البلدية المختلطة والحركة الوطنية الجزائرية: نموذج بلدية عين تموشنت المختلطة (1937-1947).	دحو فغرور	08-10-2002
بن عتو بلبروات	الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري (1779-1799م).	بوعلام بلقاسمي	05-11-2002
عبدالقادر جلالي	الحدود في المغرب العربي 1830-1912: الأبعاد التاريخية والجيوستراتيجية.	بوعلام بلقاسمي	05-11-2002
علي بن حويدقة	نشاط الحزب الشيوعي الجزائري بمنطقة سيدي بلعباس 1936-1954.	دحو فغرور	16-01-2003
رحمونة بليل	العلاقات التجارية في إيالة الجزائر مع بعض موانئ البحر المتوسط (مرسيليا وليفورن) من 1700 إلى 1827م.	دحو فغرور	29-05-2003
عابد سلطانة	الرسائل العربية بأرشيف وزارة الحربية الفرنسية: دراسة لعينة من رسائل المخزن والكراغلة وزعماء القبائل.	دحو فغرور	01-06-2003
مختار بونقاب	تاريخ الطريقة الدرقاوية في الجزائر.	دحو فغرور	01-07-2003
خديجة بختاوي	إصلاحات 1919م وآثارها السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عمالة وهران (1919-1925م).	عبد المجيد بن نعمية	03-07-2003
خيرة بوسعادة	التركيبة الاقتصادية والسياسية للجزائريين ما بين 1936-1939م.	عبد المجيد بن نعمية	03-07-2003

محمد بن جبور	صورة الجزائر والجزائريين من خلال الكتابات الفرنسية خلال القرنين 17و18م.	غازي الشمري	03-12-2003
الجيلالي شقرون	العلاقات الدبلوماسية بين إيالة الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية (1776-1830م).	عبد المجيد بن نعمية	22-01-2004
حياة قنون	دور ومكانة الإسبان في ترسيخ الاستعمار الفرنسي في القطر الجزائري (1831-1900م).	دحو فغرور	10-04-2004

2- نظام جديد:

الإسم واللقب	عنوان المذكرة	المشرف	تاريخ المناقشة
لخضر فـــاضل	مقاومة سكان شمال إفريقيا للاحتلال البيزنطي	خديجة منصوري	06-03-2002
عبدالقادر صحراوي	التحصينات العسكرية الرومانية بنوميديا وموريطانيا القيصرية خلال العهد الإمبراطوري الأول.	خديجة منصوري	09-23-2002
بنت النبي مقدم	سياسة الرومان تجاه قبائل بلاد المغرب القديم خلال العهد الإمبراطوري الأول.	خديجة منصوري	06-28-2003
خالدية مضوي	ملوك بلاد المغرب القديم قبل الاحتلال الروماني.	خديجة منصوري	28-6-2003
عبد الكريم شباب	صورة المجتمع في المغرب الأوسط خلال القرنين 7 و8 هـ/13-14م	غازي الشمري	02-26-2004
نصر الدين بن داود	علماء أسرة المرازقة ودورهم الثقافي بتلمسان من ق 7 إلى 13هـ/10-16م.	عبدالحميد حاجيات	03-15-2004
فوزية كرراز	دور المرأة في بلاد المغرب من ق 5هـ إلى منتصف القرن 7هـ (11-13م).	غازي جاسم الشمري	06-21-2004
امحمد بوشريط	آل الرازي وآثارهم التاريخية والجغرافية في الأندلس (250-378هـ/864-989م) .	محمد بن معمر	10-10-2004

قائمة برسائل دكتوراه الدولة التي نوقشت فيما بين 1991 وجوان 2004م

الإسم واللقب	عنوان الأطروحة	المشرف	تاريخ المناقشة
نور الهدى بوخالفة	أنساب القبائل العربية المهاجرة بمواليها إلى بلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة.	إبراهيم فخار	14-06-1995
خديجة منصوري	التطورات الاقتصادية لموريطانيا القيصرية أثناء الاحتلال الروماني.	محمد البشير شنيتي	04-06-1996
إبراهيم مهديد	الجزائريون في القطاع الوهراني 1900-1940م.	منور صم	13-04-2000
محمد بن معمر	العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين المغربين الأوسط والأقصى من نهاية القرن الثاني إلى أواسط السادس الهجريين.	غازي جاسم الشمري	29-04-2002
عبد القادر بوباية	البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري (11م).	غازي الشمري	09-10-2002
محمد دادة	السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر (1852-1870م).	دحو فغرور	03-05-2003
الشيخ بوشيخي	الحركة الوطنية الجزائرية وثورة فاتح نوفمبر	غازي الشمري	26/05/2004

قائمة بأسماء الطلبة المسجلين لتحضير رسائل دكتوراه الدولة بقسم التاريخ حتى جوان 2004م

الإسم واللقب	عنوان الأطروحة	المشرف	تاريخ التسجيل
طرشون نادية	الهجرات الجزائرية إلى البلاد العربية: الدور الاجتماعي والاقتصادي للجاليات الجزائرية.	بوعلام بلقاسمي	1996
العربي غالي	الثورة الجزائرية والاستراتيجيات الفرنسية (1958-1962م).	بوعلام بلقاسمي	1996
بوعزة بوضرساية	المسألة البربرية في السياسة الاستعمارية الفرنسية (1830-1930م).	بوعلام بلقاسمي	1996
أم الخير العقون	الليبيون وتأسيسهم للدولة في مصر الفرعونية.	غازي الشمري	1991
عبد القادر حلوش	المدرسة الفرنسية وتكوين النخبة في الجزائر (الجمهورية الثالثة).	منور صم	1991
سيد أحمد بلبوري	وهران أثناء الاحتلال الإسباني الأول وانعكاساته السياسية والاقتصادية.	منور صم	1986
إبراهيم بن مهية	الاضطرابات السياسية والاجتماعية في الدولة الأموية: تحليل المتون.	غازي جاسم الشمري	
كريمة مجدوب	ظاهرة انعدام الأمن والاستقرار والعنف وإشكالية المقاومة الشعبية والاجتماعية في مناطق الغرب الوهراني من 1881 إلى 1920م.	بوعلام بلقاسمي	1998
شريفة زرهوني	التأثيرات السياسية والحضارية للأندلسيين على المغرب خلال القرن السابع الهجري/13م.	غازي جاسم الشمري	1994
محمد موفق	السياسة الاستعمارية للجمهورية الفرنسية من 1870 إلى 1914م.	منور صم	1989
مليكة قورصو	La presse catholique métropolitaine face a la guerre de libération	منور صم	1990
فاطمة بلهواري	النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.	ع.الحميد حاجيات غازي الشمري.	1991
جمال يحياوي	جيش التحرير الوطني (1954-1962م).	بوعلام بلقاسمي	1999

قائمة بأسماء الطلبة المسجلين لتحضير

شهادة الدكتوراه (نظام جديد) حتى جوان 2004م

الإسم واللقب	عنوان الرسالة	المشرف	أول تسجيل
عبيد بوداود	إنتشار ظاهرة الأوقاف في بلاد المغرب الإسلامي ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (13-15م) ودورها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.	غازي جاسم الشمري عبد القادر بوباية	2001
عبد الحكيم مرتاض	الطرق الصوفية بالجزائر في العهد العثماني (1518-1830م): تأثيراتها الثقافية والسياسية.	عبدالحميد. حاجيات	2000
رضا بن علال	الألعاب ببلاد المغرب القديم	خ. منصوري	2002
أحمد رنيمة	الإسلام والحركة الإنسانية: صورة الإسلام في أوروبا خلال القرنين 16 و17م.	دحو فغرور	2001
لامية بوقريوة	العلاقات الجزائرية التونسية (1954-1965م).	بوعلام بلقاسمي	2002
مسعود شباحي	الحركة الطلابية الجزائرية والمسألة الوطنية (1945-1962م).	بوعلام بلقاسمي	2002
أبو بكر حفا الله	التمويل والتموين في الثورة عبر الحدود الشرقية (1954-1962م).	بوعلام بلقاسمي	2002
بن عتو بلبروات	المدينة والريف في الجزائر العثمانية	بوعلام بلقاسمي	2003
لحسن جاكر	نشاط الحركة الوطنية الجزائرية بمدينة معسكر 1930-1954م	دحو فغرور	2003
عدة بن داهة	ظاهرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر.	دحو فغرور	2003
جيلالي بلوفة عبدالقادر	نشاط المنظمة الخاصة بالغرب الجزائري إلى غاية 1954م.	دحو فغرور	2003
لخضر فاضل	دراسة مونوغرافية لمدينة تبسة.	خ. منصوري	2003
عبدالقادر صحراوي	الحياة الاجتماعية ببلاد المغرب القديم خلال عهد الاحتلال الروماني.	خ. منصوري	2003
بشير بن مهدي علي	الخطاب الديني في الجزائر والهوية الوطنية (1925-1956م)	عبدالمجيد بن نعمية	2003

عمر بلبشير	جوانب من الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية في المغرب الأوسط من خلال كتاب المعيار للونشريسي بين ق 6 و7هـ.	غازي جاسم الشمري محمد بن معمر	2003
محمد بوشنافي	القضاء والقضاة في الجزائر في العهد العثماني (16-19م).	بوعلام بلقاسمي	2003
عبد القادر جلالي	التنظيم السياسي والعسكري في الولاية التاريخية الخامسة (1954-1962م).	بوعلام بلقاسمي	2003
نور الدين زرهوني	النقل البحري من خلال كتب النوازل والرحالة المغاربة من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين.	مختار حساني	2003
زاجية هرباش	الوضع الاقتصادي في توات في القرنين 11 و12 الهجريين من خلال مخطوط الغنية.	عبد المجيد بن نعمية محمد بن معمر	2003
حياة قنون	اللاجئون السياسيون الإسبان في منطقة الغرب الجزائري 1936-1962.	دحو فغرور	2004
رحمونة بليل	القناصل والقنصليات الأوروبية في الجزائر العثمانية من 1564 إلى 1830.	دحو فغرور	2004
مصطفى أوعامري	المقاومة السياسية الوطنية بعمالة وهران ما بين 1942 و1951م: تجربة التحالفات وإرهاصات الثورة الجزائرية.	دحو فغرور	2004
عابد سلطانة	التمايز الاجتماعي بإقليم بايلك الغرب وتأثيره على حركة المقاومة في عهد الأمير عبد القادر.	دحو فغرور	2004
خالدية مضوي	التواصل الحضاري بمدينة قسنطينة في العصور القديمة.	خديجة منصوري	2004
بنت النبي مقدم	االأسرة ببلاد المغرب القديم خلال الاحتلال الروماني.	خديجة منصوري	2004
خديجة بختاوي	التحولات الاقتصادية والاجتماعية في الغرب الجزائري 1870-1939م.	عبد المجيد بن نعمية	2004
خيرة بوسعادة	النخب الجزائرية في عمالة وهران ما بين 1919 و1954م.	عبد المجيد بن نعمية	2004

قائمة بأسماء الطلبة المسجلين لتحضير رسالة ماجستير (نظام قديم) في قسم التاريخ حتى جوان 2004م

الإسم واللقب	عنوان الرسالة	المشرف	تاريخ التسجيل
قدور بن عباد مامة	الفسيفساء في موريطانيا القيصرية خلال العهد الروماني.	خديجة منصوري	1996
عبد العزيز حطري	المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي على عهد الأمير عبد القادر وتطورات موقف المخزن.	منور صـــم	1996
م. بن عبد المؤمن	بورتوس ماغنوس: دراسة مونوغرافية.	بلقاسم رحماني	1996
بشير حمايدي	قضية الصحراء الغربية والنزاع العربي العربي.	دحو فغرور	1997
مختار ناير	الديانات الوثنية في بلاد المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني (العهد الإمبراطوري الأعلى.)	ع. بوبابة ع. بوعيزم	1997
ف/الزهراء سيدهم	العلاقات الجزائرية الفرنسية في عهد نابليون بونابارت (1799-1815م).	بوعلام بلقاسمي	1999
صورية حصام	العلاقات الجزائرية التونسية خلال القرن 18م..	ع. بن نعمية	1999
خديجة أوهيبة	منظمة المؤتمر الإسلامي وقضايا الأمن في البحر الأبيض المتوسط.	عدة جلول د. فغرور	1999
فتيحة صافر	الكتابات الصحفية الجزائرية في الصحافة الفرنسية.	بوعلام بلقاسمي	1998
سعد طاعة	المشروع الزراعي في الحركة الوطنية والثورة الجزائرية.	دحو فغرور	1997

قائمة بأسماء الطلبة المسجلين لتحضير مذكرة ماجستير

(نظام جديد) في قسم التاريخ حتى جوان 2004م

الإسم واللقب	عنوان مذكرة الماجستير	المشرف	أول تسجيل
سالمي سعاد بهية	النظام الإداري في إفريقيا في العهد البيزنطي.	خ.منصوري	1998
ستي صندوق	دراسة نمطية لمصابيح متحف وهـــــران.	خ.منصوري	1998
قادة سبع	المذهب المالكي بالمغرب الأسط حتى منتصف القرن الخامس الهجري.	غازي جاسم الشمري	2001
قاسم صادق	الحركة الفكرية في الأندلس خلال القرن الرابع الهجري.	غازي جاسم الشمري	2001
تالية سعدو	الجيش في الأندلس على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر.	غازي جاسم الشمري	2001
نوال بلمداني	المدينة بالمغرب الأوسط من خلال المصادر الأدبية.	غازي جاسم الشمري	2001
محمد بوشقيف	تطور العلوم النقلية بالمغرب الأوسط في العهد الزياني خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين.	ع/الحميد حاجيات	2001
الزهرة صوافي	حسين لحول 1917-1995م.	ع. بن نعمية	2001
دلندة خدة	الشيخ المهدي البوعبدلي	ع. بن نعمية	2001
حباش فاطمة	سي الأعلى: القائد العسكري لانتفاضة اولاد سيدي الشيخ الكبرى.	ع. بن نعمية	2001
إمخلاف آمال	عمر راســـم (1884-1958م).	ع. بن نعمية	2001
محمد بكار	محمد الصالح بن جلول	ع. بن نعمية	2001
حمري ليلى	عبد الرحمن فارس	ب. بلقاسمي	2001
جيلالي حورية	زدور ابراهيم بلقاسم	ب. بلقاسمي	2001
مزاري حورية	محمد خيضر	ب. بلقاسمي	2001
برنو توفيق	محمد بن عيسى الأمير	ب.بلقاسمي	2001

Achevé d'imprimer sur les presses de

l'OFFICE DES PUBLICATIONS UNIVERSITAIRES

Imprimerie Régionale d'Oran

(38)- Abī Manṣūr b. 'Alī b. 'Abd Allāh al-Zawāwī , murió en 770 H , Nayl , pp : 345-347 ; la bugya , ed . Ḥāŷiyāt , V.I , pp : 132 .

(39)- Sobre le separación de Yaḥyà y Abī Ḥammū , al-'Ibar , V.VII , pp : 274-277; Abū Hammū Mūsà , Ḥāŷiyāt , pp : 122-128, la Bugya , V.II , pp : 238-239.

(40)- La Bugya , V.II , pp . 238-239.

(41)- sobre El mal entendido entre al-Ganī bi-lāh ibn al-Aḥmar y 'Abd al- 'Azīz al-Marīnī (el problema de Lisān al-Dīn) , al-'Ibar , V.VII, pp : 696- 697, 701; el problema de la nueva designación del sultán , al- 'Ibar , V.VII , pp : 697-698 ; La posición de Yaḥyà , at-ta'rīf , pp : 285-286

(42)- Sobre el fin de la resistencia , at-ta'rīf , pp : 218-223 , 227; al-'Ibar , V.VII, pp : 704-706 ; la muerte de Lisān al-Dīn , at-ta'rīf , pp : 227; la Bugya , V. II , pp : 300 ; al-'Ibar , V.VII , pp : 707-709 ; la vuelta de Abī Ḥammū Mūsà II a Tremecén después la muerte 'Abd al-'Azīz al-Marīnī, Ḥāŷiyāt , Abū Hammū Mūsà al-Ziyānī , pp : 130-133.

(43)- At-ta'rīf , pp : 224-227.

(44)- Abū Tāšfīn , nació en 752 H , al-'Ibar , V.VII , pp : 280, 282 , 292 ; la Bugya , V. II , pp : 17, 239, 279-286, 131-314.

(45)- La Bugya , V.II , pp : 313-314.

(46)- Sobre el conflicto entre Suwayd y Banū 'Āmir y sobre todo en los años 777 H , 778 H , al-'Ibar , V.VII , pp : 284-286.

(47)- Sobre esta trasladación y sus causas , al-'Ibar , V.VII , pp : 291-292.

(48)- La relación entre Abī Ḥammū II y sus hijos , Abī Tāšfīn , Abī Zayyān , 'Umayr y al-Muntaṣir , al 'Ibar , V.VII , pp : 291-292.

(49)- Sobre estos eventos , al-'Ibar , V.VII , pp : 292.

(50)- sobre la poesía de Yaḥyà , Nafḥ , V.XI , pp : 212-215,218-219,340-341; la Bugya , V.II , pp : 124,215-222 , 230-234, 297-299, 320-325 .

(28)- Abū 'Abd Allāh Muḥammad b. Aḥmad al-Šarīf al-Ḥasanī, nacío en Tremecen en 710h, murió en 771h.al-Azzarkalī, al-A'lām, V.VI, pp, 224, Carl Brockelman, Geschichte de Arabichen litteratur, New York,V.II, pp, 318; La Bugyat, ed. Ḥāŷiyāt, V.I, pp, 120; at-ta'rīf, pp, 62-64; al-Zarkašī, Ta'rīj al-dawlatayn al-muwahhidiya wa-l-hafsiyya, ed. Túnez, 1289h/1872d.c, pp, 91; Ŷallūl Badawī, al-Šarīf Abū 'Abd Allāh al-Tilimsānī, al-Aṣāla, algerie, Octobre 1971, n:04.pp, 48-55.

(29)- al 'Ibar, V.VII, pp, 636-642; Nafh, V.IX, pp, 99-103; at-ta'rīf, pp, 53-54; La Bugya, ed. Ḥāŷiyāt, V. II, pp: 53-54.

(30)- At-ta'rīf, pp: 95-96.

(31)- Abī 'Abd Allāh al-Ḥifṣī, el Emir de Bugía antes la expedición de Abī 'Inān hacia Ifrīqiya y prisionero después, durante el periodo de Abī Sālim tuvo su libertad para combatir la extensión de Abī al-'Abbās Tenia buenas relaciónes con 'Abd al-Raḥmān y su hermano, al-'Ibar, V.VI, pp: 851-852, V.VII, PP: 647, at-ta'rīf, pp: 67,95-96.

(32)- la Bugya, V.II, pp: 123-125, 131.

(33)- al-'Ibar, V.VI, pp: 853-854 ; V. VII, pp: 264 ; at-ta'rīf, pp: 97 ; (sobre el oposito Abī Zayyān) La Bugya, V.II, pp: 132-133.

(34)- Sobre la extensión de Bugía , 'Abd al-Ḥamīd Ḥāŷiyāt , Abū Ḥammū Mūsà al- Zayyānī, Hayātu-hu wa Ātāru-hu, , Algerie , 1974 , pp: 108-113 ;al 'Ibar , V.VI, pp : 854-855 ; la Bugya, V.II, pp: 148-151.

(35)- Cuando Abī 'Abd Allāh sintió el peligroso de su enemigo Abī al-'Abbās decidió de devolver Tādelas y mejorar sus relaciónes con Abū Ḥammū, al-'Ibar, V.VI, pp: 858-860 ; at-ta'rīf, pp: 98-99 ; Ḥāŷiyāt,'Abd al-Ḥamīd,'abd al-ahmān b. Jaldūn Fī Biŷāya , al-Aṣāla , N: 19 , pp, 191-203.

(36)- Al-'Ibar , V.VI, pp : 860-862 ; V:VII , pp : 269-271 ; at-ta'rīf , pp : 100-102 ; Ḥāŷiyāt , Abū Hammū Mūsà , pp : 114-121 ; la Bugya , V.II , pp : 181-198.

(37)- La Bugya , V.II, pp : 201, al-'Ibar , V.VII, pp : 272-273.

al-Musnad al-Sahīh al-Hasan Fī Ma'ātir wa Mahāsin Mawlānā Abī al-Hasan de Ibn Marzūq, Madrid, 1973, V.III, pp, 374 ; la Bugyat, ed.Ḥāŷiyāt, pp,15,16.

(21)-At-ta'rīf, pp, 20,38,39,40,41 ; Nafh, V.VII, pp, 163-164,384-391; Ŷadwa, pp, 279,280; 'Abd Ar-raḥmān Badawī, Mualafāt b. Jaldūn, pp, 256 ; 'A.A b. Jaldūn, al-'Ibar wa dīwān al-Mubtada' wa al-Jabar, Bayrūt, 1957, V.VII, pp, 515,517; al-Kattānī, Fahras al-fahāris, Fez, 1346h-1347h, V.I, pp, 258-260 ; Ḥāŷiyāt, la Bugya, pp, 15.

(22)- al-Maqqarī, Nafh, V.VII, pp,167; Bugyat ar-ruwādd, ed. Ḥaŷiyāt, V.I, pp,11

(23)- Ibn Daqīq al-Sa'īd Taqiy al-Dīn Abī al-Fatḥ Muḥammad b.'Alī b. Wahb b. Mutī' al- Qušayrī. Ibn Farḥūn, al-Dībāŷ al Mudahab Fī Ma'rifat A'yān 'Ulamā' al-Madhab, Cairo, 1951, pp, 324-325.

(24)- Sobre Abī al-'Abbās al-Bannā',Aḥmad b. Muḥammad b. 'Utmān al-Azdī Marrākušī. Nayl, pp, 65,68; Ŷadwa, pp, 74,78; Durra, V.I, pp, 5,6-n: 17; al- Zirkilī Jayr al-Dīn, A'lām, Cairo, 1954-1959, ed.n: 3, 10 vols, V.I, pp, 213-214.

(25)- al-Ābilī fue uno de los profesores que habla sobre ellos Yaḥyà b. Jadūn, en su libro, la Bugya, ed.Ḥaŷiyāt, V.I, pp., 85.

(26)- at-Ta'rīf, pp, 15 ; Ibn Jaldūn, Hayātu-hu wa Turātu-hu al-Fikrī,pp, 19,20.

(27)- La mayoría de los libros no hablan de Yaḥyà en este periodo (750h-757h) por eso no tenemos bastante informaciones comparativamente con su hermano quien sabemos que estaba en el corte marīnī como escritor. La sola prueba que tenemos es la llegada de un grupo de los sabios de al-Andalus a Fez en el tiempo del sultán Abū 'Īnān, uno de ellos fue Abū al-Barakāt al-Balfayqī Quien era uno de los profesores de Yaḥyà según la Bugya. Sobre este sabio, Bugyat ar-ruwwād, ed.Ḥāŷitāt, V.II,pp, 167; at-ta'rīf, pp, 61; Ibn al-Jaṭīb, al-Ihāta, Cairo, 1319h, V.II, pp, 101-121;Nayl, pp, 254-255; Nafh, V.VII, pp, 391-408; al-Dībāŷ, pp, 291-295; Fahras al Fahāris, V.I, pp, 106-107.

- At-ta'rīf, pp, 18, 19.
- Ibn al- Qāḍī , Durrat al- hiŷāl Fī Garrat Asmā' al – Riŷāl, ed. Allouche, Rabat, 1934, V. I, pp , 205-206.
-Al-Maqqarī , Nafh , V. VII, pp, 125 – 127.
-'Abd Ar-raḥmān Badawī , Mualafāt Ibn Jaldūn, pp, 254 – 255.
(14)- Abū 'Abd Allāh Muḥammad b. 'Abd As-salām al-Munastīrī al-Hawwārī al-Tūnusī , murió en 749h /1349d.c , como su homólogo al-Qaysī era un profesor de al-Hadīṯ.
-At-ta'rīf, pp, 19.
-Nafh, V.VIII, pp 278
(15)- Sobre la manera de la enseñanza de los antepasados que se basa sobre la cantidad y la memorización:
-'A.A.b. Jaldūn, al-muqaddima, ed. 'Alī 'Abd al- Wāḥid Wāfī , Cairo, 1965-1968, V.IV, pp, 1353-1358, 1359-1363,1365.
(16)- Según la Bugya, Yaḥyà habló solamente de cuatro profesores suyos y son Abū 'Alī al-Zawāwī , Abū 'Abd Allāh al-Šarīf, al-Ābilī y Abū al-Barakāt al-Balfīqī:
-'Abd al- Ḥamīd Ḥāŷiyāt, ed.de la Bugya de Yaḥyà , Argel, 1980d.c/1400h, V.I, pp. , 120, V. II, pp167.
(17)- Bugyat Ar-ruwwād, ed.Ḥāŷiyāt, comentarios y definiciones, pp, 13.
(18)- Ibn al-Qādī, Ŷadwat al-Iqtibās Fīman Halla mina al-A'lām Madīnat Fez, ed.Lit. , Fez, 1309h, pp, 135,189.
- Ibn al-Qādī, Durra , V.I , pp , 219, n: 579.
- Majlūf , Šaŷarāt An-nūr , Cairo , 1349h/1930d.c, V.I ,pp ,221.
- At-ta'rīf , pp , 45,46 ; Nafh ,V.V, pp,215-216,351,486,510.V.VI,pp,33.
-al-Tunbuktī, Nayl al-ibtihāŷ bi-tatrīz al-dībāŷ, ed. Cairo, 1329, pp, 224.
(19)- Ibn al-Qādī , Durra , pp,21,n: 56; Nayl , pp , 68; at-Ta'rīf ,pp,48,49.
(20)- Ŷadwa, pp, 111,246-247 ; Nayl ,pp, 145,147 ; at-Ta'rīf, pp, 22-23,41,42,43,44 ; Nafh , V.VIII, pp ,214.219 ;Maria Jesús,

(1)-'Abd Ar-raḥmān b. Jaldūn, at-ta'rīf, ed. Ibn Tāwīt, Cairo, 1951, pp 8, 9, 11.

(2)-'Abd Ar-raḥmān b. Jaldūn, at- ta'rif, ed. Ibn Tāwīt, Cairo, 1951, pp 11.

(3)-Abū Bakr Muḥammad tenia un libro que se llama " Adab al kuttāb", sobre la formación de los escritores del estado. E- Lévi Provencal , le traité d'adab al kātib d'Abū Bakr b. Jaldūn , dans Arabica , Leiden, 1955 . V. II, pp. 280 – 288.

(4)-'Abd Ar-raḥmān b. Jaldūn, at-ta'rif, pp 12.

(5)-R – Brunschvig, la bérberie oriental sous les Hafsides, Paris, 1947, V. I, pp 80.

(6)'Abd Ar-raḥmān b. Jaldūn, at-ta'rīf, pp 12.

(7)-'Abd Ar-raḥmān b. Jaldūn, at-ta'rīf, pp 13, 14.

(8)-'Abd Ar-raḥmān b. Jaldūn, at-ta'rīf, pp 14—17.

(9)-R – Brunschvig, la berberie oriental sous les Hafsides, pp 408.

(10)-Este libro de 'Abd Ar-raḥmān (At-ta'rīf), forma parte del volumen final (n:6) de al'Ibar .

(11)-Los tres hijos de Muḥammad b. Jaldūn son:'Abd Ar-raḥmān, Yaḥyà (El pequeño), y Muḥammad (El mayor), este ultimo puede ser que muriera poco tiempo después de la muerte de su padre. 'Abd Ar-raḥmān b. Jaldūn, At-ta'rīf, pp, 19,32 y 56.

(12)-Abū 'Abd Allāh Muḥammad b. Sa'd b. Burrāl al- Qurašī , su origen es de al- Andalus; tenía una reputación en muchas ciencias y sobre todo en las lecturas coránicas.

-At-ta'rīf, pp 15.

-Al-Maqqarī , Nafḥ , V. VIII, pp, 218.

-'Inān, Muḥammad 'Abd Allāh, Ibn Jaldūn: Hayātu-hu wa Turātu-hu al-Fikrī , Cairo, 1938, pp212.

(13)- Abū 'Abd Allāh Muḥammad b. Ŷābir b. Muḥammad b. Qāsim al-Qaysī al-Wādī Āšī, nació en Túnez en 673h y murió en ella por la peste en 749h / 1349 D.C, era el profesor de los libros de al- Hadīṯ como:Ṣaḥīḥ al-Būjārī, Muwaṭṭa' al-Imām Mālik.

La mayoría de las cartas de Yaḥyà b. Jaldūn no las encontramos, pero su mejor obra después algunas poemas encontramos su libro "Bugyat al-Ruwwād Fī Ḏikr al-Mulūk Min Banī 'Abd al-Wād "(50)

Conclusión

Así pues, aún Yaḥyà b. Jaldūn no tenía una reputación y no era conocido como su hermano 'Abd ar-Raḥmān, y los investigadores no han dado importancia a este autor en sus investigaciones elaboradas, este último ha hecho un Trabajo importantísimo en su corta vida, eso lo que encontramos en la única obra suyo " Bugyat ar-ruwwād fī dikr al-mulūk min Banī 'Abdu l- wād ".

Este trabajo, en primer lugar es una prueba que, Yaḥyà b. Jaldūn fue un escritor de la primera clase, gracias a su larga conocimiento, y su nivel cultural, y de otra parte, este último fue, muy notable en las responsabilidades en las deferentes cortes, y sobre todo en la corte de Tremecén, cuando estuvo secretario de Abū Ḥammū Mūsà II.

Finalmente, tenemos que saber, la importancia histórica de la Bugya, que la consideramos como un campo histórico lleno por las noticias, las cuales nos ayudan a desarrollar los estudios sobre Tremecén y sus vecinos en el Magreb; de otro lado, no olvidamos el interés literario de esta obra que presentó un nivel lingüístico alto, todo eso nos empuja a dar mas atención a Yaḥyà b. Jaldūn y su carrera política y literaria.

'Abd al-Raḥmān b. Jaldūn rechazó a estas informaciones y según él el primer responsible de estas mentiras fue Mūsà b. Yajlaf que llevó en su corazón la odio a Yaḥyà .

Esta situación fue la causa que empujó Abī Tāšfīn a coger la decisión de eliminar Yaḥyà completamente del corte y la sola solución fue la muerte de Yaḥyà por un hombre de Abī Tāšfīn en una noche de Ramaḍān en 780 H . (49)

Pues así, se acabó la vida de un escritor en el principio de su momento de la producción , una victima del conflicto político, un hombre obediente a su sultán y por eso perdió su vida .

Las huellas de Yaḥyà b. Jaldūn

Podemos decir que la formación de Yaḥyà b. Jaldūn conoció a un desarrolló gracias a los puestos administrativos en los deferèntes cortes . Estuvo el escritor del sultán Abī Ḥammū Mūsà II en Tremecén y el chambelán del Emir Abī 'Abd Allāh al-Ḥifṣī en Bugía durante mucho tiempo y todo eso para él fue una experiencia en su vida política y cultural .

Yaḥyà b. Jaldūn tuvo un buen éxito en sus misiones gracias a su compartimiento personal y sus capacidades remarcables, fue un hombre honorado, inteligente, juicioso y un celebre en la poesia y al adab .

Yaḥyà como un escritor en el corte, su papel fue la redacción de la gloría de los sultanes, países y sus ejércitos, también fue el responsable de las correspondencias confidenciales del sultán además la escritura de los actos del nombramiento de los nuevos gobernadores y las cartas tituláres.

En 779 H , el sultán Abū Ḥammū Mūsà II decidió trasladar a su hijo Abī Zayyān , el gobernador de Medía en el este al oeste como gobernador de Orán , una de las mas importantes ciudades en la región .(47)

Según 'Abd al-Raḥmān b. Jaldūn el origen de la crisis fue la aproximación delos tres hermanos Abī Zayyān, 'Umayr y el Muntaṣir a sus padre el sultán Abū Ḥammū II comparativamente con Abī Tāšfīn , esta situación produjo la odio y el miedo a Abī Tāšfīn de perdir el poder después la muerte de su padre , por eso este ultimo pidió a su padre de designarle gobernador de Orán .

Abū Tāšfīn pidió la ayuda de la tribu de Suwayd para detener la aplicación de esta trasladación que se pudo dar más poder a Abī Zayyān , una situación muy peligrosa que estaba viviendo Abī Ḥammū II , porque este último no tuvo la voluntaria de alunar su decisión de una parte , ni el poder de negar la petición de Abī Tāšfīn de otra parte ; la sola solución temporal para el fue ganar mas tiempo posible , entonces el sultán pidió al escritor Yaḥyà b. Jaldūn de retardar el mas tiempo posible la escritura de la respuesta de la petición de Abī Tāšfīn , hasta que encontrase una solución a esta complicada problima .(48)

El escritor Yaḥyà no tuvo solución salvo la obediencia y la sumisión a los ordenes del sultán , entonces retrasar la respuesta , lo que empujo algunos compañeros de Abī Tāšfīn y con un problema de la odio a aconsejar a este último que este retardo fue una maniobra de Yaḥyà b. Jaldūn para ganar tiempo y ayudar a Abī Zayyān a fijar su posición en Orán ;

- La perdida de la situación semítica en el corte Marīnī .
- El miedo de ser un sospechoso porque estaba el amigo más próximo de Lisān al-Dīn b. al-Jaṭīb .(43)

En este momento, Abū Ḥammū II estaba sufriendo problemas peligrosas, una situación obligó al sultán de buscar hombres de confianza, por eso este último aceptó a Yaḥyà como uno de sus hombres .

La situación en el Magreb medio de esa época se considero como una transición muy importante, gracias a la política ofensiva de la tribu de Banī 'Āmir contra el sultán Abī Ḥammū II, lo que obligó a este último de buscar otras tribus para la alianza , eso va a realizarse con la tribu de Suwayd .

Realmente aquélla alianza se realizó entre la tribu de Suwayd y El hijo mayor de Abī ḤammūII , el Emir Abū Tāšfīn , este ultimo tuvo una gran reputación y llegó a amenazar su padre en el poder. (44)

El desarrollo de los problemas entre el sultán y su hijo devinieron más complicados, con esta situación el consejero Yaḥyà sigo normalmente su vida administrativa aplicando los ordenes del sultán, y culturalmente en la escritura de una parte de la Bugya y el aprendizaje (la poesia , al adab y la historia). (45)

La muerte de Yaḥyā b. Jaldūn

La muerte del autor Yaḥyà b. Jaldūn tuvo relación con las perturbaciones en Tremecén y sobre todo el conflicto entre el tributo de Suwayd y Banī 'Āmir de una parte y entre el sultán y su hijo Abū Tāšfīn durante los años 777 H, 778 H, 779 H de otra parte . (46)

para ayudar a estabilizar el estado, entonces Yaḥyà y su amigo b. al-Jaṭīb fueron a Fez con los demás .

En Fez Yaḥyà guardó a su posición en el corte Marīnī gracias a sus fuertes relaciones con Lisān al-Dīn , el amigo del ministro b.Gāzī, pero la continuación de los conflictos y la intervención del sultán de Granada en Fez para eliminar sus oposiciones y especialmente el ministro b.Gāzī y Lisān al-Dīn cambió la situación , el sultán de Granada encontró su alianza con Muḥammad b.al-Kās el sobreno de b.Gāzī , este ultimo no pudo resistir . (41)

Todo eso acabó por el fin de la resistencia del ministro b.Gāzī , el cambio del nuevo sultán , Abū Zayyān al-Sa'īd b. 'Abd al-'Azīz (un niño de cinco años designó por b.Gāzī) y la entrada de Lisān al-Dīn al prisión hasta su muerte en776 H, después esta tragedia Yaḥyà decidió de irse al palacio de Abī Ḥammū Mūsà II , donde entró el 1 de Rabī' I de 776 H . (42)

La vuelta de Yaḥyà b. Jaldūn al corte de Tremecén

Después cuatro años de la separación , Yaḥyà decidió finalmente de volver al corte de Tremecén y pedir la disculpa al sultán Abū Ḥammū Mūsà II , esta vuelta tiene muchas causas como :

- El jaque de la resistencia del ministro Ibn Gāzī enfrente de la alianza del sultán de Granada y Muḥammad b. al-Kās .
- La continuación del los conflictos y las perturbaciones en el corte Marīnī .
- La muerte de Lisān al-Dīn b. al-Jaṭīb el mejor compañero de Yaḥyà .

Entonces, este periodo para Yaḥyà fue la continuación del desarrollo de su campo cultural y su experiencia en los actividades destacadas en la administración pero como siempre la inestabilización cambió a las cosa.

Esta situación se acabó con la expedición del sultán Marīnī 'Abd al-'Azīz hacia Tremecén y el escape de Abī Ḥammū Mūsà II con su entorno hacia el Este después el Sur donde acabó Yaḥyà de seguir el camino con el Abī Ḥammū decidiendo de juntarse al sultán 'Abd al-'Azīz al-Marīnī

Yaḥyà en el corte del sultán 'Abd al-'Azīz al-Marīnī

Todavía no lo sabemos mucho sobre la separación del sultán Abū Ḥammū Mūsà II y Yaḥyà , pero este ultimo reconoció a su falta, y podemos ver eso en su libro , la Bugya cuando dijo : " ...Desde aquí he dejarle gracias a unas negras imaginaciones y algunas inclinaciones diabólicas , ...y es un malo destino , ...y no existe falta con reconocido..."(40)

La estancia de Yaḥyà b. Jaldūn con Los Banū Marīn , darle la ocasión de encontrar los sabios y los profesores y sobre todo Lasān al-Dīn b. al-Jaṭīb quien llegó a Tremecén en 772 H. Otra vez Yaḥyà aprovechó de esta relación para aprender mas de su conocimiento en varias especialidades.

Aquella situación continuó normalmente hasta la muerte del sultán 'Abd al-'Azīz al-Marīnī el 22 de Rabī' II de 774 H y el desplazamiento del corte Marīnī de Tremecén a Fez . Los problemas van a empezar con la designación del nuevo sultán , lo que obligó a los miembros del corte de orientarse hacia Fez

Yaḥyà recibió a un mensajero de Abū Ḥammū Mūsà II, quien exponerle de trabajar en el corte de Tremecén sirviendo al sultán.(36)

Yaḥyà b. Jaaldūn en el corte de Abī Ḥammū Mūsà al-Ṯānī

La continuación de los conflictos y las perturbaciones en la región y sobre todo la revolución de Abī Zayyān ibn Abī al-Sa'īd al-Ṯānī (el sobrino de Abī Ḥammū), obligó al sultán de Tremecén a aprender unas nuevas decisiones, y lo primero que ha hecho la invitación a Yaḥyà y su hermano 'Abd al-Raḥmàn al corte de Tremecén, para ayudarle a estabilizar la situación. (37)

En 769 H y cuando el sultán Abū Ḥammū Mūsà II estuvo en Malyàna después una batalla contra Abī Zayyān, envió un mensajero que se llama 'Umar b. Muḥammad b.Maŷan a Biskra para encontrar Yaḥyà y transmitirle el mensaje del sultán que demando a Yaḥyà de juntarse los hombres del estado, y su primera misión fue el principió de las negociaciones con al-Dawāwda de la tribu de Banū Riyāḥ en el orden de formar una alianza contra los enemigos.

Yaḥyà b. Jaldūn aceptó esta misión y empiezo las negociaciones con un buen éxito, y en el I de Raŷab de 769 H Yaḥyà entró a Tremecén y devino el escritor del sultán y uno de sus consejeros. (38)

La estancia de Yaḥyà en el palacio de Tremecén fue un periodo muy importante que influyó en su formación y especialmente en el domino cultural y científico, con los mejores profesores, unos de ellos fueron Abū 'Abd Allāh al-Zawāwī y Abū 'Abd Allāh al-Šarīf. (39)

Esta intervención hizo fin a los ensayos de Abī 'Abd Allāh, si sabemos que según el acuerdo firmado y aceptado por ambos lados, el sultán Abī Isḥāq tuvo que capturar el oposito de Abī Ḥammū II, el Emir Abī Zayyān ibn Abī Sa'īd al-Ṯānī, a condición que Tremecén rechazó de dar cualquier tipo de la ayuda a Abī 'Abd Allāh al-Ḥifṣī.

Entonces es el Jaque de estas misiones, lo que empujo Abī 'Abd Allāh y su compañero Yaḥyà a pedir la ayuda de las tribus y especialmente la de al-Dawāwda construyendo una alianza hasta la reintegrada de Bugía pacíficamente en Ramaḍān de 765 H. (34)

Como observación sobre el papel de Yaḥyà, no encontramos informaciones en su libro, lo que da una impresión que el interesado no quiso hablar de algo muy sensible en un libro que presenta el símbolo de la gloria y la victoria del primer hombre del estado de los Banū Zayyān, Abū Ḥammū II, además del nuevo camino del Emirato de Bugía que se presentó en los ensayos de la extensión sobre la soberanía del Estado de Banū Zayyān, eso lo que pasa en Ḏī-l-Ḥiŷŷa de 765H, aprovechando la ocasión de la revolución de Abī Zayyān al-Qubbī quien pedió su derecho en el poder. (35)

Abī 'Abd Allāh perdió sus tentativos bélicos contra Abī al-'Abbās y sobre todo lo que pasa durante las batallas de Fargīwa y Seṭīf al fin de 767 H, y la invasión total del ejercito de Abī al-'Abbās a Bugía, que mató a Abī 'Abd Allāh y presionó a Yaḥyà . Este último desertó del prisión hacia Biskra donde estaba su hermano 'Abd al-Raḥmān (escapó de Bugía el momento de la invasión de Abī al-'Abbāas). En Biskra,

El activo político de Yaḥyà antes su servicio a Abū Ḥammū Mūsà al-Ṯānī

Los dos hermanos 'Abd al-Raḥmān y Yaḥyà ocupaban puestos administrativos en el corte de Abī Sālim al-Marīnī (31), pero eso no era suficiente para ellos, la ocasión va a venir pronto con el movimiento de Abī Sālim hacía Tremecén en 761 H, donde los dos hermanos fueron compañeros del sultán, por eso el pequeño Yaḥyà devino el chambelán (al-Ḥāŷib) del Emir Abī 'Abd Allāh al-Ḥifṣī.(32)

Este puesto puede ser que fuese la decisión del sultán Abī Sālim al-Marīnī para ayudó al Emir 'Abd Allāh a reintegrar de nuevo Bujía y Yaḥyà pueda jugar un papel muy importante se sabemos que tuvo buen conocimiento a los árabes de la zona, desde su estancia en Biskra.

En 764 h el Emir Abī 'Abd Allāh al Ḥifṣī decidió de enviar como mensajero al sultán Abī Ḥammū Mūsà en Tremecén en el orden de pedir su ayuda enfrente de la extensión de Abī al-'Abbās, aún las resultas no fueron concretas, esta misión fue una ocasión a Yaḥyà para saber más cosas sobre la vida política, cultural y científica de Tremecén. (33)

Después tres meses el sultán Abī 'Abd Allāh y su chambelán el ex mensajero Yaḥyà b. Jaldūn repitieron la misma misión por la segunda vez, llegaron a Tremecén el 8 de Ŷumādà II de 764 H. Otra vez la respuesta de Abī Ḥammū Mūsà II fue negativa, gracias a la intervención del sultán Abī Isḥāq al-Ḥifṣī en el corte de Tremecén para la renovación del ex acuerdo de la paz entre ellos.

Ḥifṣ en Bujìa y Qasantīna y Banū Zayyān en Tremecén. La existencia larga de la peste cosechó la vida de miles de los ciudadanos y sabios, entre ellos Muḥammad b. Jaldūn, el padre de Yaḥyà.(27)

Las perturbaciones políticas y sociales que estaba viviendo Túnez y sobre todo Los conflictos del poder y la soberanía , fueron causas concretas que empujar 'Abd Ar-raḥmān b. Jaldūn y su hermano Yaḥyà a orientarse hacia el corte Marīnī.(28)

La presencia de Yaḥyà b.Jaldūn en Fez representó un periodo importantísimo en su vida , porque pudo continuar sus estudios con los mejores sabios, uno de ellos fue Abū 'Abd Allāh al-Šarīf.(29)

Entonces, como hemos dicho antes, la estancia de Yaḥyà b. Jaldūn en Fez fue muy rica culturalmente, su nivel va a mejorarse con el viaje de Ibn al- Jaṭīb a Fez en 761h/1360 d.c ; ese ultimo era un fuente literario y científico, esta estación dio la ocasión a Yaḥyà para empezar su primera experiencia en la vida de la corte .(30)

El activo político de Yaḥyà b. Jaldūn

Yaḥyà b. Jaldūn ocupó muchos puestos políticos y administrativos en deferentes cortes, con el Emir Abū 'Abd Allāh al-Ḥifṣī, el sultán de los Banū Zayyān Abī Ḥammū Mūsà al-Ṯānī en Tremecén y en el corte Marīnī con el Emir 'Abd al-'Azīz al-Marīnī, y como observación el periodo de Yaḥyà en el corte de Tremecén se considera el más importante y el único libro suyo " la Bugyat " fue un descripción y estudio de la historia de ese estado, lo que da a nosotros una prueba concreta de esa importancia .

- La próxima estación para al- Ābilī fue las montañas de al-Sūs donde estaba un estudiante aprendiendo mas cosas y como profesor dando lo que ha aprendido, luego se dirigió a Fez como un profesor muy famoso y los estudiantes le consideraron como un fuente en varias ciencias . Todo eso dio a este sabio una posición respectada en la sociedad tan como en el corte Marīnī, por eso fue uno de los mas importantes compañeros del sultán Abī al-Ḥasan al-Marīnī durante sus expediciones hacia al Magreb central en 735h y Ifrīqiya en 748h.

- En Túnez al-Ābilī fue uno de los profesores de los hijos de Muḥammad b. Jaldūn durante cuatro años con un método moderno, dando a los estudiantes lo mejor de las ciencias naturales y sociales para obtener una formación lógica, lo que ayuda a comprender lo eventos sociales e históricas correctamente y criticar a las noticias de una manera objetiva y científica.(26)

- La influencia de al-Ābilī fue muy notable en la formación de Yaḥyà y su hermano'Abd Ar-raḥmān, gracias a su nuevo método basado sobre la lógica para aprender y analizar los diferentes eventos, lo que abrió una nueva puerta de los estudios objetivos y sobre todo en la historia.

La presencia de Abū al-Ḥasan al-Marīnī duró poco tiempo, pues este ultimo va a Encontrar una oposición en la zona del sur y en 7 de Muḥarram de 749h/1348d.c, el ejercito del sultán perdió una batalla importantísima cerca del Qayrawān y así, la derrota del poder de Banū Marīn en Ifrīqiya le obligó a Abū al-Ḥasan a abandonar Túnez hacia el Magreb . Esta situación ayudó a la vuelta del emirato de Banū

Andalus, era un escritor muy famoso además de sus capacidades y su conocimiento de la lengua árabe y su campo literario .

-En 712h, llegó a ser el escritor del sultán mantuvo su posición en la corte durante el periodo de Abī al-Ḥasan al-marīnī además de ser miembro del consejo científico, en 748h fue uno de los compañeros del sultán en su expedición hacia Ifrīqiya, donde este ultimo va a construir buenas relaciones con la familia de los Jaldūn y sobre todo durante su estancia en la casa de los banū Jaldūn.

-Los estudiantes aprovecharon de este profesor que se considera como fuente y gracias a su largo conocimiento 'Abd al-Muhaymin participó en la formación de Yaḥyà b. Jaldūn y sobre todo literalmente, otra vez la peste va a coger un sabio, eso lo que pasa el 13 de Šawwāl de 749h / 1348d.c.(22)

- Abū 'Abd Allāh Muḥammad b. Ibrahīm b. Aḥmad al-'Abdarī al-Tilimsānī al-Ābilī, nació en Tremecén en 681h. Sus Maestros; Ibn Galbūn (su abuelo) y Abī al-Ḥasan al-Tanasī en Tremecén (23), Ibn Daqīq al-Sa'īd en egipto (24). Cuando volvió a su tierra ocupó al puesto de la financia del palacio donde continuaba sus estudios con Abī Mūsā b. al-Imām .

- al-Ābilī dicidió de consagrarse su tiempo en los estudios y el aprendizaje de las diferentes ciencias, por eso se orientó hacia Fez dejando detrás la vida del corte y sus responsabilidades, en Fez al-Ābilī aprendió mucho con el judío Jallūf al-Magīlī, después se desplazó a Marrākaš en 710h y allí estudió con el sabio Abī al-'Abbās b. al-Bannā' hasta su muerte en 721h(25).

-Abū,'Abd Allāh Muḥammad b. Muḥammad b. Abī al-Faḍl b. al-Ṣabbāg al-Jazraŷī al-Maknāsī, murió en el naufragio de la flota magrebí, cerca de la costa de Tādelas, al regreso de Ifrīqiya en 750h / 1350d.c. Tradicionista y alfaqui notable, fue el primer biógrafo del celebre sufī Abū al-Ḥasan al-Šādilī (Murió en 656h/1258d.c).(19)

-Abū al-'Abbās Aḥmad b. Šū'ayb al-Fāsī, escritor, medico y secretario en la corte Marīnī durante el periodo del sultan Abī Sa'īd y el de su hijo Abī al-Ḥasan al-Marīnī. Uno de los sabios que acompañaron al sultán al-Marīnī en su expedición, murió en Túnez por la enfermedad de la peste.(20)

- Abū al-Qāsim 'Abd Allāh b. Yūsuf b. Raḍwān al-Naŷŷārī al-Mālaqī, nació en al-Andalus, era un estudiante de al-Qāḍī Abī Ŷa'far ibn 'Abd al-Ḥaq, Abī bakr b. Manṣūr y al-Ḥāfiḍ Abī Ḥifṣ al-Ṭanŷālī en Málaga y Abī l-Ḥasan al-Ŷayyāb en Granada. Era buen conocedor dela lengua árabe, al-adab, la poesía y la documentación, va a desarrollar su conocimiento en el Magreb para las frecuentes con los sabios como 'Abd al-Muhaymin al-Ḥaḍramī, Ibn Yarbū' al-Sabtī, al-Ābilīy Ibn al-Naŷŷār, acompañó a Abī al-Ḥasan a Tremecen y Ifrīqiya, llegó a ser el secretario de Abū al-Ḥasan y Abū 'Inān. Tenia unas buenas relaciones con 'Abd Ar-raḥmān y su hermano Yaḥyā, murió en Anfà en 784h.(21)

-Abū Muḥammad 'Abd al-Muhaymin b. Muḥammad b. 'Abd al-Muhaymin al-Ḥaḍramī al-Sabtī, nació en Ceuta en 675h, estudiaba con los mejores profesores como Abī Isḥāq al-Gāfiqī al-Andalusī en Ceuta y Abī Ŷa'far b. al-Zubayr en al-

En lo que concierne las ciencias religiosas , encontramos que los tres hermanos de Muḥammad b. Jaldūn estudiaban con los mejores profesores y sabios que tenian gran reputación en Túnez como Abū 'Abd Allāh Muḥammad b. Ŷābir al- Wādī Āšī (14), el juez b. 'Abd As-salām al-Munastīrī Al- Hawwārī At-tūnusī (15), Abū 'Abd Allāh al-Ŷayyānī, al-Ḥaṣā'irī, al-Zarzālī y Abī 'Abd Allāh, Muḥammad b. Baḥr .

La manera de la enseñanza que se basa sobre la memorización para seguir el camino de los antepasados (16), va a cambiar con la expedición del sultán Abū l-Ḥasan al-Marīnī hacia Ifrīqiya en 748h / 1348d.c.

Este cambio afectó la vida política, cultural y social lo que dio la posibilidad a Yaḥyà y sus hermanos de encontrarse con los sabios y los profesores de la corte marīnī , que acompañaron a Abū al-Ḥasan a Túnez. Este encuentro ayudó a los estudiantes a saber otros nuevos métodos de la enseñanza. (17)

La formacíon de Yaḥya b. Jaldūn durante el movimiento de Abī al-Ḥasan al-Marīnī hacia Ifrīqiya 748h /1348d.c.

Después de un año aproximadamente de la muerte del sultán Abū Yaḥyà al-Ḥifṣī, su homologo marīnī el sultán Abū al-Ḥasan al-Marīnī empezó su expedición hacia Ifrīqiya, donde entró a Túnez en 8 de Ŷumādà II de 748h / 1348d.c, acompañado por una armada de los sabios y los profesores de la corte marīnī, lo que impulsó a los estudiantes a aprovechar de esta relación .(18)

Entre aquellos sabios que fueron profesores en Túnez e influyeron directamente en la formación de los estudiantes contamos con:

El hijo de Muḥammad, Muḥammad Abū Bakr, el padre de Yaḥyà y 'Abd Ar-raḥmān, vivía una vida deferente de aquella de los antepasados, una vida de la abstención y la concentración sobre los estudios de la religión y la literatura (9), por eso estaba muy conocido en el fiqh, el adab y especialmente la poesía.

Así pues, Yaḥyà y su hermano 'Abd Ar-raḥmān vivían en un entorno científico y religioso abierto sobre el adab y la poesía, un carácter de vida que influía directamente en la construcción de la personalidad y el comportamiento general de Yaḥyà, este ultimo va a seguir el camino de sus abuelos por su papel en las actividades en la vida política y por tanto en el domino del saber y como especial en Tremecén la capital de los Banū Zayyān.(10)

La formación de Yaḥyà b. Jaldun

Son muy escasos las informaciones sobre la vida de Yaḥyà b. Jaldūn en general, pero podemos encontrar algunas informaciones importantísimas en el libro de su famoso hermano 'Abd Ar-rahmān " At-ta'rīf bi – Ibn jaldūn wa – rihlatu-hu šarqan wa – garban" (11), donde hay noticias sobre la vida cultural y la formación de los tres hermanos. (12)

Aquella formación de los hijos de Muḥammad b. Jaldūn comenzó con uno de los grandes profesores, es Ibn al-Burrāl al- qurašī quien era muy famoso en varias materias(13). Gracias a este profesor, los estudiantes aprendieron de memoria el Corán y tuvieron capacidades considerables en la especialidad de las lecturas, además de estudiar lo más importante de los libros de aquella época.

--R. Brunschvig, La berberie oriental sous les hafsides. Des origines a la fin du XV siècle,
Paris 1947, V. II, pp. 385-397.
--Encyclopédie de l'Islam, nouvelle ed, Paris, 1971, V. III. pp849.

Cuando los Banū Jaldūn aseguraron que no se puede resistir enfrente de los españoles y durante la decadencia post almohade en España, estos últimos decidieron de dirigirse hacia el Magreb "Ceuta" en 630h como primer lugar después hacía Túnez dónde fueron bien recibidos por el sultán Abū Zakariyā' al Hifṣī en 640h. (3)

En Túnez los miembros de la familia b. Jaldūn ocupaban puestos semíticos en la corte hafsíd desde la llegada de al Ḥasan b. Jaldūn el bisabuelo de Yaḥyà (4), después su hijo Abū Bakr Muḥammad quien trabajaba en la administración de financia, además de ser un escritor.(5) En el periodo de Abī Isḥāq, Abū Bakr llegó a ser el primer responsable de la gestión del presupuesto del estado. (6)

Durante el gobierno de Abū Fāres sobre Bugía en 679h, el abuelo deYaḥyā, Muḥammad b. Abī Bakr b. Jaldūn ocupaba el puesto del chambelán y jugaba un papel muy importante en los asuntos políticas tan como los militarías.(7)

Muḥammad b. Abī Bakr continuaba sus actividades en los puestos destacados de la administración y por tanto en la vida política de la dinastía de los Hafsiés hasta la decadencia del estado de Ibn al -liḥyānī (711h-718h), cuando eligió finalmente de consagrarse su vida en la abstención y el sufismo, pero su posición en el corte y entre la gente quedaba mantenerse hasta su muerte en737h.(8)

1-El entorno familiar

Yaḥyà b. Jaldūn pertenece a una familia de alta categoría y de origen árabe de hadramaut (yeminit), vivían durante mucho tiempo en Sevilla como una familia respectada y muy famosa. (2)

Son muy escasos los estudios sobre el autor Yaḥyà b. Jaldūn y los que nos podemos encontrar:

--'Abd Ar- raḥmān b. Jaldūn (Hermano de Yaḥyà) , At-ta'rīf bi ibn Jaldūn wa - riḥlatu-hu šarqan wa garban , ed. Ibn Tāwīt , Cairo C.T.E , 1951.

-- Al Maqqarī Aḥmad b. Muḥammad al Telimsānī , Nafh at-tīb min Gusn al Andalus al Ratb, ed. Muḥy Ad-dīn 'Abd al Ḥamīd, 10V , Cairo , 1949 (Sobre la poesía de yaḥyà de al mawlid al nabawī al-šarīf . V9, pp. 212-215, 218-219, 340-341).

--'Abd al Ḥamīd Ḥāŷiyāt, ed. De Bugyat Ar-ruwwād de Yaḥyà b. Jaldūn, Argelia, 1980dc-1400h. (Sobre Yaḥyà b. Jaldūn, V1, pp. 7-68.).

-- Bel Alfred, histoire des béni 'Abd al wad, rois de Tlemcen, ed.et trad. De la Bugyat, en collaboration avec G. Bou'alī, Argelia, Fontana, 1904.

--Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle édition, Paris, 1971, Tome III, (Sobre Yaḥyà b. Jaldūn y su familia, pp. 849-854, 855-856.

-- Sobre la familia b. Jaldūn y su origen:

--Yaḥyà Bou'azīz, A'lām al fikr wa al taqāfa fī al Ŷazāir al mahrūsa, Bayrūt, 1955, V2, pp, 81.82.83.84.85.

Mūsà II, para declarar la obediencia; Yaḥyà en su libro estudi cronológicamente, la historia de un estado antes de su surgimiento hasta el periodo actual de la redacción, eso fue una prueba concreta de las capacidades de este autor.

Pues así, podemos decir que el siglo ocho de la era hegería y catorce de la era cristiana conoció a una armada de los sabios famosos que participaron en la construcción de la historia y de la civilización a través sus papeles en la vida cultural, científica, social y política. Estos últimos han desarrollado deferentes métodos en el pensamiento, la filosofía, la historia, la literatura y muchos otros dominios y sin duda, unos de los más famosos de aquella época fueron los miembros de la familia de b. Jaldūn.

La vida de Yaḥyà b. Jaldūn

Abū Zakariyā' Yaḥyà b. Jaldūn uno de los puntos clave para entender la historia de la cuenca del mar mediterráneo, nació en Túnez en 1333/34d.c-734h, después de dos años del nacimiento de su famoso hermano 'Abd Ar-raḥmān 1332d.c-732h.

Este ultimo ha elaborado grandes trabajos e investigaciones sobre la cultura y la historia como kitāb - al 'ibar wa dīwān al mubtada' wa al jabar, al muqaddima, at-ta'rīf ...etc., lo que llevó a los investigadores a concentrar mucho interés sobre lo que ha hecho, lo cual comparativamente deja a Yaḥyà algo en penumbra.

La mayoría de los investigadores sobre Yaḥyà b. Jaldūn han encontrado una gran ayuda en su libro " Bugyat Ar-ruwwād fī Dikr al Mulūk min Banī 'Abd al Wād ", la principal obra suya.(1)

La vida y la obra dè Yahya b.Jaldun.

Fouad Kebdani **

Introducción

La historia de los Banū Zayyān, representó una rica herencia para la civilización del norte de África y la cuenca del mar mediterráneo como el mundo islámico en general, desde aquí, necesitamos estudiar esta época, analizando los eventos según los estudios e las investigaciones disponible en este domino.

Varios historiadores han elaborado trabajos sobre esta época de la historia medieval, y sin duda, unos de las mejores obras que las hemos manejado son de 'Abd ar-Raḥmān b. Jaldūn, Ibn Marzūq y Ibn l-Jaṭīb.

Nosotros vamos a estudiar lá historia de los Banū Zayyān según la Bugya, de Yaḥyà b. Jaldūn, un libro casi desconocido para los investigadores, igualmente que su autor, quien estaba en la penumbra durante mucho tiempo, y son muy escasos los historiadores que hablan sobre él.

Todo eso, nos empuja para abrir las páginas de este libro, analizando su contenido, después de dar una vista general sobre la vida del autor (el artìculo de bugyet er rouad fi dhikri moulouki bani Abd el wadi fue principalmente una redacción de la gloria y la victoria del sultán Abū Ḥammū

*etudiant algerien a l'niversité de complutense-Madrid.

[10] – Ce groupe de chercheurs a aussi publié pour la première fois une encyclopédie spécialement réservée aux recherches autour de la bibliologie .Dans son avant-propos(p.7) , Robert Estivals annonçait qu'elle « constitue la première encyclopédie internationale de bibliologie , considérée comme science de la communication écrite, de langue française... ». Avant cette date, c'est à dire en 1968, ce groupe a édité une revue semestrielle « schéma et schématisation » consacrée aux recherches autour de la représentation graphique et intellectuelle , et ouverte à toutes les disciplines et activités , telles que la linguistique, l'information, psychologie et sociologie....Voir : revue schéma et schématisation » volume 1 ,n°1 1968, p.5.

[11] –Roland JOUDE , « le bilan de la bibliologie au Canada » in revue de schéma et schématisation , 1988,pp.25-31.

[12] –Marie-Hélène Prévoteau et Jean-Claude Utard , manuel de bibliographie générale.-Nouv.éd.-Paris :Electre-Edition du cercle de la librairie, 1996, p.13.

[13] – Ibid , p .13-14.

[14] – Ibid , p .15.

_ Voir aussi : Marcelle Beaudiquez, guide de bibliographie générale: méthodologie et pratique. Munchen ; New York ; London ; Paris; Saur, 1983. P.65-66.

[15] – Ibid , p.15.

[16] – Et aussi les mots tels que livres ,catalogues, articles, périodiques , thèses ,brevets, documents sonores, documents audiovisuels ...

Ayant essayé de lever le voile sur la substance du terme «bibliographie» et son historique en occident, par cette ébauche, il me paraît indispensable dans cette perspective de revenir sur l'histoire de cette science et sa terminologie chez les arabes dans un prochain article.

Notes et bibliographie

[1] -Dictionnaire HACHETTE encyclopédique .-Paris : SPADEM, ADAGP, 1997, p199.
[2] – LOUISE- NOELLE MALCLES , manuel de bibliographie .-3ed .Paris : presses universitaires de France , 1975, p.16.
[3] –IBID, p.16.
[4] – Jean Meyriat , « Naudet» in encyclopédie les sciences de l'écrit .Paris :AIB , 1997,p.40.
[5]- voir Louise-Noèlle Malclès , op.cit.p.17.
[6] –Avant de les attribuer aux nouvelles bibliothèques créées par l'état et les écoles centrales , il fallait étudier puis cataloguer ..
[7]- Ce répertoire n'est en réalité que le résultat de la stratégie de l'état français de l'époque , envers le problème du nombre considérable des manuscrits et livres confisqués.
[7] –Robert ESTIVALS , « bibliographie » in encyclopédie Les sciences de l'écrit .p.34.
[8] –Durant le 18°siècle et le 19°siècle , avec, respectivement « l'abbé Jean Joseph RIVE : 1732-1792 » et « Etienne Gabriel PEIGNOT :1767-1849 », la bibliologie est considérée comme science du livre . Avec RIVE dans « chronique littéraire des ouvrages imprimés et manuscrits » le terme « bibliologie » lui même était fondé, et avec PEIGNOT,dans « dictionnaire raisonné de bibliologie » la bibliologie était plus approfondie et avec plus de concepts. Voir , EL youcefi Hanane « les origines françaises de la bibliologie au XVIII » in revue de bibliologie, schéma et schématisation n° 33, 1990, p.73-76.
[9] –Pour plus d'information autour de ce sujet, voir : Robert Estivals, la bibliologie .-Paris :Presse universitaire de France ,col .que sais-je ?1987.PP.12-13.
Voir aussi :R.ESTIVALS « Paul Otelet, la résurrection » in revue de bibliologie , schéma et schématisation .Paris : société de bibliologie et schématisation , n°30,1989.PP.90-91.

Mais, malgré la transformation et la mutation, du terme bibliographie ou « recherche documentaire », ainsi que ses supports, celle-ci est l'aboutissement ou la base de deux éléments indissociables : l'information qu'on recherche et le support qui porte cette information. L'information peut aller d'une simple adresse jusqu' à la consultation d'un ouvrage scientifique. Tandis que le support peut être un manuscrit latin ou arabe, et peut être encore un CD-ROM .

L'information est donc immatérielle, mais elle « n'existe sur le long terme que si elle est conservée, stockée sur un support...» pour être traitée et communiquer. [14] Cela étant, comment définir un document ?

Pour l'organisation internationale de normalisation (ISO), c'est un « ensemble formé par un support et une information, généralement enregistrée de façon permanente, et tel qu'il puisse être lu par l'homme et la machine. » [15]. Le moyen permettant cet enregistrement peut être mécanique comme l'imprimerie, chimique comme la photographie, ou électronique comme les banques de données..

En résumé, la recherche bibliographique ou documentaire a généré un ensemble de mots ou de termes, comme le support, le document, et surtout l'information qui veut dire aussi, renseignement et connaissance scientifique ou culturelle. [16]

Dans cet article sur la bibliographie, la priorité du point de vue méthodologique était de mettre l'accent sur le terme lui-même et sa transformation à travers l'histoire scientifique et culturelle occidentale. Mais force est de constater que L'histoire de la bibliographie, en tant que science et méthodologie, et par de là les bibliographes et les ouvrages bibliographiques, existait dans l'histoire culturelle et scientifique des musulmans, à travers les ouvrages d'Ibn an-Nadim au 10° siècle et d'Alkalkashandi au 14°siècle entre autres .

réserves face à l'utilisation du terme « bibliologie » dans l'édition intégrale de l'Encyclopaedia Britanica .[11].

Ce qui explique, en partie la non- utilisation du terme bibliologie, en Egypte et en Syrie.

3- Bibliographie et recherche documentaire :

Avec l'essor que connaît l'information scientifique, technique et culturelle ,et avec la multiplication des supports de celle-ci, le besoin et la difficulté de cerner cette information sont devenues tellement difficiles, qu'il fallait innover, créer, imaginer d'autres façons et méthodes de recherche. C'est dans cet esprit là que le terme « bibliographie » - et avec lui toute la terminologie du monde de l'information et la communication- ont été petit à petit détrônés par d'autres expressions et mots .

Le mot bibliographie par exemple, a été remplacé dans les années soixante dix par l'expression plus moderne et à connotation informatique de " recherche documentaire" . Selon l'avis de quelques chercheurs, cette expression «correspond mieux à la réalité documentaire des établissements où se sont multipliés microformes et documents audiovisuels, micro-ordinateurs et lecteurs de CD-ROM...Par ailleurs, elle traduit mieux l'acte de recherche lui-même en réponse à une demande des usagers..» [12]

En effet, avec le besoin grandissant d'informations dans la vie quotidienne, cette recherche s'est banalisée. N'importe qui peut maintenant rechercher un numéro de téléphone, une adresse, l'orthographe d'un mot...En d'autres termes, « ..toutes recherches qui nous font manier des types d'outils bibliographiques : un annuaire, un dictionnaire de langue, le catalogue d'une bibliothèque, une encyclopédie juridique (...) la simple consultation d'un guide des spectacles (...)fait appel à des schémas de recherche bibliographique. »[13]

bibliologie, les techniques bibliographiques d'une part et l'histoire du livre d'autre part.

En fait, le père de la «schématisation » en France et dans les pays francophones, le schéma à trois étapes autour de la naissance de la bibliographie et de la bibliologie, est lui-même inspiré par le schéma classique de l'évolution des sciences, établi et pensé par le célèbre «Auguste Comte :1798-1857 », qui le divise aussi en trois périodes :

- La constitution des phénomènes.
- Description de ceux-ci ou graphie.
- Explication, science ou logie.

La bibliographie est donc, dès la fin du premier quart du 20° siècle, considérée comme la description, l'inventaire et la classification des ouvrages imprimés ;la bibliologie, pour sa part, comme la science du livre d'abord [8].

Elle devint durant le 20° siècle, avec le belge Paul Otelet, dans son ouvrage–manifeste « traité de documentation, le livre sur le livre » comme science de l'écrit et de la communication écrite. Et ainsi, le plan du « traité » d'Otelet comprendra les principaux maillons de la chaîne «bibliologigue »: les documents (supports, signes, langues, structures du livre, bibliographie) auteurs, imprimeurs, éditeurs, libraires, bibliographes, lecture, bibliothèques, synthèses, etc. [9]

Au début des années soixante dix , le terme « bibliologie » - biblio = livre ou écrits, logie = science, est arrivé en France et dans les pays francophones comme le Canada, pour détrôner l'autre terme « bibliographie » qui désignait «tout support permettant la communication des écrits ». [10] Et cela fut réalisé grâce aux travaux de R.Estivals, l'animateur du groupe « schéma et schématisation » .

Cette distinction délicate entre les deux termes, bibliographie et bibliologie, n'a pas fait l'unanimité, puisque les anglo-saxons à travers le catalogueur et bibliothécaire du « British museum » William Alfred Pollaz (1859-1944), consignera ses

Napoléon décréta que cette nouvelle discipline soit étudiée et enseignée au célèbre « collège de France ».

Le terme, ainsi que le concept de « bibliographie », ne cessait de se transformer et de se concrétiser en discipline bien définie à travers tout le dix-neuvième et le début du vingtième siècle ; grâce aux efforts de nombreux chercheurs tels que Gabriel Peignot (1767-1849) par exemple, qui publia entre 1804 et 1812 son «répertoire bibliographique universel ». [7]

Pour Robert Estivals, initiateur et fondateur de la revue de bibliologie de « schéma et schématisation »,la bibliographie est passée par trois étapes distinctes les unes des autres mais qui se complètent, c'est à dire que ces étapes ou périodes naissent l'une de l'autre:

- La première, correspond à l'apparition des écrits et de la technique des écritures (invention de langages iconiques et graphiques…).
- La deuxième correspond à la communication des écrits «à mesure que la production augmente, son accessibilité directe diminue .Il faut trouver une solution .Celle-ci (la bibliographie) fait intervenir plusieurs opérations: il faut acquérir, faire l'inventaire, décrire , classer les textes en fonction d'une théorie de la connaissance; les conserver en les localisant sur des rayons, organiser leur communication. Pratique de bibliothécaire et philosophie ont partie liée. » [7]

Quant à la troisième période de la bibliographie, selon Estivals, le fondateur de l'association internationale de bibliologie (A.I.B),passe du purement technique, tel que le catalogage et l'indexation par exemple, à l'interrogation et à la recherche d'explication qui est la démarche même de la bibliologie.

En d'autres termes, cette troisième étape de la bibliographie correspond à la bibliologie .C'est à dire que le 19° et le début du 20° siècle va voir une certaine délimitation historique de l'objet, ou une certaine séparation progressive de la

qu'il désigne : le répertoire de livres . « Celui-ci sous la forme imprimée naît en 1494 , puis se multiplie rapidement dès les
premières années du XVI° siècle. Or la dénomination « bibliographie» n'est attribuée à un répertoire qu'en 1633 en France.» [3]

Ce fût semble-t-il, Gabriel Naudet, érudit français du XVII siècle (1600 -1653), le premier à donner au mot « bibliographie » son sens actuel en en faisant le titre de son livre « bibliographia politica », publié originellement en latin à Venise en 1633, et traduit en français en 1642.[4]

2-Bibliographie, bibliologie ?

Ainsi, pour la plupart des chercheurs et érudits jusqu'au début du 19° siècle, la bibliographie ou la science bibliographique est la science du livre. Elle se divise en deux branches: l'une se réfère à l'art typographique, dans sa relation avec l'imprimerie (composition et impression); la seconde aux livres eux-mêmes (leur histoire, leur catalogage, leurs valeurs intrinsèques, leurs auteurs.). [5]

La bibliographie au sens technique du terme, trouva son épanouissement et son développement avec la révolution française de 1789, d'une part, et d'autre part, par l'élan et l'essor qu'à donné Napoléon à la «bibliographie de la France ».

Pour ce qui est de la révolution, la nationalisation des bibliothèques de nombreux monastères et privilégiés, en confisquant même les biens des émigrés, met l'Etat de la révolution en possession d'une masse considérable de manuscrits et de livres, qui doit être inventoriée, cataloguée et classée selon des normes bien précises, permettant leur communication.[6]

Ce développement de la bibliographie au sens technique, prépara la création par Napoléon en 1811-1812 de la «bibliographie de la France ».Dans le même contexte,

La Bibliographie, cette science méconnue.

Dr.Mohamed SAHBI **

Bibliographie : science ou outil de recherche ?

Bien qu'il soit connu et utilisé par les chercheurs et académiciens à travers le monde et les civilisations, le terme « bibliographie » reste encore indéfini. Est-ce qu'il désigne ces ouvrages un peu particuliers connus communément sous les termes de sources, de répertoires, des ouvrages de références ; tels que les dictionnaires, encyclopédies, revues périodiques et autres, ou bien la science qui permet de constituer et d'exploiter ces ouvrages et répertoires ?

En réalité, la bibliographie couvre en même temps, ces ouvrages particuliers et la science qui les étudie. Selon le dictionnaire encyclopédique Hachette, la « bibliographie » a apparemment deux sens différents : elle est d'une part, une science du livre, de l'édition ; et elle représente d'une autre part, une liste des écrits se rapportant à un sujet.[i]

Mais en dépit de cette séparation au sens épistémologique, le mot «bibliographie » reste dans sa racine attaché au livre et au support imprimé en général. "Biblion" en grecque ou biblio veut dire livre, tandis que "graphein" ou "graphie", écriture .C'est à dire l'écriture sur le livre, ou le livre sur le livre, tel que rapporté par Louise – Noélle Malclès, l'une des figures emblématiques de cette discipline.[2]

***Mohamed SAHBI- Département de bibliothéconomie & sciences documentaires- Université d'Oran.**

les juifs, moins considérés que les animaux, n'avaient même pas le droit d'enterrer leurs morts, ces derniers étant enfouis clandestinement la nuit n'importe où, en raison de l'interdiction absolue pour les juifs de posséder le moindre cimetière.

Exactement à la même époque, l'Algérie était le refuge et la terre de liberté pour tous les israélites qui fuyaient les inhumaines persécutions de l'inquisition.

Exactement à la même époque, la communauté israélite avait la fierté d'offrir à sa patrie algérienne non seulement des poètes, des commerçants, des artistes, des juristes, mais aussi des consuls et des ministres.

Si le peuple algérien a regretté votre silence, il a apprécié la prise de position anticolonialiste des prêtres catholiques, comme ceux notamment des zones de guerre de Montagnac et de Sou (Ahras, et même de l'archevêché qui, pourtant, dans un passé récent, s'identifiait encore à l'oppression coloniale.

C'est parce que le FLN considère les israélites algériens comme les fils de notre patrie qu'il espère que les dirigeants de la communauté juive auront la sagesse de contribuer à l'édification d'une Algérie libre et véritablement fraternelle

Le FLN est convaincu que les responsables comprendront qu'il est de leur devoir et de l'intérêt bien compris de toute la communauté israélite de ne plus demeurer «au-dessus de la mêlée», de condamner sans rémission le régime colonial français agonisant, et de proclamer leur option pour la nationalité algérienne.

Salutations patriotiques

Ce choix clairement affirmé dissipera tous les malentendus et extirpera les germes de la haine entretenus par le colonialisme français. Il contribuera en outre à recréer la fraternité algérienne brisée par l'avènement du colonialisme français.

Depuis la Révolution du 1er Novembre 1954. la communauté israélite d'Algérie, inquiète de son sort et de son avenir , a été sujette à des fluctuations politiques diverses.

Au dernier congrès mondial Juif de Londres, les délégués algériens, contrairement à leurs coreligionnaires de Tunisie et du Maroc, se sont prononcés, à notre grand regret, pour la citoyenneté française.

Ce n'est qu'après les troubles colonialo-fascistes du 6 février, au cours desquels ont réapparu les slogans anti-juifs, que la communauté israélite s'est orientée vers une attitude neutraliste.

Par la suite, à Alger notamment, un groupe d'israélites de toutes conditions a eu le courage d'entreprendre une action nettement anti-colonialiste , en affirmant son choix raisonné et définitif pour la nationalité algérienne.

Ceux-là n'ont pas oublié les troubles anti-Juifs colonialo -racistes qui, sporadiquement, se sont poursuivis en pogroms sanglants jusqu' au régime Infâme de Vichy. La communauté israélite se doit de méditer sur la condition terrible que lui ont réservée Pétain et la grosse colonisation: privation de la nationalité française, lois et décrets d'exception, spoliations, humiliations, emprisonnements, fours crématoires, etc.

Avec le mouvement Poujade et le réveil du fascisme qui menace, les juifs risquent de connaître de nouveau, malgré leur citoyenneté française, le sort qu'ils ont subi sous Vichy.

Sans vouloir remonter bien loin dans l'histoire, il nous semble malgré tout utile de rappeler l'époque où, en France,

C'est aujourd'hui un fait notoire que la guerre de reconquête imposée au peuple algérien s'est définitivement soldée par un double échec militaire et politique.

Les généraux Français eux-même avec, ă leur tête, le maréchal Juin, ne cachent plus l'impossibilité de venir ă bout de la Révolution Algérienne invincible.

Le gouvernement français, dans sa recherche actuelle d'une solution politique devenue inévitable, veut encore voler sa victoire au peuple algérien en poursuivant la pratique insensée de manœuvres grossières, vouées dès maintenant ă un échec retentissant.

L'essentiel de ces manœuvres consiste ă tenter d'isoler, même partiellement, le FLN en portant atteinte ă l'unanimité nationale anticolonialiste désormais indestructible.

Vous n'ignorez pas, chers compatriotes, que le FLN, inspiré par une foi patriotique élevée et lucide, a déjà réussi à ruiner la diabolique politique de division qui s'est traduite dernièrement par le boycottage de nos frères commerçants mozabites, et qui devait s'étendre à l'ensemble des commerçants israélites.

Cette double tentative que nous avons étouffée dans l'œuf était, comme par le passé, ourdie par la haute administration et mise en application par une poignée d' aventuriers escrocs au service de la police.

Les policiers mouchards et contre-terroristes assassins ont été exécutés non en raison de leur confession religieuse, mais uniquement parce qu'ennemis du peuple.

Le FLN, représentant authentique et exclusif du peuple algérien, considère qu'il est aujourd'hui de son devoir de s'adresser directement à la communauté israélite pour lui demander d'affirmer d'une façon solennelle son appartenance à la nation algérienne.

composantes du système colonial: armée ,colons, sites stratégiques, intérêts économiques, voies de communications, collaborateurs ,etc..., mais ne prit jamais pour cible la minorité juive. en tant que communauté Elle fut épargnée par la stratégie du FLN qui considérait les israélites comme une minorité possédant des origines nord africaines et donc victime-à un degré un moindre du colonialisme.

L'appel du FLN, tout en mettant en relief le rôle de cette minorité et la place qui lui est réservée dans la nation algérienne libre, fut perçu comme un ultimatum lancé par le FLN aux chefs de cette communauté pour faire un choix historique: Se joindre à la révolution ou rejoindre le camp ennemi.

Après l'annonce du cessez le feu le 19 mars 1962, des milliers de juifs optèrent pour l'exode massif vers la métropole. Ils avaient fait leur choix.

Lettre aux Israélites d'Algérie

Quelque part en Algérie, le 1 octobre 1956
Le Front de libération nationale

A Monsieur le Grand Rabbin,
A Messieurs les membres du consistoire Israélite,
Aux élus et à tous les responsables de la communauté israélite d' Algérie,
Monsieur le Grand Rabbin,
Messieurs et chers compatriotes,

Le Front de libération nationale (FLN), qui dirige depuis deux ans la révolution anticolonialiste pour la libération nationale de l'Algérie, estime que le moment est venu oú chaque Algérien d' origine Israélite, á la lumière de sa propre expérience, doit sans aucune équivoque prendre parti dans cette grande bataille historique.

Document: Une Lettre du FLN a la communauté Israélite d'Algérie.

Pr.Boualem Belkacemi **

Le document que nous présentons ici est une lettre publiée par FLN à l'intention de la communauté juive en Algérie. Rédigée sous la forme d' un manifeste, elle explique à l'intention des iraélites d'Algérie, les causes et les objectifs de la lutte armée menée par le peuple algérien;et lance un appel à cette minorité pour se démarquer du colonialisme française et rejoindre le combat libérateur déclenché par le FLN.

Ce document revêt une importance particulière pour l'histoire de la révolution algérienne, nous révèle (un aspect méconnu et ignoré de la stratégie du)
un FLN vis-à-vis des minorités en Algérie; en même temps qu'il nous dévoile la profondeur de la philosophie humaniste du nationalisme algérien depuis 1830, et bien avant.

Bien qu'identifiée à la société coloniale et intégrée par le décret Crémieux, la communauté juive d'Algérie n'eut pas à souffrir d'actes de violence collectifs de la part des Algériens pendant les périodes de résistance armée contre l'occupant française aux 19 et 20 è siècles ; alors même que les cas de campagnes d'anti-sémitisme et de massacres de juifs orchestrés par les colons sont innombrables. Mieux encore, après le premier Novembre 1954 les troupes de l'ALN s'attaquèrent à toutes les

*Pr.d'Histoire contemporaine-Dept. d'Histoire-Université d'Oran Es-senia.

6 juin 72: 10ème session du conseil des ministres des affaires étrangères de l'OUA à Rabat.. Le Maroc est désigné pour représenter l'OUA auprès du PNUD.
12 juin 72: 9ème sommet de l'OUA à Rabat. Hassan II proclame que le conflit frontalier avec l'Algérie est réglé.
1 juillet 72: séminaire africain sur le droit de la mer à Yaoundé.
17 juillet 72: les ministres des finances maghrébins participent à la 8ème session du conseil des gouverneurs de la BAD à Alger.
8 août 72: conférence des ministres des affaires étrangères des pays non-alignés à Georgetown.
7 septembre 72: réunion au sommet des pays d'Afrique orientale à Dar Es Salam.
18 septembre 72: colloque du CAFRAD à Tanger sur le développement des ressources humaines en Afrique.
25 septembre 72: conférence régionale de la FAO à Libreville.
9 octobre 72: à Conakry une conférence des jeunes des mouvements de libération des territoires africains sous domination coloniale.
13 novembre 72: réunion du comité exécutif de la CEA à Addis Abéba qui étudie la charte de coopération inter-africaine.
29 novembre 72: création à Abidjan du fonds africain de développement alimenté par les pays industrialisés.

15 novembre 71: séminaire à Alger sur le développement intégré des statistiques agricoles pour les pays africains francophones organisé par la FAO.

19 novembre 71: réunion à Conakry de la conférence afro-asiatique qui préconise un front unique pour le prix des matières premières.

Année 1972

10 janvier 72: réunion à Addis Abéba des experts africains pour mettre au point la convention sur les mercenaires.

13 janvier 72: 9ème session du comité de libération de l'OUA à Benghazi.

28 janvier 72: réunion du conseil de sécurité à Addis Abéba.

23 février 72: foire panafricaine à Nairobi.

26 février 72: colloque sur le commerce africain organisé par l'OUA et la CEA à Nairobi.

6 mars 72: conférence des ministres africains du travail: projet de confédération syndicale africaine unifiée.

7 avril 72: réunion du comité de décolonisation à Conakry, puis Lusaka et Addis Abéba (au 28-4).

10 avril 72: à Alger réunion de l'assemblée générale du conseil supérieur du sport africain (statut, candidature d'Alger pour les jeux africains de 1978).

17 avril 72: à Rabat la deuxième conférence africaine routière.

17 avril 72: réunion du comité de décolonisation de l'OUA au Maroc: pour expliquer les positions de l'OUA sur les territoires portugais d' Afrique et les ventes d'armes à l'Afrique du Sud.

15 mai 72: réunion à Lagos du comité sous régional des banques centrales africaines consacrée à la crise monétaire internationale, à l'expérience des banques centrales en matière d'échange de documentation, d'information et des stagiaires.

15 mai 72: réunion à Kampala du comité de libération de l'OUA

31 mai 72: travaux de la banque internationale pour les projets agricoles réunis à Kinshasa.

20 avril 71: à Addis Abéba, l'Algérie et le Maroc participent à la réunion du comité de libération de l'OUA.
3 mai 71: 8ème conférence des ministres africains du commerce et de l'industrie à Addis Abéba.
20 mai 71: Consultation générale pour la conservation des ressources halieutiques et le contrôle de la pêche en Afrique.
20 mai 71: ouverture à Rabat de la conférence sur l' éducation, la formation professionnelle et les possibilités d'emploi des femmes dans les pays africains.
22 mai 71: Les mouvements de libération accrédités à Alger préparent la conférence de Genève sur l'extension du droit humanitaire aux conflits dits non-internationaux.
21 mai 71: Conférence des ministres de l'industrie à Addis Abéba.
23 mai 71: Réunion à Addis Abeba des ministres de l' économie de a CEA. Adoption de résolutions préconisant le développement de la coopération technique inter-africaine.
15 juin 71: Réunion à Addis Abéba du 17ème conseil de l'OUA au niveau des ambassadeurs en vue de la préparation de la conférence des chefs d'Etat.
21 juin 71: 8ème conférence des chefs d'état de l'OUA à Addis Abéba.
12 août 71: réunion mixte à Genève et adoption d'une résolution sur les transports maritimes demandant notamment la réouverture du Canal de Suez.
17 septembre 71: réunion à Rabat de l' association des banques centrales africaines, demandant l'association de l'Afrique aux négociations sur la réforme du système monétaire international.
29 septembre 71: réunion des ministres des affaires étrangères des pays non-alignés.
15 novembre 71: réunion du comité exécutif de la CEA consacré au problème de l'environnement.

27 avril 70: colloque du CAFRAD à Tanger sur les besoins de l'administration publique en cadres ayant une formation supérieure.
4 mai 70: ouverture de la conférence panafricaine des femmes à Lusaka sous la présidence de l' Algérie.
25 mai 70: à Tunis 3ème conférence africaine sur la nutrition et l'alimentation.
18 août 70: réunion à Addis Abéba du comité de coordination pour la libération de l'Afrique.
24 août 70: conseil des ministres des Affaires étrangères de l'OUA à Addis Abéba.
1 septembre 70: 7ème sommet de l'OUA à Addis Abéba.
8 septembre 70: réunion à Lusaka des chefs d'état des non-alignés présidée par Kaunda (Zambie).
17 septembre 70: réunion à Alger des deux comités techniques de la FAO pour l'Afrique.
8 octobre 70: réunion à Alger de la commission de la FAO pour la production horticole en Afrique du nord et au Proche Orient: réunion consacrée aux agrumes et à l'huile d'olive.
7 décembre 70: conférence régionale de l'OMM pour l Afrique à Alger.
9 décembre 70: réunion à Rabat de l'URTNA.
9 décembre 70: à Lagos session extraordinaire des ministres de l'OUA à propos de l'affaire guinéenne et réunion du conseil de défense.
26 décembre 70: conférence panafricaine de la jeunesse à Dakar.

Année 1971

8 février 71: à Tunis réunion à huis clos de la 10ème session de la CEA.
26 février 71: réunion du conseil des ministres de l'OUA à Addis Abéba.

22 octobre 69: à Addis Abéba réunion des statisticiens africains de la CEA. Création d'une association des statisticiens africains présidée par le Maroc.
27 octobre 69: à Rabat ouverture de la conférence sur les investissements industriels en Afrique organisée par la BAD, CEA et l'ONUDI.
19 novembre 69: à Kinshasa, réunion de l'association des universités africaines.
8 décembre 69: à Accra conférence régionale africaine de l'OIT: problèmes d'inspection du travail et de la coopération technique.

Année1970

29 janvier 70: à Yaoundé 6ème conférence au sommet des chefs d'état de l'OCAM.
4 février 70: journée internationale de solidarité avec la lutte du peuple angolais.
13 février 70: réunion à Alger de la commission exécutive de l'USPA.
17 février 70: réunion à Addis Abéba d 'information sur la 2ème décennie du développement organisée par la CEA. Examen d 'un projet d'agence de presse panafricaine.
23 février 70: réunion à Addis Abéba du groupe des 7 de l'OUA chargé de la réforme des structures du comité de libération.
27 février 70: à Addis Abéba réunion du conseil des ministres des affaires étrangères de l'OUA.
9 mars 70: réunion des ministres africains du travail à Lusaka.
17 mars 70: journée internationale de solidarité avec le peuple Zimbabwéen.
26 mars 70: réunion à Addis Abéba de la commission exécutive de l'Union des agences d'information africaines.
13 avril 70: conférence ministérielle préparatoire des pays non-alignés à Dar Es Salam.

17 février 69: à Addis Abéba réunion du conseil des ministres des affaires étrangères de l'OUA.

10 mars 69: réunion à Alger des ministres du travail de l'OUA: conclusion d'un accord entre l'UPSA et la CSA pour la création d'une centrale syndicale unique. Résolution condamnant Israël, la guerre au Vietnam, la Rhodésie du Sud, le Portugal et l Afrique du Sud.

18 mars 69: à Conakry une conférence de solidarité des syndicats afro-européens.

20 mars 69: à Addis Abéba conférence sur le rôle de la femme africaine.

18 avril 69: conférence du comité consultatif de l'OUA sur le Nigeria à laquelle l'Algérie assiste en tant qu'observateur.

1 juillet 69: à Rabat réunion du conseil d'administration de l'URTNA.

5 juillet 69: à Addis Abeba réunion de la commission de l'OUA pour l'éducation, science, culture et santé.

21 juillet 69: premier festival culturel panafricain à Alger.

24 juillet 69: colloque des cinéastes africains à Alger.

25 juillet 69: à Alger travaux du comité exécutif du mouvement panafricain de la jeunesse.

28 juillet 69: à Tanger réunion du comité du CAFRAD chargé de sa réorganisation.

20 août 69: à Dar Essalam réunion du comité de libération de l'OUA.

27 août 69: à Addis Abéba réunion du conseil des ministres des affaires étrangères de l'OUA.

1 septembre 69: à Casablanca réunion du comité de liaison de l'USPA et de la fédération syndicale mondiale (FSM).

2 septembre 69: à Tanger réunion de la CEA.

6 septembre 69: à Addis Abéba le 6ème sommet de l'OUA.

2 octobre 69: à Alger conférence de l URTNA sur la radio et la télévision éducative.

10 novembre 68: à Kampala 5ème conférence africaine de la FAO.
15 novembre 68: 9ème session de l'union de la radio-TV d'Afrique URTNA.
18 Novembre 68: à Nairobi conférence sur l'aide américaine à l'Afrique, organisée par l'African American Institute.
Novembre 68: à Accra séminaire régional sur l'éducation civique et politique des femmes, organisé par l ONU.
9 décembre 68: à Addis Abéba réunion des experts en statistiques de la CEA.
9 décembre 68: à Bizerte (Tunisie) premier séminaire africain sur la gestion des entreprises publiques organisé conjointement par l'Institut tunisien de productivité et de gestion des entreprises et la CEA.
12 décembre 68: à Tanger conférence des directeurs d'écoles et instituts africains d'administration publique organisé par le CAFRAD.
16 décembre 68: à Kinshasa 4ème assemblée générale de l'UAIA (union des agences d'information africaine)
23 décembre 68: à Rabat, proclamation de l'année "1969" année internationale du tourisme africain en présence du président de l'union internationale des organismes officiels du tourisme (UIOOT).

Année1969

27 janvier 69: réunion au Caire de l'USPA
3 février 69: réunion à Addis Abéba de la 9ème session de la CEA. La CEA: décide la création d'un comité exécutif chargé d'assurer la liaison avec l 'OUA.
10 février 69: à Dar Es Salam réunion du comité de libération de l'OUA.
17 février 69: à Niamey conférence des ministres de l 'éducation nationale et de la culture dont la langue officielle est le français (Algérie et Maroc en tant qu'observateurs).

Le siège est transféré de Bamako à Alger.

29 juillet 68: L'Algérie est membre du comité de sanctions de L'ONU contre la Rhodésie.

7 août 68: réunion à Accra de la 2ème conférence des gouverneurs des banques centrales africaines sous l'égide de la CEA (commission économique de l'ONU pour l'Afrique).

26 août 68: à Nairobi réunion de la 4ème conférence générale annuelle des gouverneurs de la BAD.

27 août 68: réunion à Alger du comité consultatif de l'OUA pour les questions budgétaires et financières.

2 septembre 68: à Alger 4ème session du comité préparatoire du festival culturel panafricain.

5 septembre: 11ème session du conseil des ministres de l'OUA: Bouteflika est élu président sur proposition de Bourguiba Jr.

6 septembre 68: réunion à Abidjan de la 3ème conférence régionale de l'association internationale de sécurité sociale.

13 septembre 68: conférence au sommet de l'OUA. Le chef de l'Etat algérien est élu président de la conférence, et Hassan II est élu vice-président.

16 septembre 68: à Nairobi la 18ème session du comité régional pour l'Afrique de l'OMS.

28 septembre 68: Deux représentants de l'OUA dont le commandant Slimane Hoffmann (Algérie) vont se rendre à Lagos en qualité d'observateurs, mandatés par l'OUA, GB, Canada, Pologne et Suède.

22 octobre 68: colloque à Tunis sur les "jeunes cadres et les taches de responsabilité"

25 octobre 68: réunion à Tanger de représentants de la CEA et du Bureau maghrébin de l'OIT pour examiner les problèmes de l'emploi en Afrique du Nord.

29 octobre 68: à Addis Abéba conférence africaine sur la formation du personnel.

30 octobre 68: séminaire des syndicats africains à Tunis organisé par l' UGTT.

29 février 68: ouverture à Tunis d'un séminaire africain sur la formation du personnel aéronautique et la météorologie.
25 mars 68: réunion à Addis Abéba d'une conférence sur l'industrie et les finances des états africains organisée par la CEA
2 avril 68: réunion à Accra de la 7ème conférence annuelle africaine des transporteurs aériens, avec la participation des représentants de 13 compagnies aériennes africaines.
1 mai 1968 : réunion à Addis Abeba du comité pour la planification du développement de la CEA.
20 mai 68: réunion à Tunis d'un colloque international sur le pré-apprentissage en Afrique et en Asie, organisé par le BIT et l'office tunisien de la formation professionnelle et de l'emploi.
21 mai 68: 5ème séminaire du CAFRAD à Tanger.
30 mai 68: conférence à Genève des ministres africains du travail, réunis à la demande de la conférence de l'OIT d'adopter une stratégie commune. Création d'une mission africaine d'information auprès du BIT. Une résolution algérienne portant condamnation "des atteintes aux droits de l'homme dans les territoires occupés, colonisés et soumis à la discrimination raciale"
juin 68: séminaire à Addis Abéba d'un séminaire des Nations Unies sur le recensement en Afrique.
26 juin 68: réunion à Alger du comité exécutif du mouvement panafricain de la jeunesse.
15 juillet 68: réunion du comité consultatif sur le Nigéria
16 juillet 68: réunion à Alger du comité de libération de l'OUA sous la présidence de Mr Bouteflika
16 juillet 68: conférence à Nairobi des ministres africains de l'éducation sous l'égide de l'UNESCO et de l'OUA.
22 juillet 68: réunion à Rabat de la commission africaine de tourisme.
26 juillet 68: à Alger 3ème congrès des femmes africaines sous la présidence de l' UNFA.

23 septembre 67: 17ème session du comité régional pour l'Afrique de l'OMS à Dakar. Le comité adopte un programme d'assistance pour 36 pays africains (notamment une aide accrue aux écoles de médecine).
7 octobre 67 : réunion à Alger du groupe des 77, création de deux commissions spécialisées.
10 octobre 67: réunion à Dakar de la commission consultative de l'OIT pour l'Afrique concernant la politique générale de l'emploi en Afrique, direction du travail, aide technique aux pays africains.
16 octobre 67: présentation de la déclaration africaine à la conférence générale des 77.
24 octobre 67: adoption de la charte d'Alger par la conférence des 77 qui constitue le "dénominateur commun" des besoins économiques et commerciaux des pays du Tiers Monde.
8 novembre 67: assemblée générale à Fort Lamy de l' URTNA.
4 décembre 67: réunion à Addis Abéba de la 2ème session de la conférence de planification africain dans le cadre de la CEA.
7 décembre 67: réunion à Addis Abéba de la 10ème session du comité exécutif de l'Union africaine des agences africaines de presse.

1968

9 janvier 68: ouverture des travaux de la commission spéciale de l'ONU sur la politique d' apartheid en Afrique du Sud.
15 février 68: réunion du bureau exécutif de l'UPSA (union syndicale panafricaine).
27 février 68: 13 états africains font savoir qu'ils n'ont pas voté la résolution du conseil des ministres de l'OUA sur le Moyen- Orient .Ils affirment que le retrait des troupes israéliennes doit être assorti des garanties concernant la sécurité d' Israël.

17 avril 67: réunion à Addis Abéba du comité de défense de l'OUA.
25 avril 67: le groupe afro-asiatique de l'ONU se met d'accord sur les grandes lignes d'un projet de résolution conçernant le Sud Ouest africain et son autodétermination
3 mai 67: conférence des ministres africains du Travail à Nairobi. Elle réclame des postes plus nombreux à l'OIT pour les africains.
25 mai 67: réunion à Alger du comité préparatoire de la conférence panafricaine de la jeunesse (prévue en juillet).
17 juin 67: réunion extraordinaire à Casablanca du comité exécutif de l'union syndicale panafricaine.
20 juillet 67: 2ème conférence panafricaine de la jeunesse à Alger. Alger est choisie comme siège du mouvement.
28 juillet 67: réunion à Accra des représentants des cinq organismes de l'ONU pour l'Afrique: CEA, FAO, OMS, UNICEF, OIT.
31 juillet 67: session du comité de libération de l'OUA à Kampala.
10 août 67: réunion à Alger du conseil d'administration de l'Union des radios et télévision nationales africaines.
21 août 67: réunion à Abidjan de la 3ème assemblée générale du conseil des gouverneurs de la BAD: coopération avec la BIRD et la CEA, création d'un fonds spécial africain comme instrument efficace de coopération entre les institutions internationales et les organisations régionales et nationales.
7 septembre 67: réunion du 9ème conseil des ministres des affaires étrangères de l'OUA: proposition tuniso-zambienne de modification de la charte de l'OUA (réunion des ministres une fois par an et des chefs d 'état tous les trois ans).
13 septembre 67: débat sur le Sahara espagnol devant la commission de décolonisation de l'ONU ou commission des 24 (comprenant l'Algérie et Tunisie), exposé des points de vue marocain et mauritanien.

23 janvier 67: 2ème réunion à Addis Abéba de la commission régionale du plan de communication régionale et des communications télégraphiques et téléphoniques pour l'Afrique.

28 janvier 67: réunion à Kinshasa du comité de libération de l'OUA.L'Algérie et l'Egypte refusent de participer aux travaux du comité en raison de la présence de l'ambassadeur d'Israël.

13 février 67: 8ème session de l'assemblé biennale de la CEA à Lagos: orientation économique et sociale de l'Afrique, coopération économique inter-africaine, aide internationale, institut africain pour le développement économique et la planification, rapports avec l'OUA.

27 février 67: réunion à Addis Abéba du conseil des ministres des affaires étrangères de l'OUA pour étudier la question du régime Smith en Rhodésie du Sud.

Le conseil invite la Grande Bretagne à recourir à la force contre le régime Smith, approuve la candidature de l'Algérie et du Sénégal au Conseil de Sécurité en octobre 67, lance un appel à l'Algérie et au Maroc pour régler leur différend par la voie de la négociation.

20 février 67: réunion à Yaoundé des spécialistes africains des chemins de fer.

26 mars 67: rencontre à Tunis des syndicalistes africains de l'enseignement (Algérie, Cote d' Ivoire, Niger, Haute Volta, Sénégal, Tunisie).

29 mars 67: 3ème assemblée générale de l' union des agences de l'information africaines: elle recommande le projet d' une agence panafricaine d' information au programme des activités de l'OUA.

10 avril 67: conférence des ministres des affaires sociales au Caire: elle recommande la création des centres de formation régionaux et souligne la nécessité de mettre au point une politique sociale protégeant l 'enfant et la famille en Afrique.

3 novembre 66: le conseil des ministres des affaires étrangères réorganise le comité de libération de l'OUA (étude de la question frontalière algéro- marocaine).
7 novembre 66: ouverture de la conférence des chefs d état de l'OUA (conflit Ghana-Guinée, et donne son appui à tous les efforts qui tendent à la libération immédiate et inconditionnelle de tous les territoires africains sous domination espagnole (Ifni, Sahara dit espagnol)
14 novembre 66: 4ème séminaire des pays africains au Caire pour l'enseignement professionnel.
29 novembre 66: clôture du 2ème séminaire de CAFRAD réuni à Tanger.
29 novembre 66: congres extraordinaire à Dar Es Salam de l'USPA.
5 décembre 66: conférence CEA et OUA sur le développement des ressources en cadres en Afrique.
14 décembre 66: réunion à Addis Abéba d' une conférence sur la gestion et le développement des petites et moyennes entreprises.
21 décembre 66: réunion à Tunis du comité exécutif des agences d'information africaines pour examiner les moyens propres à renforcer la coopération dans le domaine entre états africains.

Année 1967

10 janvier 67: réunion à Bamako de la commission technique de l'Union africaine des radio-TV.
18 janvier 67: Confére
nce mondiale à Addis Abéba sur le développement économique de l' Afrique.
22 janvier 67: réunion à Tanger des 7 membres de la commission ad hoc de l'OUA chargé du conflit algéro-marocain (Mali, Cote d'Ivoire, Sénégal, Ethiopie, Nigeria, Soudan, Tanzanie).

28 décembre 65: réunion à Dar es Salam des directeurs, conseillers techniques et experts en pédagogie des écoles normales africaines.

Année 1966

août 66: le comité de libération de l'OUA demande l'ouverture des pourparlers sur la cote française des Somalis (à la demande du gouvernement de Somalie).
12 septembre 66: conférence cartographique pour l'Afrique à Tunis, sous l'égide de la C.E.A.
12 septembre 66: réunion à Addis Abéba de la commission de l'OUA pour les réfugiés.
15 septembre 66: 4ème session du conseil d'Administration de l'Institut africain de développement à Dakar.
20 septembre 66: réunion à Casablanca du secrétariat de l'Union syndicale panafricaine.
22 septembre 66: réunion à Conakry du 4ème congrès de la jeunesse de la révolution démocratique africaine.
26 septembre 66: la 2ème conférence cartographique qui vient de terminer ses travaux a proposé la création d'un comité spécialisé dans le cadre de la CEA et d'un centre africain de recherche dans le même domaine.
7 octobre 66: réunion à Addis Abéba d'un séminaire sur la planification budgétaire en Afrique sous l'égide de la CEA.
18 octobre 66: réunion à Casablanca du secrétariat de l'union syndicale panafricaine.
28 octobre 66: réunion à Addis Abéba du comité de libération de l'OUA: demande l'indépendance effective que le gouvernement français propose par voie de référendum à la côte française des somalis.
31 octobre 66: réunion à Addis Abéba de la conférence des ministres de l'OUA.

7 septembre 65: réunion à Dakar du secrétariat de la conférence syndicale africaine (CSA).
11 octobre 65: réunion à Accra du comité des 9 de l'OUA.
14 octobre 65: réunion des ministres des affaires étrangères de l'OUA: problème de la Rhodésie du sud, apartheid et décolonisation, désarmement, représentation à l'ONU.
21 octobre 65: conférence au sommet des pays membres de l'OUA (8 pays ne sont pas représentés: Tchad, Dahomey, Gabon, Cote d'Ivoire, Madagascar, Niger, Togo, Haute Volta).
2 novembre 65: réunion d'une conférence sur la météorologie à Tunis. 25 pays africains présents; objet: améliorer le système de transmissions météorologiques en Afrique.
11 novembre 65: Smith déclare unilatéralement l'indépendance de Rhodésie, réunion du groupe africain de l'ONU à la demande de l'Algérie.
19 novembre 65: réunion du comité spécial de l'OUA sur la Rhodésie à Dar Es Salam, décide la convocation du conseil extraordinaire de l'OUA.
3 décembre 65: conseil extraordinaire des ministres des affaires étrangères à Addis Abéba. Les ministres adoptent une résolution prévoyant la rupture des relations diplomatiques avec la G.B (opposition de Bourguiba) mais l'Algérie rompt ses relations avec la G.B.
6 décembre 65: réunion à Addis Abéba d'experts des agences africaines d'information chargées d'étudier les aspects administratifs, techniques et financiers de la création d'une agence panafricaine de presse (PANA).
8 décembre 65: réunion extraordinaire des ministres des AE de l'OUA consacrée à l'affaire de Rhodésie.
18 décembre 65: réunion à Lagos de la commission scientifique de l'OUA: formation du personnel scientifique et technique, coopération inter-africaine en matière scientifique.

27 avril 65: 3ème conférence des ministres africains du travail au Caire.
4 mai 65: réunion à Dar es Salem d'une conférence africaine pour les échanges de programmes des radio et TV.
4 mai 65: réunion des 24 sur la décolonisation décide de tenir une réunion en Afrique le 10 mai (au comité siègent: Zambie, Tanzanie, Addis Abéba) pour examiner les problèmes concernant les territoires administrés par le Portugal : Basutoland, Bechuanaland et Swaziland, sud ouest africain et Rhodésie du sud.
30 mai 65: conférence africaine de l'Internationale des P et T: une résolution demande l'africanisation rapide de tous les cadres et des postes techniques des administrations PT en Afrique.
10 juin 65: session extraordinaire du conseil des ministres de l'OUA à Lagos: objet réconciliation entre les pays de l'OCAM et le Ghana.
10 juin 65: réunion à Alger de la conférence des compagnies aériennes africaines (demande l'exclusion des compagnies sud-africaines).
11 juin 65: 20 mouvements de libération africains reconnus par l'OUA assisteront à la conférence d'Alger à titre d'observateurs.
3 juillet 65: conférence africaine de la cartographie à Addis Abéba.
21 juillet 65: réunion à Dakar de l'union des radios et TV africaines URTNA, elle envisage la création d'un centre de télévision panafricain.
24 juillet 65: réunion à Addis Abéba d'un groupe de travail à la commission économique pour l'Afrique.
30 juillet 65: réunion du conseil d'administration de la banque africaine de développement à Abidjan:(examen du règlement financier de la BAD).

29 janvier 65: réunion à Nairobi de la Commission ad hoc sur le Congo, et création d un sous-comité (Ghana, Guinée, Nigeria) chargé se rendra à Léopoldville et Brazzaville).
3 février 65: réunion à Freetown de la 2ème session de la commission de défense de l'OUA: examine la question de la coopération entre les états membres en matière de défense.
9 février 63: 7ème session de la commission économique de l'Afrique CEA à Nairobi: création de 7 groupes de travail: ressources naturelles, commerce inter-africain, question monétaire, transports et télécommunication, agriculture, intégration régionale, main d'œuvre et formation.

La commission décide la suppression de son bureau permanent qui doit être remplacé par un conseil ministériel pour la coopération économique. Décide de se réunir tous les deux ans.
16 février 65: 8ème session de la commission chargée de trouver une solution aux conflits frontaliers algéro-marocain.: présentation des recommandations à soumettre au conseil des ministres de l'OUA.
26 février 65: 4ème session du Conseil des ministres de l'OUA: examen des conflits frontaliers.
26 février 65: réunion à Abidjan de la commission africaine de l'Association internationale des transports africains.
9 mars 65: séminaire à Abidjan sur l'industrie de la pêche dans les pays africains: examen du problème de la formation du personnel responsable des pêches.
15 avril 65: installation du premier président de la banque africaine de développement
20 avril 65: congrès constitutif de l'union générale des étudiants africains à Alger.
20 avril 65: réunion de comité exécutif de l'union des agences d'information africaine à Tunis.
26 avril 65: réunion à Dakar de la conférence des directeurs des journaux africains.

17 juillet 64: conférence au sommet de l'OUA au Caire, Addis Abéba est choisie comme siège de l'OUA; renforcement des mesures contre l'Afrique du sud, aide aux mouvements de libération.

23 octobre 64: devant la commission de l'OUA, Bouteflika rappelle les dispositions de la charte d'Addis Abéba, relatives à l'intangibilité des frontières héritées du système colonial.

30 novembre 64: ouverture à Addis Abéba de la 2ème conférence africaine de l'OIT.

11 décembre 64: décision de création d'un comité de coordination des moyens d'information.

15 décembre 64: le comité de l'union panafricaine des journalistes se réunit à Alger.

Année 1965

1 janvier 65: 6ème congrès islamique mondial à Mogadiscio. Il décide de la création d'un comité consultatif religieux pour les affaires des musulmans d'Afrique, et recommande la priorité des études religieuses à tous les degrés de l' enseignement.

1 janvier 65: le comité des neufs de l'OUA décide de reconnaître le MPLA.

14 janvier 65: première réunion au Caire du Conseil d'administration de la banque arabo-africaine.

16 janvier 65: réunion au Caire de la commission économique et sociale de l'OUA (problème de l'appartenance aux blocs extra africains et coopération entre états africains.

21 janvier 65: réunion à Alger de la commission scientifique et technique de l'OUA.

22 janvier 65: réunion à Lagos de la commission de l'éducation et de la culture de l'OUA qui décide de la création d'un comité africain des moyens d 'information.

15 novembre 63: réunion extraordinaire du conseil des ministres de l'OUA saisi par le différend algéro-marocain.
15 novembre 63: réunion de 200 journalistes africains à Accra qui décident d'une union panafricaine des journalistes.
3 décembre 63: conférence économique africaine à Addis Abéba

Année 1964

1 février 64: réunion de la conférence technique de l 'OUA
12 février 64: réunion à Dar Es Salam de la conférence extraordinaire des ministres des affaires étrangères, et de la défense pour examiner les récentes mutineries en Ouganda, Tanganyika et au Kenya, et étudier un projet de création d'une éventuelle force africaine commune.
19 février 64: 6ème session de la CEA à Addis Abéba (19-2 au 3 mars).
23 février 64: ouverture à Lagos de la conférence des ministres des affaires étrangères de l'OUA: rejet du projet d'un haut commandement africain, élaboration des projets de dés atomisation de l'Afrique, création d'une zone démilitarisée entre la somalie et l'Ethiopie et création d une sous-commission pour résoudre le conflit.
26 février 64: réunion à Alger du comité préparatoire de la conférence de l'union syndicale panafricaine (7 membres de la CSA absents).
17 mars 64 : accord pour la création de la banque africaine de développement
17 mars 64: conférence des ministres de l'éducation nationale des pays africains réunis à Abidjan sous l'égide de l UNESCO.
5 juin 64: le problème de l'unité syndicale examiné à Alger par les ambassadeurs de Tunisie, Guinée, Mali, Sénégal
10 juin 64: ouverture à Bamako du 2ème congrès de l'union syndicale panafricaine (28 pays africains) et signature de la charte de l'union syndicale panafricaine USPA).

Réunion convoquée par l'UNESCO (33 agences africaines sont représentées.

12 avril 63: la convention sur le marché commun africain est publiée au Caire

14 avril 63 : journée de l'Afrique célébrée en Tunisie

8 mai 63: tenue de la conférence préparatoire des ministres des affaires étrangères de 32 états africains et malgache

25 mai 63: 30 chefs d'état africains signent la Charte de l'OUA. Il y aussi création d'un comité de coordination pour l'aide aux mouvements africains de libération, avec siège à Dar Es Salam.

23 juin 63: réunion du comité africain pour la liquidation de l'impérialisme.

26 juin 63: ouverture par Ben Bella du congrès national africain et journée de solidarité Algéro-Sud-Africaine

1 juillet 63: le roi du Maroc se prononce sur l'unité maghrébine

6 juillet 63 les syndicats africains se prononcent contre l'apartheid et le boycott de l'Afrique du sud.

31 juillet 63: conférence africaine sur la balance des paiements (Sénégal, Soudan, côte d'ivoire, Cameroun, Ghana, Tunisie,, Ethiopie, Libye, Kenya, Rhodésie, Nyassaland, RAU, Maroc)

17 sept 63: journée de l'Afrique à Alger .Ben Bella déclare:"tous les pays d Afrique doivent prendre leurs responsabilités face aux problèmes de la liquidation du colonialisme.

19 septembre 63: le Maroc signe la charte d 'Addis Abéba (avec certaines réserves).

15 octobre 63: réunion des syndicats africains à Dakar.

24 octobre 63: 4ème assemblée générale de l'union des radiodiffusions et télévisions nationales africaines (sauf l'Afrique du sud).

30 janvier 62: la sous-commission du plan pour l'Afrique réunie à Dakar désigne Tunis comme centre d'intercommunications télégraphiques pour les liaisons africaines Est-Ouest.
22 février 62: réunion à Accra des ministres des affaires étrangères du groupe de Casablanca.
2 avril 62: les états membres du groupe de Casablanca signent une série d'accords établissant un marché commun africain et une aviation africaine.
11 avril 62: Le Maroc est vice- président de l'union panafricaine des agriculteurs qui vient d'être créée à Accra.
27 avril 62: conférence panafricaine de la jeunesse à Conakry
9 mai 62: la commission de conciliation de l'ONU pour l'affaire de Rwanda -Burundi est installée à Tanger.
10 août 62: 3ème session de la commission économique du groupe de Casablanca à Tanger: l'objet concerne les moyens d'exécution et les modalités d'application des traités portant création du Conseil de l'Unité économique africaine, du marché commun africain, de l'union africaine de paiement, de la banque africaine de développement économique, ainsi que la convention sur la coopération économique et technique
11 octobre 62: réunion des experts économiques de la charte de Casablanca à Bamako.

Année 1963

14 janvier 63: ouverture à Casablanca de la troisième session du comité des neufs (Cameroun, Ethiopie, Guinée, Liberia, Mali, Nigeria, Soudan, Tanganyika, Tunisie), en vue de la création de la banque africaine de développement.
16 février 62: 5ème session de la conférence économique africaine.
1 avril 63: réunion d'experts à Tunis pour examiner le développement des agences d'information en Afrique.

Les échanges se sont étendus aux domaines éducatifs et culturels: conférences en cartographie, météo, scientifique et technique, formation professionnelle, jeunesse, femmes, la radio et télévision ainsi que le journalisme et l'information.

Ce travail limité à un état chronologique 1962-72 sert comme point de repère pour entamer une recherche plus approfondie dans certains secteurs d'activités d'une part, et comme point de départ pour examiner l'évolution de ces institutions et leur impact sur les relations inter- Africaines d'autre part.

Les sources utilisées comprennent notamment Machrek-Maghreb , l'Annuaire de l'Afrique du Nord, et plusieurs revus Africaines et internationales, le journal officiel et quelques journaux algériens.

Année 1962

4 Janvier 62: premier anniversaire de la Charte de Casablanca: volonté d'unité africaine et création d'institutions communes.

9 Janvier 62: conférence syndicale africaine à Dakar 9-14. Elle recommande aux états africains de reconnaître le GPRA, (Algérie).

15 Janvier 62: conférence sur la coopération économique inter saharienne à Tamanrasset entre le Niger, Tchad et la France, (15-17 Janvier)

15 janvier 62: conférence de l'union des radios africaines à Tanger (15-19)

21 janvier 62: Les Etats du groupe de Casablanca expriment leur non-participation à la Conférence de Lagos

23 janvier 62: Mr Taleb' Slim, envoyé spécial de Bourguiba plaide devant la conférence de Lagos pour l'admission du GPRA

Chronologie des Rencontres Inter-africaines.

Dr.Borsali Fewzi **

Introduction:

Ce travail a pour objet de tracer l'évolution des relations inter-Africaines entre 1962 et 1972. L'effort de s'unir pour l'entraide, le progrès et le bon voisinage et paix s'est traduit par la création d'organisations africaines dans différentes régions et domaines d'activités économique, sociale, culturelle, technique, et politique.

Cette période a vécu de nombreux conflits frontaliers à la suite de remise en cause des frontières établies par les puissances coloniales ainsi que des conflits d'ordre ethnique pour lesquels l'OUA a créé des commissions de conciliation notamment pour le différend Rwanda-Burundi en 1962, Algérie-Maroc en 1963, Ethiopie-Somalie en 1964, le Congo en 1965, le Ghana et ses voisins en 1966, le Biafra en1969, la Guinée en 1970.

Parallèlement à ces efforts d'ordre politique les pays africains ont exprimé leur volonté de vouloir échanger leurs expériences dans certaines activités et créer par conséquent des institutions de coopération dans ce sens : La Banque Africaine de Développement, des conférences pour améliorer leur coopération en matière d'agriculture, pêche, économique, chemins de fer. Les conférences africaines ont abouti aussi à la création d'institutions en matière de l'organisation du travail, PTT, syndicats.

*Professeur- Département d'Anglais- d'Adrar.

impitoyable ennemi n'a-t-il pas écrit dans l'une de ses dépêches " ***qu' Abdelkader est beaucoup plus qu'un prétendant ordinaire, c'est une espèce de prophète, c'est l'espérance de tous les musulmans fervents*** ".

Abdelkader a été un grand chef militaire, un fin politique, mais surtout un grand savant mystique. Comme les grands héros de ce monde, il a rempli des missions historiques qui ont fait de lui un apôtre de l'humanisme. Son nom couronné de gloire défie orgueilleusement le temps en s'incrustant à jamais dans le panthéon de l'histoire.

Sources.

1) le livre des mawkef a été traduit par Michel schodkiviks le livre des haltes, dans " écrits spirituels" éditions du seuil paris 1982
2) Abdelkader (l'Emir)- les mawakef en 3 volumes-Damas 1966.
3) Churchill colonel- La vie d'Abdelkader- éd. Bouslama-Tunis.
4) Dugat gustave- le livre d'Abdelkader- Alger- 1971.
5) Schodkivikcs Michel- écrits spirituels- éd. du seuil- paris-1982.

resté deux jours dans cet état. Alors que je l'invoquais par des louanges, il m'a pris en dehors de moi, puis il a projeté en moi sa parole: " Il vous est venu un prophète de vous même ". Entendons par prophète le degré de purification et d'ascension mystique qui acquiert le consentement de Dieu et donne accès au statut de gens de la proximité. Signalons que pendant ces moments de saisissement extatique Abdelkader reçoit des messages qui le projettent dans l'avenir et lui éclairent la voie, comme il le précise dans le mawkef 20. ***" j'ai demandé au juste – sublime et majestueux – de me donner la lumière du dévoilement pour que je saches ce que je dois faire et ne pas faire, il m'a répondu sur le champ " tout est dans le livre et la sunna***".

On voit bien que c'est par ce pouvoir extra temporel qu'Abdelkader module ses actions et élude les erreurs. Car l'erreur, quelque soit sa nature est imputable à la raison, et c'est pour suppléer justement aux imperfections de la raison, qu'Abdelkader a recours à l'intuition mystique.

N'étant pas prophète par la révélation, Abdelkader l'est cependant par l'illumination. En empruntant la voie mystique, il trouve un moyen idéal de rapprochement prophétique. Dans l'une de ses prières rituelles citées au mawkef 18 Abdelkader implore le seigneur. " ***O mon Dieu, fais moi réaliser ce qu'ont réalisé les gens de la proximité et conduis moi par la voie du ravissement extatique*** ". C'est en multipliant les invocations de ce type et en développant ses facultés de communication mystique qu'Abdelkader reçoit le couronnement divin. Une faculté qui lui permet de s'élever au dessus des contingences matérielles et d'exercer ainsi une réelle emprise sur lui-même. C'est là, la clé de toutes les réussites d'Abdelkader. Tout le charisme et toutes les potentialités de son impressionnante personnalité résident dans l'ésotérisme de sa mystique. Même les impressions qu'il a faites sur ses adversaires s'inspirent de cette mystérieuse force spirituelle. Le maréchal Bugeaud, son

qu'Allah a gratifiés de sa miséricorde, dit-il, en se faisant connaître à eux et en leur faisant connaître la réalité essentielle de l'univers par le ravissement extatique ". C'est par ce ravissement extatique que s'inspirait Abdelkader chaque fois qu'il pressentait l'imminence d'un combat, ou envisageait une décision qui engageait l'avenir de son peuple. La prière étant son mode d'ascension par excellence. Car pour lui, la prière n'est pas un simple rituel de geste, mais une communication spirituelle au terme de laquelle se produit l'illumination théophanique qui éclaire l'esprit et le plonge dans l'épanouissement et la béatitude.

Léon Roches, qui a pendant quinze longues années côtoyé Abdelkader nous décrit l'une de ses prières. "***Il était debout à trois pas de moi , il me croyait endormi. Ses deux bras dressés à la hauteur de sa tête, relevaient de chaque coté son burnous et son haïk d'un blanc laiteux qui retombaient en plis superbes. Ses beaux yeux bleus, bordés de cils noirs étaient relevés, ses lèvres légèrement entrouvertes semblaient encore réciter une prière, et pourtant elles étaient immobiles, il était arrivé à un stade extatique; ses aspirations vers le ciel étaient telles qu'il semblait ne plus toucher à terre***." Dans un autre paragraphe le même auteur ajoute " ***admis quelque fois à l'honneur de coucher dans la tente d'Abdelkader, je l'avais vu en prière et j'avais été frappé par ses élans mystiques, mais cette nuit, il me représentait l'image la plus saisissante de la foi. C'est ainsi que devraient prier les grands saints du christianisme*** ".

Pour anticiper l'avenir, et prévenir toute éventualité susceptible de nuire à ses projets. Abdelkader se ressource dans les prières en plongeant dans ses élans mystiques jusqu'au dévoilement qui lui révèle la voie à suivre. Dans le mawkef 18 Abdelkader nous révèle l'origine de cette mystérieuse inspiration lorsqu'il dit. " ***Il m'est arrivé d'espérer, dit-il, si Dieu pouvait me dévoiler le monde des idées pures. Je suis***

militaires. Maniant avec dextérité l'épée et le fusil, il disperse avec art les rangs des soldats voltigeurs, se fraye un chemin et disparaît dans les plaines.

Devant cette action mémorable, le général Français n'a pu s'empêcher d'exprimer son admiration en tenant à préciser que pareille prouesse mérite d'être décorée par l'empereur en personne.

D'autres hauts faits d'armes et de bravoure, comme bien d'autres actions grandes et nobles invitent à réfléchir sur la personnalité d'Abdelkader. Qui est-il en fait ? Et d'où puise t-il cette force et cette énergie ? Qu'elle est cette extraordinaire faculté qui lui permet de réussir avec habileté toutes les actions qu'il entreprenait ?

Des facultés d'origine mystique

Vu sous l'angle de la réalité physique, la personnalité d'Abdelkader reste une parfaite énigme. Sous l'apparence humble du personnage réel se cachent des forces surnaturelles. Car comment expliquer des exploits aussi fulgurants et dans des domaines aussi variés que la stratégie militaire, la compétence politique, la finesse diplomatique, la sagesse philosophique et enfin des dons éminemment artistiques? La personnalité d'Abdelkader comporte certainement une dimension métaphysique. Elle ne s'explique pas, elle se comprend. Pour se faire, un effort de l'esprit est nécessaire pour s'élever au dessus des contingences matérielles et aborder ainsi l'essence de sa vie spirituelle. Le mystère de l'extraordinaire carrière d'Abdelkader réside justement dans les profondeurs mystiques de sa personnalité authentique. Chaque don éprouvé sur le terrain de la vie pratique émane certainement d'une inspiration mystique. Dans son monumental ouvrage des mawakif [1] Abdelkader nous révèle comment par le ravissement extatique se révèle à lui la connaissance du monde et des choses. " ***Je suis de ceux***

personnalité hautement spirituelle.

Par sa hauteur d'esprit, Abdelkader dépassait sa génération de plusieurs décennies. Il faut le dire, l'Emir Abdelkader n'est pas une personnalité ordinaire, c'est un phénomène de l'histoire.

Un homme au destin exceptionnel

L'étrange parcours de sa fulgurante carrière nous renseigne en effet, sur l'extraordinaire destinée d'un homme écartelé entre la volonté d'une carrière religieuse, entièrement consacrée à l'étude et la méditation. et la fatalité d'une vie trépidante parsemée de drames et de bouleversements.

Entre ces deux choix antinomiques, Abdelkader aurait opté sans hésiter pour la méditation. Cependant, le sort en a décidé autrement. Hissé très tôt à la conduite des affaires publiques, et qui plus est, dans une conjoncture politique et sociale désastreuse. Ce jeune homme de vingt cinq ans, dut accepter, à son corps défendant, de diriger des tribus disparates et farouchement indisciplinées, pour faire face à un ennemi aguerri et terriblement puissant. Une tache ardue en somme, que seul un homme de sa stature pouvait accomplir pleinement.

Sorti du terroir de l'Algérie profonde. sans instruction militaire et sans autre expérience que la foi en Dieu, ce jeune homme plein de noblesse et de piété se vit soudain projeter sur le champ de bataille où la férocité la dispute à la violence barbare. Une entreprise qui ne correspondait nullement à sa vocation d'homme sage et studieux, mais qu'il assuma cependant avec beaucoup de réalisme et de talent. Dès qu'il s'est mis en campagne, Abdelkader fait des prodiges. En véritable maître du terrain, il montre des qualités militaires hors pair. Même ses ennemis les plus acharnés reconnaissent en lui un adversaire redoutable. Le général Youssouf qui l'attaque un jour par surprise fut stupéfait devant ses exploits

L'Emir Abdelkader ou la dimension mystique d'une personnalité historique.

Dr. Mellah Ahmed **

Parmi tous les grands héros qui alimentent l'imaginaire de notre peuple, existe un homme que l'histoire agitée de notre pays ne finira jamais de connaître. Un homme au tempérament humble que le destin, par un fabuleux hasard, a parfaitement choisi pour incarner, au plus pire moment de notre histoire, l'héroïsme d'un peuple et la conscience mûrie d'une nation. Cet homme, au charisme exceptionnel, n'est autre que le symbole de la résistance Algérienne, le vaillant émir Abdelkader.

Un homme aux dimensions surhumaines et dont la carrière, pleine de hauts faits d'armes et de bravoure est une épopée digne des grand héros de légende. Un tel personnage, dont le nom auréolé de prestige, mérite bien plus qu'un hommage de circonstance. Il mérite les honneurs et la vénération. Je voudrai ici, lui rendre un vibrant hommage. Non pas seulement pour les grands exploits de sa vie temporelle, mais surtout pour la formidable énergie de sa vie spirituelle. Personnalité digne, à la noblesse chevaleresque, dont l'Algérien d'aujourd'hui a toutes les raisons d'être fier. Brave, juste, intelligent et infailliblement respectueux de la parole donnée. La France ne s'est-elle pas faite toute petite devant lui en manquant honteusement à sa parole ? Le tort d'Abdelkader est qu'il n'a jamais été compris. De part et d'autre, du mal lui a été fait. L'esprit Français de l'époque empêtré dans un matérialisme envahissant ne pouvait comprendre sa

*** Enseignant -Faculté des sciences sociales, université d'Oran**

Sommaire

ARTICLES

LES CONDITIONS DE PUBLICATION :

La revue *oùssour* accepte pour publication tous les travaux et études répondant aux critères académiques suivants :

1- L'article doit être original et inédit.

2- L'auteur de l'article doit respecter les critères scientifiques et méthodologiques en vigueur, notamment les notes bibliographiques dont la liste doit être jointe à la fin de l'article .

3- Les articles doivent être présentés sur disquette en plus d'un exemplaire imprimé.

4- L'article (entre 10 et 15 pages) doit être écrit utilisant la police 'Times new Roman' - caractère 16 et espacement 1,5.

Pour Les notes bibliographiques, il est préférable d'utiliser le caractère 12 avec espacement simple.

5- Tous les travaux sont soumis au comité de lecture de la revue pour évaluation avant leur publication.

6- Les articles ne seront pas restitués à leurs auteurs qu'ils soient publiés ou non.

Les articles publiés ne reflètent que l'opinion de leurs auteurs, et n'engagent en aucun cas la responsabilité de la revue *oùssour*

ADRESSE POUR CORRESPONDANCE :

Prof. Boualem BELKACEMI

Laboratoire ' SOURCES ET BIOGRAPHIES'

Département d'histoire et d'archéologie

Université d'Oran. ALGERIE

Tel : 213 – (0)41- 353306

Fax : 213 – (0)41-419184

E-mail: oussour2002 @ yahoo.fr

Revue Scientifique Publiée par
le Laboratoire de Recherche en Histoire
Sources et Biographies
Université D'Oran.



N° 4-5/Décembre 2003- Juin 2004

ISSN 1112-4237 ردمد

Depot legal 868-2003 : الإيداع القانوني

N°4-5

OÙSSOUR

Revue scientifique publiée par le laboratoire de recherche en histoire

SOURCES ET BIOGRAPHIES

UNIVERSITÉ D'ORAN

Troisième année-N°4-5 Déc.2003- Juin.2004/ 1424/25

ISSN 1112-4237 ردمد